



وزارة التعليم

جامعة القصيم

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

قسم التاريخ

رعاية الفئات المحتاجة وآثارها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي (٦٥٨ ـ ٩٢٢هـ /١٢٦٠ ـ ١٥١٦م)

(دراسة تاريخية حضارية)

The Welfare Effects on the Needy Classes in the Levant during the Mamluk Era (658 – 922AH/ 1260 – 1516 AD)

(Study Historical Cultural)

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على دكتوراة الفلسفة في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة

شريفة بنت محمد العتيبي

الرقم الجامعي (٣٣١٢١٧٦٤٢)

إشراف

الدكتور/ بكري عمر رحمه

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

١٤٣٩/هـ/٢٠١٧م



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
قسم التاريخ



رعاية الفئات المحتاجة وآثارها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠ - ١٥١٧م)

(دراسة تاريخية)

إعداد الطالبة
شريفة بنت محمد العتيبي

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة

أعضاء اللجنة	الاسم	المرتبة العلمية	التخصص	التوقيع
المشرف والمقرر	د. بكري عمر رحمه	أستاذ مشارك	تاريخ إسلامي	
المناقش الداخلي	أ.د. عبد العزيز بن راشد السنيدي	أستاذ	تاريخ إسلامي	
المناقش الخارجي	أ.د. لمياء بنت أحمد شافعي	أستاذ	تاريخ إسلامي	

نوقشت وأجيزت في ١٤٣٩/١/٢٩هـ الموافق ٢٠١٧/١٠/١٩م

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر وتقدير	٥ ــ ٦
ملخص الرسالة باللغة العربية	٧ ــ ٩
المقدمة	١٠ ــ ٢٤
التمهيد	٢٥ ــ ٤٧
أولاً: المقصود برعاية الفئات المحتاجة	٢٦
ثانياً: الوضع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام خلال العصر المملوكي	٢٨
الفصل الأول: موارد ونفقات رعاية الفئات المحتاجة	٤٨ ــ ١٠٦
المبحث الأول: موارد الدولة الإلزامية	٤٩
المبحث الثاني: نفقات الدولة التطوعية	٨٣
المبحث الثالث: نفقات فئات المجتمع الإلزامية والتطوعية	٩٦
الفصل الثاني: الرعاية الدائمة للفئات المحتاجة	١٠٧ ــ ٢٣٩
المبحث الأول: رعاية الأيتام	١٠٨
المبحث الثاني: رعاية الفقراء والمساكين	١٣٩
المبحث الثالث: رعاية العلماء وطلاب العلم المحتاجون	١٦٥
المبحث الرابع: رعاية الرقيق والخدم	١٩٤
المبحث الخامس: رعاية المطلقات والأرامل	٢١٥
المبحث السادس: رعاية المرضى وذوي الاحتياجات	٣٠٧
الفصل الثالث: رعاية الفئات المحتاجة وقت الأزمات والمواسم	٢٤٠ ــ ٣٠٩
المبحث الأول: رعاية عابري السبيل والمنقطعون	٢٤١
المبحث الثاني: رعاية الفقراء من الحجاج	٢٥٨
المبحث الثالث: رعاية المساجين والأسرى	٢٦٨

المبحث الرابع: رعاية المصابون من الكوارث الطبيعية	**٢٨٢**
المبحث الخامس: رعاية المتأثرون بالأزمات الاقتصادية	**٢٩٤**
المبحث السادس: رعاية الموتى	**٣٠٧**
الفصل الرابع: الآثار المترتبة على رعاية الفئات المحتاجة	**٣١٠ ــ ٣٦٧**
المبحث الأول: الآثار الاجتماعية	**٣١١**
المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية	**٣٢٣**
المبحث الثالث: الآثار الأمنية	**٣٣٨**
المبحث الرابع: الآثار الدينية والعلمية	**٣٥٣**
الخاتمة	**٣٦٨ ــ ٣٧١**
الملاحق	**٣٧٢ ــ ٤٠٩**
قائمة المصادر والمراجع	**٤١٠ ــ ٤٤٧**
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية	**٤٤٨**

شكـــر وتقديـــر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

الحمد لله الذي أعان وهدى، وقوّى العزم وقوّمه، وسدّد الخطى،وصدّق النية على إكمال هذا البحث وإخراجه إلى حيّز الوجود؛ فله الحمد حمدًا كثيرًا كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

فأبتدئ بشكر من تعجز كلماتي عن شكرها، وإيفاء حقّها،نبع الحنان ودفء الجَنان والدتي الحبيبة، حفظها الله،وأطال الله بعمرها وأمدّها بالصحة والعافية.

كما أشكر زوجي العزيز، الذي شجّعني، وساندني، وكان لي بعد الله خيرَ مُعين. والشكر موصول لأخواتي، قرة عينيّ، ممتنّةً لهنّ عزيزاتي مساندتهن لي طيلة تلك السنوات، وما تحملنه معي من عناء البحث، والوقوف إلى جانبي طيلة فترة الدراسة.

ثم لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدّم بخالص شكري وامتناني إلى أستاذي الفاضل المشرف على الرسالة، سعادة **الدكتور/بكري عمر رحمه**، لما أبداه من حسن رعاية ورحابة صدر، وما قدّمه لي من توجيهات مفيدة طيلة فترة الدراسة، فقد كان لملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة وأخلاقه الطيبة الأثرُ الكبيرُ؛ فله مني عظيم الشكر، وجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى سعادة **الأستاذ الدكتور/عبدالعزيز بن راشد السنيدي**، أستاذ التاريخ بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية بجامعة القصيم، اعترافًا بفضله، وامتنانًا لسعادته؛ فهو الذي أنار لي طريقي، وأخذ بيدي، فكان له الفضل الأول بعد الله في اختيار الموضوع، فلم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه، وبإمدادي بمصادر ورسائل علمية أفدتُّ منها في البحث.

كما لا يفوتني أن أتوجّه بالشكر إلى جامعة القصيم، ممثلة بكلية اللغة العربية

والدراسات الاجتماعية، وقسم التاريخ الذي أتاح لي فرصة الدراسة فيه، ولا يفوتني أن أتقدم بوافر شكري لرئيس القسم الأسبق الأستاذ الدكتور/ علي بن صالح المحيميد، والرئيس الحالي الدكتور/ علي بن محمد النغيمشي لجهودهما المتواصلة ورعايتهما الحانية لطلاب الدراسات العليا.

كما أتوجّه بجزيل الشكر لجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن التي هيّأت لي فرصة الابتعاث، وذلّلت لي العقبات؛ لأصل إلى ما وصلت إليه.

ولضيق المقام والمجال، فإنني أشكر كلّ من قدّم لي عونًا، قليلًا كان أو كثيرًا، في إخراج هذه الأطروحة إلى النور، راجية من المولى عزّ وجلّ أن يجزيه عني خير الجزاء، ويثيبه بأفضل الثواب، إنه الكريم الوهّاب.

الباحثة

شريفة بنت محمد العتيبي

ملخص الرسالة

رعاية الفئات المحتاجة وآثارها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي (٦٥٨ ــ ٩٢٢هـ/١٢٦٠ ــ ١٥١٦م)

الباحثة/شريفة بنت محمد العتيبي

عنيت الدراسة بتسليط الضوء على الواقع الذي كانت تعيشه الفئات المحتاجة في مجتمع الشام في ظل حكم دولة المماليك، ومدى الرعاية والاهتمام اللذين وجدهما تلك الشريحة.

وبمنهجية تاريخية استقرائية اتّضح من خلال المصادر التاريخية أن العصر المملوكي شهد اهتمامًا واضحًا برعاية الفئات المحتاجة اجتماعيًّا وعلميًّا وصحيًّا وأمنيًّا، ومن أبرزها فئات: الأيتام، والفقراء والمساكين، والأرامل والمطلقات، والمرضى، والمحتاجين من طلاب العلم؛ كما أدركت يد العناية المحتاجين من أبناء السبيل، والمساجين، إضافة إلى رعاية المتضرّرين من الكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة والمتعرضين للأزمات الاقتصادية، والتي كان لها آثارٌ بالغةٌ في الحياة الاجتماعية بشكل واضح، ولاسيما انتشار الفقر والجوع بين الناس.

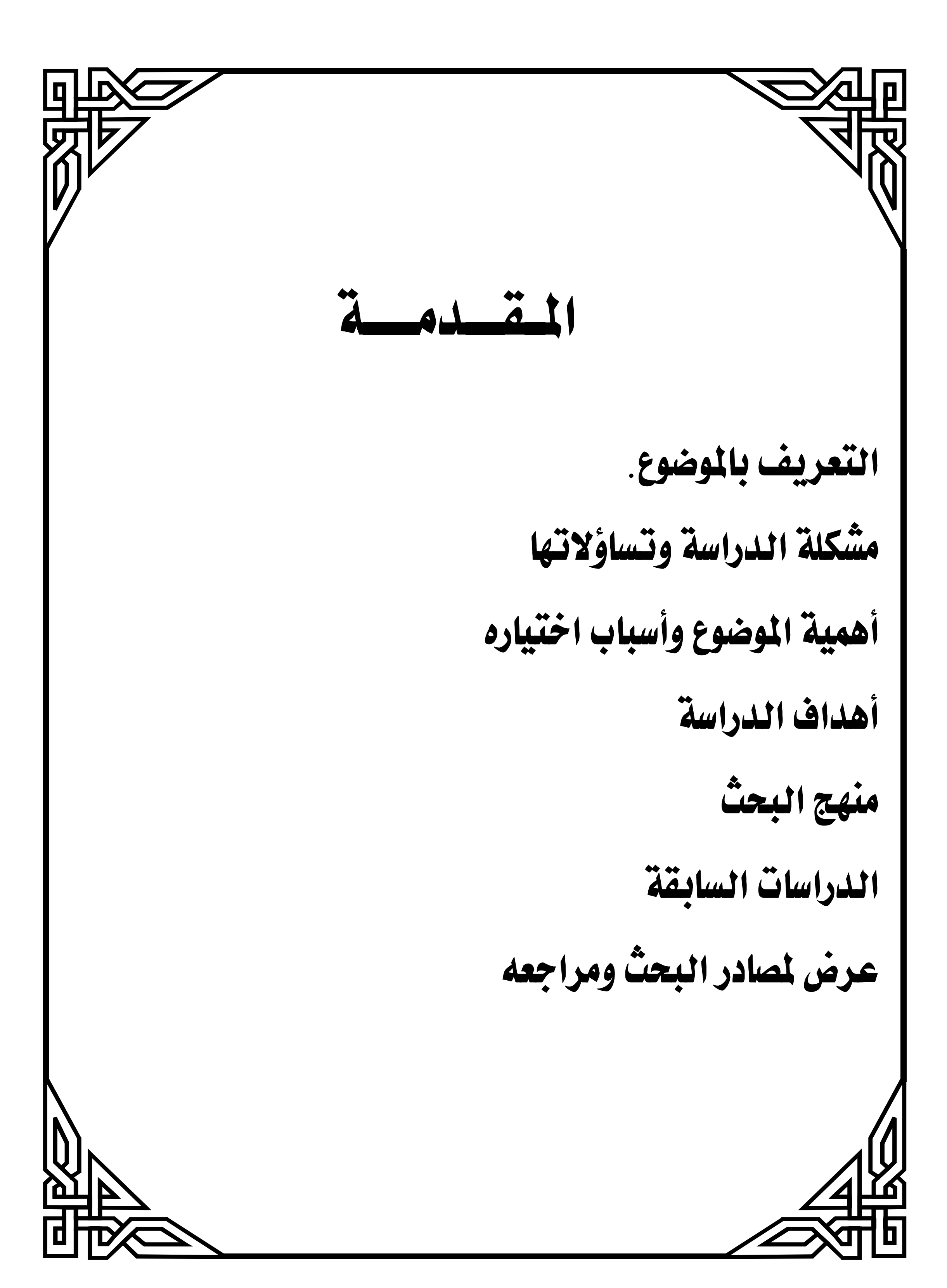
وألقت الضوء على عظم مسؤولية الدولة المملوكية في رعاية الفئات المحتاجة، فهي المسؤولة أولًا وأخيرًا عن توفير ما تحتاج إليه من احتياجات مادية ومعنوية؛ لذلك حرصت الدولة على توفير موارد لبيت المال من: الزكاة، والخراج، والجوالي، والمواريث الحشرية، والأوقاف؛ لتوجيه أموالها لخدمة المجتمع وفئاته.

وأوضحت كذلك، ما تميّز به المجتمع الشامي من تراحم وترابط بين أفراده، وحرص على البذل والعطاء، واحتوائه لكثير من الفقراء والمحتاجين، بعدة صور، كالصدقات التطوعية، النقدية، والعينية، أو في صورة تقديم منافع. وقد وُثّق ذلك بالوثائق الوقفية التي رصدت في العصر المملوكي.

ثم سلطت الدراسة الضوء على نتائج رعاية الفئات المحتاجة اجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وأمنيًّا، وعلميًّا، ودينيًّا؛ وهو ما كان له أكبر الأثر في تحسين المستوى المعيشي لأفراد

المجتمع عامة، والفئات المحتاجة خاصة؛ مما ساعد على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع، بتحقيق نوع من العدالة بين أفراده.

وأبرزت دور نظام الوقف في تمكين الفقراء من الحصول على حقهم في التعليم والعلاج والمتطلبات الأساسية في الحياة، فوثائق الأوقاف تنصّ في غالبها على مساعدة الفقراء والمحتاجين، وقلَّما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من ريع الأوقاف لتلك الفئات المحتاجة.



المقـــدمـــة

التعريف بالموضوع.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها

أهمية الموضوع وأسباب اختياره

أهداف الدراسة

منهج البحث

الدراسات السابقة

عرض لمصادر البحث ومراجعه

مقـــدمـــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد.

التعريف بالموضوع:

فإن من فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم، أن شرع لهم من الدين ما يقربهم إليه، ويوصلهم إلى مرضاته سبحانه وتعالى، ويكون سبباً في الفوز بالجنة والنجاة من النار. وتحقيقاً لذلك فقد حثَّ رب العزة جل وعلا عباده على الإنفاق والبذل في سبيل الله. فمن أعظم العبادات الإحسان إلى الناس، والإنفاق في وجوه الخير والبر، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .البقرة: ٢٦١.

فالأخوة الإسلامية تستلزم التعاطف والتكافل بين أفراد المجتمع، والتعاون في تجاوز المحن التي يمر بها البعض، فيساند أرباب الأموال إخوانهم الفقراء، حتى يتجاوزوا الأزمات والمحن. ولا يخلو أي مجتمع من فئة معدمة، جعلها الله سبحانه وتعالى - مقسم الأرزاق - تقتات على ما تحت يد غيرها. ويمثل هذه الشريحة فئات عديدة، كالفقراء والمساكين، والأيتام والأرامل، أو المرضى والعجزة. وتُعدُّ رعاية هذه الفئات تجسيدًا حيًّا لقيم التكافل الاجتماعي التي حثّ عليها الإسلام.

وقد ابتليت بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالغزو الصليبي، ثم أعقبه الغزو المغولي خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فقيّض الله سبحانه وتعالى للأُمَّة منْ يقف في وجه هؤلاء الغزاة، ممثلاً في دولة المماليك التي قامت في مصر لتخلف الدولة الأيوبية، ثم امتدت إلى بلاد الشام، لتتصدى للوجود الصليبي فتضعفه، وتقاوم من جهة أُخرى الغزو المغولي وتصده بعد أن أنزلت به هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، لتصبح بلاد الشام جزءًا منها حتى عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م.

ونتيجة لما تعرضت له الشام من ويلات الحروب الصليبية والمغولية، إضافة إلى ما مرَّ بها من كوارث طبيعية، كالزلازل والسيول والفيضانات، وتفشِّي الأوبئة والأمراض، أفرزت هذه الظروف كثيرًا من الفئات المحتاجة إلى توفير سبل العيش الكريم.

فحرص المماليك في تلك الحقبة الزمنية على استقرار الأوضاع في بلاد الشام، وأظهروا أنفسهم حماة للمسلمين، وزعماء للجهاد ضد الصليبيين، حتى تمكنوا خلال عدة عقود من طرد الصليبيين من عكا آخر معقل لهم في فلسطين والشام.

وقد شكلت فترة الاستقرار التي مرت بالدولة المملوكية، من سلام وأمن ورخاء اقتصادي، دافعًا قويًّا لدعم جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام، فأصبحت تلك البلاد في عصرهم محل إعجاب الرحالة الذين أشادوا بمدى ارتفاع المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي عاشته الشام.

ومن جانب آخر يمكن القول إن رغبة المماليك في التقرُّب إلى الشعب كانت من الدوافع المهمة لدعم النواحي الدينية والتعليمية والاجتماعية ، لذلك حرصوا على التقرب إلى الشعب بطبقاته كافة فأوجدت المساجد لأهل الدين، والمدارس لطالبي العلم والتعليم، والأربطة والزوايا للفقراء والمحتاجين والزهاد، والخانقاوات للصوفية المتعبدين، ونتج عن ذلك أوقاف ضخمة يديرها الفقهاء والعلماء، وشكَّلت منظومة اقتصادية لدعم المجتمع المملوكي، وقامت بعبء إغاثة جماهير عريضة من الفقراء والمعوزين. كما حرص المماليك على تنويع مصادر الوقف حتى يبقى رافدًا قويًّا يعزز استمرار قيام المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية برسالتها؛ لذلك حرصوا على الإكثار من وقف الحوانيت والمزارع والطواحين والخانات والأموال والضياع وغيرها تقربًا لله، وحذا حذوهم نساؤهم والأمراء والأعيان والتجار وغيرهم.

وانطلاقًا مما سبق ذكره من العناية والرعاية التي وجدتها بلاد الشام في ظل المماليك، كان اهتمامهم بمجتمعها بفئاته كلها، فأولوا الفئات المحتاجة رعاية خاصة. ومن خلال استقراء المصادر المملوكية فإن العصر المملوكي شهد اهتمامًا واضحًا برعاية الفئات المحتاجة اجتماعيًّا وعلميًّا وصحيًّا وأمنيًّا، ومن أبرزها فئات: الأيتام، والفقراء والمساكين

والأرامل والمطلقات، والمرضى، والمحتاجين من طلاب العلم، التي حظيت بعناية فائقة من جانب السلاطين والأُمراء والقضاة والفقهاء، وغيرهم من عامة المسلمين، فقلَّما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من ريع الأوقاف لتلك الفئات.

و لم تتخلف الدولة وأفرادها من الوقوف مع الفئات التي أصابتها الجوائح في فترة من الفترات، كأبناء السبيل والمساجين، إضافة إلى رعاية المتضررين من الكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة والمتعرضين للأزمات الاقتصادية، والتي كان لها آثارٌ بالغة في الحياة الاجتماعية بشكل واضح، ولاسيما انتشار الفقر والجوع بين الناس .

وقد اطلعت الباحثة على عدد من مصادر التاريخ المملوكي، ووقفت على الجهود التي بذلها السلاطين والحكام وأغنياء المسلمين للاهتمام بهذه الفئة من المجتمع الإسلامي، فاختارت أن تسلط الضوء على هذا الجانب الاجتماعي المهم الذي لم يحظ بدراسة وافية تبرز رسالة الإسلام في ترسيخ أواصر الأخوة واختارت عنوانًا لذلك ما يلي :**(رعاية الفئات المحتاجة وآثارها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي) (٦٥٨-٩٢٢هـ/ ١٢٦٠-١٥١٦م)**

خاصة أن هذا الموضوع لم يحظَ بدراسة عميقة وشاملة من قبل، بل تناوله بعض الباحثين بإجمال دون الغوص في دقائقه وتتبُّع أبعاده. لذا فقد أَوْلَتْهُ كثيرًا من القراءة والاطلاع، سائلة الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد في الإحاطة بأبرز جوانبه، وأن تكون هذه الدراسة إضافة جديدة للمكتبة التاريخية.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها :

يتكوَّن المجتمع الشامي في العصر المملوكي من طبقات عديدة وفئات مختلفة، شكلت فيما بينها نسيجاً متجانساً، على الرغم من الفوارق الحادثة بينها، فكان منها فئات خاصة، تحتاج من يأخذ بيدها ويرعاها، وأفراد هذه الفئة ليسوا بالقلة التي يمكن تجاهلها، كما أنها تحتاج إلى جهد مضاعف لرعايتها.كما أن الدراسات التاريخية في العصر المملوكي اقتصرت في الغالب على المنشآت الاجتماعية دون التركيز على الجانب الإنساني، أو التقصي في أحوال منْ يعيشون في تلك المؤسسات ويستفيدون من خدماتها؛

لذلك عنيت الدراسة بتسليط الضوء على الواقع الذي تعيشه الفئات المحتاجة في مجتمع الشام ومدى الرعاية التي وجدها تلك الشريحة من المجتمع في ظل حُكم المماليك. وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات التالية:

١/ ما المقصود بالفئات المحتاجة؟ وإلى أيِّ مدى كانت مسؤولية الدولة وقُدرتها على رعاية الفئات المحتاجة؟ وهل كان ذلك قاصراً عليها دون غيرها من فئات المجتمع ومؤسساته ؟

٢/ ما الفئات المحتاجة التي تلقَّت الرعاية في مجتمع بلاد الشام، وما نوع الرعاية الموجهة لتلك الفئات؟

٣/ ما الحلول التي اتخذها الدولة المملوكية لمواجهة الكوارث البيئية والأزمات الطبيعية في بلاد الشام؟ وما أثر ذلك على الفئات المحتاجة ؟

٤/ ما شكل الدعم الذي قدمته شرائح المجتمع كافة للفئات المحتاجة؟

٥/ ما الآثار الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والعلمية المترتبة على رعاية الفئات المحتاجة؟

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تبرز أهمية الموضوع والأسباب التي دفعت الباحثة إلى اختياره في عدة نقاط نجملها فيما يأتي:

١/ تُعَدُّ دراسة التاريخ الاجتماعي من الدراسات القليلة، بل النادرة؛ لأنها من الموضوعات المجهدة للباحث في جمع المادة العلمية المتناثرة بين طيات الكتب، ولاقتصار الحوليات على لمحات اجتماعية لا تشبع فضول الباحث والقارئ، وهو ما دعا الباحثة وشجّعها على القيام بهذه الدراسة حول موضوع "رعاية الفئات المحتاجة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي"، الذي يعد من الموضوعات الاجتماعية والإنسانية بالدرجة الأولى.

٢/ يؤمل من هذه الدراسة أن تجلي التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع الشامي في العصر المملوكي، من منطلق الشعور الديني والإنساني، تحقيقًا للأهداف الإسلامية في عمل الخير والاهتمام بذوي الحاجة من المسلمين، فيدفعهم ذلك إلى التسابق إلى فعل الخير.

٣/ تناولت بعض الدراسات الحديثة مراكز الرعاية الاجتماعية والأوقاف في العصر المملوكي، لكن لا توجد دراسة ـــ حسب علم الباحثة ـــ دراسة قائمة بذاتها تُقدم شرحًا ضافيًا لأوضاع هذه الفئات، وتعكس الجانب المشرق للحضارة الإسلامية، ومدى استيعاب المماليك لقضايا الأمة الإسلامية بكل قطاعاتها، كما أن الباحثة لم تطّلع على أيِّ دراسة تسلط الضوء على الإشكاليات التي أقامت عليها دراستها.

٤/ تتجلى الأهمية التاريخية للموضوع في تسليطه الضوء على القوانين والأنظمة والإجراءات التي اتبعتها الدولة المملوكية في رعاية الفئات المحتاجة والعناية بها، بما يظهر عظمة دول الإسلام وسبقها وريادتها في الحضارة الإنسانية.

أهداف الدراسة:

تتلخص أهداف الدراسة فيما يلي :

١/ إبراز دور الدولة المملوكية وطبقات المجتمع في الاهتمام بالفئات المحتاجة.

٢/ التعرف إلى الفئات المحتاجة التي وجدت الرعاية في ظل الدولة المملوكية.

٣/ إلقاء الضوء على الدعم المادي الذي قدمته شرائح المجتمع كافة، ابتداءً بطبقة السلاطين والملوك، وانتهاء بطبقة العامة في مدن الشام كافة للفئات المحتاجة.

٤/ إبراز الأثر الذي تركه اهتمام قطاعات الدولة المختلفة وأفراد شعبها بالفئات المحتاجة.

٥/ إلقاء الضوء على المؤسسات والمنشآت الدينية والتعليمية والاجتماعية التي اهتمت برعاية الفئات المحتاجة.

٦/ التعرف إلى دور الدولة المملوكية في احتواء الأزمات والكوارث الطبيعية التي لحقت ببلاد الشام، وأفرزت مجموعات تعاني الفقر والجوع.

منهج البحث:

أما المنهج الذي اتبعته الباحثة في دراسة هذا الموضوع: فهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي قام على جمع المادة العلمية من مظانها المختلفة، ثم تصنيفها إلى

موضوعات متجانسة، ودراستها وتحليلها ونقدها بموضوعية وحياد، وبعد ذلك صياغة المادة العلمية بأسلوب علمي دقيق، مع مراعاة قواعد اللغة العربية، والترابط بين المعلومات، والتسلسل في أحداثها، والوضوح في حقائقها، من أجل الوصول إلى النتائج الصحيحة التي تهدف إليها الدراسة وفق المخطط الموضوع لها.

واقتضت طبيعة البحث ودراسته، وبما توافر من مادة علمية، أن يقسم إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، فضلاً عن الملاحق وقائمة المصادر والمراجع.

فالتمهيد عُني بإبراز محورين: الأول: المقصود بالفئات المحتاجة، بينما جاء المحور الثاني مركزاً على الوضع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام خلال العصر المملوكي.

أما الفصل الأول فقد تناول موارد رعاية الفئات المحتاجة في ثلاثة مباحث.تحدث المبحث الأول عن الموارد الحكومية الإلزامية، والمبحث الثاني عن النفقات الحكومية التطوعية، أما المبحث الثالث فتناول نفقات فئات المجتمع الإلزامية والتطوعية.

ثم جاء الفصل الثاني بعنوان: الرعاية الدائمة للفئات المحتاجة، وقد اشتمل على ستة مباحث: تناولت الفئات المحتاجة: الفقراء والمساكين، والأيتام، والعلماء وطلاب العلم المحتاجين، والعبيد والخدم، والأرامل والمطلقات، والمرضى ذوي الاحتياجات الخاصة.

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان: رعاية الفئات المحتاجة وقت الأزمات والمواسم.وقد اشتمل على خمسة مباحث تناولت الفئات التالية: رعاية المنقطعين وأبناء السبيل، والمحتاجون من الحجاج، والمساجين والأسرى، والمصابون من الكوارث الطبيعية، والمتأثرون بالأزمات الاقتصادية، ورعاية الأموات.

وتناول الفصل الرابع الآثار المترتبة على رعاية الفئات المحتاجة، والتي ضمت الآثار الاجتماعية والآثار الاقتصادية والآثار الأمنية والآثار الدينية والعلمية.

ثم ختمت الدراسة بأهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، ثم أتبعت ذلك بالملاحق التي تضمنت عددًا من الجداول، بالإضافة إلى نصوص من الوثائق والصور التي تخدم الرسالة. وختمت الرسالة بقائمة المصادر والمراجع المختلفة التي اعتمدت عليها الباحثة.

وفي الختام لا أنكر أنني قد واجهت بعض الصعاب في سبيل تتميم هذه الأطروحة، ولكنني ــ بحمد الله وتوفيقه ــ قد ذلّلت أكثرها؛ فالشكر لله عزَّ وجل الذي يسر لي إتمامها وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وصلِّ اللهم وسلمْ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الدراسات السابقة:

من خلال الاطلاع على قواعد المعلومات عن الرسائل الجامعية والبحوث العلمية في المراكز البحثية وكذلك مراسلة الجامعات، وسؤال ذوي الاختصاص فإن الباحثة لم تجدْ دراسةً علميةً مستقلةً مستفيضةً تغطي البحث بمختلف أهدافه وجوانبه.

وهنا أهم تلك الدراسات ذات الصلة بالموضوع بشكل أو بآخر التي استطاعت الباحثة الرجوع إليها، وهي:

١/ رسالة الباحثة:ضمنا بنت عبد الواحد سعيد الزهراني بعنوان:**الرعاية الاجتماعية في بيت المقدس في العصر المملوكي**، تقدمت بها الباحثة للحصول على درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بجامعة الملك عبد العزيز، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

وهي من الدراسات الاجتماعية التي تناولت بعض الفئات الاجتماعية، وتحدثت عن المنشآت الاجتماعية، إلا أن موضوع البحث ينحصر في مدينة بيت المقدس (القدس) فقط، فلم تتعرض الباحثة لباقي مدن الشام.وقد أفادت الدراسة الباحثة في الوقوف على المنشآت الاجتماعية التي استفادت منها الفئات المحتاجة في بيت المقدس.

٢/ رسالة الباحثة: ريما بنت صالح القرناس، بعنوان (رعاية الفئات المحتاجة في مكة والمدينة خلال العصر المملوكي)، رسالة ماجستير من كلية الآداب، بجامعة الدمام، سنة ١٤٣٥/ ٢٠١٤م.

وهي من الدراسات الاجتماعية التي تناولت فئات المجتمع في مكة والمدينة، وتكمن أهمية الدراسة بأنها شملت رعاية فئات محتاجة برغم من اختلاف المكان إلا أنها خدمت الباحثة

من عدة أوجه، سواء من ناحية بناء خطة البحث ومنهجه، وبما تناولته من معلومات قيمة عن رعاية الفئات المحتاجة في المجتمع.

٤/ رسالة الباحث: نافذ محمد عبد ربه الشوامرة بعنوان:الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي، حصل بها الباحث على درجة الماجستير من كلية الدراسات العليا، بجامعة الخليل سنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

وتناولت الدراسة الكوارث الطبيعية والآثار التي نجمت عنها في بلاد الشام خلال العصر المملوكي، وهدفت الدراسة إلى التعرف إلى أنواع الكوارث الطبيعية التي عصفت ببلاد الشام في عصر المماليك، والآثار التي ترتبت على حدوثها، ومدى تأثيرها في مختلف نواحي الحياة. وهي من الدراسات المهمة التي أفادت منها الباحثة في الجوائح التي ألمت بأهل الشام فنتج عنها بعض الفئات المحتاجة.

٥/ الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، للدكتور مبارك محمد الطراونة بعنوان: تناول فيها كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية، كالأعياد والاحتفالات، وتطرّق إلى جوانب من عادات مجتمع بلاد الشام وتقاليده السائدة في فترة الدراسة، دون أن يتعرّض للجوانب الخاصة برعاية المحتاجين وفئاتهم، وهي من المؤلفات التي أفادت منها الباحثة في الوقوف على عادات مجتمع الشام في تلك الفترة.

٦/ دراسة بعنوان: أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي للباحثة شيخة بنت محمد الدوسري، وقد أفادت الباحثة في الكشف عن أوقاف النساء في عصر الدراسة.

عرض لأهم مصادر البحث ومراجعه:

اعتمدت الباحثة على كثير من المصادر التاريخية والجغرافية، التي أغنت الدراسة، وفيما يلي عرض لأبرز ما استُعين به، مرتبا حسب الموضوعات:

أولاً: الوثائق والسجلات:

اعتمدت الباحثة على مجموعة من الوثائق التي وفرت معلومات تمثل الواقع الحي لما

كان يعيشه أفراد المجتمع الشامي في العصر المملوكي، حيث تناولت جميع نواحي الحياة المختلفة فمنها:

١/ الوثائق التي نشرها كامل جميل العسلي في كتابه (وثائق مقدسية)، كذلك الوثائق التي نشرها محمد عيسى صالحية بعنوان: (من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية).

٢/ السجلات العثمانية التي دونت بعد دخولهم بلاد الشام، والتي حملت عددًا من وثائق الأوقاف مصدقة من قاضي القضاة الشافعي كسجل " الأوقاف في مصر قبل وخلال العهد العثماني"، حسب الدفتر رقم (٨٦٢) وتاريخه سنة (٩٣١ــ٩٤١هـــ/ ١٥٢٥ــ ١٥٣٥م) المحفوظ في مكتبة أتاتورك بإستانبول، والذي أعده للنشر وحققه آيدين أوزقان.

٣/ سجل أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين (في ألوية غزة، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون)، حسب الدفتر رقم (٥٢٢) من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، بتحقيق: محمد ابشرلي محمد التميمي.

٤/ سجل أراضي ألوية (صفد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة) حسب الدفتر رقم (٣١٢) وتاريخه يعود لسنة (٩٦٤هـــ/١٥٥٦م)، المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، والذي حققه محمد عيسى صالحية.

ثانيًا: المصنفات الإدارية (الموسوعات والنظم):

أسهمت كتب النظم والموسوعات في تزويد الباحثة بكثير من المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، ومن هذه الكتب :

كتاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد، المعروف بالنويري (ت ٧٣٢هـــ/ ١٣٣٣م)، وهو موسوعة ضخمة جمعت طائفة عظيمة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية، وتكمن أهمية هذه الموسوعة في المعلومات الواردة فيها؛ لاعتماد مؤلفها على الوثائق المملوكية، حيث كان قد باشر نظم الجيش في طرابلس، وولي كتابة الإنشاء. وقد أفادت منه الباحثة معلومات وافرة، إذ تناول فيه المؤلف كثيرًا من المعلومات والنظم المالية في بلاد الشام.

كما أفادني كتاب **معيد النعم ومبيد النقم**، لعبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، المعروف بالتاج السبكي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م). ولي السبكي توقيع الدست عن نائب الشام، وتولى نيابة الحكم عن أبيه قاضي القضاة، فجمع بين الوظيفتين، وتولى أيضًا بعض وظائف التدريس في مدارس دمشق، فضلاً عن توليته منصب قاضي قضاة الشام، وتوفي مطعونًا. وامتاز السبكي بسعة علمه وفقهه وخبرته بأحوال عصره وشؤون الدولة وفئات الناس. ذكر السبكي وظائف الناس في عصره في أمثلة بلغ عددها مئة وإحدى عشرة. وقد أفادت الدراسة من إشاراته للأوضاع التعليمية والمهمات الموكلة إلى أفراد السلطة الحاكمة؛ مما أسهم في توضيح معاني بعض المصطلحات المملوكية التي وردت في البحث. كما أفادت في الفصل الثاني في طرق التعليم في الكتاتيب، وأساليب التدريس.

أما كتاب **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، الذي تولى منصب ديوان الإنشاء بمصر، فقد ذكر كل ما يتعلق به من وظائف وأحكام، وكان غرض القلقشندي من هذه الموسوعة أن تكون مرجعًا لكتاب الدواوين، وفيه يلخص جميع المعارف التي يحتاج إليها الكاتب.

وقد أفادت منه الباحثة في الفصل الأول كثيرًا، خاصة في النظم المالية والإدارية للدولة المملوكية، بالإضافة إلى تعريف كثير من المصطلحات والوظائف المملوكية.

ومن المصادر الهامة أيضاً كتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي الشافعي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). وعلى الرغم من أن هذا المصدر هو خاص بمصر تناول فيه المهن والآثار المصرية القديمة والوسيطة إلا أن الباحثة استقت منه معلومات وافرة عن كثير من الأنظمة المالية كالزكاة، والمكوس التي فرضت على الشعب في الديار المصرية والشامية أيضًا.

ثالثًا :الرحلات والجغرافيا:

ومنها كتاب: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، ولقد زار ابن بطوطة في أثناء رحلته التي بدأت عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، بعضَ المدن

والقرى الشامية ذاكرًا بعض أخبارها التاريخية، واصفًا جغرافيتها وموقعها ومناخها، فضلاً عن بعض المعلومات المتعلقة بالوضع السكاني والزوايا والاحتفالات، وجاءت كتابته متأثرة بأسلوب ابن جبير في رحلته.

ولابن بطوطة في رحلته خصائص بأنه كان شاهد عيان للفترة الزمنية للأطروحة واعتمادها على ملاحظاته الشخصية، وكانت الإفادة من هذا المصدر في جميع فصول الأطروحة، حيث تناول الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية لبلاد الشام، ووصف المؤسسات الاجتماعية والدينية التي زارها كالمساجد والزوايا، فتحدث عن فئات المجتمع الدينية والعرقية، وتحدث عن الأعياد والاحتفالات الدينية التي شاهدها في أثناء زيارته لبلاد الشام؛ لهذا يمكن وصفه بأنه مؤرخ اجتماعي.

ومنها أيضاً كتاب **نزهة الأنام في محاسن الشام**، المعروف بـــ (رحلة البدري)، لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري (ت ٨٩٤هـــ/ ١٤٨٩م). وقد أفادت الباحثة منها في الفصل الرابع بالكشف عن أحوال المجتمع الاقتصادية والظروف المعيشية لسكان بلاد الشام.

أما كتاب **معجم البلدان**، لمؤلفه شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي(ت٦٢٦هـــ/ ١٢٢٩م)، فعلى الرغم من أن هذا المصدر لا يدخل في فترة الدراسة إلا أنه قد ضم بين دفتيه وصف دقيق لكثير من المدن والقرى الشامية، ومواضعها وأهميتها، وماتشتمل عليه من مؤسسات مهمة؛ فقدم للدراسة فائدة كبيرة في تحديد المواقع، إضافة إلى تاريخ المؤسسات الواردة بها، ومقارنتها بما استحدث في العصر المملوكي.

ومن الكتب التي أفادت الباحثة **مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع**: لمؤلفه ابن عبد الحق البغدادي (ت٧٣٩هـــ/ ١٣٣٨م). لا سيما التعريف بحدود بلاد الشام وبعض المدن والقرى التي ورد ذكرها في الأطروحة. وهو وإن اعتمد على ياقوت الحموي في التعريف بالمدن والقرى التي ذكرها إلا أنه كان ينفرد بذكر بعض المناطق التي لم يذكرها الحموي.

أما كتاب **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، لأحمد بن يحي ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م). فقد أفاد الأطروحة من خلال وصف مدن الشام من الناحية الجغرافية، وما احتوت عليه من مؤسسات دينية واجتماعية، أفادت منها الباحثة في معرفة بعض المعلومات التي تتعلق بأحوال المجتمع، خاصة عندما يسترسل في تاريخ المدينة وما استجد لها من تغييرات في العصر المملوكي.

ومن الكتب المعاصرة التي زودة الباحثة بمعلومات عن بلاد الشام مؤلفات الحجاج النصارى الذين مروا بها في أثناء توجههم لأداء الحج في فلسطين، ومن بين هؤلاء الحجاج **فلكس فابري** الراهب الذي ترك لنا أخبارًا عن المدن الفلسطينية التي زارها، إذ زار الشرق مرتين، الأولى كانت قصيرة أما الثانية فكانت من عام (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م) إلى عام (٨٨٩هـ/١٤٨١م) ، وأفادنا في الفصلين الثالث والرابع في التعرف إلى أوضاع السكان، فضلاً عن الخدمات التي كانت تقدمها المؤسسات الاجتماعية، كالفنادق والخانات.

رابعًا:التراجم:

تُعَدُّ كتب التراجم من المصادر الرئيسة لدراسة تاريخ الحياة الاجتماعية في عصر المماليك، لأنها لم تقتصر على سير الأشخاص، بل تعدت إلى ذكر بعض المعلومات السياسية والإدارية والاجتماعية لتلك الحقبة. ولدينا في فترة المماليك عدد من كتب التراجم التي استقى مؤلفوها معظم معلوماتها من المصادر السابقة لها، ومن هذه الكتب: **الوافي بالوفيات**، لصلاح الدين أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، اعتمدت عليه الباحثة في ترجمة عدد من سلاطين المماليك ونوابهم في العصر المملوكي الأول، إضافة إلى ذلك ترجم لعدد من العلماء والقضاة والأدباء وغيرهم، وقد أفادت الدراسة من هذه التراجم في جميع الفصول.

ومنها أيضاً كتاب **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لشهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، الذي تولى منصب قاضي قضاة الشافعية في القاهرة مدة (٢١) عامًا، ويوفر كتاب الدرر الكامنة تراجم لكثير من أهل الشام خلال القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، كالفقهاء والعلماء والقضاة

والمحدثين والأدباء والشعراء والتجار وغيرهم، وتحتوي تراجمه على معلومات قيمة تبرز مكانة المرأة، وعادات أهل الشام.

وتكمن أهمية كتاب **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، لمحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر عثمان السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، في أن مؤلفه قد ارتحل إلى بلاد الشام طلبًا للعلم، فزار دمشق وحلب، وبيت المقدس والخليل، وغيرها من مدن الشام، وقد أفادت منه الباحثة في ترجمة عدد من الشخصيات في القرن التاسع الهجري.

أما كتاب **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، لابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م)، فيُعَدُّ من المصادر المهمة التي اعتمدت عليها الباحثة، وعلى الرغم من أنه لا يدخل في فترة الدراسة إلا أنه يُعَدُّ مصدرًا جامعًا استقى معلوماته من عدد من المصادر المملوكية السابقة، فجاءت تراجمه واسعة ومفصلة لكثير من الأحداث التاريخية.

خامسًا: كتب السير والحوليات:

وفي مقدمتها كتاب **البداية والنهاية**، لابن كثير(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، الذي يُعَدُّ من المصادر التاريخية المهمة، ذكر فيها الأحداث منذ بدء الخليقة حتى سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٥م، واتبع فيه الترتيب الحولي، ومن أهم المصادر التي تم الاعتماد عليها، وقد أفادت منه الباحثة كثيرًا خاصة من المعلومات المتعلقة بالمجتمع في بلاد الشام في العهد المملوكي، وكان شاهد عيان، وهذا مما زاد من قيمة معلوماته.

أما كتاب:**السلوك لمعرفة الملوك**، لتقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، فيعد من أهم المصادر لعصر سلاطين المماليك، وهو من أهم المصادر الرئيسة التي اعتمدت عليها الباحثة في كل فصول الأطروحة، بما يمتاز به من معلومات تفردّ بذكرها، خاصة عندما يتعرّض للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع بلاد الشام.

وكذلك من الكتب المهمة التي أفادت الدراسة كتاب:**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/

١٤٦٩)، فهو يتناول كثيرًا من الأحداث التاريخية في بلاد الشام، وأفادت الباحثة منه بمعلومات عن المؤسسات التعليمية والمنشآت الاجتماعية.

ومنها أيضاً كتاب **الدارس في تاريخ المدارس**، لعبد القادر بن محمد النعيمي، المتوفى سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، يقع هذا الكتاب في جزأين، ويعد من المصنفات التاريخية وأغناها التي تناولت الحياة العلمية في بلاد الشام من القرن الخامس حتى القرن العاشر الهجري، فقد ذكر عددًا من المدارس ودور القرآن والحديث والزوايا والربط والمساجد والترب. وقد أفادت الدراسة من هذا المصدر من خلال تلك المعلومات التي أوردها النعيمي عن المؤسسات الحضارية، أماكنها وتراجم واقفيها وما عليها من أوقاف، كما أفادت الدراسة بالتعرف إلى بعض التنظيمات المالية للوقف زمن الدراسة.

ومن أشهر المصنفات التي تناولت تاريخ كثير من المدن الفلسطينية التي هي جزء من الشام كتاب **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، لمجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، ويقع هذا الكتاب في جزأين، وهو، وقد ابتدأه العليمي منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، وقد اعتمدت عليه الباحثة بشكل كبير في جميع فصول الدراسة، حيث قدم معلومات غزيرة عن الحياة العامة بمختلف مجالاتها الدينية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية خلال العصر المملوكي، كما اشتمل على تراجم عدد من الشخصيات، وعرض لبعض المنشآت مع تحديد منشئيها والأوقاف التي حبست عليها.

أما كتاب: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، لأبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي(ت٩٣٠م/ ١٥٢٣م)، فقد تطرق فيه ابن إياس لأخبار سلاطين مصر في العصر المملوكي، واعتمدت عليه الباحثة خاصة عصر المماليك الجراكسة، وأهم أعمالهم.

من المصادر المهمة التي ألقت الضوء على تاريخ دمشق، وأفادت الأطروحة بأخبار النواب كتاب:**مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، لمؤلفه ابن طولون شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الصالحي الدمشقي(ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، الذي كتبه على طريقة

التمهيد

أولاً : المقصود برعاية الفئات المحتاجة.

ثانيًا: الوضع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام خلال العصر المملوكي.

أولاً: المقصود برعاية الفئات المحتاجة :

تقوم رعاية الفئات المحتاجة على أسس وركائز مستمدة من القرآن الكريم، إذ عنيت بالبر والإحسان وفعل الخير، ومساعدة المحتاجين وإسعادهم وحفظ كرامتهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾(١).

وجاءت السنة المطهرة لتؤكد ما ورد في القرآن الكريم في مجال البذل والإنفاق والتكافل الاجتماعي بين المسلمين، وهو شعور الجميع بمسؤولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه، يسأل عن نفسه وعن غيره(٢).

الرعاية في اللغة: قال ابن منظور: رعاه يرعاه رعيًا ورعايةً: حفظه. وراعيته: لاحظته. وراعيته من مراعاة الحقوق، ويُقال رعيت عليه حرمته رعايةً، وفلان يراعي أمر فلان، أي ينظر إلى ما يصير إليه أمره ، وأرعى عليه: أبقى. والإرعاء: الإبقاء ، يُقال : أرعيت عليه إذا أبقيت عليه ورحمته. والمراعاة: الحفظ والرفق وتخفيف الكلف والأثقال عنه(٣).

ويقول الرازي: رعى الأمر: نظر الأمر إلى أين يصير، ورعاه: لاحظه، ورعاه من مراعاة الحقوق، واسترعاهُ الشيء فرعاه(٤).

وعند الزمخشري: الراعي: عين القوم على العدو؛ لأنه يرعاهم ويحفظهم(٥).

وللرعاية في اللغة مرادفات عدَّة من أهمها: (الاهتمام، والعناية، والتّعهد، والضّمان،

---

(١) سورة الإنسان: الآية٨.

(٢) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة ، ط١٠، ١٤٢٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٧١ .

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (د . ت)، ج١٤، ص٣٢٧، مادة رعى.

(٤) الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص١٠٤.

(٥) الزمخشري، محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، الفائق، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار المعرفة، ط٢، (د.ت)، ج٢، ص٦٥.

والحفظ، والكفالة)[١].

الرعاية اصطلاحًا:

يقصد بالرعاية مجموعة الخدمات المنتظمة التي تساعد الضعفاء أفرادًا وجماعات على إشباع حاجاتهم الأساسية، وتأمين الكفاية لهم[٢]، وهي: (عملية منظمة تؤدي وظيفة أساسية في المجتمع، وتشتمل على برامج وخدمات اجتماعية لجميع فئات المجتمع، مبنية على سياسات محددة ومقرة من الدولة وموجهة للأفراد والجماعات والمجتمعات)[٣].

بمعنى أن رعاية المحتاجين أصبحت جزءًا من مسؤولية الدولة تنشأ من أجلها مؤسسات تحت إشرافها، ولها موازنتها السنوية، ولها قواعدها وقوانينها التي تحكم عملها، ويتم تمويلها من موارد الدولة[٤]، ومن ناحية أُخرى فإنها تقع ضمن مسؤوليات المجتمع تحقيقًا للتكافل بين أفراده.

والرعاية حق لكل فرد في المجتمع في حالاته كافة، سواء في حالة قوته وحالة ضعفه، وفي حالة طفولته وشيخوخته، ذكرًا كان أو أنثى، مع مراعاة الاهتمام بشكل واضح للفئات الأكثر احتياجًا، ويدخل تحت فئة المستفيدين من تلك الرعاية: الغارم وابن السبيل والجار والضيف، علاوة على الأفراد الذين يتعرضون للكوارث والنكبات[٥].

ومن أهم خصائص الرعاية الشمول والتكامل، أي تقديمها لجميع فئات المجتمع، ولا

---

(١) انظر معاني هذه الكلمات في: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط٢، د.م، د.ت، مادة (هم) ص٦٣٣، ٩٩٥، مادة (عنى) ص٦٣٤، مادة (عهد) ص٥٥٤، مادة (ضمن) ص١٨٥، مادة (حفظ) ص٧٩٣.

(٢) تركي بن عبد الله بن حمود السكران، دور الوقف في رعاية المعوقين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث للأوقاف بالمملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٤٤.

(٣) راشد سعد الباز، الرعاية الاجتماعية في عهد الملك عبد العزيز، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٣.

(٤) وليد إبراهيم محمد الغرباوي، الرعاية الاجتماعية في السنة النبوية، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، كلية أصول الدين، قسم الحديث الشريف وعلومه، ص١٩.

(٥) مصطفى أحمد حسان، الرعاية الاجتماعية في الإسلام والخدمة الاجتماعية، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة، من ١٠ـ١٣ أغسطس١٩٩١م، ص١٠.

يقتصر تقديمها على فئة دون أُخرى، وإلا عجزت عن تحقيق أهدافها. أما التكامل فيعني النظر إلى الحاجات الإنسانية المتعددة والمتنوعة، وإشباع جميع هذه الحاجات لأن الاهتمام بمجال وترك مجال آخر يترتب عليه كثير من المشكلات(١).

وتهدف الرعاية إلى توفير الخدمات التي تساعد الإنسان على إشباع احتياجاته، ومواجهة مشكلاته، أو الوقاية منها، وتنمية قدراته بهدف تحسين أحواله الحالية والمستقبلية على أساس من العدالة والتكافل الاجتماعي(٢).

وانطلاقًا مما سبق ذكره يمكننا تحديد الفئات المحتاجة المستحقة للرعاية بأنهم: مجموعة من الأفراد الذين يتصفون بعدم القدرة على تلبية متطلبات المجتمع الذي يعيشون فيه، مما يتطلَّب خدمات خاصة تقدم لهم للتحسين من مستواهم ومساعدتهم على التكيف في مجتمعهم(٣). سواء كانوا من الفقراء والمساكين، أو الأيتام والأرامل، أو المرضى والعجزة، أو المحتاجين من العلماء وطلاب العلم، أو غيرهم ممن فرضت عليهم ظروف الحياة الاعتماد ـــ بعد الله سبحانه ـــ على آخرين يقومون بشؤونهم ويساعدونهم على تحمُّل مشقة العيش. وامتدت يد الرعاية كذلك لتشمل رعايتهم في أوقات الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعة، والهدف هو توفير كل ما يحقق لهم سُبل العيش الكريم، من خلال توجيه مختلف أنواع الرعاية على جميع المستويات الدينية والاجتماعية والتعليمية والاقتصادية.

ثانيًا: الوضع الاقتصادي والاجتماعي في بلاد الشام خلال العصر المملوكي:

يدرك المتتبع للأوضاع العامة في بلاد الشام خلال العصر المملوكي مدى تحسن الأوضاع الاقتصادية فيها، نتيجة الرخاء والاستقرار؛ فالحياة الاقتصادية ترتبط ارتباطًا كبيرًا بالحياة الاجتماعية؛ إذ تُعَبِّر هذه النشاطات عن مدى تقدم المجتمع أو تأخره. وتعطي

(١) وليد الغرباوي، الرعاية الاجتماعية، ص١٩ .

(٢) وليد الغرباوي، الرعاية الاجتماعية، ص١٢.

(٣) أحمد شورة، معوقات العمل داخل المؤسسات الاجتماعية وكيفية التغلب عليها، مهارات التعامل مع المقيمين داخل المؤسسات الاجتماعية الإيوائية، ورقة عمل مقدمة إلى وزارة الشؤون الاجتماعية بالمملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، ١٤٣١هـ.

صورة عن الأوضاع المعيشية التي يتمتع بها رعايا الدولة المملوكية وأهل الشام خاصة.

الحياة الاقتصادية في بلاد الشام:

اهتم سلاطين المماليك في مصر وبلاد الشام بالزراعة اهتمامًا كبيرًا، حيث كانت في ذلك الوقت الحرفة الأولى لغالبية السكان، والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي[١]. ويعطينا المؤرخ غرس الدين الظاهري إحصائية لأعداد القرى في جميع أنحاء بلاد الشام ، فيذكر على سبيل المثال أن أعداد القرى في المملكة الطرابلسية كان يقرب من ثلاثة آلاف قرية[٢]، وبلغ عدد قرى مدينة نابلس[٣] نحو ثلاثمائة قرية[٤]، أما صفد[٥] فكانت تشتمل على ألف ومائتي قرية[٦].

ومثلت الزراعة في بلاد الشام الركن الأساسي للنشاط الاقتصادي، لأنها مصدر غذاء السكان وتقوم عليها الكثير من الصناعات لما توفره من مواد خام، والمعروف عن بلاد الشام أنها ذات أرض زراعية خصبة؛ لتنوع مصادر المياه ومنها كثرة جريان الأنهار كنهر العاصي[٧]، ونهر قويق[٨] ونهر البردى[٩]، بالإضافة إلى بعض الأنهار التي تمر بأجزاء

---

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٨٥.

(٢) ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٩م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م، ص٤٨.

(٣) **نابلس**: مدينة مشهورة بأرض فلسطين، كثيرة المياه، وهي من أكثر مدن الشام زيتونًا، ومنها يحمل الزيت إلى دمشق ومصر. انظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٥، ص٢٤٨؛ ابن عبد الحق، عبد المؤمن البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج٣، ص١٣٤٧.

(٤) زبدة كشف الممالك ، ص٤٦ ـــ ٤٨

(٥) **صفد**: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤١٢.

(٦)زبدة كشف الممالك ، ص٤٤ .

(٧) **نهر العاصي**: يعرف بالميماس، مخرجه من بحيرة قدس، يصب في البحر المتوسط قرب أنطاكية، وسمي بالعاصي لأن أكثر الأنهار تتوجه للجنوب وهو يتوجه إلى الشمال. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٦٧.

(٨) **نهر قويق**: نهر مدينة حلب. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٤١٧. للمزيد انظر: الحميري، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم (ت٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر، دار السراج، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٤٨٦.

(٩) **نهر بَردي**: نهر مدينة دمشق، يخرج من عين في صحراء الزبداني بين بعلبك ودمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٧٨؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص١٨١.

منه كنهر الفرات.وامتازت كذلك بكثرة الينابيع والعيون[1]، وأشار البدري إلى عيون دمشق بقوله:" يقال من ظاهر باب (السلام[2]) إلى ظاهر باب (توما[3]) ثلاثمائة وستون عينًا تجري إلى القبلة. قلت: ورأيت غالبها وارتويت من عذبها"[4].

ومما يلاحظ أيضًا أنه على الرغم من كثرة جريان الأنهار بالمناطق الزراعية، إلا أنها لا تروي مساحات واسعة من الأراضي؛ فنهر الفرات[5] أهم أنهار بلاد الشام من جهة الشرق لا يستفاد منه الاستفادة المطلوبة؛ لانخفاض منسوبه عن أرض الشام، كما لا يستفاد من الأنهار التي تشق قلب البلاد الفائدة المطلوبة في الري. وللاستفادة من مياه هذه الأنهار، فقد وضعت النواعير[6] الكبار على نهر العاصي، والتي تسقي أكثر بساتينها، وأشار إلى ذلك الحموي عندما زار مدينة حماة[7] أن على نهرها العاصي عدة نواعير،

---

(١) **العيون**: وصفها القلقشندي بقوله:" هي مياه تنبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قنى قد حفرت لها". انظر: القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هــ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص١٩٧.

(٢) **باب السلام**: من أبواب دمشق المحدثة من الجهة الشمالية، بين باب توما وباب الفراديس، بناه السلطان نور الدين زنكي، جددّه الملك الصالح أيوب. انظر: قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي (للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين) ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٥.

(٣) **باب توما**: من أبواب دمشق في الطرف الشمالي للسور، اختطّه اليونان ونسبوه لكوكب الزهرة، ثم جاء الرومان، ومن بعدهم البيزنطيون الذين خصّوه للقديس توما، وجدد الباب في العهد الأيوبي، ثم المملوكي أيام نائب الشام تنكز الذي أمر بإصلاحه. انظر: قتيبة الشهابي، معجم دمشق، ج١، ص ١٨.

(٤) البدري، أبو البقاء عبد الله محمد المصري الدمشقي (ت ٨٩٤هــ/ ١٤٨٩م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، مصر، القاهرة ، ١٣٤١ه ، ص٩٢.

(٥) **نهر الفُرات**: بالضم، مخرجه من أرمينية، وعرف بعذب مياهه.الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٤١.

(٦) **النواعير**: جمع (ناعورة)، دولاب ذو دلاء أو نحوها، يدور بدفع الماء أو جر الماشية، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل. انظر: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هــ/ ١٩٩٦م، ص٤١٩؛ قتيبة الشهابي، معجم دمشق، ج٢، ص٣٢٥.

(٧) **حماة**: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات، على جنب نهر العاصي. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٢٣.

تستقي الماء منه، فتسقي بساتينها[١]، واستمر وجود تلك النواعير حتى زمن الرحالة الحميري الذي أكّد وجودها قائلاً: "وهذا النهر عظيم عليه جسور يعبر عليها، وعليه نواعير كثيرة، تخرج الماء إلى ما علا جانبيه من غيطان المدينة"[٢].واستخدمت أساليب الري في كل مدينة بحسب طبيعتها؛ فحمص كانت أراضيها تسقى بالنواعير القريبة من نهر العاصي[٣].

وكان الأهالي يخزنون مياه الأمطار والثلوج في خزانات أو صهاريج يتصل بعضها ببعض عن طريق مصارف تحت الأرض لتصل إلى المنازل والأراضي الزراعية[٤].

وساعد اختلاف الأقاليم الطبيعية في بلاد الشام على تنوّع المحاصيل الزراعية التي تنقسم إلى محاصيل شتوية، وأهمها القمح والشعير والشوفان والفول والحمص والعدس ومحاصيل صيفية منها الذرة والدخن والسمسم والبطيخ والقطن[٥].

ويُعَدُّ القمح والشعير من أهم المحاصيل الزراعية في بلاد الشام، لذلك عمدت الدولة المملوكية إلى خزن كميات كبيرة منهما في أهراءات[٦]خاصة، كي يلجأ إليها السلاطين في الأزمات، وخاصة في السنوات التي كانت تعاني مصر والمدن المجاورة لبلاد الشام من الجفاف، حيث ترتفع أسعار القمح ويُفْقَدُ من الأسواق، ففي عهد السلطان الناصر محمد

---

(١) الحموي، معجم البلدان، باب الحاء وما يليها، ج٢، ص ٣٠٠.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ١٩٩.

(٣) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الله (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٨، ص ٢٥٦.

(٤) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م، ص١٦٠؛ بيرو طافور، رحلة طافور في عالم القرن ١٥م، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٤٧.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ص٢٥٧ـ ٢٥٨.

(٦) **أهراءات**: جمع أهراء، وهي أماكن تخزن بها الغلال والأتبان، احتياطًا للطوارئ، لا تفتح إلا للضرورة. انظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٢٥؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٥١؛ أنور محمود زناتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، دار زهران، عمان، ط١، ٢٠١١م، ص٨٤.

بن قلاوون[1] سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ارتفع سعر القمح في مصر مما جعل الناس يعانون شدة عظيمة لا يجدون الخبز إلا بشق الأنفس، فكتب لنواب الشام ليحملوا الغلال التي في بلادهم[2] فحمل نحو أربع آلاف غرارة[3] من الكرك[4] والشوبك[5].

واهتم أهل الشام بزراعة الزهور وتنسيق الحدائق، فراجت صناعة العطور، واشتهرت بلاد الشام بتجارة العطور، وخصوصًا في دمشق التي اشتهرت بالأزهار الفائقة الجمال والرائحة، وتوافد التجار من أنحاء شتى لاستيراد العطور وشتول الوود ونقلها إلى بلادهم، وحرص بعض سلاطين المماليك على نقل شُتول الورد في صناديق من بلاد الشام إلى مصر، ومن أبرز سلاطين المماليك الذين اهتموا بها

(١) **السلطان الناصر محمد بن قلاوون**: حكم ثلاث مرات، الأولى: ٦٩٣هـ-٦٩٤هـ/١٢٩٤-١٢٩٥م، والثانية: ٦٩٨ـ٧٠٨هـ/١٢٩٩ـ ١٣٠٩م، والثالثة: ٧٠٩ـ٧٤١هـ/١٣٠٩ـ١٣٤٠م. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م،ج٤، ص٢٥١ـ٢٦٤؛ الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤هـ/ ١٣٧٤م)، فوات الوفيات، تح: علي محمد بن عوض الله وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٤٣٣. للمزيد عن سيرته انظر: اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: أحمد حطيط، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٢) اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٩٦.

(٣) **غرارة**: مكيال للحنطة وتعني الغرارة حرفياً (العِدل من صوف أو شعر). يعادل ثمانين مُدًا، والمُد عند أهل الشام من مكاييل الحبوب والزيتون، زنته ١٨ كغ من الحنطة. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٣٣٠؛ فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٦٤.

(٤) **الكرك**: قلعة حصينة في طرف الشام، من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على جبل عال، فيها قلعة مذكورة استولى عليها الفرنج، وحررها صلاح الدين. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١١٥٩.

(٥) **الشوبك**: قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمان وأيلة، قرب الكرك. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٧٠؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ، ج٢، ص٨١٨؛ العمري، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحي بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، مهدي النجم، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٠م، ج٣، ص٥٥٠.

السلطان قانصوه الغوري[١] الذي كان مولعًا بغرس الأشجار وحب رؤية الأزهار [٢].

ومن ناحية الثروة الحيوانية فقد اشتهرت بلاد الشام بالمراعي الخصبة والتي تسمى بالمرج[٣] والتي ترعاها قطعان الماشية، وقليل من الفلاحين منْ كان يملك قطعة من الكروم ولا يمتلك دابة أو دابتين[٤]. ووصف الزهري دمشق بكثرة ألبانها ومواشيها[٥].

وشهدت بلاد الشام نشاطًا صناعيًّا ملحوظًا في العصر المملوكي، ويعود ذلك إلى وفرة الموارد الأولية اللازمة للصناعة، ووجود الأيدي العاملة الماهرة المدربة على إنتاج السلع الصناعية، إضافة إلى الرعاية التامة والتشجيع المستمر من جانب سلاطين المماليك[٦].

وقد تنوعت الصناعات التي تعتمد على الزراعة في بلاد الشام والتي نالت شهرة واسعة، واهتمامًا من قبل الدولة؛ كصناعة قصب السكر، والتي تُعَدُّ من أهم الموارد التي

---

(١) **السلطان قانصوه الغوري:** قانصوة بن عبد الله بن الشركسي، السلطان الأشرف المشهور بالغوري، آخر سلاطين المماليك. قُتل في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م. انظر: العيدروسي، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت١٠٣٧هـ/١٠٩٤م)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص١٠٠؛ ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، ج٨، ص١١٣؛ العصامي، عبد الملك بن حسين المكي (ت١١١١هـ/١٦٩٩م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٤، ص٦١ـ٦٤.

(٢) ابن إياس الحنفي، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢-١٩٨٤م، ج٤، ص١٠٢.

(٣) **المرج:** جمع مروج، مرج المرج الفضاء ، وقيل المرج أرض ذات كلاء ، وهي الأرض الواسعة، فيها نبت كثير ترعى فيها الدواب. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (مرج)، ج٢، ص٣٦٤.

(٤) يوسف خنشت، طرائف الأمس غرائب اليوم، دار الرائد العربي اللبناني، لبنان، ١٩٨٢م، ص٤٥.

(٥) الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت في أواسط ق٦هـ/١٢م)، كتاب الجغرافية، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ١٩٩٨م، ص٧١.

(٦) محمود محمد الجبارات وآخرون، النشاط الصناعي والحرفي في الموانئ الشامية في خلال العصر المملوكي (٦٤٩هـ/١٢٥٠م ـ٩٢٢هـ/١٥١٦م)، حوليات عين شمس، م٣٨، (يوليوـ سبتمر٢٠١٠م)، ص٩٣.

دعمت الاقتصاد المملوكي، ومما يدل على ذلك الإشراف المباشر من نائب دمشق، حيث كان يخرج بنفسه إلى أماكن زراعة السكر، حتى يعصر القصب، وقد تطول أو تقصر مدة إقامته حسب الموسم(١). وكانت من المحاصيل التي تدرّ أموالاً للخزانة المملوكية، وكثيراً ما فرضت الضرائب(٢) الطائلة عليها؛ مما دعا بعض السلاطين - مثل السلطان الناصر محمد قلاوون - إلى إلغاء ما كان يفرض على معاصر القصب، ومن يعمل فيها من ضرائب(٣).

ويضرب المثل في جودة ونظافة ونقاء زيت بلاد الشام، لذلك ذاعت شهرة الزيت الشامي في جميع البلدان، وتجاوزت شهرته الآفاق، مما جعل سلاطين المماليك يهادون به الملوك(٤)، ومن صور عناية المماليك بصناعة الزيت استحداث وظيفة يباشر صاحبها عملية عصر الزيت وترتيبه، ويحدد أسعاره(٥).

واحتلت الصناعات الحربية مكانة بارزة في النشاط الصناعي في دولة المماليك،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٤؛ يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، عمان، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٠٨؛ نهى محمد حسين مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م، ص٢٧٣.

(٢) **الضرائب**: جمع ضريبة، وهو نظام اقتصادي خلاصته مبلغ من المال يدفعه المواطن إلى الدولة بوصفه عضوًا في المجتمع، ويعود هذا النظام إلى أقدم العصور، فقد كان الحكام عبر مراحل التاريخ، يفرضون على رعاياهم مثل هذه الضرائب، لتمكين الدولة من القيام بوظائفها المتصلة بأعباء الأمن والدفاع الخارجي، وغير ذلك من الخدمات الأخرى. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٣٠٠.

(٣) الدواداري، ابو بكر بن عبد الله بن أيبك (٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس روبرت روبمر، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ج٩، ص٢٨٥؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج٩، ٤٢-٤٥.

(٤) غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن ، ص ٨٤؛ مكاحله، الزراعة في بلاد الشام، ص٢٦٩.

(٥) العليمي، عبد الرحمن بن محمد مجير الدين الحنبلي(ت٩٢٧هـ/١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، ٢ج، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص ٣٥٦، ٣٦٥.

فعلى سبيل المثال صناعة المناجيق[١]، لوجود الغابات في بلاد الشام، وكان السلطان الظاهر بيبرس[٢] من أوائل السلاطين الذين تنبهوا لأهمية استغلال الأخشاب في صناعة المناجيق في أثناء رحلاته للصيد سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م؛ مما نتج عن هذه الفكرة إنشاء أربعة مناجيق كبار سوى الصغار، وقد شارك السلطان في صناعتها مع الصناع[٣].

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن؛ إذ حرص السلاطين المماليك على إنشاء أسطول بحري قوي، يحمي شواطئ الدولة في البحر المتوسط والأحمر، وقد أشار ابن عبد الظاهر في حوادث سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م إلى الدور البارز الذي أدّاه السلطان الظاهر بيبرس في نشر وتطوير صناعة السفن فيقول: "ونزل السلطان على عادته إلى الصِّنَاعَة لعمارة الشواني[٤]،...وهو جالس بين الأخشاب والأحطاب وبين الصناع"[١].

(١) **مناجيق:** جمع منجنيق، وهي آلة حربية من آلات الحصار، من الخشب مؤلفة من دفتين قائمتين بينهما سهم طويل له رأس ثقيل وذنب خفيف بنهايته كفة تجعل فيها الحجر المقذوفة بعد جذبها إلى أسفل. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٤١٠.

(٢) **السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي:** رابع السلاطين المماليك، حكم في الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)، ولد في القبجاق، وبعد أسره بيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، فاشتراه الأمير علاء الدين البندقار فنسب إليه. ثم التحق بخدمة الصالح نجم الدين أيوب فأصبح أتابك العساكر في أيام سيف الدين قطز، اشتهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين. للمزيد انظر: ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد(ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،ج٤، ص١٥٥؛ الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة الكويت، الكويت، ط٢، ١٩٨٤م، ج٥، ص٣٠٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات،ج١٠، ص٢٠٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٩٦.

(٣) ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الناصر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط١، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص٢٣٠؛ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، ٨ج، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج٢، ص١٨،١٩.

(٤) **الشواني:** جمع شونة، وهي طراز من السفن تستخدم للأغراض الحربية، عرفها اليونان والرومان واستخدمها المسلمون، يصل عدد مجاديفها إلى ١٠٠، وتحمل على متنها ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص ٢٧٨؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٢٤٠،٢٣٩.

وامتازت بلاد الشام بموقع جغرافي مهم أكسبها أهمية تجارية، فضلاً عن الثروات الاقتصادية المهمة، التي مكنتها من احتلال موقع متميز في التجارة، وقد كانت التجارة تشكل أحد أركان اقتصاد الدولة المملوكية، فلم تدخر جهداً في تنظيم أمور التجارة، فعملت على إنشاء ديوان يشرف على دواوين التجارة في الممالك والنيابات؛ يسمى ديوان التجارة، وله عامل يسمى عامل الصندوق[٢].

وكان للدور الكبير الذي أدّته مدن الشام في ممارسة مختلف أنماط النشاط الاقتصادي، إلى جانب قوة النظام النقدي واستقراره طيلة حكم السلاطين المماليك البحرية[٣]، فضلاً عن أن بلاد الشام وموانئها وقراها قد ربطت بمسالك وطرق برية وبحرية، مما أسهم في ازدهار الأسواق وشحنها بالمواد والبضائع، وسهّل التبادل السلعي للسلع المصنعة[٤].

أما في مجال التجارة الداخلية بين المدن الكبرى فقد كانت العلاقات التجارية نشطة بين القاهرة ودمشق إلى درجة كبيرة، فكانت البضائع الشامية تنقل على ظهور المراكب والجمال إلى مصر[٥]. فقد ضمت القاهرة أسواقًا خاصةً للتجار الشاميين[٦]. وكل ذلك الاتصال التجاري كان يصب في خدمة المجتمع بتحسين أوضاعة المعيشية.

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٩٧؛ المقريزي السلوك، ج٢، ص٧٥.

(٢) إيرا مارفين لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، نقله إلى العربية: الدكتور سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٥م، ص١٩٤-٠؛ عمار مرضي علاوي، حمص في العصر المملوكي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ، ع ٩٩، ص١٣٨.

(٣) حياة ناصر الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثالثة والعشرون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٥.

(٤) عبد الجبار أحمد محمد العملة، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري (٧١٢-٧٤٠هـ/١٣١٢-١٣٣٩/١٣٤٠م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٢٨،٢٢٧.

(٥) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية ظهور الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسمي، دار الحقيقة، بيروت، ط١، ١٩٧٢م، ج١، ص٢٢٤.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٠٩، ٤٦٣، ٥٢٥؛ الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية، ص٤١.

وظهرت دولة المماليك في ظل أحوال اقتصادية ساعدهّا على الانطلاق على المستوى التجاري الدولي، بما قدمته من تسهيلات جمركية حصل عليها التجار الأجانب في ثغور سلطنة المماليك سواء من ناحية التنظيم أو بعقد المعاهدات بينهم[١]، فبرزت دمشق بدورها في النشاط التجاري، حيث عُرفت بثرائها، وتنوُّع سلعها وجمال معروضاهّا، الأمر الذي أثار دهشة وإعجاب الرحالة والتجار الأوربيين. ومن أبرز الصناعات التي تفوقت بها: صناعة الحلوى والمنسوجات والأواني النحاسية المطعمة بالفضة، إلى جانب صناعة الزجاجيات والمطرزات والعطور[٢].

وعملت الدولة المملوكية على تأمين طرق التجارة داخل البلاد؛ كي تصل سليمة من موانئ البحر الأحمر إلى موانئ البحر المتوسط، وقد أكد السلطان "المنصور قلاوون"[٣] عندما وقع هدنة عكا مع الفرنج سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م في بنود الهدنة على حماية التجار، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم[٤]. وهذا البند ما هو إلا دليل على أهمية التجارة لدى المماليك بصرف النظر عن الحروب الدائرة بين الطرفين[٥].

أما حلب[٦] المدينة الثانية في بلاد الشام من حيث حجمها، وأهميتها التاريخية،

---

(١) ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، القاهرة، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ص٦٢، ١٦٦ـ١٦٩؛ حياة الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٨٠م، ص٣٥٤.

(٢) ف.هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم: عز الدين فودة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ج٣، ص٣٣٤،٣٣٣.

(٣) **السلطان سيف الدين المنصور قلاوون الألفي**: ثامن السلاطين المماليك حكم في الفترة من (٦٧٨ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٨٠ـ ١٢٩٠م)، انظر: الدوادار، بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)،التحفة المملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٢٢؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ٢٢٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٦٧.

(٥) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص٣٣٨.

(٦) **حلب**: مدينة واسعة كثيرة الخيرات، وهى قصبة جند قنّسرين. وهي مدينة عظيمة قديمة، بها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه. انظر: القزويني، آثار البلاد، ج١، ص١٨٣؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤١٧.

ونشاطها الاقتصادي، فقد كانت سوقًا غنية بشتى أنواع البضائع والمنتجات مثل الحرير والتوابل والزجاج والسكر[١]، وفي الساحل الشامي في بيروت وطرابلس[٢] أقبل التجار من البنادقة والجنوية على هاتين المدينتين الساحلتين للحصول على البضاعة الثمينة من الكارم والأصباغ والحرير والقطن[٣].

ومما يلفت النظر النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي أفادت أبناء المجتمع من تلك الاتفاقيات التجارية بين سلاطين المماليك والأوربيين هو قضية إطلاق الأسرى من المسلمين للحصول على تسهيلات معاملاتهم التجارية، فعلى سبيل المثال ما ذكره المقريزي في حوادث سنة ٧٢٧هـ/١٣٣٧م، فقال: "وفي هذه السنة قدم إلى ميناء بيروت من سواحل الشام تجار الفرنج بمائة وأربعين من أسرى المسلمين"[٤]، بالإضافة إلى أن كثيرًا من فئات المجتمع انتفع بعدة صور من الازدهار التجاري الذي عاشته البلاد، فكانوا ينتفعون من دورهم في التجارة كوسيط في المبادلات التجارية، وبما كانوا يتقاضونه من أجور لاشتغالهم في نقل البضائع، أو استخدام دوابهم، أو تقديم خدمات للتجار في الفنادق وبيع الأطعمة والمشروبات[٥].

يتضح مما سبق أن بلاد الشام في العصر المملوكي عاشت فترة ازدهار اقتصادي على الرغم من التراجع الذي حصل في أواخر العصر المملوكي، وامتلكت مقومات الحياة الاقتصادية؛ مما كان له أكبر الأثر في الأوضاع المعيشية في المجتمع، فلا شك أن توافر الأموال في أيديهم قد شجع محبي الخير منهم على بذل جزء منها على وجوه البر المختلفة؛ مما عاد بالنفع لكثير من المحتاجين، وأسهم في تحسّن أوضاعهم .

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص٣٣٤.

(٢) **طرابلس**: طرابلس الشام وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام، بين اللاذقية وعكا.انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٩١. للمزيد عن طرابلس انظر: العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٠.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، ج٣، ص٣٣٥.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠٢.

(٥) الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية، ص٢٦.

الحياة الاجتماعية في بلاد الشام :

- **فئات السكان في بلاد الشام:**

اختلف العلماء في تصنيف العناصر السكانية، فمنهم من لا يرى غير عنصرين، كما هو الحال عند ابن خلدون، وقد أشار إلى ذلك في مقدمته، فذكر أن الملك سلطان ورعية :"فالسلطان من له رعية : والرعية من لها سلطان"(١).ومنهم من قسَّم المجتمع إلى عدة فئات كالمقريزي الذي صنفه إلى سبعة فئات: الأولى: أهل الدولة من المماليك، والثانية: أهل اليسار من التجار والفقهاء والمعممين، والثالثة: متوسطوا الحال من السوقة والباعة، والرابعة: أهل الفلاحة، والخامسة: الفقراء وطلاب العلم، والسادسة: أرباب الصنائع وأصحاب المهن، والسابعة:ذوو الحاجة والمسكنة(٢).

إلا أن هذه التقسيمات لا تخرج عن ثلاث طبقات، كونت المجتمع الشامي الذي تميز بالتكافل الاجتماعي، وقوة التماسك والترابط فيما بينهم، وهذه الطبقات تشمل:

الطبقة الأولى: الطبقة الحاكمة (المماليك) :

تمتع أُمراء المماليك بمكانة كبيرة في المجتمع ومنزلة رفيعة عند السلاطين، وطبيعي أن تحتل طبقة المماليك المرتبة الأولى في المجتمع، فقد حمل أفرادها عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية من جهة، وحماية حكم السلطان من جهة أخرى. وكان السلاطين يهتمون بمماليكهم اهتمامًا بالغًا ويخضعونهم لنظام صارم من التربية والتدريب، وكانت قوة السلطان والأمير تُقاس بعدد مماليكه وقوتهم في القتال(٣) .ولهم في أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم، وأسلوبهم الخاص في الحياة، وعدم اختلاطهم بأهل البلاد الأصليين، سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن محيطها الذي تعيش فيه(٤).

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٦،ج١، ص١٨٨

(٢) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص١٤٦.

(٣) قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، سوسة، تونس، ص١٢؛ يوسف غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٠.

(٤) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م، ص١٧، ٢٨؛ غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن، ص١٢٧؛ قاسم عبده، بعض مظاهر الحياة، ص١٣.

وتمتع المماليك بمستوى معيشيّ ووضعٍ اقتصادي عالٍ، لكثرة ما كانوا يمتلكون من إقطاعيات تمنح لهم بدل الخدمة العسكرية، وهذه الإقطاعيات تُعادل ثُلثي ما كان يمنح لأمراء المماليك في مصر ما عدا نائب الشام فإن إقطاعه يماثل إقطاعيات أمراء مصر[(١)]، كما فعل السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م عندما فتح قيسارية[(٢)]، ووزع الإقطاعيات على الأمراء، وقد أورد عدد من المؤرخين نصوص تمليك الإقطاعيات[(٣)].

وهذا النمط من الإقطاع الذي وزعه الظاهر بيبرس لم يكن وليد اللحظة، بل كان متأثرًا بالنظم السلجوقية والأيوبية والصليبية في البلاد الإسلامية عامة، وفي بلاد الشام خاصة؛ إذ جعلت من الإقطاعيين حكاماً وراثيين في مقاطعاتهم، وقد كافح السلاطين المماليك فيما بعد للحدّ من نفوذهم، فكانت هناك عدة محاولات لمسح الأراضي الزراعية في عصر المماليك، وهذه العملية كانت تعرف باسم "الروك"[(٤)]، واشتهر في عصر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى،ج ٤، ص٥٢؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص١٣٥؛ مبارك الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، دار جليس الزمان، عمان، ط١، ٢٠١٠م، ص١٢٤.

(٢) **قيسارية**: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، واسعة الرقعة. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٢١؛ ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ج٣، ص١١٣٩.

(٣) الدوادار، التحفة المملوكية، ص٥٥؛ وأورد المقريزي نص تمليك الظاهر بيبرس لأمرائه، فذكر في هذا الصدد: "فخرج العالي لا يزال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري أن يملك جماعة أمراؤه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكتوب يسطرون، مما يعين من البلاد والضياع...". انظر: السلوك، ج٢، ص٢٣.

(٤) **الروك:** كلمة قبطية تستخدم للدلالة على عملية قياس الأرض وحصرها في سجلات، وتثمينها لتقدير الخراج عليها. والمعروف من حوادث الروك بمصر سبعة: أولها : سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م على يد ابن رفاعة والي مصر في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك. وثانيها: سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، على يد الحبحاب عامل الخراج في مصر زمن الخليفة هشام بن عبد الملك. وثالثهما: حوالي سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، وقد تم على أيام ابن المدبر عامل الخراج بمصرفي خلافة المعتز بالله العباسي. ورابعها: الروك الأفضلي في عهد الخليفة الآمر الفاطمي. وخامسها: الروك الصلاحي نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م. وسادسها: الروك الحسامي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، زمن السلطان الملك المنصور لاجين. وسابعها: الروك الناصري في زمن السلطان الناصر قلاوون. انظر: إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق، الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٩٦؛ عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، مطبعة صلاح الدين، ١٩٣١م، ص٢١٤ــ٢٦٨.

المماليك "الروك الحسامي"، الذي أجراه السلطان "حسام الدين لاجين[(١)]"سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، فقد وجد أن الأمراء يحصلون على إقطاعيات كبيرة أكثر مما يحصل عليه الفرسان، فأعاد مسح الأراضي التي كانت في عهد أسلافه[(٢)]. أما "الروك الناصري"، فقد أجراه "الناصر محمد بن قلاوون" سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٥م[(٣)].

وعندما وصف القلقشندي هيئة أمراء المماليك قال عنهم: " واعلم أن كل أمير من أمراء المئتين[(٤)] أو الطبلخانات[(٥)] سلطان مختصر في غالب أحواله، فلكل منهم بيوت خدمة كبيوت خدمة السلطان"[(٦)].

وتنوّعت لدى المماليك وسائل التسلية لاستغلال أوقات فراغهم، فمنها الألعاب الرياضية التي تتناسب وطبيعتهم العسكرية، مثل لعبة الكرة، حيث خصصوا لها في كل مدينة ميدانًا خاصًّا ووقتًا معيناً تلعب فيها، بالإضافة إلى تعيين موظفين يشرفون عليها[(٧)].

(١) **السلطان لاجين**: هو السلطان المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري، حادي عشر سلاطين الدولة المملوكية، تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٨م، أصله مملوك للملك المنصور قلاوون اشتراه ورباه وأعتقه ورقّاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، حكم نحو سنتين وشهرين، وقُتل وهو في نحو الخمسين من عمره سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م، وكان رجلاً جميل العشرة وقليل الأذى، أزاح الكثير من المظالم، وكان ديّنا كثير الصوم، قطع أكثر المكوس وقال إن عشت ما تركت مكسًا واحدًا. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٩١،٢٩٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨٦،٨٥.

(٢) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي(ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، د،ت، ج٤، ص٣٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٨٩.

(٣) الدوادار، الدر الفاخر، ج٩، ص٢٨٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٠٤، ٥٠٧؛ الخطط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج١، ص ص١٥٧، ١٥٨، ١٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٢ ـــ ٤٥.

(٤) **أمراء المئتين**: هم الطبقة الأولى من أرباب السيوف، مقدمو الألوف، وعدة كل منهم مئة فارس، وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين؛ وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب الأمراء، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٤.

(٥) **أمير الطبلخانات**: هم الأمراء الذين يصح أن تضرب الطبول على أبوابهم، ويكون حد الأمير منهم ٤٠ـــ٧٠ مملوكاً، ويلي مقدم الألف في الرتبة. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٢٢ .

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٦١.

(٧) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/١٤١٩م)، معيد النعم ومبيد النعم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٤٣ ، ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ج١، ص٨٤؛ سليمان عبد الله الخرابشة، مملكة طرابلس في العهد المملوكي، الجامعة الأردنية، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٢٠٩.

كما ظهر نوع آخر من وسائل التسلية هي عروض خيال الظل والتمثيل بواسطة الدمى (الأراجوزات)، وهم فرق تمثيلية هزلية، يظهرون في الأماكن العامة، وحظيت باهتمام الأمراء والسلاطين على السواء(١)، وقد أخذ الشعب هذه العادة بإحضارهم في مناسبات الزواج والختان لعرض تمثيلياتهم الظلية(٢).

ووصف ابن أبي حجلة لعبة الشطرنج بأنها "لعبة الملوك والأكابر"(٣)، وهي من الألعاب التي اشتهرت عند السلاطين والأمراء وقد وردت إشارة إلى أن السلطان لاجين قُتل في أثناء لعبة للشطرنج(٤).

الطبقة الثانية:كبار المتعممين والتجار:

المتعممون: وهؤلاء يمثلون الطبقة الثانية بعد طبقة المماليك الحاكمة، لقد حظيت هذه الطبقة باحترام السلاطين والعامة على السواء، وكانت العادة أن تُسند إليهم عدة وظائف دينية: كقاضي القضاة، والقضاة، والعسكر، وإفتاء دار العدل، ووكالة بيت المال، ونقابة الأشراف، ومشيخة الشيوخ، والحسبة، والخطابات والتدريس(٥). ولم يقتصر

---

(١) ابن صصري، محمد بن محمد (ت بعد ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، عني بتحقيقه وترجمته ونشره: وليم م. بيرنر، جامعة كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٦٣م، ج٢، ص٥٩.

(٢) إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩.

(٣) ابن أبي حجلة، شهاب الدين أحمد بن يحيى المغربي (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م)، أنموذج القتال في نقل العوال، تح: زهير أحمد القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ص٢٢،٢١.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٩٩.

(٥) فصّل القلقشندي في أعمال أرباب تلك الوظائف على النحو التالي: قضاء القضاة: وهم أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، أعلاهم الشافعي، ويليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي. – قضاة العسكر: صاحبه يحضر بدار العدل مع القضاة، ويسافر مع السلطان إذا سافر- إفتاء دار العدل: يحضر مع السلطان، وفي دمشق وحلب مفتيان شافعي وحنفي- وكالة بيت المال: موضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته – نقابة الأشراف: موضوعها التحدث عن ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه من فاطمة بنت الرسول ﷺ، وهم المراد بهم بالأشراف، والفحص عن أنسابهم ونحو ذلك. – مشيخة الشيوخ: وموضوعها التحدث على جميع الخوانق والفقراء – الحسبة: موضوعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. – الخطابات: موضوعها تولي الخطب في المساجد – التدريس:وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو وغير ذلك. صبح الأعشى، ج٤، ص٣٥-٤٠.

عمل المتعممين على الوظائف الدينية، بل منهم من سلك الوظائف الديوانية كالوزارة[١] وكتابة السر[٢] ونظر الجيش[٣]، ونحو ذلك.

وتمّتع كبار العلماء بمركز اجتماعي واقتصادي كبير، فيتحدّث الرحالة عن القصور الفخمة التي سكنوها والتي يقف أمامها البوابون صيفًا وشتاءً، وفي الأماكن نفسها التي سكن فيها كبار الأمراء والمماليك[٤] بالإضافة إلى أن الدولة منحتهم الجوامك[٥] النقدية الشهرية[٦]، وما كانوا يأخذونه من مردود الأوقاف والأحباس التي أوقفت على المدارس والمساجد والبيمارستانات التي أشرفوا عليها[٧].

أما فئة كبار التجار: فكان وضعهم الاجتماعي مُميزاً، وارتبط بعضهم بعلاقات قوية بالسلاطين المماليك، وكثير منهم أهّله وضعه المالي ليقرض السلاطين مبالغ كبيرة، فعلى سبيل المثال استدان المنصور قلاوون مبلغ ستين ألف دينار من أحد التجار[٨].

(١) **الوزارة:** هي أجلُّ الوظائف وأرفعها رتبة. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢٤، ص٢٨.

(٢) **كتابة السر:** موضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودًا وصدورًا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠، ١٠٤ .

(٣) **نظر الجيش:** موضوعه التحدث في الإقطاعيات، أما في كتابة مربعات تكتب بما يعينه النائب من الإقطاعيات المتوافرة عن أربابها بالموت ونحوه، وتكميلها بخطوط ديوانية، ويجهزها النائب إلى الأبواب الشريفة ليشملها الخط الشريف السلطاني. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٦.

(٤) القزويني، وصف دمشق في أيام الظاهر بيبرس، نشرها أحمد أيبش، منشورات سلسلة منتخبات من التراث، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م؛ البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ص٨١ .

(٥) **الجوامك:** جمع جامكية، لفظ فارسي معناه:مرتب الجندي أو الخادم. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ١١٩؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٠٤.

(٦) حسن أحمد سعيد خصاونة، طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص٧٥ .

(٧) سعيد عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، عالم الفكر، مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت، (إبريل ، مايو ، يونيو)، ١٩٨٠م، ص٩٣ .

(٨) هذا التاجر هو أبو البقاء توبة بن علي بن مهاجر التكريتي، لما أخذت التتار بغداد حضر إلى الشام، ولاه الملك المنصور كتابة الخزانة، ثم نقل إلى وزارة الشام وكان وزيرًا لخمسة ملوك، وهم: الأشرف، والمنصور، والعادل كتبغا، ولاجين، والناصر، وكان حسن الأخلاق، توفي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م ودفن بتربته بسفح قاسيون. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٤١.

واشتملت ثرواتهم على ما امتلكوه من كروم وبساتين وحدائق، كما امتلكوا الأسواق والمتاجر والحمامات ونحو ذلك[١]، وسكنوا في قصور فخمة أنفقوا على بنائها مبالغ كبيرة، فقد تكلف أحدهم ببناء بيته مبلغ خمسة آلاف دينار، وبلغت قيمة بيت آخر خمسين ألف دينار، ووصل البذخ عند أحدهم أن أنفق على جهاز ابنته عشرة آلاف درهم، وكان ذلك في سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م[٢].

الطبقة الثالثة: العـــامــــة:

وهو مصطلح يشمل صغار التجار والفقهاء وأصحاب الحرف والصنائع والفلاحين[٣] وأصحاب الحوانيت، والباعة المتجولين، والعُمال كالنجارين والبنائين، والحرفيين، ويُضاف إلى هؤلاء عمال الدباغة، وسائقي البغال والحمير، وغيرهم[٤].

وبوجه عام كان العامة يلاقون العناية والاهتمام من سلاطين المماليك خاصة، فمنهم من فرّق الصدقات عليهم في كثير من المناسبات، وأوقفوا الأوقاف من أجل صرف ريعها على الفقراء والمحتاجين[٥].

وكان بعض النواب يقيمون العلاقات الجيدة مع الأهالي، ففي سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، أولم أهل الصالحية وليمة كبيرة حضرها النائب، وبالمقابل أولم النائب وليمة كبيرة حضرها غالب أهل دمشق[٦].

---

(١) ايرا مارفين لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص١٨٧، ١٨٩؛ خصاونة، طبقات المجتمع، ص١٠٣؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٤٢.

(٢) كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ٢مج، مج١، نشر بدعم الجامعة الأردنية، مطبعة التوفيق، عمان، ط١، ١٩٨٣م، مج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط١، ١٩٨٥م، رقم الوثيقة (٢٠٩)، مج٢، ص١٢٠.

(٣) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٠٢؛ لابيدوس، مدن الشام، ص٦٣٧؛ مدن إسلامية، ص١٤١؛ أحمد رمضان أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل السمعية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١٠٠؛ عاشور، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية ، ص٥٩.

(٤) لابيدوس، مدن الشام، ص ص. ١٣٧،١٣٨.

(٥) خصاونة، طبقات المجتمع، ص١٢٤.

(٦) ابن طولون، محمد بن طولون الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص١٦٣.

وعندما يقع على العامة ظلم من قبل بعض نواب المماليك كانوا يحتجون على هذه المظالم بعدة وسائل، حسب المظلمة التي كانوا يتعرضون لها، فمن هذه الأساليب: التكبير ورفع الأعلام، حيث كانوا يتجمعون في أحد المساجد، ويحملون المصاحف ويرفعون الأعلام، ويكبّرون على الشخص الذي كان يتسبب في أية مظلمة، وكثيرًا ما كانت هذه الوسيلة تنجح في رفع الظلم عنهم[١].

وفي بعض الأحيان كانوا يرسلون من ينوب عنهم للشكاية عند السلطان ضد أحد النواب أو الأمراء[٢]، ففي سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م أصدر السلطان قايتباي المحمودي مرسومًا جاء فيه: "أن الرعية رفعتة إلينا أنه طرح السكر بمبلغ ٣٠ درهمًا الرطل، وحصل لهم الضرر الزائد، ومرسومنا بأن يجمع المعلمين والسماسرة، ويقوم بحيث لا يحصل الحيت على الرعية والديوان"[٣]. وعندما يعمُّ الغلاء في البلاد كانوا يشتكون للنائب من أجل مساعدتهم وتخفيض الأسعار، ففي سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م استغاث أهل دمشق في الجامع بسبب طرح المحتسب ثلاثمائة وستين غرارة قمح على الناس[٤].

وعندما لم تنجح هذه الوسائل في إزالة الظلم كانوا يلجأون إلى المواجهة، ففي سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م ثار أهل دمشق على النائب وطردوه من المدينة[٥]، وحدث الشيء نفسه في مدينة حلب في سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣هـ[٦].

---

(١) البصروي، الشيخ علاء الدين بن يوسف الدمشقي الشافعي (ت٩٠٥هـ/١٤٩٩م)، تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق من سنة ٨٧١هـ ولغاية ٩٠٤هـ)، تح: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١١٢/ ١١٣/ ١١٤؛ ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ق١، ص٣٨، ٥٤، ٥٧، ١٢٢، ١٤٥، ٢٠٢ .

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٥٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١١٥ .

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٤١.

(٤) البصروي، صفحات مجهولة، ص١١٠ .

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٩،٨٨.

(٦) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٥٢٠؛ الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح:حسن حبشي، ٣ج، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، د.ط، ١٩٧٣م، ج٣، ص٣٢٤ .

وتميَّز المجتمع الشامي بكثرة الاحتفالات والمناسبات الدينية، ونلاحظ مظهرًا اجتماعيًّا يظهر في مشاركة الدولة المملوكية، متمثلة في سلاطين المماليك والأمراء، لعامة الناس في كثير من المناسبات الدينية[١].

وحرص سلاطين المماليك في تلك الحقبة على أن تكون علاقتهم بطبقة العلماء والشيوخ قوية ومتينة، إذ تعطيهم هذه الرابطة الاجتماعية دعمًا في رسوخ الحكم؛ لما كان يتمتع به العلماء من مكانة عالية بين عامة الناس. وقد امتازت هذه الطبقة بميزات معينة طوال عصر المماليك، وأهم الامتيازات التي تمتَّع بها المعممون: نفوذهم في الدولة واحترام السلاطين وإجلالهم لهم[٢].

وأدرك سلاطين المماليك أهمية بناء علاقة طيبة مع شعبهم كعنصر أساسيّ في استمرار حكمهم لهذه البلاد، فكان من الصور الاجتماعية التي تدلل على ذلك اهتمام سلاطين المماليك بالمجتمع أن يتركوا الوظائف الدينية والديوانية لأهل البلاد في مصر والشام، فكان القضاة والمحتسبون، ونظار الدواوين، والكتاب من ذوي الكفاءات العلمية والأخلاقية من أهل البلاد[٣].

ورصدت الأوقاف الوفيرة حتى تؤدي تلك المؤسسات وظائفها كاملة لخدمة الناس، وما تلك المؤسسات إلا دليلٌ على اهتمام الدولة المملوكية ورعايتها لأفراد المجتمع، بالإضافة إلى تنافس الموسرين بطرْق كل أبواب الخير والبر والإحسان، ككبار التجار الذين أسهموا ببناء المؤسسات التي تخدم المجتمع كالمدارس والمساجد، وعطفوا على الفقراء فأَوْلَوْهم اهتمامهم وقدموا لهم كثيرًا من المساعدات[٤].

كما أن كثيرًا من العلماء ساهموا أيضًا ببناء المنشآت والمؤسسات التعليمية مثل القاضي أحمد بن أبي بكر الإسكندري الذي بنى مدرسة للشافعية في طرابلس[٥].

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٦٥؛ المقريزي، السلوك، ج٦، ص٤٣٧.

(٢) عاشور، المجتمع المصري، ص٣٦،٣٥.

(٣) الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية، ص٥٨، ٦٢.

(٤) خصاونة، طبقات المجتمع، ص١٠٢، الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٤٢.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢، حيدر آباد الهند، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ج١، ص١٢٩.

وكثرت المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية في العصر المملوكي، حتى أدّت دورًا كبيرًا في خدمة المجتمع بنشر التعليم ، وارتفاع المستوى الثقافي بين أفراد المجتمع خاصة أن التعليم كان بالمجان؛ مما فتح الطريق أمام أبناء الفقراء والأيتام والغرباء. ومن ناحية أخرى أوجد اهتمامهم الشديد بالمساجد والجوامع نوعًا من الاطمئنان النفسي في نفوس العامة بأن الدولة المملوكية تحرص على الدين الإسلامي ونشره، كما حرصت على بناء الأربطة والزوايا للفقراء المحتاجين، والخانقاوات للصوفية المتعبدين، والبيمارستانات للمرضى[١].

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٢٢؛ الحجي، بعض الأبعاد الاقتصادية، ص٥٨-٥٩.

الفصل الأول

موارد ونفقات رعاية الفئات المحتاجة

المبحث الأول : موارد الدولة الإلزامية.

المبحث الثاني : نفقات الدولة التطوعية.

المبحث الثالث: نفقات فئات المجتمع الإلزامية والتطوعية.

المبحث الأول

موارد الدولة الإلزامية

مدخـــل:

إن مسؤلية الدولة في رعاية الفئات المحتاجة مسؤلية شاقة وخطرة. فهي المسؤلة أولاً وأخيرًا عن الطبقة الفقيرة التي لا تجد المال، أو العاجزة التي لا تستطيع العمل، أو المشردة التي لا تجد العائل، أو المعطلة التي لا تجد وسائل الكسب؛ ولهذا فإن الحاكم مسؤل أمام الله هل أدى الحقوق وحكم بالعدل، أم أهمل وقصر؟

فينبغي هنا أن نحدد هذه المسؤلية، وهي تحدد بمساعدة الفرد على الاستفادة من قدراته ومهاراته، بتهيئة سبل العمل، فالأصل أن يكفي الإنسان نفسه بنفسه بأن يكدح ويحصل على كفايته من عمل يمينه، فالمنهج الإسلامي يقوم على مساعدة الفرد في الاستفادة من قدراته وإمكاناته الذاتية؛ للتغلب على مشكلته بما يصون كرامته[١]، من خلال عمل يؤديه بدلاً من الاعتماد على الصدقة؛ لذلك فإن رعاية الدولة تتمثل في تسهيل سبل العمل والكسب للأفراد، وإقامة المشروعات النافعة لتشغيليهم، وما تقدمه من خدمات للمجتمع، كالإعفاء من الضرائب أو إيصال المرافق، أو شق الطرق[٢]، ونحو ذلك مما يعم بها الخير جميع أفراد المجتمع، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك فئاتٍ تحتاج إلى رعاية خاصة من قبل الدولة والمجتمع، فوجب على الدولة هنا كفالة رعاياها من المحتاجين من بيت المال قدر حاجتهم، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "والمحتاجون إذا لم تكفهم الزكاة أعطوا من بيت المال على وجه التقديم على غيرهم من وجوه الصرف"[٣].

---

(١) محمد بن أحمد الصالح، الرعاية الاجتماعية في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، مكتبة الإسكندرية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٥٠-٥١.

(٢) عبد العزيز الخياط، المجتمع المتكافل في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص٢٤٤.

(٣) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم الحراني (ت٧٢٨هـ/١٣٢٨م)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ، ص٥١.

وكان من بين الضوابط الإدارية التي قامت بها الدولة المملوكية لتحقيق التوازن الاقتصادي الاجتماعي ما عرف ببيت المال المعمور (ديوان النظر)، كانت تجمع فيه موارد الدولة المالية، وعن طريقه تحدد نفقات الدولة(١).

وقد تنوعت موارد بيت المال فاشتملت على عدة أنواع، هي: الزكاة، والخراج، والجوالي، والعشور، والمواريث الحشرية، والأوقاف، والضرائب(المكوس)(٢).

وسنتناول تلك الموارد بشيء من التفصيل خلال العصر المملوكي.

أ- الزكـــاة:

جاءت كلمة الزكاة في اللغة بعدة معانٍ؛ استعملت جميعها في آيات القرآن وهي: الطهارة، والنماء، والبركة(٣).

وتعددت أيضاً تعريفاتها الشرعية عند الفقهاء، بحسب تعدد وجهات النظر إليها من حيث المكلفين بها، والمال الخاضع لها، وسلطة فرضها. ومن التعريفات الجامعة لها ما ذكره الماوردي: هي اسم لأخذ شيء مخصوص من مال مخصوص على أوصاف مخصوصة لطائفة مخصوصة(٤).

---

(١) فتحية النبراوي، النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٧، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص١١٦. أما إسماعيل بيومي، فيختلف في تسميته ويطلق عليه (ديوان النظر)، ويرى بأن ديوان بيت المال أحد روافده، انظر: إسماعيل البيومي، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨م، ص١١٤.

(٢) اعتمد سلاطين المماليك تلك الموارد في سياستهم الاقتصادية، فهي موارد شرعية دورية أقرها الشريعة؛ إلا أن بعض الموارد المالية قد يكون مصدرها الاجتهاد، كما هي الحال في الخراج والعشور التي أُدخلت في موارد الدولة أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ؛ الأمر الذي دفع القلقشندي إلى تقسيم موارد الدولة إلى قسمين هما: موارد شرعية، وموارد غير شرعية. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، (باب الزاي)، ج١٤، ص٤٥٨ ؛ الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص١١٥.

(٤) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، وهو شرح مختصر المزني، تح: علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص٤.

وهي واجبة على كل مسلم، تؤخذ من أغنياء المسلمين وتوزع على فقرائهم، وصاحبها مخيَّر بين أن يدفعها للسلطان أو نائبه، أو يوزعها بنفسه[١].

وتُعَدُّ الزكاة من الموارد المهمة عند المماليك، وعين لها موظف مختص يطلق عليه ناظر الزكاة، وممن تولى تلك الوظيفة في بلاد الشام علي بن أبي الفتح الساوردي[٢]، ويبدو من خلال سيرته بأنه كان مقربًا من التجار. وقد أشارت المصادر المملوكية إلى وظيفة ناظر[٣] الزكوات بأنه يجمع أموال الزكاة سنويًّا من الأغنياء، وفق ما هو مسجل لكل صاحب مال، وكانت تلك المبالغ مثبتة في دفاتر لا تتبدل، حتى إن صاحب المال إذا فَقَدَ أمواله بقي الربط المقرر عليه ثابتًا، وإذا توفي أخذ أموال الزكاة من أولاده، وأولاد أولاده، أو أقاربه، ولو بقي منهم واحد[٤]؛ وهذه من المظالم التي أثقلت كاهل الشعب، مع مخالفتها للشريعة، وفي بعض الأحيان تكون الظروف السياسية التي تعيشها البلاد سببًا في تعدي السلطات المملوكية على حقوق شعبها الشرعية. فقد كان السلطان قطز[٥] يجمع الزكاة قبل موعدها، بل كان يضاعفها نتيجة لحالة الحرب التي عاشتها الدولة في

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٢٩.

(٢) الساوردي: علي بن أبي الفتح بن إبراهيم الساوردي الأصل، البعلبكي المولد، اتصف بالحشمة والرئاسة، وحسن الملبس والتأنق في المسكن والمأكل، كان مشكور السيرة، توفي سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م. للمزيد انظر: اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٦٢هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م ، ج٢، ص٤١٩.

(٣) **ناظر**: جمعه نظَّار، وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال التي قاموا بها. انظر: أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٣٩٤؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٤٩.

(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٣.

(٥) **المظفر قطز**: سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، السلطان الثالث من ملوك الدولة المملوكية، حكم سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م، انتصر على المغول في عين جالوت الشهيرة. وقتل سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٠٠؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٢٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٨٩.

عهده[١]. وجبى[٢] الظاهر بيبرس سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م الزكاة المقررة على ودائع التجار التي كانت مودعة لدى أحد القضاة[٣]، إلى أن جاء السلطان قلاوون، فأبطل وظيفة ناظر الزكوات[٤].

ويذكر ابن حجر في أحداث سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م أن السلطان الأشرف برسباي[٥] عقد مجلسًا بسبب أخذ الزكاة من التجار، وكان الهروي قد حسَّن للسلطان ذلك، فأمر بحضور القضاة بالصالحية، وأن يحضر معهم الهروى[٦] وابن حجى[٧]، فتداولوا الأمر بينهم، وانتهى الأمر على "مرجع جميع الأموال في إخراج الزكاة إلى أربابها، إلا زكاة التجارة فللإمام أن ينصّب رجلاً يقيم على الجادة، يأخذ من المسلمين ربع العشر،

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٩٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٢.

(٢) **جباية**: الجمع والتحصيل يقال: جبى الخراج يجبى جباية، جمعته، والجباية الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل أي يجمع، والجابي: هو الذي يجمع الخراج. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٢٨؛ الرازي، مختار الصحاح، ص٣٩؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٠٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٧٩.

(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٣.

(٥) **الأشرف سيف الدين برسباي** (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م) ، هو السلطان الثاني والثلاثون في ترتيب سلاطين دولة المماليك، والثامن من ملوك الجراكسة، تولى الحكم سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م ، وكان ملكًا جليلاً مهابًا. للمزيد انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٤٢؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د. ت، ج٣، ص٩-١٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص ٢٣٨.

(٦) **الهروي**: قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله الرازي الأصل، ولي قضاء الديار المصرية، ثم ولي كتابة السر بالديار المصرية من قبل السلطان المؤيد، كان إمامًا غواصًا على المعاني يحفظ متون أحاديث كثيرة، وكان رئيسًا مهابًا، حسن الشكل، لين الجانب، توفي ببيت المقدس سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م. انظر: ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد الأسدي (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)، طبقات الشافعية، تح: الحافظ عبد العليم خان، ٤ج، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص١٠٤.

(٧) **ابن حجي**: قاضي القضاة عمر بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد، اكان محسنا للغرباء والواردين عليه، كثير المساعده لأهل العلم والتودد لهم، قتل بمنزله سنة٨٣٠هـ/١٤٢٦م. انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٩٥-٩٨؛ ابن تغري بري، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٤٢.

ومن أهل الذمة نصف العشر، ولا يؤخذ من المسلم في السنة أكثر من مرة"[١] .

ويشير النص إلى أهمية الزكاة كمورد من موارد بيت المال للدولة المملوكية، فقد شاع في زمن المماليك أن يدفع أصحاب الزكوات زكاة أموالهم بأنفسهم؛ مما جعل نفوذ المماليك في هذا المورد ينحصر في فرض الزكاة على التجار المسلمين بنسبة ربع العشر مرة واحدة فقط بإجماع المذاهب الفقهية[٢].

ويؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة عند زيارته لإحدى مدن الشام التي تعرف باسم بـــ (بقطيا[٣]) فقال: "وبها تؤخذ الزكاة من التجار، وتفتش أمتعتهم، ويبحث عما لديهم أشد البحث. وفيها الدواوين والعمال والكتاب، والمشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب. ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر. ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطًا على أموال الناس"[٤].

ب- الخــــراج:

الخراج هو الضريبة السنوية التي تجبى من الأرض المزروعة، يدفعها الفلاح لصاحب الإقطاع؛ ليدفعها لخزانة الدولة[٥].

ويُعَدُّ الخراج من الموارد المهمة التي تدرّ للدولة أموالاً كثيرةً، ومما يدل على أهميته ما

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣٢٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥٢٩.

(٣) **قَطيا**: قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، بيوتهم صرائف من جريد النخل. وقال عنها العمري: " قرية في الرمل جعلت لأخذ الموجبات، وحفظ الطرقات؛ وأمرها مهم، ومنها يطالع بكل وارد وصادر". انظر: ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي (ت٧٧٩هـــ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة بـــ (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: علي المنتصر الكتاني، ٢ج، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـــ، ج١، ص٧٠؛ ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١١١١؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـــ/ ١٩٨٨م، ص٢٢٤.

(٤) **ابن بطوطة**، الرحلة، ج١، ص٧٠.

(٥) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـــ/ ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ص٢٢٧-٢٢٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٥٨-٦٠؛ محيي الدين طرابزوني، النظام المالي الإسلامي، بحث منشور ضمن النظم الإسلامية بأبوظبي، نشر مكتب التربية العربي الأول لدول الخليج، ١٩٨٧م، ج٢، ص١٠٦.

ذكره ابن خلدون في شأن الخراج، حيث قال: "الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالخراج"[١]. وفي العصر المملوكي زاد الاهتمام بالخراج ويُطلق على القسم من المال أو الغلة في الخراج نظام المقاسمة، وهذا النظام كان يعمل به في بلاد الشام[٢]. وكان للمستفيد من الأرض حرية تسديد المبلغ؛ إما جملة، وإما أقساطاً[٣].

وكان يعمل بنظام الضريبة المقررة؛ سواء "زاد المغل[٤] أو نقص" في بعض الأعمال الشامية؛ كمملكة صفد، فقد فرضها الظاهر بيبرس على نواحي الشقيف[٥] بعد فتحها سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م بقيمة ألف ألف درهم، ثم خفضها إلى أربعمائة ألف درهم بعد أن سأله الناس ذلك[٦]. والأراضي في الساحل الفلسطيني كان خراجها يضمن[٧] بخمسين ألف درهم في السنة[٨].

وأما المحاصيل الزراعية في بلاد الشام، ومن أهمها الزيتون، فقد كان يحمل إلى المعاصر، وهناك تستوفى حقوق السلطان، ثم يعهد السلطان إلى النائب ببيع المتحصل، وإرسال ثمنه إلى القاهرة. ومزارع الزيتون إن كانت قديمة فيتحصل نصف المحصول

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٣٩.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٥٨.

(٣) إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص ١٥٦.

(٤) **المغل**: أي الغلة، لفظ فارسي بمعناه (الحبوب). انظر: الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ص٢٠٩. للمزيد انظر: المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م)، التعاريف، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت-دمشق، ١٤١٠هـ، ص٥٤٠؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٣٣٠.

(٥) **الشقيف**: قلعة حصينة جدًا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٥٦؛ ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٠٧.

(٦) النويري، نهاية الإرب، ج٨، ص٢٥٩؛ طه ثلجي الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٧٩-١٨٠.

(٧) **الضمان**: الالتزام، ويتعدى بالتضعيف فيقال ضمنته المال ألزمته إياه، وضمنت الشيء كذا جعلته محتويًا عليه فتضمنته، وشرعًا التزام رشيد عرف له الحق دينًا ثابتًا لازمًا. انظر: المناوي، التعاريف، ص٤٧٤-٤٧٥.

(٨) الطراونة، مملكة صفد، ص ١٨٠.

للدولة، وإن كانت جديدة يؤخذ الخراج على أساس عدد الأشجار، وسعر الزيت، ويسمى خراج عين[(١)][(٢)].

وأما قصب السكر في بلاد الشام، فإنه بعد عصره وجفافه تؤخذ الضريبة على السكر. وكان على المباشرين[(٣)] مراقبة استخراج السكر - وتسجيله في سجلات خاصة[(٤)].

وكان سلاطين المماليك يتشددون في جباية الخراج، وعندما يلمسون تهاونًا من قبل الوزير في جبايته، يعاقب بالعزل[(٥)]، كما كانوا يطالبون ناظر الدولة بالمتأخرات من الخراج[(٦)].

وفي عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ضغطت الدولة على من رويت أراضيهم في هذا العام؛ لكي يدفعوا الخراج مضاعفًا، حتى يعوّض نسبة العجز والفاقد[(٧)]. ولم يتهاونوا في ذلك، إلا في أوقات الشدائد والحروب؛ ففي عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م استخرجت من دمشق أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك، وكان أهل الشام في حالة من الخوف والهلع، من أخبار قدوم التتار، فأبطل ديوان الخراج، وعفي عما بقي من الناس مراعاة لوضعهم النفسي[(٨)].

وعلى الرغم من ذلك نلمس بعض الإشارات إلى صُدور عدد من المراسيم بإعفاء

(١) **خراج العين**: هو مقرر على البساتين والشجريات والكروم والمقاثي، ويستخرج على حكم الضريبة عند إدراك كل صنف. انظر: النويري، نهاية الإرب، ج٨، ص٢٦٠.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٦٠.

(٣) **المباشر**: مصطلح كان يطلق في العهد المملوكي للدلالة على موظف إداري ينظّم حساب ريع الأوقاف ويرتبه، ويكتب متحلصه ومصروفه في سنة. انظر: حسان حلاق والصباغ ، المعجم الجامع، ص١٩٨؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٣٩٥.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٦٠-٢٦١.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٥، ص١٠٢.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٧٥؛ إسماعيل بيومي، النظم المالية، ١٦١.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٨٤؛ إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص١٦٠.

(٨) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تح: عبد الله عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدراسات، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١٧، ص٧٣٥.

الفلاحين من الخراج، كما فعل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عندما سامح أهل دمشق بجملة كبيرة من الغلال[١]، وحذا حذوه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٤هـ/١٣٢٣م؛ عندما أمر نوابه بمسامحة البلاد الشامية بجملة كثيرة من بواقي[٢] الخراج[٣].

ج- الجوالي (الجزية):

لأن الزكاة تُعَدُّ من أهم موارد التكافل الاجتماعي، فهي فرض على المسلمين. أما غير المسلمين فمكلفون بدفع الجزية، أو ضريبة الجوالي، وهي مبلغ من المال مقرر على أهل الذمة؛ من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئة[٤]، والسامرة[٥] البالغين، دون النساء، والصبيان، والعبيد[٦].

وكان لضريبة الجوالي في بداية عصر المماليك ديوان خاصّ بها، وتُعَدُّ ضمن الخاص السلطاني[٧]، وللسلطان حرية التصرف بها[١]. إلا أن ذلك لم يمنع بعض السلاطين من

(١) شافع بن علي بن عباس (ت٧٣٠/١٣٣٠م)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تح: عبد العزيز بن عبد الله الخويطر ، الرياض، ط٢ ، ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩م، ص١٤٥.

(٢) **بواقي**: لفظ متداول في العصر المملوكي، يقصد به الخراج المتأخر في كل سنة عند الضمّان. انظر: مصطفى معجم المصطلحات والألقاب، ص٩٠؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٧٠.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص ١٣٥؛ ابن حبيب، الحسن بن محمد (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٩٦.

(٤) **الصابئة**: قوم يزعمون أنهم من ملة نوح – عليه السلام – قبلتهم مهب الشمال عند منتصف النهار، وفي الاصطلاح هم قوم ليسوا يهوداً ولا نصارى، يقولون بوحدانية الله، وهم من العرب الذين خرجوا من الوثنية، ويعدون أنفسهم من الموحدين، ولكنهم يعتقدون بتأثير الكواكب والنجوم، وقف الإسلام منهم موقف أهل الكتاب. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٢٨٣.

(٥) **السامرة**: طائفة من اليهود ولا يسكنون في غير نابلس إلا لحاجة من عمل وغيره، ويزعمون أن مسجد نابلس هو القدس، وأن بيت المقدس ملعون عندهم، حتى إذا اجتاز أحدهم عليه أخذ حجرًا فرجمه. انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٤٧.

(٦) ابن مماتي، أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص ٣١٨- ٣١٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٠؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٠٣.

(٧) الأموال الخاصة بالسلطان ويتولاها موظف عرف بناظر الخاص، أحدث في زمن السلطان الملك الناصر حين أبطلت الوزارة في عهده، وهو الذي ينظر في الأموال الخاصة بالسلطان. انظر: العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٠٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠ . =

استثمار أموالها في تصريف شؤون دولتهم، فاستخدمت في بعض الأعمال العمرانية التي تخدم الناس، وقد ذكر المقريزي في حوادث سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أن السلطان المنصور قلاوون قرر أن تكون جوالي أهل الذمة بالقدس والخليل(٢) وبيت لحم وبيت جالا مرصدةً لعمارة بركة في بلد الخليل(٣).

وكان بعض تلك الأموال التي تجبى من الجزية يدخل في بيت المال، وبعضها الآخر يخصص للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم(٤) إلى أن استحدث السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام٧١٦هـ/١٣١٦م بعض التغييرات، فأجرى مسحاً عاماً لأراضي مصر فأصبحت من ضمن الإقطاعيات، حيث أضيفت جوالي كل بلد إلى متحصّل خراجها.(٥). وبعد هذا الإجراء انقسمت الجزية إلى قسمين(٦):

أ- قسم يجبى بحاضرة الديار المصرية القاهرة، وكان بهذا القسم ناظر جوالي، يوليه السلطان، ويتبعه عدة مباشرين، وتحت يده حاشر للنصارى، وآخر لليهود؛ ليخبروه عمن أسلم من أهل الذمة، ومن هاجر، ومن هلك، ومن ولد.

ب- قسم خارج حاضرة الديار المصرية، وكانت جزية أهل الذمة في كل بلد منه تذهب إلى مقطعها.

ويبدو من خلال إيرادات الجوالي أن مقدارها قد قلَّ عن المعدلات التي سبقت قرار

=(١) إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص١٦٥؛ ليلى أمين عبد المجيد، النظم المالية والإدارية في بلاد الشام عصر دولة المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والحضارة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ٣٥٢.

(٢) **الخليل**: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٨٧؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٨٠؛ العمري، مسالك الأمصار، ج١، ص٢٣١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١٦٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣١ -٥٣١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص ٢٦٦.

(٥) ابن أيبك الدواداري، الدرر الفاخر،ج٩، ص٢٨٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٠٤، ٥٠٧؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٤ج، ج١، ص١٥٧- ١٥٨، ١٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٢-٤٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٦٩.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص٥٣٠.

السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، حتى وصلت إلى أربعة دراهم فقط[١]. ويرجع النويري ذلك إلى قرار الروك الناصري[٢]، الذي عمل على اتساع مجال النصارى، وإعطائهم حرية التنقل بين القرى والأماكن، مما ساعدهم على التهرب والتحايل على دفع الجالية لمقطع البلدة التابعين لها[٣].

والباحثة لا تؤيد هذا التفسير؛ لأنه منذ صدور هذا القرار أصبح هناك ديوان للجوالي في أنحاء البلاد كافة؛ ففي بلاد الشام كان كل نائب من نواب الشام يحصّل ذلك من نيابته، ويعين شادًا[٤] لجمع هذه الجوالي، وكان ناظر الجوالي يعد كشوفًا بأسماء أهل الذمة، وترد الأسماء هجائيًا لتسهيل مهمة ذلك الموظف، فإذا أخذت الجالية من أحدهم كتب بها "إيصالاً"، وشطبت عن اسم من أداها، وإذا عاد أحد النازحين إلى البلد، ولم يكن قد أدى الجزية أخذت منه، وإذا كان قد سددها وأحضر الإيصال الدال على ذلك نقل المبلغ إلى حساب البلد[٥].

وكان يلزم في كل سنة رئيس اليهود، ورئيس السامر، وقسيس النصارى بكتابة أوراق -يسمونها الرقاع- بمن عنده من أسماء أبناء الطوائف، ويعين في آخر الرقاع من اهتدى بالإسلام، أو مات، أو سافر، واسم البلد الذي سافر إليها، وكانت الرقاع شاهدًا أو إقرارًا على من يبخل بهذه الأسماء[٦].

فكيف يبتيح ديوان الجوالي - وهو بهذه الدقة والنظام- الفرصة للتهرب والتحايل!!

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٢٩.

(٢) للمزيد عن الروك الناصري انظر: الدواداري، الدرر الفاخر، ج٩، ص٢٨٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٠٤، ٥٠٧؛ الخطط، ج١، ص١٥٧- ١٥٨، ١٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٢-٤٥.

(٣) نهاية الإرب، ج٣٢، ص٢٢٩.

(٤) **شاد:** موظف مالي له سلطة المراقبة والإشراف والتفتيش وغالبا ما يلجأ إلى الشدة في عمله. انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥-١٩٦٦م ، ج٢، ص٦٠٤ — ٦١١.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٠.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٠؛ نسيم رزيق جمعة أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية غزة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ١٦٠-١٦١.

ويشير المقريزي إلى انتشار ضريبة الجوالي في أكثر من مدينة؛ مثل: جوالي الذمة بالقدس، وبلد الخليل، وبيت لحم[١][٢]. هذا ما يؤكده العليمي في حوادث سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م عن وصول الأمير جانم[٣] الخاصكي[٤] إلى الشام، ومعه ناظر الجوالي، وجمع من أهل الذمة ثلاثمئة دينار [٥]. وكانت حصيلته تذهب إلى ديوان بيت المال[٦].

د- المواريث الحشرية :

هي مال منْ يموت، وليس له وارث خاص: بقرابة، أو نكاح، أو ولاء[٧] . وقد قسم القلقشندي المواريث الحشرية إلى قسمين[٨]:

الأول: قسم في حاضرة الديار المصرية، وكان عليه ناظر، يوليه السلطان بتوقيع شريف، ومعه مباشرون؛ من: شاد، وكاتب، ومشارف، وشهود، وهي مضافة إلى ما تحت نظر الوزارة من سائر المباشرات، ومتحصلها يحمل إلى بيت المال.

---

(١) **بيت لحم**: بليد قرب بيت المقدس، المشهور أن عيسى عليه السلام ولد فيها. انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج١، ص٢٣٨.

(٢) السلوك، ج ٢، ص ١٦٥.

(٣) لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة، ما عدا إشارة لوفاة شخص يحمل الاسم نفسه، بأنه توفي سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م. انظر: ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت ٩٢٠ هـ/١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج٧، ص٢١٢.

(٤) **الخاصكي**: لفظ مملوك مفرد، جمعه الخاصكية، "ك" هي علامة التصغير والتعظيم في اللغة الفارسية. و"ي" هي للأفراد في اللغة الفارسية أيضًا، وفي الاصطلاح أطلقت في العهد المملوكي على نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارًا يجعلهم في حرسه الخاص، وجعل هذا الاسم بهم لأنهم يحضرون على السلطان في أوقات خلوته وفراغه، وينالون من ذلك ما لا يناله كبار المتقدمين، ويحضرون في طرفي كل نهار في خدمة الإصطبل والقصر، ويتأنقون في مركوبهم وملبوسهم، ويخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة، والعطايا الجزيلة. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٦؛ حسان حلاق، عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية (ذات الأصول العربية والفارسية والتركية)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٧٨-٧٩.

(٥) الأنس الجليل، ج٢، ص ٣١٨.

(٦) إسماعيل البيومي، النظم المالية، ص٢٨٠.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٠.

(٨) صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٢.

الثاني: قسم خارج عن حاضرة الديار المصرية، كان لها مباشرون يحصلونها، ويحملون ما يتحصل منها إلى الديوان السلطاني .

وقد جرت عادة هذا الديوان أن كاتبه في كل يوم يكتب تعريفًا بمن يموت؛ من حشري، أو أهلي، وتفصيله من رجال ونساء، وصغار، ويهود ونصارى، وتُكتب منه نسخ لديوان الوزارة[١]، ولناظر الدواوين[٢]، ومستوفي الدولة[٣]، ويسدّ من وقت العصر، فمن أطلق بعد العصر أضيف إلى النهار القابل[٤].

وقد وضع مباشرو ديوان المواريث الحشرية ضوابط معينة، تكفل لهم التحكم في تركات الميت؛ منها اشتراطهم على مغسلي الميت ضرورة تبليغهم قبل تكفينه؛ لكي يحصروا تركته، وما إذا كان له ورثة، أو تحال ثروته إلى بيت المال[٥].

وهذا يشمل أيضًا أهل الذمة؛ فقد ذكر المقريزي في هذا الصدد: "كل من مات من اليهود والنصارى والسامرة – ذكرًا كان أو أنثى – يحتاط عليه ديوان المواريث الحشرية – بالديار المصرية وأعمالها، وسائر الممالك الإسلامية – إلى أن يثبت ورثته ما يستحقونه بمقتضى الشرع، فإذا استحق يعطونه بمقتضاه، وتحمل البقية لبيت مال المسلمين، ومن مات منهم ولا وارث له، حُملت تركته إلى بيت المال. ويجرى على موتاهم الحوطة من ديوان المواريث ووكلاء بيت المال مجرى من يموت من المسلمين إلى أن تُبيَّن مواريثهم[٦].

---

(١) **ديوان الوزارة**: هو الديوان الذي يتولاه الوزير بنفسه في العهد المملوكي. انظر: حسان حلاق والصباغ، المعجم الجامع، ص٩٨.

(٢) **ناظر الدواوين**: هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة، ويشارك الوزير في التصرف في الأمور المالية والرواتب والتصرفات العامة. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٠.

(٣) **مستوفي الدولة**: مصطلح كان يطلق في العهد المملوكي للدلالة على موظف مهمته ضبط الأموال الديوانية، وكتابة حساباتها، وربما وجد مستوفيان للدولة أو أكثر. انظر: حسان حلاق والصباغ، المعجم الجامع، ص٢٠٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣٢.

(٥) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٤١٤؛ إسماعيل بيومي، المواريث الحشرية في عصر سلاطين المماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، مج٢، ع٤٥، ٢٠٠٩م، ص١٠.

(٦) السلوك، ج٤، ص٢٠٢.

وما يهمنا في هذا المورد أن نجيب عن سؤالين.

الأول: هل أضرَّ تحصيل الأموال من المواريث الحشرية بالحياة الاقتصادية للطبقات المتوسطة؟

الثاني: هل استفاد الشعب -خاصة الفئات المحتاجة - من نفقات هذا المورد المالي؟

لكي نجيب عن السؤال الأول لا بد أن نعلم أن محصلي المواريث لم يكن يهمهم الطبقات البسيطة الفقيرة؛ لأنها لا تترك في الأصل ما يهم المحصلين، فهم طبقة كادحة، لم يكن لديهم ما يفقدونه، ولم يتركوا خلفهم ثروات تورث. من ناحية أخرى، نجد أن هذا الديوان أضرَّ بطبقة كبيرة من الأثرياء، فقد جرّ على ورثتها وبالاً وفقرًا، مما كان له أكبر الأثر في إحداث تغييرات اجتماعية في المجتمع، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ العصر المملوكي، وقد تنوعت الحجج والأسباب التي اختلقها السلاطين لوضع أيديهم على الثروات دون وضع أدنى اعتبار للورثة الشرعيين؛ ففي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م أخذ السلطان قطز ثلث أموال التركات الأهلية بحجة تأمين الجيوش ضد التتار[١]. ودائمًا ما يتكرر استيلاؤهم على ثروات الأثرياء في زمن المجاعات والغلاء؛ ومنها وضع عدة إجراءات مستحيلة التنفيذ، ولا بد لطالب الإرث من إجرائها، وبالتالي عجز الورثة عن تنفيذها[٢].

ومن بينهم منْ أصدر مرسومًا بمصادرة التركات، حتى لو كان للمتوفَينْ ورثة، ونقل التركات إلى الخزانة، مثل الملك العادل زين الدين كتبغا[٣]، الذي أصدر مرسومًا بمصادرة جميع التركات حتى لو كان للمتوفى ورثة [٤].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٠٦.

(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ١١١- ١١٢.

(٣) **الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي:** عاشر سلاطين الدولة المملوكية، تولى الحكم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، وخلع في سنة ٦٩٦ه/١٢٩٦م، فكانت مدة حكمه عامين فقط، فالتجأ إلى صرخد، ثم حماة وتوفي بها سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٧م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٠٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٨، ص٥٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٥.

(٤) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ١١١.

واستغل كثير من سلاطين المماليك البرجية الأزمات الاقتصادية، ووضعوا أيديهم على المواريث الحشرية، ففي سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م تعدّى قايتباي المحمودي على المواريث الحشرية، وفرض الرسوم[١]، منهم أيضًا الأشرف قنصوة الغوري، الذي وُصف بأنه شديد الطمع، والظلم، والعسف، والبخل، وإذا مات أحدٌ كان يستولي على كل ماله جميعًا، ويترك أولاده فقراء [٢].وما قام به وزير الدولة[٣] في عهد السلطان فرج بن برقوق[٤] عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠م من قبض تركات الموتى جميعًا من ذوي الأموال؛ سواء من كان له وارث أو لم يكن، بل أرجع الميراث ممن أخذه بحق، وشاع بين الناس أن الناصر فرج أمر بتغيير حكم الله[٥]. وهذا يدل على وقوع تجاوزات مالية عدة من قبل الوزراء، مستغلين الظروف التي تمر بها الدولة والناس، وهذا ما دفع المقريزي إلى قوله: "فتعدل فيها الوزارة مرة وتظلم أخرى"[٦].

(١) الصيرفي، علي بن داود المعروف بالخطيب الجوهري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، إنباء الهصر بأبناء العصر، تح: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٨.

(٢) القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي (ت١٠١٩هـ/١٦١١م)، أخبار الدول وآثار الأُوَل في التاريخ، عالم الكتاب، بيروت، د.ت، ص ٢١٩؛ وانظر أيضًا: ابن إياس، بدائع الزهور ،ج٥، ص ٩٠؛ محمد رزق أمين، الأشرف قنصوة الغوري، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٨١.

(٣) **الوزير أمين الدين بن الهيصم** : إبراهيم بن عبد الغني بن إبراهيم، الوزير الصاحب أمين الدين بن القاضي مجد الدين وناظر الخواص، الشهير بابن الهيصم، وزير البلاد المصرية، توفي عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م. انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ص ١١٣-١١٥.

(٤) **الناصر فرج بن برقوق:** وهو الملك الناصر زين الدين أبو "السعادات"، السلطان السادس والعشرين من سلاطين الدولة المملوكية، والثالث من الجراكسة ، تولى حكم مصر بعد وفاة والده وعمره ١٣ عامًا سنة٨٠١هـ/١٣٩٨م، وتكررت معه مأساة أبيه حيث تنحى عن الحكم ثم عاد إليه سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، وسادت الفتن الاضطرابات في عهده وحدث قحط عام في البلاد مصحوبًا بالوباء، ثار عليه مماليك والده وانتهى أمره بالقتل سنة٨١٥ هـ/ ١٤١٢م. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٨٢٠-٨٢٢.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص ٤٥٣.

(٦) الخطط، ج١، ص٢٠٨.

وما ذكر من أمثلة لا يمثل بالضرورة موقف الدولة المملوكية، فهي حالات فردية من ناحية، ولأسباب وعوامل من ناحية أخرى؛ بدليل أن السلطان الظاهر بيبرس ألغى ما فرضه السلطان قطز من رسوم، ثم أعفى ورثة المتوفين من دفع حصة الخزانة؛ حيث سلم ابنة صارم الدينبكناش الزاهدي[١]جميع أملاك والدها في البيرة[٢] بعد وفاته [٣]. وعندما تولى الحكم السلطان المنصور حسام الدين لاجين أمر وزيره بعدم المساس بالمواريث دون حق[٤].

ومثل هذه الأوامر السلطانية لتلقي الضوء على حسنات تلك الدولة في رعاية الفئات المحتاجة من رعاياها.

ونستطيع أن نتلمس نفقات ومصروفات ديوان المواريث الحشرية من عدة إشارات؛ منها ما ذكره الخيربيتي عند حديثه عن مصرف اللقطات والتركات التي لا وارث لها، وحدد مصارفها في: "نفقة اللقيط، والمرضى، وأدويتهم – إذا كانوا فقراء – وتكفين الموتى الذين لا وارث لهم، ولا مال لهم، وعقل جناية اللقيط، ونفقة من هو عاجز عن التكسب، وليس له من يقضي نفقته"[٥].

ومما يلحظ على هذه الفئات التي ذكرها الخيربيتي أنها فئات محتاجة إلى رعاية اجتماعية ومادية؛ مما يؤكد دور مورد المواريث الحشرية في رعاية الفئات المحتاجة. كذلك لوحظ أنه في أثناء المجاعات والأوبئة ساهمت أموال المواريث في التخفيف من حدة هذه

(١) **صارم الدينبكناش الزاهدي**: بكتاش بن عبد الله الفخري، الأمير بدر الدين، أمير سلاح الملك الصالح. وكان أميرًا جليلاً، خبيرًا بالحروب، سديد الرأي، كثير الخير، سخيًا، شجاعًا. انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) **البيرة**: في عدة مواضع، منها بلد قرب سميساط، بين حلب والثغور الرومية، ومنها البيرة بين بيت المقدس ونابلس. انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج١، ص٢٤١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٨.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص٢٧٦.

(٥) الخيربيتي، محمود بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٨٤٣هـ/١٤٤٩م)، الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ص٢٩٣.

الأزمات، خاصة في توفير الطعام[١]. وكان لتفشي الطواعين في بلاد الشام أثره على اقتصاد الدولة المملوكية؛ فكان من آثار طاعون سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م؛ أن شلت الحركة التجارية، وعطلت الأسواق الشامية من كثرة منْ مات من التجار[٢].

ولوحظ أن الطاعون الذي تفشى في بلاد الشام سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م أفنى غالبية التجار والغلمان والخدم، مما ترك آثارًا اقتصادية واجتماعية في المجتمع الشامي؛ حيث انعكس سلبًا على أصحاب الطبقة البرجوازية؛ كالتجار وأصحاب الحوانيت؛ من حيث إعلان إفلاسهم، حيث تبدل حال الأغنياء فأصبحوا فقراء يتكففون الناس[٣].

وتشير الوثائق إلى الحِرْص الشديد من الرجال - عندما يشعرون بمرض قد يخشى منه الموت - على أن يتركوا لأسرهم ما يَضْمنون لهم به حياةً كريمة، خاصة إذا لم يكن الزوج قد أنجب من زوجته، لأنه في تلك الحالة سيؤول الأرث إلى بيت المال والمتمثِّل في ديوان المواريث الحشرية، فكان الرجل منهم إما أن يعمل حصرًا بموجوداته قبلَ الوفاة على يد أحد قُضاة الشَّرْع والشهود، ويثبت أنَ تَركته لزوجته أو لأحد من أقربائه[٤]. وأمثلة حصر التركات كثيرًا ما تتكرر في الوثائق كوسيلة للتحايل على ديوان المواريث الحشرية فعلى سبيل المثال: جاء في وثيقة سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م: أنَّ مؤخَّر صَدَاق زوجة الشخص المذكور (من الدراهم الفضة معاملة يومئذ ثلثمئة درهم وستين درهمًا، نصفها

(١) المقريزي، إغاثة الأمة، ص ٣٨؛ إسماعيل بيومي، المواريث الحشرية، ص٣٥.

(٢) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد أيدمر (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، النفحة المسكية في الدولة التركية، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٦٤؛ ابن النجيم، زين الدين بن إبراهيم (ت٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م)، رسالة في ضبط أهل النقل في خبر الفضل في حق الطاعون والوباء، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، تحت رقم ٥٩٣٥، ورقة ٤.

(٣) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٤٧٥؛ ابن عبد الباسط الظاهري، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٤، ص١٣٢.

(٤) للمزيد انظر: علي السيد علي محمود، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، مجلة الدرعية، السنة الثانية ــ العددان ٦، ٧ ربيع الآخر / رجب ١٤٢٠هـ أغسطس - نوفمبر ١٩٩٩م.

مائة درهم وثمانون درهمًا، وذلك صَدَاق الزوجة دَيْنًا على موسى المـــذكور)، وبيعـــت تَرِكته بمبلغ ٢٦٢ درهمًا[١].

ولم يكن هذا التصرُّف قاصرًا على المسلمين وحدَهم، بل شاركهم فيه أبناءُ أهـــل الذِّمَّة من نصارى ويهود في ذلك العصر، فتشير إحدى الوثائق المقدسية التي ترجـــع إلى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، وموضعها حصْر الأرث، أنَّ اليهود كانوا أيضًـــا يســـجلون مواريثهم لَدَى القاضي الشرعي في القدس الشريف؛ فقد جاء فيها "مستحق إرثه وأَقَّر أن فرضه لزوجته سمحه ابنة يهودا الافرنجية، الحاضرة معه بالقدس الشريف مؤخر صـــداقها عليه ستين افلوري[٢] ذهب وهي يومئذ حاملًا منه ومستحق ارثه زوجته المذكورة"[٣].

٥- الأوقاف:

الوقف في اللغة بمعنى الحبس والمنع[٤]، وهو مصدر وقفت أقف بمعنى الحبس. يقال وقفت الدابة إذا حبستها في مكانها، ومنه الموقف؛ لأنّ الناس يُوقفون[٥]. وفي الاصطلاح:حبس العين وتسبيل ثمرتها، أو حبس عين للتصدق بمنفعتها"[٦].

وقد اعتنى المماليك بالأوقاف وأكثروا منها في بلادهم، لأنها أحد الروافد الأساسية لبيت المال؛ حيث يصرف ريعها على جهات البرّ المختلفة، من مؤسسات دينية وصحية، إلى جانب إقامة كثير من المنشآت التعليمية والصحية، والمرافق الأخرى[٧].

---

(١) كامل العسلي، الوثيقة رقم الوثيقة (٢٠٥)، م٢، ص١١٣.

(٢) **افلوري**: تعرف بفلورين أو فلوري نسبة إعرفت في الأسواق الشرقية العربية. انظر: عبدالحمن محمد فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٩٦.

(٣) العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (١٩٧) ، م٢، ص٤٢.

(٤) الجرجاني، التعريفات، ص٣٢٨؛ المناوي، التعاريف، ص٧٣١.

(٥) الطرابلسي، إبراهيم بن موسى (ت٩٢٢هـ/ ١٥٦٦م)، الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص .

(٦) الجرجاني، التعريفات، ص٣٢٨؛ المناوي، التعريف، ص٧٤١؛ محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، دار الوفاء للطباعة (د.م)، ١٩٧١م ، ص ٤٤.

(٧) حمود بن محمد النجيدي، الموارد المالية لمصر في عهد الدول المملوكية الأولى، رسالة ماجستير، كلية العلوم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ١١١ - ١١٣.

٦- المكوس (الضرائب):

تعتبر الضرائب من موارد بيت المال، بتأييد آراء فقهية ترى جواز فرض الضرائب بجانب الزكاة؛ لأن مرافق الدولة كثيرة ومتعددة من دفاع خارجي وأمن داخلي، وصحة وتعليم وغيرها، الأمر الذي يستلزم أموالاً طائلة لتغطية النفقات العامة اللازمة للصرف على هذه المرافق العامة، فكان وجوبًا على أفراد المجتمع خاصة الأغنياء منهم، إعانة الدولة على تغطية الحاجات الضرورية، لاسيما إذا نزل بالمسلمين كارثة، أو نائبة من نوائب الدهر، ومن باب درء للمفاسد والأضرار التي تنجم عن عجز الدولة عن الإنفاق على مرافقها الحيوية(١).

ومسألة الضرائب اختلف فيها العلماء قديمًا وحديثًا؛ فمنهم منْ أجازها بشرط، ومنهم من منعها مطلقًا، ومن أجازها اشترط لجوازها أربعة شروط:

- حاجة الدولة إلى المال، وعدم وجود موارد أُخرى لديْها لسدِّ احتياجاتها؛ لأنه لا يجوز المساس بالملكية الخاصة للمال ما لم تكن هناك حاجة ضرورية مُلحّة وعاجلة للدولة في السِّلم، أو في الحرب.
- عدالة توزيع العبء الضريبي، بمعنى: أنه يُشترط عند فرض الضريبة توزيع العبء الضريبي على أفراد الشعب توزيعًا عادلاً، فيُراعى التفاوت بين دخول الأفراد، ومستواهم؛ غنًى وتوسطًا وفقرًا.
- أن يكون الإنفاق للمصلحة العامة، وليس لمصلحة خاصة للحكام وأتباعهم، أو محاباة ذويهم وأشياعهم.
- يجب موافقة أهل الرأي والاختصاص؛ لأنّ فرض الضريبة أمر خطير، وينتهي بأخذ بعض المال من أربابه، ومن ثَمّ يجب ألاّ ينفرد الحاكم ونوّابه وولاته بفرض هذه الضرائب، وتحديد مقاديرها وسعرها، بل يجب أن يتمّ ذلك بموافقة أهل الرأي والشورى في الأمة، حتى يدرسوا مدى الحاجة إلى المال، ومدى كفاية الموارد

---

(١) أحمد عبد العزيز المزيني، الموارد المالية في الإسلام، دار ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٤٩- ٥١، بتصرف.

الأخرى، مع مراقبة وجوه الإنفاق لحصيلة الضريبة المؤدّاة[١].

وبناء على ما سبق ذكره من أقوال العلماء في أحكام الضرائب، ومن خلال استقراء تاريخ المماليك الطويل، يظهر لنا عدد من الأسئلة، التي تحتاج إلى إجابات وافية عن وضع الضرائب في عهدهم:

- هل انفرد سلاطين المماليك ونوابهم بفرض هذه الضرائب، وتحديد مقاديرها وسعرها، أم بموافقة أهل الرأي والشورى في الأمة؟
- وهل كانت هناك حاجة مُلحة من قِبَل دولة المماليك إلى المال؟
- وإذا افترضنا أن المماليك فرضوا وبالغوا في الضرائب في وقت الحرب فهل يعني هذا أن الشعب رفعت عنه الضرائب في حال السلم؟
- وما الفئات التي فرضت عليها الضرائب؟
- وهل راعت الدولة المملوكية عدالة توزيع العبء الضريبي؟
- وهل كان إنفاق تلك الضرائب للمصلحة العامة، أم لمصلحة خاصة للحكام وأتباعهم؟ وللإجابة عن تلك الأسئلة لابد أن نسلط الضوء على علاقة سلاطين المماليك بالعلماء.

ويبدو لنا من خلال استقراء تاريخ سلاطين المماليك أنهم استهلوا حكمهم بإبداء مظاهر الاحترام والتبجيل للعلماء، وهذا أمرٌ طبعي لدولة في بداية ظهورها ونشأتها. فكسب جانب العلماء مدعاة لكسب بقية الشعب، وهو أساس استقرار حكمهم في البلاد؛ فلم يجد سلاطين المماليك أفضل من العلماء؛ ليكونوا عونًا لهم على تسيير دفة حكم البلاد، وأخذ نصحهم، والإنصات لتوجيهاتهم، خاصة في العصر الأول من حكمهم. إذن فهي تلك المهابة التي غرسها العلماء في قلوب السلاطين تجاههم، بحرصهم على إنفاذ شرع الله في الأرض، وعدم التهاون في الوقوف في وجه أي سلطان ظالم مهما علا شأنه، ولذلك خشيهم سلاطين المماليك، وأخذوا بآرائهم في أمور السياسة والإدارة

(١) المزيني، الموارد المالية في الإسلام، ص ٥٦-٥٩.

والحرب[١].

ومن الوظائف المهمة التي شغلها العلماء في الدولة المملوكية وظيفة الفتيا، ونخص بالذكر هنا ما كان يعرف بإفتاء دار العدل[٢]، حيث يجتمع القاضي مع السلطان ورئيس ديوان الإنشاء[٣]، وكاتب الدست[٤]. وكان لهذه الوظيفة بالغ الأثر في تسيير أمور الدولة.

وقد ساهم العلماء من خلالها في إقناع السلاطين بإلغاء كثير من المكوس؛ ففي عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م حاول بعض رجال الدولة إقناع السلطان الظاهر بيبرس بفرض بعض الضرائب على الناس، فجمع العلماء والفقهاء، وعرض عليهم الأمر، وأشهدهم أنه تخلى عن كل حق للدولة؛ وكان من جملة ما قال: "اعلموا أني تركت لله ــ تعالى ــ ستمائة ألف دينار، ....، فعوضني الله من الحلال أكثر من ذلك، وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة، ومن ترك شيئًا عوضه الله خيرًا"[٥].

---

(١) للمزيد عن علاقة سلاطين المماليك بالعلماء انظر: سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث، الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٣٥٠-١٥١٧م)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٦٩-١٠٢.

(٢) **إفتاء دار العدل**: وهي موضع يجتمع فيه السلطان والقضاة ورئيس ديوان الإنشاء. انظر: محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م ، ص١٣٠.

(٣) **رئيس ديوان الإنشاء**: متوليها المسمى بكاتب السرّ وبصاحب ديوان الإنشاء، ومن الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء، ووظيفته قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، إما بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج بحسب الحال، وله تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها، وله تصريف المراسيم ورودًا وصدورًا، وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها بخطه في المجلس. فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة، وصار إليه التحدّث في مجلس السلطان عند عقد المشورة وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التدبير، وإليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرًا وشامًا. انظر: المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٩٣.

(٤) **كاتب الدست**: هو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان أو النائب، ويوقع على العرائض والاستدعاءات. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٣٦؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٢٧.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٧٦؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٨.

وقد بلغت جرأة العلماء ومهابتهم في نفوس السلاطين والأمراء المماليك مبلغًا كبيرًا؛ خشية تعنيفهم وجرأتهم في قول الحق، فيُذكر أن السلطان الناصر محمد كان يخشى القاضي شمس الدين الحريري[1]، وقد صرح بذلك في أحد مجالسه؛ حيث قال: "إني لا أخاف أحدًا إلا شمس الدين الحريري، قاضي قضاة الحنفية"[2].

ومن الأدلة على ذلك أيضًا ما فعله القاضي عز الدين بن جماعة[3]، الذي عزل نفسه من منصب القضاء؛ احتجاجًا على الأوضاع نفسها، وأصر على ذلك، وقد حاول الأمير الكبير يلبغا[4] استرضاءه، واستعان في ذلك بجماعة من القضاة والأعيان لكي يقنعوه بالعدول عن قراره والعودة لمنصب القضاء، لكنه لم يقبل ذلك، إلا بعد إلحاح من السلطان فوافق بعد اشترط شروطًا فقبلت[5].

كما أن الاحتجاج وترك القضاة لوظائفهم كان نوعًا من أنواع الضغط الذي

---

(١) **القاضي شمس الدين الحريري**: محمد بن عثمان بن أبي الحسن الدمشقي الحنفي الحريري، درس بأماكن كثيرة بدمشق ثم تولى القضاء بها، ثم قضاء الديار المصرية، فباشر بها مده طويلة، محفوظ العرض، لا يقبل من أحد هدية، ولا تأخذه في الحكم لومة لائم، اتصف بالعدل والصرامة، توفي سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م. انظر: ابن ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٠٦-٣٠٧؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١-٣٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٨٨.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٦٠؛ هيام صالح أبو الفرج، مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية (٧٨٤- ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢- ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، لم تنشر بعد، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٢١٠.

(٣) **القاضي عز الدين ابن جماعة**: أبو عمر بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة الكناني، ولد سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، تولى قضاء الشام وأفتى بها، وله تصانيف كثيرة، عرف عنه الصلاح وحسن الأخلاق، كان نافذ الرأي، مبجلاً عند السلاطين، توفي سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. انظر: المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٩٦؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٨م، ج١، ص٤١٨؛ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٨٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠٦-٢٠٨.

(٤) **يلبغا الحسني الناصري الخاصكي الأتابكي**: أستاذ الملك الظاهر برقوق، وهو من مماليك الملك الناصر حسن، عظم شأنه حتى أصبح مدبر أمور السلطنة في مصر، قَتَلَ أستاذه السلطان الناصر حسن، وقُتِلَ هو سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٥م. للمزيد، انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص٢٢-٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص١٢٦؛ الدليل الشافي، ج٢، ص ٧٩٣.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٧٣.

يمارسه القضاة على السلاطين، حتى يرجع السلطان عن فرض أي نوع من الضرائب المجحفة في حق الرعية، ومن ذلك ما قام به قاضي القضاة الشافعي، برهان الدين بن جماعة المقدسي[١] سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، الذي رفض مباشرة وظيفته، والحكم بين الناس والحضور بدار العدل، وعندما أرسل السلطان الأشرف شعبان[٢] يسأل القاضي عن سبب تغيبه عن الحضور بمجلس دار العدل، أجابه بقوله: "بلغني إعادة ضمان المغاني[٣] والقراريط[٤]، وهذا يوجب الفسق ". فحلف له السلطان أن ذلك لم يتم، وأنه تراجع عن ذلك القرار، وأرسل المراسيل إلى جميع نواحي مصر والقاهرة بعدم عودة تلك الضريبة"[٥].

---

(١) **قاضي القضاة برهان الدين ابن إبراهيم بن جماعة:** قاضي الديار المصرية ثم الديار الشامية، عزل نفسه مرارًا، ثم سُئِلَ ويعاد، كان حسن الإلقاء لدرسه، محبًا في الحديث وأهله، كثير الإنصاف، قويًّا في أمر الله، معظمًا لحرمات الشرع. وخلف الكثير من الكتب النفيسة لأنه كان مغرمًا بها، ولقد أوقفها على الطلبة، توفي سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٩٠م. انظر: المقريزي، السلوك، ج٥، ص٢١٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٣٥٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣١١-٣١٢.

(٢) **الملك الأشرف زين الدين شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون:** تولى السلطنة سنة٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، وهو السلطان الخامس والعشرون من المماليك، كان يحب العدل والرعية، منقادًا للشريعة، محبًا للعلماء، وأبطل في عهده مكوسًا كثيرًة، كانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وشهرين وواحد وعشرين يومًا. قتل سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص١٨٢.

(٣) **المغاني أو مكوس الملاهي:** عرفها المقريزي بأنها أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجلّ امرأة في مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة، وكان على النساء، إذا تَنَفّسنَ أو عَرَّسْنَ امرأة أو خضبت امرأة يدها بحناء، أو أراد أحد أن يعمل فرحًا لا بدّ من مال بتقرير تأخذه الضامنة، ومن فعل فرحًا بأغانٍ أو نَفَّسَ امرأته من غير إذن الضامنة حلَّ به بلاء لا يوصف. انظر: المقريزي، السلوك، ج٥، ص٤؛ الخطط، ج١، ص٢٠٠.

(٤) **القراريط:** فهي ضريبة تفرض على كل من أراد شراء منزل، فيدفع عن كل ألف درهم من ثمن ذلك المنزل وغيره عشرين درهماً كضريبة. المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٣٦٢؛ الخطط، ج١، ص٢٠٠.

(٥) المقريزي، السلوك، ج ٥، ص٤.

كما أن جهود العلماء كانت واضحة في منع السلاطين من جباية الأموال بغير حقها من الرعية عند قدوم العدو؛ ففي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م عُقد مجلس، حضره العلماء والقضاة ورجالات الدولة؛ لأخذ فتوى القضاة في جواز أخذ أموال الناس بسبب وصول أخبار باقتراب تيمورلنك من سيواس[١]، والخوف من هجومه على بلاد الشام ومصر، وأن هذه الأموال سوف تُصرف على العسكر؛ لمساعدتهم على التجهيز للحرب، فرفض القضاة إصدار الفتوى، وقالوا: "أنتم أصحاب اليد، وليس لكم معارض، وإن كان القصد الفتوى فلا يجوز أخذ مال أحد، ويخاف من الدعاء على العسكر إن أخذ مال التجار"[٢]. وقد تفنن بعض سلاطين المماليك في فرض الضرائب والمكوس على الرعية وأخذ الأموال منهم من غير وجه حق، من ذلك ما حدث عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، فقد جمع السلطان الأشرف برسباي القضاة الأربعة والعلماء واستفتاهم في أخذ زكاة الأموال الباطنة والظاهرة من الناس، فرفض القضاة والعلماء ذلك الاقتراح، وأوضحوا للسلطان أن المكوس قد أرهقت الرعية والتجار والمزارعين، وبطل ما كان أراده من أخذ المال من الناس[٣].

ويبدو أن الأحوال قد بدأت بالتغيير في عصر المماليك البرجية، وأن الفساد قد بدأ يسري في أوصال الوسط القضائي، ولعل ما حصل سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م يؤكد ذلك؛ فقد فرض السلطان الظاهر جقمق[٤] مكوسًا على التجار الوافدين إلى جدة بأخذ عشر

(١) **سيواس**: إحدى مدن بلاد الروم، وهي مدينة كبيرة بها قلعة صغيرة، تبعد عن قيسرية مسافة ستين ميلاً. انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٧٦٨؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ص٣٨٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢١٨؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص١١١، ١٣٣، ١٣٤؛ للمزيد عن غزو تيمورلنك للبلاد الإسلامية انظر: ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكتا، ١٨١٧م؛ علي صالح المحيميد، المغول في آسيا الصغرى، (د.ن)، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٩٢-٩٣.

(٤) **السطان الظاهر جقمق**: جمقمق العلائي الظاهري سيف الدين أبو سعيد، سلطان من المماليك البرجية، =

أموالهم، فجمع الفقهاء وأمرهم بصياغة فتوى تتيح له أخذ أموال التجار في جدة، يكون ظاهره شرعيًّا، وفعلاً تم له ما أراد، فقد كتب عدد من الفقهاء أن سبب أخذ هذه الأموال أن يصرفها السلطان في حماية التجار، وتزويد ميناء جدة بالعسكر، وبظاهر هذه العبارات أفتى القضاة الأربعة في الديار المصرية بجواز أخذ العشور من التجار، و لم يكتفِ الظاهر جقمق باستصدار تلك الفتوى في القاهرة، بل تجرأ وأرسل نصها إلى مكة المكرمة؛ لتقرأ في المسجد الحرام، الأمر الذي أثار حفيظة أغلب العلماء والفقهاء، وكان من جملة من أنكر على السلطان أخذ هذه الضريبة، ومن ثم إصدار فتوى بعدم مشروعيتها، المؤرخ تقي الدين المقريزي، الذي انتقد القضاة الأربعة، وقال: " فانطلقت الْأَلْسِنَة بالوقيعة فِي الْقُضَاة وَأَنَّهُمْ اعتادوا اتباع أهواء الْمُلُوك خوفًا على مناصبهم أَن يعزلوا مِنْهَا،.... فَإِن كل أحد يعلم أَن ذَلِك كُله مكس لَا يحل تَنَاوله وَلَا الْأكل مِنْهُ وَأَن الْآكِل مِنْهُ فَاسق لَا تقبل شَهَادَته لسُقُوط عَدَالَته، وَلَكِن الْهوى يعمي ويصم وَمَا كفتهم وَمَا أغنتهم هَذِه الْحَالة حَتَّى بعثوا بالفتاوى فقرئت بِالْمَسْجِدِ الْحَرَام على رُؤُوس الأشهاد"[(١)].

فنلحظ هنا أمرًا مهمًّا جدًّا، وهو أنه على الرغم من سطوة السلطان إلا أنه لم يضع يده على أموال التجار إلا بعد فتوى من القضاة والفقهاء، مما يدلل على أن السلاطين لم ينفردوا باستصدار مثل هذه المكوس إلا بموافقة أهل الرأي والشورى، والعبرة كانت في صلاحهم أو فساد باطنهم.

=وهو الرابع والثلاثون منهم، والعاشر من ملوك الشراكسة، والظاهر جمقمق شركسي الأصل، اشتراه الأشرف سيف الدين إينال العلائي (وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق، فأعتقه واستخدمه، حبس في أيام الملك الناصر فرج، ثم أطلق وولي أعمالاً في دولتي الملك المؤيد شيخ، والظاهر ططر، إلى أن كان (أتابك) العساكر في دولة الأشرف برسباي، ولما مات الأشرف وولي ابنه العزيز يوسف استمر جقمق أتابكَ ومدبرًا للدولة. وقام بعض المماليك فخلعوا العزيز، وولوه السلطنة، فانتظم له الامر، حكم مصر في الفترة من سنة (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م)، وكانت وفاته في سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. للمزيد انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٥٦؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٦؛ العاصمي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٤٩-٥٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٩١.

(١) السلوك، ج٧، ص٤٥٠.

ومن المواقف التي يحفظها التاريخ لعلماء كانوا بالمرصاد لأي تجاوزات شرعية، حتى لو كان السلطان نفسه، موقف العالم الجليل ابن دقيق العيد[١] ضد السلطان (الناصر محمد بن قلاوون)، الذي كان يستعد لحرب المغول، في موقعة مرج الصفَّر الشهيرة[٢]، فأراد أنْ يجمع المال من الرعية لمواجهة التتار، معتمدًا على الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام، بجواز ذلك أيام السلطان سيف الدين قطز، فرفض ابن دقيق العيد أنْ يسمح له بذلك، وقال للسلطان: إنَّ ابن عبد السلام لم يفتِ في ذلك إلا بعد أنْ أحضر جميع الأمراء كل ما لديهم من أموال، وجمع ما عند الأمراء من جواهر وأحجار كريمة تزدان بها نساؤهم وجواريهم.ثم قال له في شجاعة: كيف يحل مع ذلك أخذ شيء من أموال الرعية، لا والله لا جاز لأحد أنْ يتعرض لدرهم واحد من أولاد الناس إلا بوجه شرعي، واضطر السلطان أنْ يرضخ لكلام القاضي، و لم يفرض ضرائب على الناس[٣].

ومن خلال النظر في الضرائبَ والمكوس التي فرضت في عصر المماليك في المصادر

---

(١) **ابن دقيق العيد**: هو أبو الفتح، تقي الدين، محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المنفلوطي، المصري، المالكي، الشافعي، (ت ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)، قاضي القضاة، من أكابر العلماء بالأصول، ولقب "ابن دقيق العيد" عُرف به هو وأبوه وجدَّه، وسبب هذا اللقب فيما قيل: إنّ جدَّ أبيه كان يرتدي طيلسانًا شديد البياض في يوم عيد، فقيل: كأنَّه دقيق العيد، فلُقِّب به، من صفاته: كان ذكيًّا ، شديد الورع، تولى منصب قاضي القضاة في أخريات حياته سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م. انظر ترجمته في: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ، ج٥، ص٢٨٦؛ اليافعي، عبد الله بن أسعد اليمني المكي(٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج٤، ص١٦٦-١٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٠٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٤- ٣٢٥.

(٢) **موقعة مرج الصفَّر**: وقعت في سهل شقحب قرب دمشق سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، وفيها انتصر المماليك بقيادة الناصر محمد بن قلاوون على المغول بقيادة قطلوشاه للمزيد عن هذه الموقعة انظر: الذهبي، من ذيول العبر، تح، صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، د.ط، د.ت، ج٧، ص١٩-٢٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٢٠-٢١؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م، ج٥، ص٤٧٨-٤٧٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤١٢-٣١٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٣٢٧؛ العيني، محمود بن أحمد المعروف بالبدر، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ٣، ص ٧٢-٧٥.

المملوكية نلاحظ تباينًا كبيرًا بين الوضع الاقتصادي والاجتماعي في عصر دولة المماليك البحرية والمماليك الجراكسة. ولكي تتضح الصورة كان علينا أن نعود إلى زمن السلطان الناصر محمد قلاوون في سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م حيث قام بإصلاحات اقتصادية كبيرة عاد نفعها على كثير الفئات المحتاجة والضعيفة من الشعب[١]، فقد ألغى أربعاً وعشرين ضريبة اجتماعية، منها:

مكس ساحل الغلة، وكان جلّ متحصل الديوان، وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد، ويتحصّل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدًّا، ويحلّ بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم[٢].

أبطل أيضًا مكس نصف السمسرة، فتضرّر الناس من ذلك وأوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان[٣].

وأبطل رسوم الولاية[٤] من أجل حرمة البيوت والقضاء على الفساد الاجتماعي داخل المجتمع. ومما أبطل مقرّر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧- ١٦٨؛ وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين، وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٢) **مكس ساحل الغلة**: ضريبة تؤخذ عن أي كمية من الذرة تجلب إلى القاهرة قبل إتمام عملية البيع. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٥.

(٣) **مكس نصف السمسرة**: وهو : إن من باع أحدٌ شيئا من الأشيَّاء فإنه يعطي أجرة الدلال على ما تقرّر من قديم عن كل مائة درهم درهمين، فلما ولي ناصر الدين الشيخي الوزارة قرّر على كل دلال من دلالته درهمًا من كل درهمين. فصار الدلال يعمل معدّله ويجتهد حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البائع. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩،ص٤٥؛ مجهول، تاريخ جواهر السلوك في سياسة الخلفاء والملوك، مخطوط المتحف البريطاني، or.6854.، ورقة ٢٣٥ب؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٧٧.

(٤) **مكس رسوم الولاية**: ضريبة يجمعها الولاة والمقدمون من البيوت ذات السمعة السيئة، ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدّة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم، وكان مجموع هذه الضريبة يدفع كمرتبات للأجناد. انظر: الصفدي، الحسن بن عبدالله (ق٨هـ/ ١٤م)، نزهة المالك والمملوك، ، المتحف البريطاني، or. 6267.، ورقة ٨٠ب؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٦.

الوجه القبلي والبحري[١]. وأبطل مقرّر السجون[٢]، ومقرّر طرح الفراريج[٣].

ومقرّر الفرسان[٤]، ومقرّر الأقصاب والمعاصر[٥]، ومقرّر رسوم الأفراح[٦]، ومقرر

(١) **الحوائص**: من الحياصة، وهي الحزام الذي يوضع في وسط الدابة أو على فخذيها تحت ذيلها؛ لتثبيت السرج أو البردعة للركوب. فكان على كل من الولاة والمقدّمين مقرر يحمل في كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال عن ثمن حياصة ثلاثمئة درهم، وعن ثمن بغل خمسمائة درهم وعلى هذه الجهة عدّة مقطعين ويفضل منها ما يحمل، وكان يصيب الناس من هذه الجهة ما لا يوصف ويحلّ بهم من عسف وظلم. والمقصود هنا بالحوائص حمير المكارية (الذين يؤجرون الدواب للناس بأجر، وقد كان يفرض عليهم ٣٠٠ درهم، وعلى البغل ٥٠٠ درهم، قبل إبطال السلطان الناصر ذلك المكس. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٦؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٥؛ محمد فوزي مصري رحيل، مكارية القاهرة في عصر سلاطين المماليك، آفاق الثقافة والتراث، السنة ٢٤، ع (٩٤) ، رمضان ١٤٣٧هـ/ جون (يونيو) ٢٠١٦م، ص ٨٤.

(٢) **مقرر السجون**: وهو ما يؤخذ من كل من يسجن، فللسجان على حكم المقرّر ستة دراهم سوى كلف أخرى، وعلى هذه الجهة عدّة مقطعين، ويرغب فيها الضمان ويتزايدون في مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها فإنه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالي إلى السجن، فما أن يدخل السجن، ولو لم يقم به إلا لحظة واحدة أخذ منه المقرّر. انظر: الدواداري، الدر الفاخر، ج٩، ص٢٨٦؛ الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ورقة ٨٠ب؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٣) **مقرر طرح الفراريج**: كانوا قد جعلوا للفراريج ضامنين عدة في سائر النواحي يطرحون على الناس الفراريج فيمرّ بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم، وتقاسي الأرامل من العسف والظلم شيئًا كثيرًا، وكان على هذه الجهة عدّة مقطعين، ولا يمكن لأحد من الناس في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فما فوقه إلا من الضامن المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٤) **مقرر الفرسان**: وهي ضريبة يلتزم بها الناس في كل مدينة في سلطنة المماليك لكبار الولاة والمقدمين الفرسان، وهي هدايا وعطايا إجبارية لهؤلاء الفرسان، ولا يؤخذ درهم مقرّر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٥) **مقرر القصب والمعاصر**: وهو ما يجبى من مزارعي قصب السكر، ومن المعاصِر ورجال المعاصِر. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٦) **مقرر الأفراح**: تقام على كل عرس يقام في المدينة وتجبى من سائر النواحي في السلطنة، ولهذه الضريبة عدّة ضمان لجبايتها. انظر: الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ورقة ٨١أ؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

لحماية المراكب[(١)]. ومن ذلك حقوق القينات[(٢)]، وضريبة كشف المراكب[(٣)]، ومقرّر المشاعلية[(٤)].

فعلى الرغم من أن تلك الضرائب كانت مصدرًا من مصادر الدولة والتي كانت تدر عليها أموالا طائلة إلا أننا رأينا كيف ألغيت رحمة بالناس ولتخفيف الظلم عنهم، وفي هذا عون كبيرٌ للفقراء لتيسير أمور حياتهم.

ويختم المقريزي حديثه عن تلك الإصلاحات الخيرة التي نفع الله –سبحانه– بها الناس ورفع عنهم كثير من المظالم التي أرهقت كاهلهم بقوله: "وما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر في هذا الروك إلى أن زالت دولة بني قلاوون بالملك الظاهر برقوق في شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، فأبقي الأمر على ذلك إلا أنّ أشياء منه أخذت تتلاشى قليلاً قليلاً إلى أن كانت الحوادث والمحن في سنة ست وثمانمائة حيث

(١) **جباية المراكب**: وهي ما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرّر الحماية، ولقد كان المسافرون على ظهر المركب هم الذين يجبرون على جميع هذه الضريبة. انظر: الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ورقة ٨١أ؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٢) **حقوق القينات**: وهو ما يجمع من الفواحش والمنكرات. انظر: مجهول، تاريخ جواهر السلوك، ورقة ٢٣٥أ–ب؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٣) **كشف مراكب النوبة**: ومقرّر ما على كل جارية، أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرّر معين. انظر: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

(٤) **مقرر المشاعلية**: وهو ما يؤخذ عن كسح الأفنية وحمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان، فكان إذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط أو تربة أو متزل من منازل سائر الناس لا يمكنه ولو بلغ من العظمة ما عسى أن يبلغ التعرّض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة، ويقاوله على كسح ذلك بما يريد، وكان من عادة الضامن الإشطاط في السوم، وطلب أضعاف القيمة، فإن لم يرض رب المتزل بما طلب الضامن وإلا تركه وانصرف فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطرّ إلى سؤاله ثانيًا، فيعظم تحكمه ويشتدّ بأسه إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الأقذار. انظر: الدواداري، الدر الفاخر، ج٩، ص٢٨٦؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٨.

حدث من أنواع التغيرات، وتنوّع الظلم ما لم يخطر ببال أحد"[١].

ولعلنا نتلمس من خلال حديث المقريزي السابق واقعًا جديدًا بدخول حكم سلاطين المماليك الجراكسة، والذي كان شاهد عيان لكثير من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في عهدهم، فيبدو لمن يتتبع تاريخ العصر المملوكي أن يلاحظ كثرة المكوس التي فرضت على الناس خاصة في أواخر تلك الحقبة الزمنية ولعلنا نستشهد بأقوال مؤرخي تلك الفترة، فعلى سبيل المثال: ضاعف الأشرفِ برسباي الدقماقي الضَّرائبَ والمكوس، مِمَّا أثار سخط الرَّعيةِ والمؤرخين عليه، على الرغم مما قام به من إصلاحٍ وجهاد وعمران، وقام بغزواتٍ إلى جزيرة قبرص[٢]، وهذا لم يشفع له أمام مؤرخي عصره، فقال عنه المقريزي: "وَكَانَت أَيَّامه هدوء وسُكون إلا أنه كان له في الشُّح وَالْبخل والطمع مع الْجُبْن والجور وَسُوء الظَّن ومقت الرّعية وَكَثْرَة التلون وَسُرْعَة التقلب فِي الأمُور وَقلة الثَّبَات أَخْبَار لم نسْمع بِمِثْلِهَا وَشَمل بِلَاد مصر وَالشَّام فِي أَيَّامه الخراب وَقلة الأموال بهَا"[٣].

ويصفه ابن إياس بأنه: "عنده طمعٌ زائد في تحصيلِ الأموال"[٤]. فمبالغته في تحصيل الضرائب والمكوس كانت لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية في الرعية.

وشملت الضرائب والمكوس فئات عدة من العامة، كالصيادين والخبازين، ولقد أشار إلى ذلك النويري عندما تحدث عن مصائد السمك في طبرية[٥].وكان عادة ما تكتب مراسيم ابطال المكوس على الجدران كالجوامع المعروفة في كل مدينة، منها مرسومٌ نُقِشَ من أربعة سطور على باب في الحنية الشرقية للجامع العمري الكبير في مدينة بيروت، يختص بالخبازين، نص على ما يلي:

"بتاريخ سنة ستة وثمانمائة هجرية، قرر الجناب العالي الجمالي أمير مؤيد باب

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ١٦١.

(٢) **قبرص**: جزيرة في بحر الروم. انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٠٦٣.

(٣) السلوك، ج٧، ص٣٦٩.

(٤) بدائع الزهور، ج٢ ، ص١٨٨-١٨٩.

(٥) نهاية الأرب، ج٨، ص٢٦٢.

السلطنة الشريفة ببيروت المحروسة أعز الله أنصاره، أن يبطل ما كان استحدث على الخبازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة، وهو في كل سنة على كل فرن خمسة أمداد، وما كان الخبز بالأجرة أيضًا، أمر بإبطال ذلك، وأنه لا أحد يأخذ رسمًا باسمه، ولا يحدث خلافه، وملعون ابن ملعون من يعود يجدد ذلك، ويأخذ منهم شيئًا، ولا يأخذ المحتسب إلا جامكيته، فلو أخذ يجبي شيئًا غير جامكيته، يكون عليها مسؤولاً فليلعن"[١].

ومرسوم آخر من ستة أسطر في سلطنة الظاهر برقوق بتاريخ سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٤م، بإبطال نحيرة القصّابة بطرابلس[٢].

ويبدو أن أوضاع الطحانين قد تدهورت في عصر دولة المماليك البرجية، فقد وصل إلى أسماع السلطان المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي (٨١٥ـ٨٢٤هـ/ ١٤١٢ـ١٤٢١م)[٣] شكاوى الناس في بعلبك[٤]، فأرسل الشيخ الصالح شمس الدين محمد الهادي المصري[٥] لإبطال المظالم التي لحقت بالطحانين في بعلبك وقراها، فقام بجهود كبيرة في رفع الظلم عن أهلها[٦].

(١) مصطفى محمود سبيتي، المماليك وآثارهم الدينية في لبنان، دار المواسم، بيروت، ص١١٥-١١٦.

(٢) عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ٣٤٧.

(٣) **المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي**: السلطان الرابع من ملوك المماليك الجراكسة، كان ملكًا قويًا، فسيطر على أرض الشام والعراق، وأرض الحجاز وأجزاء من اليمن وأجزاء من ليبيا والسودان، توفي في ٨٢٤هـ/١٤٢١م، بعد حكم دام ثمانية سنوات وخمسة أشهر. انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٦٣-٢١٢؛ للمزيد عن سيرته انظر: العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، تح: فهيم شلتوت، دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨.

(٤) **بعلبك**: مدينة قديمة البناء، شمالي دمشق، بها أبنية عجيبة وآثار عظيمة، وقصور من عمائر الملوك الأيوبية، والآثار المملوكية، وهي تضاهي دمشق في وجهات الوقف العامرة من الجامع والمسجد، والمارستان، ودار حديث، والمدارس والربط انظر: ابن بطوطة، الرحلة،ج١، ص١٠٠؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٦٤.

(٥) **شمس الدين محمد الهادي المصري**: محمد بن عبد الله بن أحمد بن الجمال المكي الأصل المصري الشافعي المقري، ويعرف بالحجازي، مات سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م). انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٧٨-٨١.

(٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٩.

وشملت جوانب كثيرة في حياة الناس كمكس القمح، ومقداره خمسة دراهم تؤخذ على كل إردب[(١)] يُباع بدمشق، وهذا المكس يُعَدُّ من المكوس التي أضرَّت بالشعب، إذ إن القمح هو الغذاء الرئيس لهم، وقد كانت هناك عدة محاولات لإبطاله؛ منها ما كان على يد السلطان الأشرف بن قلاوون[(٢)] عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، فكتب: " قد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة، نستجلب بذلك الدعاء إلينا من الخاصة والعامة"[(٣)].

ومما يلحظ أن صيغة المرسوم تدلل على أن سلاطين المماليك كانوا يتقربون لشعوبهم بتملس احتياجاتهم محاولةً للتخفيف عنهم بإبطال مثل تلك المكوس التي أرهقت شريحة كبيرة من المحتاجين. ثم أُبطل في عهد السلطان الناصر محمد عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م[(٤)]، إلا أنه عاد مرة أخرى في زمن السلطان قايتباي المحمودي[(٥)]، فقد جعل لكل إردب من القمح أو الشعير نصف فضة خارجًا عن ثمنه لمن يشتري أو يبيع، وقد تزايد الأمر بعد ذلك إلى صار نصفين[(٦)].

ومكس السمسرة[(٧)]، فقد كان في بلاد الشام رجال يمارسون السمسرة، وكانوا

---

(١) **إردب**: من المكاييل، معروف بمصر، سعته أربعة وأربعون صاعًا. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٤١٦؛ مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٢٣.

(٢) **السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون**: هو ثامن سلاطين الدولة المملوكية، نصب سلطانًا سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، حكم في حياة والده، اشتهر بجهاده ضد الصليبيين، كان شجاعًا، مهيبًا، كانت مدة حكمه ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام، قتل في سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م. انظر: الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٣٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٦. وانظر أيضًا: البيومي، النظم، ١٩٤.

(٤) الذهبي، دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٦٥. وانظر أيضًا: المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩،ص٤٥

(٥) **السلطان قايتباي المحمودي**: قايتباي الجركسي المحمودي الأشرفي، حكم سنة٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م وهو الحادي والأربعين من ملوك الدولة المملوكية، قيل له المحمودي لأنه جلبه الخوجا محمود إلى مصر فنسب له، وكان ملكًا جليلًا، وسلطانًا نبيلًا، توفي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م. للمزيد انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٢-٢١١؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٦، ص٣٠٨؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٥٣-٥٩.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣٣١.

(٧) **السمسار**: هو الشخص الذي يتوسط بين البائع والمشتري، ويوفق بينهما مقابل أجرة تسمى السمسرة أو الدلالة. انظر: حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ٥١٥.

يأخذون عما قيمته ألف درهم عشرة دراهم، وقد أبطلت عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م[١] في عهد السلطان خشقدم[٢].

وفرض المماليك في مصر والشام مكسًا على الخدمات التي يقدمونها لتجار الفاكهة، وقد رصدت محاولات لإبطال هذا المكس على يد نائب دمشق[٣] عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م [٤]. بل وصل الأمر إلى أن يفرض في عهد السلطان الغوري مكس الروث، حيث قرر أن يبيعوا روث الأبقار، ويوردوا ثمنه إلى خزانة الدولة[٥].

وليس هذا فحسب، بل نتيجة إفلاس الخزانة السلطانية في عهد السلطان الغوري، ونتيجة لاستيلاء البرتغاليين على التجارة التي كانت تدر أرباحًا طائلة لدولة المماليك، فإن السلطان الغوري بالإضافة إلى كثرة الضرائب التي فرضت في عهده، قد طلب دفع الضرائب مقدمًا لعدة سنوات[٦].

وأشار ابن تيمية[٧] إلى قضية إنفاق الأموال بأنه ليس لولاة الأموال أن يقسموها

(١) الدوادار، بيبرس المنصوري ، التحفة المملوكية، ص٦٩.

(٢) **السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد خشقدم الناصري:** هو السلطان الثامن والثلاثون من سلاطين الدولة المملوكية، تولى السلطنة سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م، كان محبًّا للخير، وكانت مدة سلطنته ست سنين ونصفًا تقريبًا ومرض فطال مرضه، وتوفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٢٥٣-٢٦١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٣١٥.

(٣) كان نائب الشام في تلك الفترة السلطان شيخ المحمودي قبل سلطنته، وعيّن فيها سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م. انظر: ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٢٠٦.

(٤) ابن حجر، أنباء الغمر، ج٢، ص ٢٦٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور ، ج١، ق ١، ص ٦٨٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص٩١.

(٦) علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٢٦.

(٧) **ابن تيمية**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ولد عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م في حران، فقيه حنبلي، ومحدث، ومفسّر، مجتهد، تصدر للتدريس بالجامع الأموي بدمشق وهو ابن ٢٢ سنة، واجه عددًا من المحن، وله كثير من المؤلفات والتلاميذ توفي سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م بقلعة دمشق التي كان محبوسًا فيها. للمزيد انظر: الذهبي، ذيول العبر، ج٦، ص١٥٨؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٢٧٧-٢٧٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٨٠-٨١.

حسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه، فإنما هم أمناء ووكلاء، وليسوا ملاَّكًا[١]، وقد عُني ابن تيمية -خاصة - بما يأخذ القائمون على الأموال بغير حق من مال المسلمين، وهو في ذلك يقول: إن على ولي الأمر استخراجه منهم، وعلى وليِّ الأمر منعها والعقاب عليها. وإذا استردَّ ولي الأمر ما أخذ الولاة والعمال بغير حق من الرعية، كان عليه ردها إلى أصحابها إن أمكن، وإلا كان عليه صرفها في المصالح العامة؛ كسداد الثغور، ونفقة المقاتلة، وغير ذلك[٢].

ومن خلال النظر في الضرائب والمكوس التي فرضت في عصر المماليك خاصة في أواخر العصر في المصادر المملوكية نستخلص عدة أمور مهمة:

أولاً: أن الضرائب والمكوس امتدت، وشملت جميع نواحي الحياة، وهذا واضح جدًّا في كثرة المسميات التي أطلقت عليها المكوس.

ثانيًا: شملت الضرائب جميع طبقات المجتمع باختلاف مستواهم الاقتصادي ـــ غنًى، وتوسطًا، وفقرًا - وهذا أمر استفحل في أواخر دولة المماليك.

ثالثًا: تنوُّع تحصيل الضرائب؛ إما نقدًا، وإما عينًا.

رابعًا: لم تفرق الدولة بين المسلمين وأهل الذمة في جباية الضرائب.

وعلى الرغم من وجود بعض الأخبار المتناثرة في بطون الكتب عن قيام بعض السلاطين بإبطال المكوس خاصة في زمن الأوبئة والأزمات، إلا أن هذا لا يغير من حقيقة كثرتها في عصرهم، ولنكونَ منصفين في حقهم فإن أمرها استفحل في أواخر الدولة المملوكية، ولعل السبب راجع إلى اضطراب أحوالها الاقتصادية، فقد أجهدت بسبب كثرة الحروب من ناحية ومن ناحية أخرى كثرة الأوبئة والكوارث في زمنهم.

٧- المصـــادرات:

كثرت المصادرات في عصر المماليك، وكانت تدرّ أموالاً طائلة على الدولة؛ لأنها

(١) السياسة الشرعية، ص٢٦.

(٢) السياسة الشرعية، ص٤٠.

اختصت بمصادرة أكابر رجال الدولة، وطبقة الأثرياء من المجتمع. ويبدو أن المصادرات بلغت ذِروتها في عصر دولة المماليك البرجية، فقد وصف العيني حال أهل الثراء واليسار في زمنهم بقوله: "وما كان أحد منهم — التجار- يستجرئ يلبس ثوبًا حسنًا؛ خوفًا على نفسه من المصادرة، حتى إنهم صودروا مرارًا عديدة، وأخذت أموالهم، وفتحت حواصلهم وهو غُيَّب، فزاد الظلم فيهم حتى أخذت أموال الأيتام والتجار والغرباء، وحصل عليهم مالاً يوصف ولا يُحد"[١].

وعُرف عن بعض السلاطين أنهم كانوا يعتقلون من يشُكُّون في ولائهم ، فقد كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون معروف بسرعة تغيره على حاشيته ووزرائه، وإذا أبغض أحدَهم انتقم منه، فكان يقبض على من يشتبه في إخلاصه، كما كان يكره أن يكون عنده كبير أو عظيم، فإذا كثرت سعادة الأمير عنده مع فروغ غرضه لجأ إلى مصادرة أمواله واعتقاله، وربما قتله، وهذا ما حدث مع عدد من خاصة أمرائه[٢].

ومن الفئات التي تمتعت بمستوى معيشي واجتماعي عال فئة التجار، فقد ضاهوا الأمراء المماليك بامتلاك الأسواق والمتاجر والخيول المسومة والأموال الطائلة، حتى إن أحد أثرياء مدينة حلب افتدى أعدادًا كبيرة من أهل حلب المدينة بمبلغ كبير من المال عندما اجتاح التتار الشام عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م[٣].

ويبدو أن ثراء التجار وكثرة أملاكهم جعلهم عرضة لطمع السلاطين المماليك، فغالوا في فرض المكوس عليهم، وكثرة مصادرات أموالهم[٤].

وقد وصف المقريزي حال التجار في زمن المماليك الجراكسة من تردي أوضاعهم حتى إن بعض التجار دعوا على أنفسهم أن يغرقهم الله حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسارات، وتحكم الظلمة فيهم[٥].

---

(١) السيف المهند، ص ٢٦٢- ٢٦٣.

(٢) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص ١٢٤.

(٣) هو التاجر الحسن بن علي بن أبي نصر ابن النحاس الحلبي، المعروف بابن عمرون، كانت له أموال عظيمة، ومكانة عند الملوك، للمزيد. انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤١٤-٤١٥.

(٤) العيني، السيف المهند، ص٢٦٢.

(٥) السلوك، ج٧، ص٨٠.

المبحث الثانـي

نفقات الدولة التطوعية

مدخـــل:

النفقة لغةً: الإخراج، وشرعًا: ما يلزم المرء صرفه لمن عليه مؤونته من زوجته أو قنه[(١)] أو دابته[(٢)].

تبين من خلال المبحث السابق مدى تنوُّع موارد الدولة المملوكية وتعددها، ما بين موارد شرعية أو أخرى فرضتها الدولة، وكانت الأموال التي تجمع من تلك الموارد تنفق في كثير من النفقات، ما بين نفقات عسكرية كرواتب وأرزاق الجند وبناء القلاع والحصون، أو نفقات إدارية وتشمل رواتب الوزراء والقضاة ونفقات الدواوين، وهنالك النفقات التي تخص حياة السلاطين كإعداد الخزائن المصاحبة لهم في سفرهم والهدايا التي ترسل إلى الملوك وغير ذلك. وما يهمنا في هذا المبحث النفقات التي تصب في خدمة المجتمع من جميع جوانبه؛ صحيًّا، وعلميًّا، واقتصاديًّا، خاصة في أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية.

وستعتمد الباحثة في هذا المبحث على ثلاثة محاور للنفقات:

الأول:ديوان بيت المال المعمور والثاني:ديوان الأوقاف والثالث:النفقات الطارئة.

أولاً- نفقات بيت المال المعمور:

سبق الحديث عن تنوع موارد بيت المال فاشتملت على عدة موارد: فأموال الزكاة كانت تنفق على المستحقين الذين حددهم الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

---

(١) **قنه**: الجمع أقنان، وهو العبد الذي كان أبوه مملوكًا لمواليه. انظر: الخطيب، معجم المصطلحات، ص٣٥٤.

(٢) المناوي، التعاريف، ج١، ص٧٠٨.

وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾(١) .

فالزكاة أداة تشريع منظم لتحقيق الضمان الاجتماعي، لم يترك صرفها لاختيار الحكام الذي قد يشوبه الهوى أو العصبية، بل حُدِّدَت مصارفها كما جاء بها النص القرآني، فلا اجتهاد في غيرها، ومن خلال ذلك المصدر الدوري والمنتظم، تقدم الدولة مساعدات تحقق الكفاية لكل محتاج، تمولّ من حصيلة الزكاة فتسد الحاجات الناشئة عن العجز الفردي والخلل الاجتماعي(٢).

ويذكر ابن الفرات في حوادث سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م أنه أتى إلى مصر مجموعة من التتار، وأسلموا، فجعل السلطان نفقتهم على بيت المال، وأجرى عليهم الرواتب. وهذا من باب المؤلفة قلوبهم، وهم من ضمن الفئات المستحقة للزكاة(٣).

أما الجوالي فقد كان يحمل من المتحصل منها قدر معين في كل سنة لبيت المال، ثم تصرف على مصالح المسلمين، وباقي الأموال تصرف رواتب للقضاة وأهل العلم، يوزع عليهم قدر المتحصل(٤)، أما نفقات الخراج فقد تنوعت ما بين أرزاق وجوامك للجند والعلماء والفقراء، وما تحتاج اليه الكعبة من تجديدات دورية، وكان لها دور كبير في قضاء الديون، ودفع الديات، وتزويج العزاب(٥)، وهذه نفقات تصب في خدمة كثير من الفئات المحتاجة في الدولة.

فضلاً عن الدور الكبير الذي قام به هذا المورد في الناحية الزراعية بالصرف على

---

(١) سورة التوبة: الآية٦٠.

(٢) محمد الصالح، الرعاية الاجتماعية، ص٢٥١.

(٣) ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن علي (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٥)، تاريخ الدول والملوك، تح: قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م، ج٨، ص١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٣١.

(٥) إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص٢٧٥.

إقامة القناطر والجسور وحفر الخلجان، ومن صور اهتمام الدولة بذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون من بناء كثيرٍ من الجسور في الساحل والغور[١]؛ وعمر جسر دامية بالغور "ووقف عليه وقفًا برسم ما عساه يتهدم من عمارته" [٢].

وقد قسمت الجسور في العصر المملوكي إلى قسمين: جسور سلطانية، وكان يستفيد منها عامة الناس، وجسور بلدية، والتي كانت تخص منطقة معينة، أو بلدٍ معين[٣].

ولشدة اهتمام السلاطين المماليك بالجسور عمومًا كانوا يرسلون في كل سنة عددًا من الأمراء إلى مختلف المناطق لعمارة الجسور. وكان المسؤول عن بناء الجسور من الأمراء يسمى "كاشف الجسور"[٤]، وكان يرأس عدداً من المهندسين، الذين كانوا يعملون معه، ويشرفون على مجموعة من البنائين والفنيين المختصين ببناء الجسور[٥].

وكان يصرف من ديوان المواريث الحشرية على نفقة المرضى الفقراء وعلاجهم، وتكفين الموتى الذين لا مال لهم، وتقديم المعونات لليتامى واللقطاء، ونفقة العاجز عن الكسب من المرضى وذوي العاهات وليس له قريب ينفق عليه، ونحو ذلك من وجوه الاستحقاق[٦].

وكان ديوان بيت المال يخصص ميزانيةً كبيرةً للنفقات العمرانية التي أثقلت كاهله

---

(١) **الغَوْر**: هو المنخفض من الأرض، أصله ما تداخل وما هبط، والغور غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس، ولذلك سمي الغور. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢١٦- ٢١٧؛ ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص١٠٠٤.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٠٦.

(٤) **كاشف**: لقب وظيفي من ألقاب التكريم، وهو بمعنى: رئيس، أطلق في العصر الأيوبي على الرؤساء، وفي العصر المملوكي أضيف إليه بعض الأسماء التي تدل على طبيعة عمل صاحبه. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٣٦٠.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٤٤؛ ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٦) العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تح: هانس آرنست، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م، ص٣٦؛ عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٢٨١.

لتنوع العمائر المملوكية ما بين مساجد و"خوانق"[١] وأسواق وبيمارستانات؛ مما كان له أبلغ الأثر في الحياة الدينية والتعليمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر: عندما سار الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري إلى بيت المقدس سنة٦٦١هـ/١٢٦٢م؛ لتفقد أحواله، خصص في كل سنة خمسة آلاف درهم للمسجد الأقصى؛ للعمل على تسيير أموره العمرانية والفكرية[٢].

ومن الطبيعي أن يكون قرار الملك الظاهر بتوفير هذا الدعم المالي للمسجد الأقصى إشارة واضحة لاهتمامه بتحسين وتفعيل النشاط الديني والعلمي ببيت المقدس وغيرها من المدن الأخرى، فقد شهد عهده أعظم الإسهامات في النواحي الدينية، خصوصًا في الشام؛ فقد ذكر ابن تغري بردي أن الظاهر بيبرس عمّر مساجدَ ورُبَطًا، ومؤسسات دينية في مصر والشام، فاق ما عمره سلاطين الأيوبيين والمماليك قاطبة[٣]، بل عجز عن إحصاء المساجد التي شيّدها الظاهر في الشام فعلّق قائلاً: "وعمر جوامع ومساجد بالساحل، يطول الشرح في ذكرها، وحذفتها خوف الإطالة" [٤].

وأسهم السلطان المنصور قلاوون بكثير من أعمال البر فى الشام؛ فلم تنحصر إنجازاته في تحريره القلاع والمدن الشامية، التي كانت بيد الصليبيين، بل تعدتها إلى إعمار المشافي والمساجد وغيرها من مؤسسات، وإبطاله لكثير من العادات السيئة، والمغارم التي

---

(١) **الخوانق**: جمع خانقاه، كلمة فارسية، معناها بيت، أطلق في العصر الإسلامي على الأماكن المعدة للزهاد وأتباع الصوفية، هذه الأماكن كانت مؤلفة من عدة أقسام وأجنحة خصص بعضها للعبادة، وبعضها الآخر للطعام والنوم، وقد حبست من أجلها أموال كثيرة من خيرات البساتين والمحلات لكساء وإطعام وتعليم المقيمين بها، ورد ذكرها في بعض المصادر خانكاه. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص ٢٧٨؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٣٦-١٣٧؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٦.

(٢) ابن شداد عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي إبراهيم (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة حلب)، تح: يحى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م؛ و(تاريخ دمشق)، تح: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ج٢، ق٢، ص٢٣٧.

(٣) النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٧.

(٤) النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٧.

لحقت بالناس من القوانين الظالمة[١].

وكان السلطان محمد بن قلاوون قد أنشأ ديوانًا للعمائر سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، بلغ مصروفه يوميًّا من اثني عشر ألف درهم إلى ثمانية آلاف درهم، وذلك في بدء إنشائه[٢]، ويشير ابن إياس الى ذلك بقوله: "وقد تزايدت في أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية من العمائر مقدار النصف من جوامع، وخوانق، وقناطر..."[٣]. وهذا يدلل على شغف سلاطين المماليك بالعمارة، وكل ذلك يصب في خدمة المجتمع، بتوفير كل ما من شأنه من توفير سبل العيش الكريم.

وامتدت نفقات بيت المال إلى الصرف على بعض الاحتفالات الاجتماعية والمناسبات الدينية، وقد ذكر المقريزي بعض المناسبات التي حرص السلاطين على إحيائها؛ مثل إحياء المولد النبوي الشريف، ودخول شهر رمضان، والأعياد الدينية، وإغداق الأموال على القراء لقراءة القرآن، وكذلك على الفقراء في تلك المناسبات[٤][٥].

ثانيًا- ديوان الأوقاف:

على الرغم من اعتقاد بعضهم أنه لا صلة للدولة بالوقف، ولهذا لا يمكن اعتباره موردًا ماليًا يُستفاد منه، بل هو أمر شخصي تطوعي يرتبط بعامة الناس ولا صلة للدولة به؛ إلا أنّ الواقع يؤكد أنّ للدولة المملوكية صلةً رئيسةً بالوقف، مما يجعله موردًا من مواردها المختلفة.

فلم تكن السلطة المملوكية منذ بداية ظهورها بمنأى عن الأوقاف والاهتمام بها،

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق١، ص٣٦٤؛ وليم موير، تاريخ دولة المماليك، ص٩٧.

(٢) بول كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة: أحمد دراج، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٢١؛ إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص٢٦٤.

(٣) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٨١. وانظر ايضًا: وليم موير، تاريخ دولة المماليك، ص٩٨.

(٤) السلوك، ج٥، ص ٤٠٩.

(٥) من خلال استقراء تاريخ العصر المملوكي يلحظ أن مؤرخي تلك الفترة اعتادوا إتباع ذكر كثير من المناسبات الدينية عبارة "على العادة"؛ مما يدلل على مدى حرص سلاطين وأمراء والمجتمع على الاحتفال بتلك المناسبات الدينية، إلا أن بعض هذه الاحتفالات منافٍ للشرع الحنيف والسنة المطهرة، وأن ذلك مردّه إلى البدع والتأثيرات الصوفية التي انتشرت في العهد المملوكي. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٧١، ٣٠٦، ٣١٣، ج١٦، ص١٠٣، ١١٦، ١٣٦، ١٥٥، ٢٧٤، ٢٨٣.

فقد أولتها عناية كبيرة، وأصبح الإشراف عليها مسؤولية قائمة، يتولاها جهاز الدولة. وتعددت مصادر الأوقاف وأوجه الصرف منها؛ لذا أصبح من الصعب حصرها، فكان لابد من إنشاء تنظيم إداري للإشراف على الأموال الموقوفة، وحسن التصرف بما يخدم المصلحة العامة، ومصلحة المنتفعين على السواء(١).

وضمّ هذا الجهاز الإداري المتكامل تحت إشراف الدولة عددًا من الوظائف الإشرافية والإدارية، ويتولى إدارة هذه الأجهزة موظفون خاصون، تعيّنهم الدولة تحت إشراف قاضي القضاة، وهؤلاء مهمتهم القيام بمتابعة متحصلات جهات الوقف، ومراقبة إيراداتها المختلفة، والإشراف على مصروفاتها (٢).

وكان الظاهر بيبرس من أبرز السلاطين الذين اهتموا بالأوقاف والمحافظة عليها من التعدّي، فقد استعاد عددًا من الأوقاف التي قد سلبت قبل توليه السلطة(٣). ومما يدل على ذلك موقفه ضد مجموعة من الأمراء المماليك، فقد بلغه في أثناء توجهه إلى غزة(٤) في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م أنهم تعرضوا للزرع الذي يستغل لتعمير الأوقاف، فأمر بعقاب من فعل ذلك، وقطع أنوفهم(٥).

وعندما تناهى إلى مسمعه أن أحد أمرائه عبث في زرع أحد الفلاحين، أنزل الأمير عن فرسه، وأعطاه بسرجه ولجامه لصاحب الزرع(٦).

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨ .

(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨؛ فايز إبراهيم الزاملي، الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص ٥١.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٣.

(٤) **غزّة**: مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، للمزيد انظر: ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٩٣؛ العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص٣٧٩.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩٢.

(٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٩١-٢٩٢؛ الدّوادار، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تح: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٣٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٨.

ومن أهم مميزات هذا التنظيم الجديد أنه أوجد توزيعًا دقيقًا للأوقاف بحسب شروط كلّ وقف، وظروفه، وجهاته التي وقف عليها[١]، والذي كان له أبلغ الأثر في نمو الأوقاف وانتشارها في العصر المملوكي، وكان من نتيجة ذلك الازدياد الكبير في الأوقاف ومصارفها؛ ولكي يسهل الإشراف عليها، والتحكم في ضبطها كان لابد من فصلها؛ لذلك نجد أن الأوقاف في عصر المماليك انقسمت إلى ثلاثة أقسام[٢]؛ تتمثل في:

أ- الأحباس[٣]:

تشمل الأحباس أوقاف الجوامع، والمساجد، والربط[٤]، والزوايا[٥]،والخوانق، وقد فُصِلَ بين الأوقاف والأحباس في عهد الظاهر بيبرس[٦].

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩؛ النجيدي، الموارد المالية لمصر، ص ١١٥-١١٦.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩.

(٣) **الأحباس**: نظام مرتبط بملكية الأرض، بدأ العمل بمقتضاه عند نهاية العصر الأيوبي، موضوعه الأرض التي تحبس على المساجد والمدارس والخوانق والمؤسسات الأخرى، وهذا النظام مستوحى من نظام الإقطاع إنما يتميز عنه بالتخصص من وجوه الإنفاق التي يشترطها الشخص الحابس في وقف هذه الأحباس. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص١٩؛ أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٤.

(٤) **الربط**: مفردها رباط، في اللغة: ملازمة ثغر العدو، وفي الاصطلاح: الرباط: دار حصينة، كان العرب المسلمون يقيمونها لأغراض حربية ودينية في مناطق الثغور على الحدود الفاصلة بين الدولة الإسلامية وما يجاورها من الدول الأخرى لدفع الغارات والاعتداءات، وفي أثناء السلم كانت هذه الربط تتحول إلى أماكن للعبادة والدرس، لكن الصوفية استخدموها بمعنى الخانقاه، لأنهم كانوا يخوضون جهادًا روحيًا في أثناء وجودهم فيها، مما حول الربط إلى مراكز للتعليم الصوفي، إضافة إلى مهامها الاجتماعية والدينية، وقد حفلت المصادر بذكر كثير منها. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٢٠٥؛ أنور محمود زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٧٨.

(٥) **الزوايا**: جمع زاوية، لفظ مأخوذ من الانزواء، قالت العرب: انزوى القوم بعضهم إلى بعض، إذا تدانوا وتضامنوا، وفي الاصطلاح: الزاوية مكان يتخذ للاعتكاف والعبادة والمطالعة، وهو على شكل خلوة أو رواق في المسجد إذا كان مشتملاً على مصلى مستور، ولكل زاوية شيخ يكون منقطعًا لها تعرف به، وقد تطوّر معنى زاوية في العصر المملوكي فأصبح يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٢١٧؛ أنور محمود زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١٩٣.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٤٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ٢٤٨-٢٤٩؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٧.

وقد اهتم سلاطين المماليك بديوان الأحباس اهتمامًا كبيرًا، ويدل على ذلك ما ذكره القلقشندي في هذا الصدد: "وهي تارة يتحدث فيها السلطان بنفسه، وتارة النائب، وفي غالب الوقت يتحدث فيها الدَّوادَار الكبير على ما استقر عليه الحال آخرًا"[(١)].وهذا يدل على اهتمام السلاطين بديوان الأحباس من خلال إشرافهم بأنفسهم على أموره.

ويبدو أن ذلك الاهتمام نابع من حرص الدولة المملوكية على الظهور بمظهر الحامي للدين، والقائم بأمره؛ لذلك أولت ديوان الأحباس أهمية قصوى، ورفدته بالأموال، وعيَّنَت فيه موظفين من أعيان المسلمين المشهود لهم بالعدالة والإستقامة [(٢)]، وقد وُصِفَت وظيفة ناظر الأحباس بأنها: "وظيفة عالية المقدار"[(٣)]، ويتولى صاحب ديوان الأحباس توزيع الصدقات من عائد[(٤)] الأراضي الموقوفة على المؤسسات الدينية[(٥)].

وقد أورد القلقشندي نصًّا لنسخة من توقيع ناظر الأحباس[(٦)]، تضمّنت ضرورة الإشراف الدقيق على المساجد والجوامع وعمارتها بمصابيحها، وحفظ ما يحفظون به لأجلها من ترميم المساجد، وأخرى للحصر وفرش المسجد، وثالث للزيت والشمع للإنارة[(٧)].

وممن تولى هذه الوظيفة القاضي شمس الدين أحمد ابن خلكان البرمكي[(٨)]، حيث

---

(١) صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢. وانظر ايضًا: المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢.

(٤) **ريع**: الريع النماء والزيادة، وقيل هي الزيادة في الدقيق والخبز، وراعت الإبل كثر ولدها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٣٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ٢٤٩؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٧.

(٦) **ناظر الأحباس:** الناظر في أرزاق الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا والمدارس من الأراضي المفردة لذلك، وما هو من ذلك القبيل على سبيل البر والصدقة لأناس معينين. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٢.

(٧) صبح الأعشى، ج٤، ص٣٥٩.

(٨) **شمس الدين ابن خلكان:** قاضي القضاة أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الأربلي الشافعي، ولي قضاء الشام عشر سنين، كان قد جمع حسن الصورة، وفصاحة المنطق، له العديد من المؤلفات القيمة، توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م. انظر: الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، تح: همام عبد الرحيم، عمان، الأردن، دار الفرقان، ط١، ١٤٠٤هـ، ص٢١٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٧، ص٢٠١؛ السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/ ١٤١٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناح وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج٨، ص٣٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب ج٥، ص٣٧١-٣٧٢.

فُوِّض إليه سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م النظر في جميع الأوقاف بالشام، منها الجامع والبيمارستان والمدارس وغير ذلك[١].

ب- الأوقاف الخيرية أو الحكمية[٢]:

كانت مرصودة للصرف على الحرمين الشريفين، ومختلف جهات البر؛ كالإحسان إلى الفقراء، وفداء أسرى المسلمين، ويشرف عليها قاضي القضاة الشافعي، ويعرف متوليها باسم: "ناظر الأوقاف"[٣].

وقد يضاف النظر في بيت المقدس ومسجد الخليل إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، فكان يتولاها ناظر واحد؛ ففي عهد السلطان المنصور لاجين، عهد إلى القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب الوزير الخليلي[٤] في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م بنظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة مع حرميّ القدس والخليل[٥].

وكانت تسير وفق نظام دقيق ومنظم، تحت إشراف قاضي القضاة الشافعي منذ عهد الظاهر بيبرس؛ حيث يقوم كل من نُظَّار الأوقاف في مصر والشام بتعيين مشرفين للأوقاف الحكمية في الأقاليم التابعة لكل منهما. ويوجد في كل بلد إسلامي مباشر لأوقاف الحرمين[٦].

ولابد لمن يتولى وظيفة ناظر الأوقاف أن يتحلّى بالأخلاق الكريمة، والتقوى وحسن

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٤٩.

(٢) **الأوقاف الحكمية**: هو الوقف الذي صدر حكم حاكم بصحته، فيكون وقفًا ثابتًا لا يمكن نقضه ولا الاعتداء عليه، أو ادعاء عدم صحته. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٥.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٨٨. انظر ايضًا: إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص٢٧٧؛ حياة الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ٥٥ - ٦٩.

(٤) **الصاحب فخر الدين الخليلي**: عمر بن عبد العزيز بن الحسن بن الخليلي التميمي الداري المصري، توفي سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م. للمزيد انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٨.

(٥) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٧.

(٦) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨.

الصيت[١]. ومن الشخصيات التي تولت هذه الوظيفة الشيخ زين الدين أبو المفاخر الخليلي، الذي باشرها وأحسن السيرة[٢]. وتولى نظر الأوقاف في دمشق الشيخ شهاب الدين البارزي، كانت له ديانة متينة وسيرته مشكورة في الأوقاف[٣].

ويُحصل من الأوقاف الحكمية مبالغ طائلة، تذهب إلى أهل الحرمين مع أحد رجال الدولة الموثوق فيهم، أو مع السلطان نفسه[٤].كذلك كانت تنفق على جهات البر المطلقة؛ كرواتب الفقهاء، والصوفية، والفقراء، والأسرى، وعمارة المساجد، ومصالح المدارس، والمرضى، وغيرها من جهات البر المختلفة[٥].

ج- الأوقاف الأهلية:

الوقف الأهلي أو الوقف الخاص نمط يخص أفرادًا بعينهم؛ كأن يوصي الإنسان بوقف على نسله، أو ذريته، أو أقربائه، أو أولاده، أو بعضهم، فإن جعله من بعدهم لجهة من جهات البرّ التي لا تنقطع صار خيريًّا[٦].وهذه الأوقاف لها ناظر خاص؛ إما من أولاد الواقف، أو من ولاة السلطان، أو القاضي[٧].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص ١٠٩.

(٢) **الشيخ زين الدين أبو المفاخر**: عبد القادر بن العلامة الشيخ سراج الدين عمر بن محمد الجعبري الأصل الخليلي الشافعي شيخ حرم الخليل عليه الصلاة والسلام، ولد ببلد الخليل، ونشأ بها وحفظ القرآن وسمع الحديث من جماعة، وكان صدوقًا كريمًا رئيسًا شجاعًا، توفي سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢١٢-٢١٣.

(٣) **شهاب الدين البارزي**: أحمد بن عبد الله الجهني شهاب الدين الشافعي ، استقر في دمشق، وولي نظر الأوقاف بدمشق، اشتهر بحسن سيرته في ادارة الأوقاف. مات سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٥م بدمشق. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ٢٠٨-٢٠٩.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٨٨؛ إسماعيل بيومي، النظم المالية، ص ٢٧٨.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٨.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٩، ص١٥٦-١٥٩؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م): دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٢٩-٣٠.

(٧) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩.

وقد أشار النويري إلى هذا النوع من الأوقاف بأنها: "العقار الذي يملكه شخص، وبعد تمام ذلك يشهد عليه شهود بهذا المكتوب طوعًا منه واختيارًا، أنه وقَف وحبَّس وسبَّل وحرَّم وأبدَّ، وتصدّق بما هو له وفي يده وملكه وتصرفه ورآه عرفه، وأحاط به علمًا وخبرةً، وهو جميع الدار الموصوفة المحدودة أعلاه أيام حياته، ثم من بعده على أولاده، وأولاد أولاده، وأولاد أولاد أولاده، أبدًا ما تناسلوا دائمًا، وما تعاقبوا للذكر مثل حظ الأنثيين، ويتناقلون بينهم كذلك إلى حين انقراضهم"[(١)].

ويتبين مما سبق أنّ الأوقاف الأهلية هي الأوقاف الخاصة، التي يوقفها أصحابها لمصالحهم الشخصية، فتكون خاصة بالشخص الواقف، ثم توقف على ذريته من بعده لحين انقراضهم، وبعد ذلك تكون على جهة من جهات البر المختلفة، فهي بذلك تجمع بين الوقف الأهلي والوقف الخيري[(٢)].

ويمكن أن يشترك الوقف بين النوعين: الأهلي والخيري في حال قصد الوقف ابتداءً على الذرية، ويشترك معهم في قسم من الوقف جهة من جهات البرّ في الوقت نفسه؛ أي أنّ الواقف قد جمعها في وقفه، فجعل لذريته نصيبًا من العين الموقوفة، ولأعمال البرَّ نصيبًا محددًا[(٣)].

وهذا يشير إلى مسألة مهمة، وهي المواريث الحشرية، فربما لجأ الأثرياء إلى هذا النوع من الأوقاف خشية ذهاب أموالهم إلى خزينة الدولة، وتأمين أولادهم من الفقر بعد وفاتهم، خاصة أن هذا النوع من الأوقاف كانت تشرف عليه جهة قضائية، مما يعطيه نوعًا من الحماية من تدخل محصّل المواريث الحشرية.

ويتبين مما سبق أن الأوقاف كانت موردًا مهمًّا من موارد الدولة المملوكية، ويتضح ذلك من خلال الدعم المتواصل للوقف من قبل السلاطين، بإنشاء المرافق والخدمات العامة، دون حاجة إلى ارتباط ذلك بوجود عجز في الدولة، وهو ما يخفف العبء عن

---

(١) نهاية الأرب، ج٩، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٩، ص١٥٨.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٩، ١٥٨-١٥٩. انظر ايضًا: حياة الحجي، السلطان الناصر، ص ٥٥-٦٩.

الدولة، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا؛ كان من أبرزها صرف مرتبات الأئمة في المساجد والمصالح الخاصة بتلك المساجد؛ من بناء، أو فرش، أو وقود، وغيرها، وكذلك صرف مرتبات عدد كبير من موظفي الدولة من معلمين ومتعلمين، وعاملين في المدارس وغيرها. وكل ذلك من إيرادات الأوقاف.

ومن يتصفح التاريخ الإسلامي عامة، والمملوكي خاصة، يجد مواقف لبعض سلاطين المماليك لجؤوا فيها إلى أموال الأوقاف في أمور طارئة تتعرض لها الدولة، كما يحدث في الصرف على تجهيز الجيوش الإسلامية، أو في تسديد بعض التزامات الدولة للتجار وغيرهم؛ فقد أراد نائب الشام في سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م أخذ أموال التجار، وأخذ أجرة شهرٍ أو شهرين من الناس حتى يستعين بها على قتال التركمان، فوافق بعض القضاة أهواء النائب، ورضوا بما قال؛ لكن ثُلَّة من العلماء، - منهم المؤرخ ابن حجي[١] - رفضوا هذا الأمر، وقال ابن حجي للنائب: "لا يؤخذ من أحد شيء إلا برضاه". وتحدث أحد العلماء أيضًا بذلك، ووعظ النائب ونصحه بعدم أخذ أموال الناس، وانتهت المسألة بأخذ أجرة شهر واحد من الناس من غير عنف وبرضاهم"[٢].

وعلى الرغم من ذلك فإن جهود الدولة المملوكية في مراقبة الأوقـــاف، ومتابعـــة عوائدها، وتنظيم أمورها لا تُنْكَر؛ لأنه متى ما ظهر العجز، وانعدمت المراقبة كان مدعاة إلى تدهور الأوقاف وضياعها[٣].

ثالثاً: النفقات الطارئـــة:

شهدت منطقة بلاد الشام في عصر دولة المماليك حدوث أنواع مختلفة من

(١) **شهاب الدين ابن الحجي**: أبو العباس أحمد الحسباني الدمشقي، له العديد من المؤلفات القيمة منها كتابًا سماه (الدارس من أخبار المدارس) يذكر فيه ترجمة الواقف وما شرطه وتراجم من درس بالمدرسة إلى آخر، اعتمدت عليه الباحثة في الدراسة، توفي سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م. انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص١٢-١٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ١١٦-١١٨.

(٢) شهاب الدين أحمد بن حجي (ت٨١٦هـ/ ١٣٧٨م)، تاريخه، تح: عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٢، ص٧٢٥.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ٨٩.

الكوارث الطبيعية؛ كالزلازل، والسيول والفيضانات، وتساقط الأمطار والثلوج، وهجمات أسراب الجراد، وظهور الفئران، بالإضافة إلى تفشي الأوبئة والطواعين، وتسببت هذه الكوارث في تراجع الزراعة والصناعة والتجارة؛ مما أدى إلى تدمير اقتصاد الدولة المملوكية، وكان لحدوثها دور كبير في انعدام الأمن، وعدم استقرار الأوضاع السياسية في المنطقة، فتركت آثارًا بالغًة بتدمير وتخريب كثير من المنشآت العمرانية[١].

اهتم السلاطين المماليك ونواب السلطنة بتشييد وإعمار المنشآت العمرانية، التي كانت تتعرض للتدمير والتخريب جراء الزلازل في بلاد الشام، ففي سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م أزال أحد نواب السلطان المنصور ما تبقى من برج اللاذقية، الذي تهدّم بفعل الزلزلة في تلك السنة، وأقام مكانه برجًا آخر، وكان من أصعب المنشآت العمرانية تشييدًا؛ لوقوعه في وسط البحر[٢].

وقد استخدمت الدولة المملوكية عدة طرق لمكافحة الآفات الزراعية، لاسيما هجمات الجراد؛ ففي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م هاجم الجراد مدينة حلب، فأحضرت الدولة ماءً جاذبًا لطير السمرمر[٣]، وعلق على مئذنة أحد المساجد، فقدم طير السمرمر بأعداد كبيرة فطار الجراد إلى أن خلت البلاد منه[٤].

---

(١) للمزيد انظر: فيصل عبدالله بني حمد، أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠-٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية ٢٨، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م؛ العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨١م) والثاني (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٧م)، المنارة، المجلد ١٤، العدد ٢، ٢٠٠٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٥١-١٥٣.

(٣) **طائر السمرمر**: طائر أصفر الريش، يشبه الخطاف، يعيش خارج البلاد الشامية، عندما يشم ماء السمرمر يقدم إلى المنطقة، ويكون بينه وبين الجراد عداء ، فيفر الجراد من الطائر، ومن خواص هذا الماء جذب طير السمرمر من الأماكن القاصية إلى البلاد. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠١؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٨٠.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٧٠١؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٨٠.

المبحث الثالث
نفقات المجتمع الإلزامية والتطوعية

فتح الإسلام أبوابًا للخير غير محدودة لنفع الآخرين؛ فمنها ما هو واجب على الفرد المسلم متى توافرت شروطها وموجباتها؛ مثل: الزكاة، والكفارات، والنذور، ونحوها، فهذه أعمال واجبة إلزامية على المسلم، وهنالك من أبواب الإنفاق ذات طابع تطوعي؛ مثل: الصدقات التطوعية، والأوقاف، ونحوها.

أولاً: نفقات المجتمع الإلزامية:

١- الزكـــاة:

تُعَدُّ الزكاة رافدًا أساسياً من روافد الإنفاق على الفئات المحتاجة في المجتمع الإسلامي، وقد سبقت الإشارة إلى الزكاة كمورد من موارد الدولة المملوكية، ولكن لابد من الإشارة هنا إلى مدى تدخل الدولة في جبايتها، ويبدو من خلال المصادر أن الدولة المملوكية تركت حرية دفع الزكاة بيد أصحابها، وهذا ما أشار إليه القلقشندي بقوله: "والذي عليه العمل في زماننا أن أرباب الزكوات المؤدين لها يفرقونها بأنفسهم[١]، حيث أبطل السلطان قلاوون وظيفة ناظر الزكوات[٢]، ما عدا زكاة التجار"[٣]. ومما يدلل على ذلك أنه لما قدم قطلوبغا الفخري[٤] نائب السلطنة في مصر إلى دمشق في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م أخذ من التجار بالأسواق زكاة مالهم، فتحصل على ما يقارب ثمانية

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ٥٢٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٣.

(٣) صبح الأعشى، ج٣، ٥٢٩.

(٤) **قطلوبغا الفخري**: سيف الدين الناصري المعروف بالفخري، كان من أكبر مماليك الناصر قلاوون، انتهى أمره مقتولاً على يد السلطان الناصر أحمد بن الناصر سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٤م، وكان الفخري شجاعًا داهية مقدامًا. للمزيد عن سيرته انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٩١-١٩٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ٢٩٣-٢٩٤.

آلاف دينار[١].

ومن يتصفح تاريخ سلاطين المماليك يجد محاولات لإبطال أخذ الزكاة من التجار أيضًا، كما فعل السلطان برقوق[٢] عندما أبطل زكاة الغلة من التجار[٣].

٢- زكاة الفطر[٤]:

تجب زكاة الفطر في وقت تزداد فيه نفقات الأسر المسلمة، لقدوم العيد، فاقتضت حكمة الله بفرضها في هذا الوقت إغناء للفقراء والمحتاجين في هذا اليوم، حتى يشعروا أن المجتمع لم يهمل أمرهم، ولم ينسهم في أيام سرورهم وبهجتهم[٥].

٣- الكفارات:

مفهوم الكفارات[٦]: هي العقوبات التي قدّرها الشرع على كل مسلم يرتكب

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٤١.

(٢) **السلطان الملك الظاهر أبوسعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجركسي**، وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والأول من الجراكسة ، تسلطن سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، كان من أعظم ملوك الجراكسة، كثير الصدقات على الفقراء والمحتاجين، توفي سنة٧٩١ه/١٣٨٨م. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٢٦-٥٣٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٦-٧.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص٤٤٦.

(٤) **الزكاة لُغة**: النماء والزيادة، والطهارة والبركة. يُقال: زكى الزرع: إذا نما وزاد، الفطر: اسم مصدر، من قولك: أفطر الصائم، يفطر إفطارًا؛ لأن المصدر منه: الإفطار، وهذه يراد بها الصدقة عن البدن والنفس، وإضافة الزكاة إلى الفطر من إضافة الشيء إلى سببه؛ لأن الفطر من رمضان سبب وجوبها، فأضيفت إليه؛ لوجوبها به، فيقال: (زكاة الفطر)، **أما اصطلاحاً** فهي: (الصدقة تجب بالفطر من رمضان، طهرة للصائم: من اللغو، والرفث) وهي فريضة عند جمهور الفقهاء. انظر: الزمخشري، الفائق، ج٢، ص١١٩؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة (زكا)، ج١٤، ص٣٥٨؛ الرازي، مختار الصحاح، ص ١١٥؛ ابن قدامة، المغني، ج٤، ص ٢٨٢.

(٥) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت٥٩٥ه/١١٩٨م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث، القاهرة، ج٢، ص٤٤.

(٦) لمزيد من التفصيل عن الكفارات يمكن الرجوع إلى: عدنان هاشم صلاح: التكافل الاجتماعي في الإسلام، رسالة دكتوراه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٤٠٠هـ، ص ٤٠٩-٤٠٦؛ عز العرب فؤاد حافظ، تمايز الاقتصاد الإسلامي عن الفكر المعاصر في توزيع الثروة، رسالة ماجستير منشورة، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٢٥٣ .

ذنبًا، أو مخالفة شرعية. وتُعَدُّ أحد الموارد المهمة لتمويل التكافل الاجتماعي، يتمثل بصفة أساسية في إشباع حاجات الطعام والكساء للمحتاجين؛ لذلك يشير أحد الباحثين إلى أن الإسلام جعل كفارة كثير من الذنوب إطعام الفقراء وكسوتهم، وهذا مورد لتمويل مشروعات التكافل الاجتماعي[١]. وتتنوع الكفارات حسب الفعل المخالف لشرع الله على النحو التالي:

أ – كفارة اليمين: وهى في اليمين التي يحلفها الإنسان على أمر يفعله في المستقبل ولا يفعله، أو أمر لا يفعله ففعله، والعقوبات المفروضة ذكرها الله ﷻ بقوله: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾[٢]. يتضح من هذه الآية الكريمة أن كفارة اليمين تتمثل في إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، والفرد مخير في هذه الثلاثة، وعند العجز عنها يلزمه صيام ثلاثة أيام.

ب – كفارة الإفطار عمدًا في رمضان: هذه الكفارة واجبة عند جمهور الفقهاء، ويرى الإمام مالك أنها تجب على التخيير، وأفضلها الإطعام[٣].

ج – كفارة الإفطار بعذر في رمضان: إذا كان غير قادر على الوفاء لمرض أو شيخوخة، وتتمثل الكفارة في إطعام محتاج عن كل يوم [٤].

د – كفارة الظهار: هي الكفارة التي تجب على من يظاهر امرأته؛ بأن يقول لها: أنت

---

(١) مصطفى السباعى، اشتراكية الإسلام، دار مطابع الشعب (د.م)، ١٩٦٢م، ص٢٠٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩ .

(٣) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، كتاب(الصيام)، ج٢، ص٦٣.

(٤) رجب سيد صميدة ، اتجاهات الضمان الاجتماعي في القانون المصري ، رسالة دكتوراه، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٢١.

عليَّ كظهر أمي، فتحرم عليه[1]. وتتحدّد الكفارة في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

٤- النـــذور:

وتمثل كل ما يلزم به شخص نفسه من التزامات مالية دينية في المستقبل[3]، وتسهم النذور مساهمة فعالة في تحقيق التكافل الاجتماعي؛ لأن الالتزامات المالية غالبًا ما توجه لإشباع حاجات الفقراء. لذلك يشير أحد الباحثين إلى أن النذور ما زالت تفتح بابًا للإنفاق على الفقراء والمساكين، وقَلّ أن تجد مسلمًا يمرض أو تكون له حاجة إلاّ وينذر لله إن شفاه من مرضه أو قضى له حاجته ليتصدقن بكذا وكذا[4].

ومن النذور التي ارتبطت بتاريخ المماليك مدينة الخانكة[5]؛ إذ إنها مدينة شُيدت من أجل نذر سلطاني؛ فقد بناها السلطان المملوكي الملك الناصر محمد قلاوون، عندما أُصيب بوعكة أثناء رحلة صيد، ونذر لله أن يجعل هذا المكان مباركًا إن عافاه الله،

(١) ابن رشد، بداية المجتهد، كتاب (الظهار)، ص ١٢٣.

(٢) سورة المجادلة ، الآيتان ٣-٤ .

(٣) **النذر**: النذر النحب، وهو ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه نحبًا واجبًا، وجمعه نذور. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نذر)، ج٥، ص٢٠٠.

(٤) ابن رشد، بداية المجتهد، كتاب (النذور)، ص، ١٨٤؛ السباعى، اشتراكية الإسلام، ص ٣٣١.

(٥) **الخانكة**: من قرى مصر ، يذكر المقريزي تحت عنوان (خانقاه سرياقوس)، أن هذه الخانقاه خارج القاهرة من شماليها على نحو بريد منها، بأوّل تيه بني إسرائيل بسماسم سرياقوس. انظر: المقريزي، الخطط، ج٤، ص ٢٩٤؛ للمزيد عن مدينة خانكة انظر: صلاح مفتاح، مدينة الخانكة (كشف الأستار ولفت الأنظار حول تاريخها وما بها من آثار)، مراجعة: سعيد الملط، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت).

فيجعل منه مكانًا للعبادة، وبعد أن تم له الشفاء، خرج على رأس موكب يضم علماء ومهندسين لتأسيس هذه المدينة عام ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥م، وبنى فيها خانقاه، ومسجدًا، وحمامًا، وبمرور الأيام أصبح هذا المكان مكانًا لإيواء الصوفية والعباد والفقراء وعابري السبيل (١).

ومن النذور ما كان سبباً في تخليص المساجين من أنواع العذاب التي كانوا يتعرضون لها في سجن يقال له "سجن الشمائل"، وقد وصفه المقريزى قائلاً: "إنه من أشنع السجون وأقبحها منظرًا، يحبس فيها من وجب عليه القتل، أو القطع من السراق وقطاع الطرق، ومن يريد السلطان إهلاكه"(٢).حيث سُجن فيه السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٦م، وقاسى به شدائد عظيمة في زمن السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/ ١٣٩٩ـ١٤١٢م)، فنذر في نفسه إن خلص من هذه الشدة، وصار سلطانًا أن يهدم هذا السجن، ويبنى مكانه جامعًا، وبالفعل فقد شَيَّد في مكانه مسجدًا ومدرسة وكان ذلك سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م(٣).

ومن العادات التي انتشرت في مصر والشام زيارة القبور، معتقدين أن زيارتها تجلب البركة والرحمة ، وأن الدعاء عندها مستجاب، بل إن هناك مؤلفات تجمع الأماكن المستحبة زيارتها في الشام(٤). وكثرت النذور لمثل هذه المقابر والمزارات، من هذه القبور قبر بلال الحبشي رضي الله عنه ؛ حيث يتبرك به، ويقف الناس عليه، وينذرون له، فتقضى حوائجهم، وهذا مؤشر خطير لتفشي البدع والشركيات في العصر المملوكي.

٥- الوصيـــة:

الوصية في اللغة: مأخوذة من وصيت الشيء: إذا وصلته، سميت بذلك؛ لأنها وصل

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٨ ، ص ٢٥٥.

(٢) الخطط، ج ٣، ص٣٣٠.

(٣) العيني، السيف المهند، ص ٢٧٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢، ص٢٠.

(٤) منها كتاب ابن الحوراني: عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي (من علماء القرن العاشر)، الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام، دمشق، مكتبة الغزالي، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

لما كان في الحياة بعد الموت[١]. أما في الشرع: فقد اختلفت عبارات الفقهاء فيها؛ فقال بعضهم: الوصية هي هبة الإنسان غيره عينًا، أو دينًا، أو منفعة، على أن يملك الموصَى له الهبة بعد الموت[٢].

وكذا تجب الوصية للأقربين، الذين ليس لهم حق في الإرث، وكانوا فقراء، والموصي غني، فهنا تجب عليه الوصية لهؤلاء الأقارب. كما جاء في الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٣].

فعلى سبيل المثال أوصى التاجر نجم الدين عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الرحمن الرجي (ت٧٣٥هـ/١٣٣٤م) بثلث تركته وحدّد خمسين ألف درهم يشتري بها ولده عقارًا ويوقفه صدقة[٤].

وخصص الخواجا[٥]ابن المزلق[٦] في وصيته ثلث ماله لفقراء مكة والمدينة والبيت

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (وصى)، ج١٥، ص ٣٩٤، الرازي، مختار الصحاح، باب(الواو)، ج١، ص٣٠٢.

(٢) البهوتي، منصور بن يونس الحلبي (ت١٠٥١هـ/ ١٦٤١م)، كشاف القناع عن متن الإقناع، دار الكتب العلمية، ٦ ج، د.ط، د.م، د.ت، باب الوصايا، ج٤، ص٣٣٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨١.

(٤) ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، تاريخ المزة وآثارها وفيه المعزة فيما قيل في المزة لمؤرخ الشام في القرن العاشر الهجري، تح، محمد عمر حمادة وآخرون، دار قتيبة، دمشق، (د.ت) ص٧١.

(٥) **الخواجا**: لقب فارسي ومعناها السيد ورب البيت والتاجر الغني، والحاكم، والمعلم، والخصي، ويقال خواجكي بإضافة الكاف للمبالغة والتعظيم. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٦٩.

(٦) **ابن المزلق**: هو الشمس ابن المزلق، محمد بن علي بن أبي بكر بن محمد الحلبي الأصل، الدمشقي، التاجر المشهور، كان كبير تجّار دمشق ومن أهل الثروة، وكان من أهل الخير والبرّ والمعروف، وله آثار وأوقاف مشهورة، مات وقد أناف الثمانين، سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م. انظر: ابن شاهين، نيل الأمل، ج٥، ص١٩١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٦٣.

المقدس ودمشق[١]. ومما يثير الانتباه بأن معظم الوصايا في الوثائق المملوكية كانت تدور حول الصدقات والأوقاف مما يؤكد ظاهرة الالتزام الديني الذي انتشر في المجتمع الشامي.

وتحدثت وثائق بيت المقدس عن كثير من الوصايا التي أيدها النظام القضائي في بلاد الشام؛ والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى في الوثائق، منها وصية أحد تجار بيت المقدس سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م كتبها وهو على فراش الموت بإسناد زوجته: الوصاية على أبنائها، تتصرّف في مالهم المخلف لهم التصرُّف الشرعي"[٢]؛ مما يثبت أهمية الوصية في حسم كثير من القضايا[٣].

ثانياً: نفقات المجتمع التطوعية:

التطوع لغة: مأخوذة من الفعل (طوع)، وهو ما تبرع به الفرد من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه"[٤]، وهو بمعنى "تكلف الطاعة وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالنفل"[٥]. والتطوع بالشيء التبرع به، والمطوعة: الذين يتطوعون بالجهاد"[٦]. مما سبق

(١) ابن شاهين الظاهري، نيل الأمل، ج٥، ص١٩١.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٦١٣)، مج٢، ١٤٢.

(٣) وثيقة حررت سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، وهي شكوى رَفَعَها شيخُ المغاربة محمد بن عبد الوارث المالكي إلى كافل السلطنة في دمشق، وملخّصُها: أنّ يهوديًّا مات في مدينة القدس فسارع الوالي، وهو المسؤل عن الشُّرطة إلى الخَتْم على بيته؛ (أي الحجز)، تمهيدًا لنقل موجودات بيته مِن تَركته إلى بيت المال غير مدقق بالطريق الشرعي بوصية الرجل، أو البحث عن ورثته، وعندَ ذلك جاء اليهودُ إلى شيخ المغارِبة عَلّه ينجح في رفْع ختم الوالي؛ لأنّ اليهوديّ الميِّت تَرَك وصية شرعيّة، ولكنّهم لا يستطيعون إثباتها؛ لأنّ المستحقّ لإرثه كان في السّجن عندما مات اليهودي، ويتعذّر معه إثبات الوصية، ولما لم يستجب الوالي لذلك، حرَّر شيخ المغاربة رسالتَه إلى كافِل المملكة في دمشق؛ لأنّ القدس كانت تتبعها، وطلب إليه أن يصدر أوامرَه بمرسومين إلى القاضي الشرعي في القُدس الشريف، وإلى نائِب السَّلْطنة؛ لينظرَا هذه الشكوى، ويُنصفَا اليهودي. وتدلنا هذه الوثيقة على مدى الحرص الذي كانتْ تُوليه الدولة لتحقيق العدالة، حتى لو كان الخصم من أهل الذِمَّة. انظر: محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت ١٩٨٥م: الحولية (٦)، الرسالة (٢٦)، وثيقة رقم (٣٢٥)، ص ١٠٤-١٠٧؛ العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (٣٣٥)، مج١، ص٢٧٠.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، (باب العين فصل الطاء)، ج ٨، ص٢٤٠.

(٥) المناوي، التعريف، فصل (الواو)، ج١، ص٤٨٧.

(٦) الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص ١٦٨.

يتبين لنا أن المعنى اللغوي للتطوع في معاجم اللغة يدور حول: التبرع والتكلف، واللين، والطاعة.

وشرعًا: "طاعة غير واجبة. قال الأزهري: التطوع ما تبرع به من ذات نفسه مما لا يلزمه فرضه، فسمّي تطوعًا؛ لأن فاعله يفعله تبرعًا من غير أن يؤمر به حتمًا. وقال بعضهم: التطوع ما لم يثبت فيه نص بخصوصه"(١). و"اسم لما شرع زيادة على الفرض والواجبات"(٢).

وعرف بأنه "الجهد الإرادي الذي يقوم به فرد أو جماعة من الناس طواعية واختيارًا؛ لتقديم خدماتهم للمجتمع أو لفئات منه، دون توقع لجزاء مادي مقابل جهودهم، سواء أكانت هذه الجهود مبذولة بالنفس أم بالمال"(٣).

والدولة الإسلامية في عهدها الأول إنما بنيت وقويت وأدت دورها الحضاري بفضل قيام أفرادها بالجهود التطوعية التي حببهم القرآن الكريم فيها، ودعتهم السنة المطهرة إليها(٤).

حيث يهدف أفراد المجتمع من أهل الخير إلى تقديم خدمات تطوعية، ليعينوا بها أصحاب الحاجات، أو ليسهموا بها في عمليات التنمية، أو ليخففوا بها عن كاهل الدولة، سعيًا منهم إلى التقرب إلى الله عز وجل ابتغاء مرضاته، واحتسابًا للثواب عنده، وإدراكًا منهم أن الدولة لو تحملت — وحدها – مسؤولية التربية والتعليم لكل فرد فيها ووفرت فرص العمل لكل قادر والمعاش الملائم لكل عامل والرعاية لكل محتاج، والتزمت وحدها ببناء المساجد والمدارس ودور العلاج، بالإضافة لما يقع على كاهلها من أمور الدولة

---

(١) أسامة بن حسين مشاط، الخدمات التطوعية (مفاهيمها ومشروعيتها)، بحث منشور، مقدم للمؤتمر العلمي الأول للخدمات التطوعية بالمملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى: مكة المكرمة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٥٩.

(٢) الجرجاني ، التعريفات، ص ٦٩.

(٣) حسين محمد حسنين، المرشد الفني للجمعيات الخيرية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان- الأردن، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م ، ص ١٤١.

(٤) محمد الصالح، الرعاية الاجتماعية، ص٢٦.

وتنظيماتها فلو حملت وحدها هذه الأعباء وغيرها لناء كاهلها، ولغرقت في بحار الديون[١].

إذن فالعمل الاجتماعي التطوعي هو: قيام الفرد بعمل ما من تلقاء نفسه، دون أن يكون هناك توقع لجزاء مادي أو دنيوي، وإنما طمعًا في نيل رضا الله، وكسبًا للأجر والثواب، وذلك في الأعمال الاجتماعية، التي يتعدى نفعها الآخرين.

ومن أهم مجالات النفقات التطوعية الأوقاف، التي أشرنا فيما سبق إلى الدور الذي أدّته الدولة المملوكية لتنظيمها، ونحن هنا بصدد الحديث عن صور الوقف من قبل المجتمع الشامي في زمن المماليك، وهي كثيرة تعتبر من مفاخر المسلمين، ولم يتوقف الوقف على فئات المجتمع العليا؛ كالسلاطين، والأثرياء، بل حتى الفئات المتوسطة ساهمت بما تملك من أوقاف، وتنوعت ما بين الأموال النقدية، والمواد العينية؛ كالطعام، والكسوة، والمسكن، وتنوعت خدماته وتوجهاته ما بين خدمات اجتماعية، وصحية، واقتصادية، وعلمية، وغيرها من مجالات الحياة المختلفة لجميع الفئات المحتاجة في المجتمع [٢]. وكانت مثار إعجاب الرحالة مثل ابن بطوطة، الذي تحدث عنها بإعجاب قائلاً: "والأوقاف في دمشق لا تحصى أنواعها ومصادرها؛ لكثرتها"[٣].

وهذه الحقيقة تتضح جلية لمن يدرس الأوقاف في بلاد الشام، فلا يسعه إلا التعجب من التنوع الكبير في مصارف الأوقاف، فقد كان هناك تَلَمُّسٌ حقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع؛ لتسدّ هذه الحاجة عن طريق الوقف، فالوقف من حيث بُعْده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحمي، الذي يمتلكه المسلم في بلاد الشام، ويترجمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير[٤].

ومما يدل على الدور المهم للوقف في التكافل الاجتماعي ما حفظه التاريخ

---

(١) محمد الصالح، الرعاية الاجتماعية، ص٢٥-٢٦.

(٢) سيفصل الحديث عن الفئات المحتاجة ورعايتها بشكل موسع في الفصل الثاني.

(٣) الرحلة، ص١٠٢- ١٠٣.

(٤) عبد الله ناصر السدحان، الآثار الاجتماعية للأوقاف، (د.ن) الرياض، ١٤٢١هـ، ص١١.

الإسلامي من أموال كانت توقف لرعاية الأيتام، والفقراء، وابن السبيل، وإطعام الجائع، وعلاج المرضى والإنفاق على اللقطاء، والمقعدين، والعميان، والعجزة، والقرض الحسن للتجار، وأوقاف تزويج الشباب، ورعاية الأرامل، والمعسرين، والأوقاف المخصصة للرعاية الطبية للمرضى، وإنشاء المستشفيات، والأوقاف المخصصة لإنشاء المدارس، وتغطية نفقات معيشة الطلاب والمعلمين، بالإضافة إلى وقف دواب الزراعة وأدواتها[(١)].

ومن وجوه الإنفاق أيضاً الصدقات التطوعية[(٢)]. التي غالبًا ما توجّه لإشباع حاجات الفقراء والمحتاجين، ويلاحظ أنها قد تتم في صورة نقدية، أو عينية، أو في صورة تقديم منافع؛ مثل: كشف الأطباء على بعض المرضى بدون مقابل.

ومن أفضل الصدقة ما يعطى الأقارب الفقراء، وتوجد وثائق عديدة تشير إلى مجال النفقة في محيط العائلة في زمن المماليك من واقع الحياة في مجتمع بلاد الشام؛ فقد جاء في إحدى الوثائق سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، عن إحدى النساء (أنها مواصلة بكسوتها ونفقتها من زَوْجها المسمَّى من تاريخ الزوجيَّة بينهما، وإلى يوم تاريخه) [(٣)].

وهناك كثير من الوثائق خصص أصحابها صدقاتهم إلى أقاربهم الفقراء؛ مما يؤكد مدى التلاحم والتكافل الذي عاشه المجتمع الشامي خاصة في مجال العائلة[(٤)].

---

(١) للمزيد عن الأوقاف. انظر: عبد الله ناصر السدحان، الأوقاف والمجتمع (مجموعة أبحاث عن العلاقة التبادلية بين الأوقاف والمجتمع)، الرياض، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م، ص٧٠.

(٢) **الصدقة لغة**: جمع صدقات، وتَصَدَّقتُ: أعطيتُهُ صدقةً، والفاعل مُتصَدِّقٌ، (وهو الذي يُعطي الصدقة)، والمتصدِّقُ: أي المُعطي، **أما اصطلاحًا فهي**: العطية التي يُبتغى بها الثواب عند الله تعالى. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (صدق)، ج١٠، ص١٩٣؛ الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص١٥١.

(٣) كامل العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (٢٨٧) ، م٢، ص١١١.

(٤) تشير إحدى الوثائق سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م إلى أن زين الدين بن رمضان بن الناصري محمد القلعي، قد خصص صدقاته إلى ابن عمه بدر الدين حسن القلعي، والنصف الآخر على أخواته عائشة وخديجة وأولادهن سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٧م. انظر: سجل أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين (في غزة ، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون) حسب الدفتر رقم (٥٢٢)، من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، محمد ابشرلي ومحمد التميمي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٦٢.

واشتهر أهل الشام بأنهم ممن اشتهروا بعمل الخير، مثل عماد الدين القيسراني[١]، الذي كان من خيار الناس محبباً إلى الفقراء والصالحين، ويقضي حوائجهم ويتلطف بهم، ومنهم العالم الجليل إبراهيم بن عبد الله بن قدامة (ت٦٦٦هـ/ ١٢٦٥م)، الذي وصف بأنه لين الجانب، شديد التواضع للفقراء والمساكين والضعفاء، كثير الصدقة والبر، حريصًا على قضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم[٢].

ومنهم من يوجهها إلى بناء المساجد كشهاب الدين عمر بن المرجاني (ت٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م)، الذي بنى مسجدًا وأنفق عليه نحو عشرين ألف[٣].

ولا يستهين الإسلام بالعمل التطوعي مهما كان حجمه بل يدعو إلى بذل الجهد التطوعي مهما كان تقدير الإنسان له، واعتبر أن كل عمل يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى صدقة يستحق عنها المسلم أجرا في الآخرة؛ ومما يدلل على مدى ما وصل اليه فعل الخير في العصر المملوكي ما ذكرته إحدى الوثائق عن وقف صاحبها ممتلكاتِهِ على مصالح المسلمين، وهي ممتلكات بسيطة لرجل فقير تشمل كمية من البرغل، وبساط، وعسلية بها قمح[٤].

فباب النفقات التطوعية باب واسع يدعو إلى التكافل والتراحم بين أفراد المجتمع، وخدمة بعضهم، وتفريج كرب إخوانهم، وإدخال السرور عليهم، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم بشكل خاص في هذه المناسبات.

---

(١) **عماد الدين القيسراني**: إسماعيل بن محمد بن عبد الله القاضي، كان موقّع الدست أولاً بباب السلطان، ثم كتابة السر بحلب، ثم تولى موقّع الدست في دمشق، وولداه في ديوان الإنشاء، وكان الأمير تنكز يعظّمه، توفي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٣٠.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٨٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٩٩؛ النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، ٢ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ، ج ٢، ص ٣٤١.

(٤) وثيقة رقم (٨٤)، من وثائق المتحف الإسلامي في القدس انظرها في : يوسف درويش غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص١٠٩.

الفصل الثاني

الرعاية الدائمة للفئات المحتاجة

المبحث الأول: رعاية الأيتام.

المبحث الثاني : رعاية الفقراء والمساكين.

المبحث الثالث: رعاية العلماء وطلاب العلم المحتاجون.

المبحث الرابع : رعاية الرقيق والخدم.

المبحث الخامس : رعاية الأرامل والمطلقات.

المبحث السادس: رعاية المرضى وذوى الاحتياجات الخاصة.

المبحث الأول

رعاية الأيتـــــام

اليتيم في اللغة جمعه أيْتامٌ ويَتامى، وقد يَتِمَ الصبيّ بالكسر يَيْتَمُ يُتْماً ويَتْماً، بالتسكين فيهما. يقال: أَيْتَمَتِ المرأةُ فهي موتِمٌ، أي صار أولادها أيْتامًا. وكلُّ شيءٍ مفردٍ يعزُّ نظيره فهو يَتيمٌ، يقال دُرَّةٌ يَتيمةٌ[١]. واليُتْمُ في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم؛ لأن الكفالة في الإنسان منوطة بالأب، فكان فاقد الأب يتيمًا دون منْ فقد أمه، وعلى العكس في البهائم، فإن الكفالة منوطة بالأم لذلك كان من فقد أمه منها يتيمًا[٢].

واليتيم عند الفقهاء هو مَن فقد أباه ما لم يبلغ الحُلُم، فإذا بلغ الحُلُم زال عنه اليُتم. وقد يُطلق على اليتيم بعد بلوغه لفظ يتيم وهو إطلاق مجازي، وليس بإطلاق حقيقي، باعتبار ما كان، كما كانوا يسمون النبي ﷺ – وهو كبير يتيم أبي طالب، لأنه رباه بعد موت أبيه[٣]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[٤]، وهم لا يُؤْتَوْن أموالهم إلا بعد البلوغ والرشد، أي بعد زوال صفة اليُتم عنهم[٥].

لم تكن رعاية الأيتام صفحات تُسُطّر بها الكتب العلمية والفقهية، بل كانت واقعًا يتنافس على توفيره أهل الخير والبر من السلاطين والأثرياء والعلماء وعامة الناس؛ لتوفير حياة كريمة للأيتام ليعيشوا مثل باقي أفراد مجتمعهم، ولقد شملت هذه الرعاية جوانب متعددة في حياة اليتامى، وستحاول الباحثة في هذا المبحث أن ترصد أحوال الأيتام في كنف العصر المملوكي، فمن صور الرعاية التي نالها الأيتام في تلك الحقبة من الزمن:

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص٣٠٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٦٤٥؛ الرازي، مختار الصحاح ، ص٣٠٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٦٤٦.

(٤) سورة النساء: الآية: ٢.

(٥) الرازي، تفسير غريب القرآن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٢١هـ، ج٢، ص٩٧٩.

أولاً: الرعاية المالية للأيتام:

خُصَّتْ طبقة الأيتام بنصيب وافر من الأحكام الشرعية التي تنظم شؤونهم، وتوفّر لهم المصادر المالية الكثيرة والمتعددة، وقد ظهر ذلك جليًّا من خلال توريثهم، ومن خلال تشريع الزكاة بجميع أنواعها، والكفارات بأنواعها المتعددة، والوصايا، والهبات، والعطايا، والوقف، وصدقات التطوع، وغير ذلك.

وقبل الشروع في تفصيل الحديث عن مدى الرعاية التي وجدها هذه الفئة تحت ظل حكم المماليك لابد أن نقسم فئة الأيتام حسب وضعهم المادي، وهذا أمر متعارف عليه في أنظمة التشريع الإسلامي فلا يخرج اليتيم من حالتين[١]:

أ- أن يموت أبوه ويترك له مالاً، فتتكفَّل به أمُّه وترعاه، أو جدُّه، أو عمُّه، أو أحد أقاربه، فيحفظ له ماله، ويُحسِن استثماره، وهو في هذه الحال لا يكون محلاًّ للصَّدَقَة، ولكن يكون محلاًّ للرعاية وحُسن التربية والتوجيه.

ب- أن يموت أبوه ولَم يترك له شيئًا، وهذا تُنفِق عليه أمُّه أو أقاربه بالحسنى، فإن لم يكن له مَن يَكفُله، تتولَّى الدولة أمره، إمَّا بمباشرة الكفالة، أو بإعطاء المال.

ففي الحالة الأولى فصّل القرآن الكريم في أحوال اليتامى، وأكدت آيات القرآن حماية أموال اليتيم وحفظها وعدم التفريط فيها، فمشكلة اليتامى الأثرياء ليست بأقل من مشكلة اليتامى الفقراء؛ لأن اليتيم في هذه المرحلة لا يستطيع تمييز ما فيه مصلحته؛ لعدم اكتمال عقله ورشده فيكون عُرضة لخسارة أمواله وهدفًا لضعاف النفوس من أفراد المجتمع، فكان لابد من ضوابط تحد من تصرفاته المالية، ومن هذه الضوابط التي فرضها الإسلام فرض الولاية عليه حتى يتولى الولي حفظ أمواله وإدارتها وصيانة حقوقه وحمايته[٢]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا

---

(١) تسنيم محمد جمال استيتي، حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٧م، ص ٥٢-٦٥.

(٢) عاطف محمد أبو هربيد، مسؤولية الدولة نحو أموال الأيتام، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، غزة، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر حق الأرملة ، ٢٠٠٧م ، ص ١٢، ١٣.

الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن المسؤلين وأوصياء اليتيم مخاطبون بهذه الآيات الكريمة، ومطالبون بالحفاظ على ما يردهم من أموال مخصصة للأيتام، وأن يهتموا بالدقة والاحتياط في صرفها لما فيه خير الأيتام ومصلحتهم.

ويأتي السؤال هنا: ما دور الدولة المملوكية في المحافظة على أموال هؤلاء الأيتام؟

تنبهت الدولة المملوكية منذ البداية إلى عظم هذه المسؤولية والواجب الذي يتحتم عليها اتجاه هذه الفئة الضعيفة للحفاظ على أموالها، وقد أسندت هذه المهمة الجليلة إلى قاضي القضاة الشافعي الذي كانت له مترلة أعلى من غيره من أقرانه قضاة المذاهب الأخرى، فقد أُسند إليه النظر في أموال الأيتام، والإشراف على الأوقاف، والنظر في ديوان الأحباس، وغير ذلك[2]، وهو بهذه المناصب الجليلة التي أضيفت على عاتقه يصبح المسؤول الأول أمام الدولة عن الأيتام وأموالهم.

ومن خلال عرض القضاة الذين تولوا هذا المنصب المهم نجد أن الدولة كانت تختارهم بعناية، وتعتمد على صفات معينة لتعيينهم، ولعلنا من خلال سرد نماذج لبعض من تولى وظيفة ناظر الأيتام نستشف الصفات التي جمعت بينهم لتعيينهم، فكان من أبرز من تولى هذه الوظيفة في دمشق: الفقيه تاج الدين أبو الفضل يحيى بن محمد المعروف بالتاج المحبوبي (ت٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، وكان من أعيان دمشق، كان محدِّثًا[3]، ونفيس الدين أبو فدا إسماعيل بن محمد الدمشقي (ت٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)، وكان أيضاً محدثاً ذا ثروة وله دار مليحة وقفها دار حديث[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية:١٥٢.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١١٨؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،ج٥، ص١٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٤٤٣.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٧، ص٥٠٧.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٢٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٠١؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨٤-٨٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٣٥.

ومنهم أيضاً نجم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد أبو محمد بن المسلم (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) أحد رؤساء دمشق المشهورين، له بيت كبير ونسب عريق، ورياسة باذخة وكرم زائد، باشر نظر الأيتام مدة، وسمع الكثير وحدّث، وكانت لديه فضائل وفوائد، وله الثروة الكثيرة [١].

ومنهم السيد الشريف جلال الدين أبو عبد الله محمد الجعفري الأعناكي (ت٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م)، الذي اشتهر بأمانته طوال ولايته[٢].

ومن خلال السرد السابق يتضح أن من أهم الصفات التي جمعت بينهم التدين والأمانة، وكان أغلبهم من مشهوري الفقهاء والمحدثين، كما كان أغلبهم من الأثرياء لئلا يتطلعوا إلى ما تحت أيدي الناس من مال.

ومن خلال استقراء المصادر المملوكية نستنتج حقيقة واضحة في التقاليد السلطانية لمنصب قاضي القضاة بأن السلاطين لا ينفكون في كل خطاب تقليد من الحث على رعاية الأيتام وحفظ حقوقهم، فيذكر النويري، في ثنايا خطاب التقليد السلطاني لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز[٣]، المهام التي أُسندت إلى قاضي القضاة في الديار المصرية من قِبَل السلطان الظاهر بيبرس منها: " أموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلاً، ومن تحقق أنه يكون عليها قفلاً، فطالما ابتذلت أيدي الخونة منها مصونًا، وجعلت العين منها أثرًا حين مدت إليها عيونًا، ولا تخلها من نظر يحفظ منها مضاعًا، ويحسم عنها أطماعًا، ويخصها بمزية الزيادة بعد النقصان، ويكتب لها من مخاوف الخونة كتاب أمان، فقد قلدناك هذه الأحكام التي ترجو بك الخلاص من تبعاتها، ورعينا

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٥.

(٢) ابن رافع، محمد بن رافع السلامي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، الوفيات، تح: صالح مهدي عباس، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٢م، ج١، ٣٢٣.

(٣) **تاج الدين بن بنت الأعز**: عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي قاضي القضاة، جمع بين القضاء والوزارة، توفي سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. للمزيد انظر: النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٤٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٢٠٠؛ ابن رافع، الوفيات، ج٢، ص٢٤٠؛ ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد (ت٨٤٠هـ/ ١٤٧٩م)، المقصد المرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، ٣ج، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٥.

بك حق الرعية"[١].

ويسرد لنا الصفدي ملابسات تعيين يوسف بن إبراهيم بن جملة المحجي[٢] قاضي قضاة الشافعية في دمشق، فقد كان بالديار المصرية لما رسم السلطان الملك الناصر بولايته لمنصب قاضي القضاة، بل كان هو بنفسه الذي نسخ كتاب تقليده بولاية قاضي القضاة فيقول: "والأيتام فليولِّ عليهم من يراقب الله في أموالهم، ويخشى الله في معاملاتهم، فكفى ما بهم من سوء حالهم، ولا يركن في أمرهم إلا لمن اختبره المرة بعد المرة، وعلم أن عفته لا تسامحه في التماس الذرة، والأوقاف فليُجرِ أمورها على النظام البارع، ولا يتعدَّ بها شروط الواقفين، فإن نصّ الواقف مثل نص الشارع، والأيامى فليزوجهنّ من أكفائهن شرعًا، ويمنع من يُلبسهن من العَضْل دَرعًا، والأنكحة الأهلية يستوضح عقودها، والخلية يعتبرها شهودها، ومال المحجور عليه يودعه حرزًا يُحفظ فيه، ومال الغائب، وكذلك المجنون والسفيه، وودائع بيت المال المعمور فلتكن مضبوطة النظام، محفوظة الزّمام، مقطوعة الجدل والخصام"[٣].

لم يغفل هذا التقليد السلطاني فئة الأيتام من ضمن الوصايا والمهام التي حرص سلاطين المماليك على ذكرها، بل نلحظ اللهجة الصارمة الموجهة للقاضي الشافعي؛ بما أنه المسؤل الأول بالنظر في شؤن الأيتام وأموالهم، واتخاذ التدابير التي من شأنها رعايتهم وحفظ حقوقهم.

وولاية الدولة على أموال الأيتام قد تكون ولاية غير مباشرة، كأن يكون الوصي أو

---

(١) نهاية الأرب، ج٣٠، ص ١٢٢.

(٢) **يوسف بْن إبراهيم بْن جملة المحجي**: قاضي القضاة جمال الدين، من محجة من بلاد حوران الشام، ولد سنة (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، وتفقه على الشيخ صدر الدين بْن المرحل، ولازمه، ناب في الحكم بدمشق عن قاضي القضاة جلال الدين القزويني، ثم ولي قضاء القضاة بعد وفاة القاضي علم الدين الأخنائي، واستمر إلى أن عمل عليه، ووشي به إلى الأمير سيف الدين تنكز، فعزل واعتقل بالقلعة ظلمًا، ثم أفرج عنه بعد أشهر، وولي تدريس الشامية البرانية، ثم توفي قريبًا في سنة (٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م). انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٩، ص٣٥ – ٣٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص١١٩.

(٣) الوافي بالوفيات ، ج ٢٩، ص ٣٨.

الوالي من الأقارب هو المكلف برعاية أموال الأيتام وحفظها وتراقب الدولة أداء الولي والنظر في مدى حرصه في الحفاظ على أموالهم، وقد تكون الولاية مباشرة كأن يكون القاضي أو من يقيمه القاضي هو من يتولى ذلك الأمر، وفي كلا الحالتين فإن مسؤولية الدولة حاضرة في كلا الولايتين[(١)].

ولعل في موقف الظاهر بيبرس من الأوصياء على اليتامى حيث منعهم من التصرف وحدهم في مال اليتامى أو ضم أموال اليتامى إلى أموالهم، وأصْدر تعليماتِه إلى القضاة ونوابهم في سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م بألاّ ينفرد أحد من الأوصياء بوصية؛ خوفًا مِن أن "يكبر اليتيم فلا يجد شيئًا ولا تقوم له حُجَّة على موجودِه، أو يموت الوصي فيذهب مال اليتيم في ماله"[(٢)].

ومن المراسيم السلطانية التي تدل على ضرورة المحافظة على أموال اليتامى، واتخاذ كل ما من شأنه حمايتها من طمع ذوي الجاه والنفوذ، مرسوم السلطان لاجين الذي طلب أموال الأيتام من الأمراء التي كانت تحت أيديهم، ونقلها إلى مودع حديد استحدثه لحفظ أموال الأيتام، وكتب توقيعًا ينص بأن من مات وله ورثة صغار عليه أن ينقل ميراثهم إلى مودع الحكم الجديد، ويكون المتصرف فيه قاضي القضاة الشافعي، أما إن كان للميت وصي فيقيم القاضي الشافعي معه عدولاً من جهته[(٣)].

ومثل هذه القرارات إنما هي دليل واضح على حرص السلاطين على رعاية تلك الفئة الضعيفة.

ولا ينتهي دور الدولة عند تعيين القضاة، بل نجد المتابعة والمراقبة لهم مهما بلغت مترلتهم، فمن خلال استقراء المصادر في العصر المملوكي نجد حالات لعدد من القضاة ذوي المكانة العلمية الكبيرة تعرضوا للمساءلة والتحقيق والعزل لتفريطهم بأموال الأيتام

---

(١) عاطف أبو هربيد، مسؤولية الدولة نحو أموال الأيتام ، ص ١٢-١٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٩٧-١٩٨؛ النويري، ج٣٠، ص٩٨-٩٩؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٠٦.

حتى ولو لم تثبت عليهم التُّهم، كالقاضي الجليل تاج الدين السبكي[١]، فها هو ابن كثير يصف لنا المحنة التي تعرَّض لها، حيث وُجِّهَتْ له اتهامات بالتفريط في أموال الأيتام، وطُلِب من المفتين أن يضعوا خطوطهم بتثبيت الدعوى ضده لتغريمه ومحاكمته، ويصل الأمر إلى صاحبنا العلامة ابن كثير ذي الخُلُق الكريم، والموقف العادل، فيأبى الكتابة، ويُنصِف قاضي القضاة، ويوقف الافتراء والاتهام إلى أن يتبين الحق، ويسجِّل ذلك في تاريخه في أحداث سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م[٢].

وكان من مساعدي القضاة (الأمناء) أو(مودع[٣] الحكم)، وهذا المنصب من المناصب المستحدثة أيضًا في عصر الدولة المملوكية، يقول ابن حجر العسقلاني: في سيرة قاضي القضاة ابن دقيق العيد: "وهو أول من عمل المودع الحكمي، وقرر أنَّ منْ مات وله وارث إن كان كبيرًا أقبض حصته، وإن كان صغيرًا أحمل المال في المودع، وإن كان للميت وصي خاص ومعه عدول يندبهم القاضي لينضبط أصل المال على كل تقدير، وَكَانَ يرتب مع الأوصياء من يباشر أحوالهم ويطالعه بِهَا، وحين رأى بعض الناس تستحلّ أموال اليتامى القصّر الذين لا يستطيعون التصرف فيما يرثونه من أموال أنشأ ما يسمى "المودع الحكمي"[٤].

أما وظيفة مودع الحكم: فهو موظف خاص مسؤل عن الأموال التي صدر حكم بإيداعها كأموال اليتامى، ولا يمكن لهذا الموظف أن يخرج شيئًا منها إلا بأمر القاضي[٥].

---

(١) **تاج الدين السبكي:** أبو نصر تاج الدين عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، فقيه شافعي، ومؤرخ وقاضي القضاة في دمشق ، توفي في دمشق سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م.للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٢٠٩-٢١٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٥٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٧٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٢١.

(٢) ، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٥٤. وانظر ايضًا: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠٩.

(٣) **المودع**: هو صندوق يوضع في عهدة قاضي القضاة الشافعي لحفظ أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضًا. انظر: المقريزي، السلوك،ج٥، ص١٨؛ الخطط، ج٣، ص١٦٨.

(٤) الدرر الكامنة، ج٥، ص٣٥٢.

(٥) السبكي، معيد النعم، ص ٥٣؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٤٧.

ومن وظائفه أيضًا دفع النفقات إلى اليتامى وأمهاتهم[١]، فقد كان ينفق عليهم مِن تَرِكة والدهم، سواء أكان لهم وصي أم كانوا بلا وصي، وقد ذكرت إحدى الوثائق بأن مودع سلّم قام في سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٩م، بتسليم أمَّ طفلين يتيمين عن "فرض ولديها محمد وعلي اللذين في حَضانتها عن مدّة أربعة شهور كوامل آخَر شهر صفر مِن سَنة تاريخه مائة درهم وسبعون درهمًا، نِصفها خمسة وثمانون درهمًا[٢]".

كذلك أدى المحتسب دورًا كبيرًا في رعاية أموال اليتامى، فحرصت كتب الحِسْبة المعاصرة على أموال اليتامى؛ ووضحت أنّ مِن واجبات المحتسِب أن يعمل كلّ ما في وُسعه للمحافظة عليها، وعدم التلاعُب بها، فقد نصَّت أن يُشدِّد المحتسب على دلالي العقارات، وأنّ يُحلِّفهم ألاّ يبيعوا لا لصبي ولا يتيم إلا بإذن وصية فمَن خالف هذا حُذِف من جملة الدلالين[٣].

كما شدَّد على التجّار في التعامل مع اليتامى القُصَّر، وأنّه ينبغي للتاجر ألاّ يعاملَ في البيع أربعةً: الصبي، والمجنون، والعبد، والأعمى؛ لأنّ الصبي غير مكلّف، وكذا المجنون، وبيعهما باطِل فلا يصحُّ بيْعٌ للصبي[٤].

ولا تقتصر رعاية اليتيم على حفظ ماله وإيداعه إلى أن يصل إلى حد البلوغ ليسلم إليه، بل ينبغي تثميره وتنميته رعاية لحق اليتيم، فبثت في الأدلة الواردة في رعاية اليتامى والإحسان إليهم أنه إذا كان الترك للتصرف بأموالهم فيه ضرر ومفسدة حرم ذلك لأنه إتلاف لها وإفساد، وهذا ما لا يريده الشرع الحنيف؛ لذا يستحب استثمار مال اليتيم

---

(١) أشار إلى ذلك السبكي بقوله: "ومن أحوج أم اليتيم أن تتردَّد إلى بابه لأخذ نفقة اليتيم من ماله فقد ظلم ظلمًا عظيمًا". معيد النعم ، ص ٥٣.

(٢) علي السيد محمود، وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاجتماعي للقدس في العصر المملوكي، مجلة التربية، الدوحة، السنة ٢٨، العدد ١٢٩ (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م)، الوثيقة رقم (١٩١)، ص٢٠٤.

(٣) ابن الأخوة، محمد بن محمد (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٥٢.

(٤) السبكي، معيد النعم، ص ٦٤.

وتنميته عن طريق التجارة، أو الزراعة، أو أيّ تصرُّف يعود عليه بالنفع والنماء[١]، وهذا من التصرف الحسن الذي أقره قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾[٢].

ومن خلال استقراء الوثائق المقدسية نجد شروطًا صارمة يفرضها القضاة على الأوصياء في حال أراد الوصي الاستثمار في أموال الأيتام، فنجد أن الوصي لا يستطيع التصرف في أموال اليتيم من بيع وشراء إلا بعد موافقة القاضي، بل لا يحصل على الموافقة إلا بعد إثبات ما يدل على ذلك وعدم المساس بأموال اليتيم بالضرر والإتلاف، ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما قدم الوصي على أيتام المرحوم البدري بن مزهر[٣] إلى القاضي الشافعي في ذي القعدة سنة ٧٩٣هـ/١٣٩٠م يطلب منه السماح له ببيع "الجواري الأربع والمملوك بليان والبغلة الشقراء"، وكانوا جميعهم من حق أيتام المرحوم البدر بن مزهر، والمقيمين بالقدس لما في ذلك من رفع الكلفة وخوف الهلاك والفساد، ولاستغناء الأيتام عن استبقائهم، فطلب القاضي من الوصي إثبات صحة عدم حاجة الأيتام لهم وأن بيعهم ليس فيه ضرر عليهم، وأن بقاءهم فيه كلفة عليهم، وبعد أن تبين للقاضي صحة ما ادعاه الوصي أصدر أمرًا بالبيع، بعد أن ألزمه بشرط أن يتم البيع بالمزايدة، وألا يباع ألا بسعر المثل على الأقل[٤].

ومن المثال السابق نستنتج مدى حرص الدولة المملوكية متمثلة بقضاها على مراقبة أموال الأيتام وعدم إفساح المجال للأوصياء بالتصرف في أموال اليتامى كما يشاؤون فيكبر اليتيم ولا يجد شيئًا من ماله.

أما في الحالة الثانية وهم (الأيتام الذين ليس لديهم أي مورد مالي)، فقد سدّت الأوقاف هذه الثغرة، فكان لها دور مهم في رعاية هؤلاء الأيتام، ومن الطبيعي أن تختلفَ

---

(١) السبكي، معيد النعم، ص٥٥.

(٢) الأنعام، الآية: ١٥٢.

(٣) **ابن مزهر**: بدر الدين محمد بن أحمد بن محمد بن مزهر الشافعي الدمشقي، تولى وظيفة كاتب السر سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م لمدة عشر سنوات وباشرها بعفة ونزاهة، توفي عام ٧٩٣هـ/١٣٩١م. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص٣٣٠.

(٤) العسلي، وثائق مقدسية، م٢، رقم الوثيقة (٦٤٩)، ص ٢٥.

النفقة على مثل هؤلاء الأيتام باختلاف رِيع الأوقاف المخصَّصة للإنفاق على اليتامى ممَّن هم بلا تَرِكة أو مورد مالي آخر.

فقد جاء في إحدى الوثائق المؤرخة في سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م أنّ إحدى الأرامل قبضتْ من (أمين الحكم)، والجابي على وَقْف المدرسة الصلاحية[١] بالقُدس من الدراهم الفِضة، معاملة الشام المحروس ثلاثمئة درهم وسبعين درهمًا، وذلك "ما هو فرض أولادها... وهم عمر وأبي بكر، وسلمى وسارة، عن شهر رجب"[٢].

وكان لكثير من العلماء والقضاة وقفات مشرفة من أجل الحفاظ على حقوق الأيتام، ومنها: محاولات العلماء الحفاظ على الأوقاف بأنواعها سواء الأوقاف التي تتبع ديوان الأحباس أو أوقاف الحرمين وأعمال الخير، وهي ما يسمى "الأوقاف الحكمية " أو الأوقاف الأهلية" ، التي هي مزيج من الوقف الخيري والوقف الأهلي.

وقد تجلّت أبرز جهود العلماء في الحفاظ على الأوقاف في مواقفهم من السلاطين والأمراء عندما حاول بعضهم حل الأوقاف، لأسباب مختلفة، منها: من أجل تقوية الجيوش؛ فقد تعرضت الدولة المملوكية لعدد من الأخطار، وخاضت كثيرًا من الحروب، واحتاجت للأموال ومن ذلك ما حدث سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، عندما عزم السلطان الظاهر بيبرس الخروج من مصر، لاستعادة الأراضي التي كان المغول قد استولوا عليها في بلاد الشام؛ لتقسيمها على جنوده، حيث تصدى له العلماء وأنكروا عليه فعله ذلك، وكان في مقدمة هؤلاء الإمام النووي[٣] الذي نصح الظاهر بيبرس بالعدول عن أخذ

(١) **المدرسة الصلاحية:** من أقدم المدارس التي بنيت في بيت المقدس، أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٧م وكانت مشيخة المدرسة الصلاحية من الوظائف السنية بمملكة الإسلام، وكانت موضع اهتمام سلاطين المماليك، فكان شيخ الصلاحية يُعيَّن بمرسوم سلطاني، ويُتَحرَّى في اختياره العلم والفضل. للمزيد انظر: الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٢م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩٥؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤١، ٩٦-١٨٥؛ عبد القادر بدران (ت١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، منادمة الأطلال، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ج١، ص١١٢؛ كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م ، ص٣٤-٤٠.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، الوثيقة رقم (١٨٤)، م٢، ص١٠٩ .

(٣) **النووي**: أبو زكريا محيي بن شرف الحزامي النووي الشافعي المشهور باسم "النووي" هو مُحدّث وفقيه=

أملاك الناس، وحادثه في ذلك مرارًا وهو بدار العدل، ومن ثم أرسل له رسالة مطولة تضمنت عدم جواز أخذ الأراضي والأملاك من أصحابها، وذكَّره بأن من جملة أصحاب هذه الأملاك أيتامًا وأراملَ وضعفاء ومساكينَ[1].

ويقص لنا ابن كثير أحداث وقعة قازان[2] سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م، فقد كان شاهد عيان لتلك الفترة بأن من الوسائل التي استخدمها السلطان الناصر لأجل تقوية الجيش في أثناء حروبه مع التتار اقتراضه من أموال الأيتام وأموال الأسرى[3].

بل إن منهم من امتنع أن يقرض السلطان الظاهر برقوق من أموال الأيتام، كالقاضي أحمد بن ناصر الباعوني[4]، وقد كان يشرف عليها، وكان السلطان بأمس الحاجة إليها

= ولغوي مسلم، اشتهر بكتبه وتصانيفه العديدة، منها(رياض الصالحين)،(المنهاج في شرح صحيح مسلم). للمزيد انظر: انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص٣١٢-٣١٣؛ ابن كثير، البداية، ج١٧، ص٥٣٩-٥٤٠؛ ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج٢، ص ٧٧٥؛ النعيمي، الدارس، ج١، ص١٢٤-١٢٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٤-٣٥٦؛ عبد الغني الدقر، الإمام النووي ، ط٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

(١) ابن العطار، علي بن إبراهيم بن داود (ت٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، تحفة الطالبين في ترجمة الامام النووي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الدار الأثرية ، عمان- الأردن، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٩٩-١١٠؛ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، تح: قسطنطين زريق، د.ت ، ج ٧، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) **معركة قازان**: التقت الجيوش الإسلامية مع الجيوش التتارية بقيادة قازان سنة٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وهُزم المسلمون شر هزيمة، وهرب السلطان الناصر، وقتل عدد كبير من الأمراء والفقهاء والمتطوعة، فقرر شيخ الإسلام ابن تيمية التحرك سريعًا لإنقاذ دمشق، فجمع عددًا من الأعيان، وساروا إلى معسكر التتار حتى يكلموا "قازان" ويأخذوا لأهل دمشق الأمان، فدخلوا عليه، وكلمه ابن تيمية بكلام شديد فيه قوة وجراءة، ثم دخلت جيوش التتار ضواحي مدينة دمشق، خطب "لقازان" على منابر دمشق، ثم بانت بوادر البشرى عندما جاءت الأخبار بسير العساكر المصرية إلى الشام لمحاربة التتار. للمزيد انظر: ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر القرشي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تح، عمر عبد السلام تدمر، المكتبة العصرية، صيدا ــ بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٤٦٠-٤٦٣؛ ابن الوردي، زين الدين عمر(ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الوهبية، ١٢٨٥ه، ج٢، ٢٤٧-٢٤٩.

(٣) البداية والنهاية، ج١٧، ص٧١٧.

(٤) **الباعوني**: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ناصر بن خليفة الناصري الباعوني الشافعي، اشتغل بالعلم وأفتى، وانضبطت الأوقاف في أيامه، ولُفِّقَتْ عليه قضايا باطلة أظهر الله براءته منها، توفي سنة ٨١٦هـ/١٤١١م. انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص ١١٨-١١٩.

للدفاع عن حمى بلاد الشام، من تيمورلنك الأعرج[١]، الذي كان يهدد بغزو بلاد الشام[٢].

وكانت لبعض الأمراء أطماعهم أيضًا في أموال الأيتام رغبة منهم في أخذ أراضي الأوقاف وضمها إليهم أو لتقسيمها على شكل إقطاعيات على الجنود في الجيش، من ذلك ما قام به شرف الدين النشو[٣]عندما طلب من القاضي محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي[٤]، وطلب منه أموال الأيتام فرفض الأخير طلبه، فما كان من النشو إلا أن أوغر صدر السلطان عليه واتهمه بسرقة أموال الأيتام وتعرض للمساءلة والتهديد[٥] .

ومنهم من وضع يده بالقوة على أموال الأيتام لسداد بعض الديون المتأخرة عليهم؛ فيذكر ابن كثير في حوادث سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م أنه "طلب من القاضي تقي الدين السبكي قاضي قضاة الشافعية أن يقرض ديوان السلطان شيئًا من أموال الغيّاب التي تحت يده، فامتنع من ذلك امتناعًا كثيرًا، فجاء شاد الدواوين[٦] وبعض حاشية نائب السلطنة ففتحوا مخزن الأيتام وأخذوا منه خمسين ألف درهم قهرًا، ودفعوها إلى بعض العرب عما

---

(١) **تيمورلنك:** اسمه تيمور فقالوا في هذا تارة " تمور " وأخرى " تمرلنك "وهو بالتركي الحديد، أما لنك فتعني الأعرج ابن ترغاي بن أبغاي ولد في قرية تسمى (خواجة إيلغار). للمزيد عن سيرته انظر: ابن عربشاه، غرائب المقدور؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٤٦-٥٠.

(٢) ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٥٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٢٠٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص ١١٨-١١٩.

(٣) **عبد الوهاب بن فضل الله شرف الدين النشو:** خدم مع الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، وكان صاحب مكانة عند الناصر محمد فولاه نظر الخاص، لكنه طغى وتجبر وأكثر من المصادرات، فقتله السلطان الناصر محمد سنة ٧٤٠هـ/ ١٢٣٩م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٩، ص٢١٦-٢١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٣٧.

(٤) **القاضي محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي:** عرف بفضله، وعلمه، تولى قضاء المالكية في مصر والشام، وعُزل بسبب مواقفه الجريئة على أهل الباطل. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٥١٦.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٩٩.

(٦) **شاد الدواوين:** مساعد الوزير مهمته استخراج الأموال السلطانية على من يعسر استخلاصه، عادة يكون أمير عشرة. انظر: السبكي، معيد النعم، ص٢٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى ، ج٤، ص١٩٣.

كان تأخر له في الديوان السلطاني، ووقع أمر كثير لم يعهد مثله"[١] .

في حقيقة الأمر تغير وضع القضاء في زمن دولة المماليك الجراكسة ففي عصر السلطان الظاهر برقوق شهدت البلاد انتشارًا كبيرًا للرشوة حتى قيل: "وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل[٢]، فلا يكاد يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، فترقى للأعمال الجليلة والرتب السّنية الأراذل" [٣].

ويذكر المقريزي في حوادث سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، أن أحد القضاة وهو صدر الدين محمد المناوي[٤] قد عُزِلَ عندما رفض أن يقرض السلطان الظاهر برقوق ما في المودع من أموال الأيتام، فعندما امتنع سعى بدر الدين بن أبي البقاء[٥] في القضاء وبذل مالاً وحصل له ما يريد[٦].

وعلى الرغم من أن السلطان برقوق قد أرجع أموال الأيتام المقترضة "وَهُوَ مبلغ نَحْو ألف ألف وَمِائَة ألف وَخمسين ألف دِرْهَم من ذَلِك مَا يخْتَص بمودع الْقَاهِرَة وَالشَّام خَمْسمِئَة وَخَمْسُونَ ألفًا، وَمن مُودع الشَّام ستّمئَة ألف درهم"[٧]. الا أن وصول القاضي ابن أبي البقاء الى القضاء بتلك الطريقة لدليل على أن السلطة الحاكمة لم تعد تنظر في صفات من يرتقي هذا المنصب الجليل.

---

(١) البداية والنهاية، ج١٨، ص ٤٦٦.

(٢) **البراطيل**: بكسر الباء الرشوة، المقدمة لأصحاب النفوذ لقاء عمل دون مراعاة لقاعدة أو قانون. انظر: المناوي، التعاريف، ج١، ص١٢٥؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية،ص٧١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٥، ص٢٣١؛ الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج ١، ص ٢١٣.

(٤) **صدر الدين المناوي**: قاضي القضاة أبو المعالي محمد بن إبراهيم بن إسحق السلمي المناوي ثم القاهري الشافعي، ولي إفتاء دار العدل، ثم ولي القضاء ، مات غريقًا في نهر الفرات سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م. انظر: ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٤٧-٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ٢٥؛ ابن العماد الحنبلي، ج٧، ص٣٤.

(٥) **السبكي**: جلال الدين بن أبي البقاء الشافعي، تولى تدريس الشيخونية بعد صدر الدين المناوي بعد أن بذل مالا جزيلاً وكان ناظرها مات في سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٩٥.

(٦) السلوك، ج٥، ص٣٥٤. انظر ايضاً: ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٦٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٦٤.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٥، ص٣٧٣ ؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٩٣.

ويورد الأسيوطي ما آل إليه حال القضاء في عهده، عندما تولاه منْ وصفهم بالجهالة، وأنهم تولوا هذه الوظيفة المهمة عن طريق الرشوة؛ مما كان له نتائج وخيمة على وضع الأيتام وضياع أموالهم وحقوقهم، من هذه النتائج السيئة: "تفرقة أموال الوصايا التي لا وصي فيها خاص على غير المستحقين، وفي غير مصرفها الشرعي من غير مراعاة مقصود الموصي، ومنها: أنهم لا يمكنون الوصي الأمين الذي عينه الموصي ورضيه وأطلق تصرفه في ماله، وأقامه مقامه في صرف مال الوصية على ما يقتضيه رأيه من الفقراء، بل يكتبون بها رقاعًا لمن يريدون من متعلقيهم وغيرهم، ويحيلون على الوصي بذلك من يأخذ منه قهراً، سواء رآه مصلحة أو لا، وسواء كان المكتوب له مستحقًا أو لا، ومنها: أنهم يقترضون أموال الأيتام ويقرضونها لمن يريدون من غير رهن ولا كفيل في الغالب، ثقة بالمقترض؛ فيضيع أكثر ذلك، وربما أخَّروه عند المقترض أو المستدين مدة طويلة، فيؤدي ذلك إلى طمع المستدين فيه، لاسيما إن كان ذا جاه وشوكة، وربما مات المستدين مفلسًا؛ فيضيع المال على الأيتام، ومنها: أن بعض القضاة الشافعية في الغالب يخرج الزكاة من مال الأيتام في حالة كونها غير واجبة في مالهم، ولا يحملوهم على ما فيه مصلحتهم، بل يأخذون ذلك أولاً تحت أيديهم، وربما ادعوا صرفه إلى الفقراء، هذا مع كون الأيتام غير مقلدين للشافعي، ونهاية التفريط في أمرهم: قرضه لديوان الأيتام، وكل ذلك في أعناق مسلطيهم، وإثمه عليهم، وهم المسؤولون عنه، والمؤاخذون به بين يدي أحكم الحاكمين"(١).

وجراء هذا الانحدار في القضاء أواخر العصر المملوكي ضعفت مواقف القضاة ولم يكن بمقدورهم فعل أي شيء، بل إنهم أقرضوا أموال الأيتام للسلاطين والأمراء، الأمر الذي أدى إلى ضياع تلك الأموال(٢).

---

(١) شمس الدين محمد بن عبد الخالق (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٤م)، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، تح: مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٢، ص٤٥٦.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص٢٧١.

ثانيًا: الرعاية التعليمية للأيتام:

١- إنشاء الكتاتيب[١] لتعليم الأيتام:

حرصت الدولة المملوكية على تعليم اليتامى وتأديبهم، وتجلى ذلك في كثرة إنشاء مكاتب لتعليم الأيتام، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، فقد سار المماليك على خطى الأيوبيين في هذا الجانب؛ مما جعل هذه الظاهرة تسترعي نظر ابن جبير، فذكر أن الأيتام من الصبيان كانوا يأتون إلى المساجد، حيث يتعلمون وينفق عليهم ما يسد حاجاتهم من إطعامهم وكسوتهم، وكانت موارد هذه النفقات تأتي من وقف كبير خصص للأيتام ومعلميهم[٢].

ولما كان الميسورون يعلمون أطفالهم في البيوت على أيدي مؤدبين ومعلمين مأجورين، فإن المشكلة تمثلت في تعليم الأطفال الفقراء والأيتام، ومن أجل هذا الغرض تسابق الخيّرون من السلاطين وأعيان الدولة والأغنياء إلى إنشاء مكاتب لتعليم هذا الفريق من الصبيان، ووقفوا على هذه المكاتب الأوقاف العظيمة، ويتحمل المنشئ نفقات اليتيم كافة منذ دخوله إلى أن يحفظ القرآن الكريم ويتخرج بدافع التقرب إلى الله تعالى[٣]. ومن أجل توفير نوع من الرعاية العلمية والاجتماعية لهذه الفئة غير القادرة والذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى المكاتب الخاصة، أو إحضار مؤدبين لهم في المنازل[٤]. فكان أكثر من يلتحق بها من الأيتام وباقي الصبيان من أهل المدينة أو القرية أو البلدة، ولنا في سيرة قاضي القضاة جمال الدين أبو محمد عبد الله الهلالي الأنصاري[٥]، المشهور بابن

---

(١) **الكتاتيب**: الكُتَّابُ موضع تَعْلِيم الكُتَّابِ والجمع الكَتَاتِيبُ، والمَكاتِبُ: مفردها مَكْتَبُ، وهو أيضا: موضع التعليم، ويقال لصبيان المَكْتَبِ الفُرْقانُ أيضاً. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٦٩٨.

(٢) ابن جبير، الرحلة ، ص١٩١.

(٣) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٢٦٢.

(٤) أحمد خالد جيده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٦١؛ عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص١٢١.

(٥) **جمال الدين الأنصاري**: قاضي القضاة أبو محمد عبد الله الهلالي الأنصاري المالكي، أول من تولى قضاء =

الشحاذة، مثالٌ حيٌّ عن الدور الذي أداه الكتاب في إتاحة الفرصة لكثير من الأيتام بالخروج من حياة اليتم والعوز إلى عالم جليل يصل إلى أرفع المناصب، كان يتيمًا فقيرًا كانت والدته تذهب به إلى بعض الفقهاء بالمكتب ليحفظ القرآن ويتعلم، وتذهب هي تسأل الناس وتأتي له بما يقوته، فحفظ القرآن واشتغل بالعلم في مذهب الإمام مالك، وانتهت به الحال إلى أن ولي القضاء ببيت المقدس، فكان أول قضاة المالكية [(١)].

وما كان لهذه المكاتب أن تدوم لولا الاهتمام الذي توليه الدولة المملوكية متمثلـــة بسلاطينها ونوابها وأهل الخير في المجتمع الشامي لإتاحة الفرص التعليمية لكثير من الأيتام. فكان يتجاوز عددهم في الكُتَّابُ الواحد مئتي صبي[(٢)]، أو ثلاثمئة[(٣)]، بل وصل العـــدد في بعضها إلى تسعمئة صبي[(٤)].

كان يتم بناء الكتاتيب بطريقة آمنة على الأطفال، خاصة إذا كانت تعلو أحد الأبنية ،بحيث كان يبنى عليها حواجز خشبية مربعة لتحمي الأطفال من السقوط على الأرض، ورفرف خشبي ليقي الأطفال من حرارة الشمس[(٥)]، وإما أن تكون المكاتب في مبنى مستقل أو ملحقة بالمسجد الأقصى، أو ملحقة بإحدى المدار، ويبدو هذا واضحًا في كتب التراجم لكثير من السلاطين وأهل الخير من الميسورين، فمن المكاتب الملحقة منها ما ألحق بدور القرآن، فنجد أن واقف دار القرآن الصابونية[(٦)]، قد بنى بشرق الدار مكتبًا

=المالكية استقلالاً بالقدس الشريف، كان من أهل العلم، ويدرس بالمدرسة المالكية بالقدس، وكان يستحلف في الثبوت بالشهادة على الخط، ثم اشتغل بالقضاء. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٤٤.

(١)العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٤٤.

(٢) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٥٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥٢.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٦١.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم، الوثائق في خدمة الآثار" العصر المملوكي"، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥؛ سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال وأثرها على المجتمع المصري عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٧٠.

(٦) **دار القرآن الصابونية**: أنشأها الخواجكي أحمد الشهابي القضائي ابن علم الدين بن سليمان البكري =

يضم عشرة أيتام بشيخ يقرئهم القرآن، بمعاليم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة[(١)].

وعلى الرغم من استكراه تعليم الصبيان في المساجد؛ لما يسببه الأطفال من إيذاء لهذه المساجد كتسويد حيطانها في أثناء تعلمهم الخط، كما أنهم لا يتحرزون في أمور النظافة فيعملون على تنجيس حصرها وأرضيتها[(٢)]، فقد أشارت المصادر إلى كتاتيب تتبع المساجد، منها كُتَّابِ الشيخ عمر بن إسماعيل الحنبلي[(٣)] (ت٨٨٠هـ/١٤٧٥م)، وقد كان يؤدب الأطفال بالمسجد الأقصى بالمكان المجاور لجامع المغاربة من الجهة الجنوبية[(٤)].

ومن الكتاتيب الملحقة بالمدارس كُتَّابِ المدرسة الطازية[(٥)]، وكان من أشهر مدرسيه الشيخ شمس الدين محمد بن عيسى البسطامي الشافعي، الشهير بأخي زرع (ت٨٧٥هـ/١٤٧٠م)[(٦)]، وكُتَّابِ المدرسة الجوهرية[(٧)] في بيت المقدس، وكان من أشهر مدرسيه

=الدمشقي المعروف بالصابوني (ت٦٨٦هـ/ ١٤٦٣م). انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٢، ١٣.

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٢-١٣؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٧.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٧٠.

(٣) كان رجلاً صالحًا توفي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٦٧.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٦٧.

(٥) **المدرسة الطازية**: وقف الأمير طاز بن قفطغاج، المتوفى سنة٧٦٣هـ/ ١٣٦٣م، كان شجاعًا كثير الخير. للمزيد عن سيرته انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٧٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥.

(٦) **البسطامي**: الشيخ شمس الدين محمد بن عيسى البسطامي الشافعي الشهير بأخي زرع، كان رجلا صوفيًّا من فقراء البسطامية، رجل خير استقر في أواخر عمره في بوابة الخانقاه الصلاحية، وهو من جملة الصوفية بها ومن الفقهاء بالصلاحية توفي في سنة ٨٧٥هـ/١٤٥٣م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٩٤.

(٧) في بلاد الشام مدرستان بالاسم نفسه: الأولى **المدرسة الجوهرية** في دمشق واقفها الجوهري الصدر نجم الدين أبو بكر بن محمد بن عباس التميمي الحنفي، والثانية **المدرسة الجوهرية** بباب الحديد في بيت المقدس واقفها الصفوي جوهر في سنة٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م. انظر: الذهبي، العبر، ج٥، ص٣٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص٥٧٧؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٢٨.

الفقيه شمس الدين محمد بن محمد بن غضية المقري الحنفي المؤذن(ت٨٨٠هـ/١٤٧٥م) وقد كان يقرئ فيه الأطفال[1]، ومنها كذلك المدرسة الفارسية[2] التي أوقفها الأمير سيف الدين فارس الدوادار التميمي في سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، وكان من ضمن شروط وقفه أن "يقرئ خمسة عشر يتيمًا، إذا حفظ أحدهم القرآن يخرج ويقرر غيره"[3].

وألحقت مكاتب الأيتام كذلك بالترب كتربة ستيتة بنت الأمير سيف الدين كوكبائي المنصوري[4] التي أنشأت مكتبًا للأيتام سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م. وبنى الأمير سيف الدين جقمق في دمشق في مقابل تربته مكتبًا للأيتام سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م[5]، بل إن بعضهم ينشئ مكتبًا للأيتام في تربته ويشترط أن يكتب الأطفال القرآن في ألواحهم، فإذا أرادوا مسحَها غسلوا الألواح وقلبوا الماء على قبره[6].

أما أعداد الأطفال في هذه المكاتب فلم يكن محددًا، فبعضها يحتوي على عشرين

---

(١) **شمس الدين محمد بن محمد بن غضية المقري الحنفي المؤذن:** كان رجلًا خيرًا ساكنًا يحفظ القرآن ويؤذن بالمسجد الأقصى وكان والده من أهل الفضل باشر نيابة الحكم بالقدس الشريف، توفي سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ٢٣٣.

(٢) **المدرسة الفارسية:** يذكر النعيمي بأنها "تقع غربي الجوزية الحنبلية في اتجاه الخارج من باب الزيادة بالبازورية والجوزية". انظر: الدارس في تاريخ المدارس، ج١ ، ص٣٢٤؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٣٥.

(٣) ذكر العليمي أن في بيت المقدس مدرسة تحمل الاسم نفسه وهي: المدرسة الفارسية واقفها الأمير فارسي البكي ابن الأمير قطلو ملك ابن عبدالله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية، ونائب غزة وقفها سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م. انظر: الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٨-٣٩؛ عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج٢، ص٥٥.

(٤) **الست ستيتة:** بنت الأمير سيف الدين الكبير كوكبائي المنصوري وزوجة نائب الشام تنكز، توفيت عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، ودفنت بالتربة التي أمرت بإنشائها بباب الخواصين. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٩، ٣٣٠؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٢١١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص ٣٥٠.

(٥) **الأمير سيف الدين جقمق بن عبد الله الأرغون شاوي الدوادار**، ثم نائب الشام، أصله جركسي، اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ، مات مقتولًا في سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، ودفن بتربته التي أنشأها في مدرسته. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٤٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٧٦.

(٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٧٤؛ أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد، نبيل أبو عشمة وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج٥، ص١١٣.

يتيمًا، وقد يصل إلى أربعين يتيمًا، بل إن كُتَّاب المنصور قلاوون تجاوز ستين يتيمًا[١].

فقد كان الأيتام محط اهتمام ورعاية من قبل الجميع وبابًا من أبواب الخير والثواب تنافس عليه السلاطين والأمراء وأهل الخير بما امتلكوا، فوظَّف الأمراء والتجار أموالهم في رعاية الأيتام؛ مما يدل على مدى شعورهم بالمسؤلية تجاه تلك الفئة الضعيفة، فعلى سبيل المثال الأمير أحمد بن أبي المعالي الحلبي[٢]، الذي أنشأ مكتبًا للأيتام في حلب[٣]، والمكتب الذي أقامه ظهير الدين الطواشي [٤]. للأيتام على باب قلعة دمشق، ورتب لهم الكسوة والجامكية (راتب) وكان يمتحنهم بنفسه ويفرح بهم[٥]. ومنهم أيضاً الأمير جانم السيفي[٦]، الذي ابتنى بجوار منزله بالقرب من زقاق حلب سبيلاً ومكتبًا للأيتام[٧]، والأمير داود الزين الشوبكي الكركي[٨]، الذي بحلب مكتبًا للأيتام[٩]، والتاجر عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الرحيم الحلبي المعروف بابن الترجمان [١٠]. الذي بنى مكتبًا للأيتام

(١) علي سالم النباهين، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨١م، ص٢٥١؛ منتصر محمود صنيتان شطناوي، التربية والتعليم في بلاد الشام، رسالة دكتوراة، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م، ص٥٣.

(٢) **الأمير أبي المعالي الحلبي**: أحمد بن يعقوب بن عبد الكريم بن أبي المعالي الحلبي، وكان أحمد أحد الأمراء بحلب، توفي سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٥م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٠٠.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٠٠.

(٤) **الطواشي ظهير الدين مختار البلبيسي**: الخزندار بالقلعة، وأحد أمراء الطبلخاناه بدمشق، خيرًا، فاضلاً، يحفظ القرآن، عليه سكينة ووقار، وله وجاهة في الدولة. توفي سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٥٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص ١٠٥؛ عبد الله السدحان، والأوقاف والمجتمع، ص٧٠.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص ١٠٥؛ عبد الله السدحان، والأوقاف والمجتمع، ص٧٠.

(٦) **الأمير جانم السيفي**: تمرباي الزردكاش، اشتهر بثروته، توفي سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٦٤-٦٥.

(٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٦٤-٦٥.

(٨) **الأمير داود الزين الشوبكي**: هو داود بن عبد الرحمن بن داود علم الدين أبو عبد الرحمن الكركي ويعرف بابن الكويز، محبًّا للعلماء والفقراء، مات بالقاهرة بعد أن طال مرضه سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢١م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٢.

(٩) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٢.

(١٠) **ابن الترجمان**: كان ذا ثروة ظاهرة وتجار من تحت يده يسافرون له، وكان ديِّنًا خيرًّا عليه سكون، ومات يوم عيد الفطر سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٦م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٤٦.

بحلب ووقف عليه الأوقاف[(١)].

ومنهم من ساهم بجهده في تعليم الأيتام وإقرائهم القرآن الكريم أمثال الشيخ الإمام العالم المحدث شمس الدين القلقيلي[(٢)]، الذي كان يقرئ في البيوت الخاصة[(٣)]، كما فعل مع أولاد الشيخ برهان الدين بن غانم[(٤)]. ومنهم من فتح بيته لتعليم الصبيان كما فعل القاضي أمين الدين الأشتري أبو العباس[(٥)].

٢- التنظيم الإداري والتعليمي للكتاتيب :

قام الفقهاء بمحاولات لتنظيم التعليم في الكتّاب قدر الإمكان، وأخضعوا الكتاتيب لشروط موحدة، بالإضافة إلى ما كانت تقوم به الدولة من الإشراف عليها، وعلى أنظمتها من خلال المحتسب، ومراقبته لها، والذي له الحق أن يمنع من لم تتوافر فيه الشروط اللازمة من ممارسة المهنة، ومن صور تلك التنظيمات:

أ- الدقة في اختيار المؤدبين:

اختير مؤدب الأيتام بكل عناية ودقة، فاشترط لهذا المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفة والأمانة، حافظًا للكتاب العزيز، حسن الخط، ويعلم الحساب، والأولى أن يكون

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٤٦.

(٢) **شمس الدين القلقيلي:** محمد بن أحمد بن إبراهيم بن مفلح الشافعي، قارئ الحديث الشريف ببيت المقدس نسبة لقرية قلقيلية قرب نابلس مولده في سنة ست وسبعين وسبعمئة، وكان شيخًا صالحًا عالمًا فاضلاً حسن المذاكرة جيد التلاوة كثير العبادة عليه أنس كبير، وكان يقرئ الاطفال بجلجوليا، توفي سنة (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م). انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٨١-١٨٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٨٨.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٨١-١٨٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٨٨.

(٤) **الشيخ برهان الدين بن غانم** : وردت إشارة له عند العليمي بأنه " أنشأ منارة على الخانقاه الصلاحية قبل العشرين والثمانمئة، ولما قصد الشيخ برهان الدين بن غانم بناء المنارة المذكورة شق ذلك على النصارى بالقدس لكونها على كنيسة القيامة فاجتمع رأيهم على دفع مال كثير للشيخ برهان الدين على أن يترك بناءها فلم يلتفت الى ذلك وزجرهم زجرًا بليغًا وعمر المنارة ورتب لها من يقوم بشعائرها" . انظر: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩.

(٥) **القاضي أمين الدين الأشتري:** أبو العباس أحمد بن شمس الدين بن الأشتر الشافعي الحلبي ثم الدمشقي، ورعًا صالحًا، توفي بدمشق في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م. انظر: ابن العماد، شذرات الذهب ج٥، ص٣٧١.

متزوجًا، ولا يفسح لعازب أن يفتح مكتبًا إلا أن يكون شيخًا كبيرًا، قد اشتهر بالدين والخير، ومع ذلك فلا يؤذن للتعليم إلا بتزكية مرضية وثبوت أهلية(١).

وقد أشار السبكي إلى ميزة مهمة يجب أن تتوافر في المؤدب فقال: " فأول ما يتعين على الآباء البحث عن عقيدة معلم أبنائهم، قبل البحث عن دينه في الفروع، ثم البحث عن دينه في الفروع"(٢).

ومسألة تفحص عقيدة المؤدب من واجبات الأهل والمحتسب(٣)، فلابد أن تتفق عقيدة المؤدب مع عقائد أهل السنة والجماعة لما لها من نتائج خطيرة على جيل كامل قد ينشأ فاسد المذهب في المستقبل.

ومن بين من شغل هذا المنصب إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن بركات الأنصاري المعروف بابن الخباز الدمشقي الحنبلي المؤدب (ت٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)(٤)، فقد كان يؤدب الأطفال في مكتب له، وكان شيخًا يفيد الطلبة ويعيرهم ما يحتاجونه. وأيضًا الشيخ شمس الدين محمد بن عيسى البسطامي الشافعي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) أحد فقهاء الصلاحية، شغل منصب مؤدب الأطفال في المدرسة الطازية(٥). والشيخ عمر بن إسماعيل الحنبلي (ت ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، كان صالحًا حافظًا للقرآن الكريم، عمل مؤدبًا بالمسجد الأقصى(٦).

ومنهم من كان من أهل الرياسة، كالشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن غضية المقرئ الحنفي (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، وكان والده من أهل القضاء، اتّصف بالصلاح،

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ١٧٠ .

(٢) معيد النعم، ص ١٠١.

(٣) الشيزري، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله الشافعي (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، د.ط، د.م، د.ت، ص١٠٣.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ١، ص١٢١.

(٥) العليمي، الأنس الجليل، ج٢ ، ص٩٥.

(٦) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٩٠.

وكان حافظًا للقرآن الكريم[١].

أما رواتب المؤدبين فإما أن تكون من السلطنة المملوكية أو من الأوقاف[٢]، حيث يتفاوت راتب الشيخ حسب شروط الواقف، ففي دار الأيتام الملحقة بالمدرسة الطشتمرية[٣]، يتقاضى الشيخ برهان الناصري ثلاثين درهماً شهرياً مقابل تعليم الأيتام القراءة والكتابة ،يأخذها من ريع الأوقاف التي تم وقفها على الأيتام[٤].

ب- بداية سن الدراسة :

يبتدئ تعليم الطفل عادة منذ سن الرابعة حتى العاشرة من العمر، حيث يجلس الطلبة جميعهم في مكان واحد للدراسة على يد معلم واحد، وربما يقسمون إلى فئات عمرية، أو بحسب قابلية كل طالب للتعلم[٥].

وفي كتاتيب الوقف كان الطفل يظل بالكُتاب حتى سن البلوغ، ولا يسمح له بعد هذا السن أن يظل في الكتاب؛ فقد كان سن البلوغ نهاية لاعتبار الطفل يتيمًا فلا يسمح له بالبقاء في الكُتاب إلا في حالة واحدة هي أن يكون قد بقي على إتمامه لحفظ القرآن قدرٌ يسيرٌ فيسمح له بالبقاء حتى إتمام الحفظ[٦].

---

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥١.

(٢) منتصر شطناوي، التربية والتعليم، ص٥٢؛ حسن شيمساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٥.

(٣) **المدرسة الطشتمرية**: تنسب إلى منشئها الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبدالله العلائي الدوادار كان من أجل الأمراء، ولي نيابة الشام ثم أتابك العساكر بالديار المصرية، قبض عليه الملك الظاهر برقوق قبل سلطنته، وحبسه مدة، ثم أخرجه إلى القدس بطالا، ثم ولاه نيابة صفد، ثم حماة، وكان دينا خيرًا، محبًا لأهل العلم، توفي سنة ٧٨٦هــ/ ١٣٨٤م. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٠٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥.

(٤) العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (٣)، م١، ص ١٩٥ ،١٩٦.

(٥) عبد العزيز الدوري، مدخل تاريخي، بحث من ندوة التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩م، ج ١، ص٢٠.

(٦) النباهين، نظام التربية الإسلامية، ص٣٤٥.

ج- المواد الدراسية:

كانت المواد الدراسية، تتركز في البداية على القرآن الكريم والحديث النبوي، مع إعطاء بعض مبادئ القراءة والكتابة، يدل على ذلك قول السبكي: "ومن حق معلم الصغار ألا يعلمهم شيئًا قبل القرآن، ثم بعده حديث النبي ﷺ، ولا يتكلم معهم في العقائد؛ بل يدعهم إلى أن يتأهلوا حق التأهل، ثم يأخذهم بعقيدة أهل السنة والجماعة"(١).

فكان المسلمون في العصور الإسلامية يهتمون بحفظ القرآن الكريم وكتابته وقراءته(٢)، حيث إن تعليم القرآن للأطفال يزّودهم بكثير من الألفاظ اللغوية ويعلمهم الكتابة المتقنة. وفي ذلك اتباع لأسلوب التدرج في عملية دراسة المواد التعليمية المختلفة، ويشير ابن خلدون إلى أهمية تعليم القرآن بقوله: " أصل التعليم ينبني عليه ما يحصل عليه بعد من الملكات. وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخًا وهو أصل لما بعده"(٣).

وقد اعتمد التعليم في الكتاتيب على طريقتين:

١-طريقة تدريس القرآن الكريم: حيث يبدأ المعلم بتعليم الأطفال السور القصار متبعًا أسلوب التلقين، فقد كان الطالب يحفظ ما يلقى إليه من سور القرآن الكريم، ويتعرّف إلى الحروف وضبطها وشكلها، ويتدرّج في معرفتها حتى يألفها طبقًا، ويستمر في ذلك حتى يجيد الكتابة(٤).

٢-في تعليم الكتابة: يقول النويري في هذا الصدد: " يكتب الصبي حروف المعجم بشكل مفرد، فإذا علمها الصبي، وميّز بين المعجم والمهمل منها، امتحنه المؤدب بتقطيعها وسؤاله عنها على غير وضعها، ثم يقوم الصبي بتهجئة الحروف حرفًا حرفًا، ثم يقوم يجمع له كل حرف إلى آخر كتابة من الباء والجيم والدال والراء يبدأ بالباء

---

(١) معيد النعم، ص ١٠١ – ١٠٨.

(٢) شيمساني، مدارس دمشق، ص٤٠.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٧٤٠.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٢٦٠؛ ابن جبير، الرحلة، ج١، ص١٩١؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١٠٨.

مع الألف، وما بعدها، ثم يكتّبه البسملة ويأخذ في تدريجه في الكتابة، وتدريبه في استخراج الحروف بالهجاء وما يتولد منها إذا اجتمعت، إلى أن يقوى فيها لسانه"[١].

فيجلس الطلاب حول مؤدبهم على حصير مفروش على الأرض، إلى جانبه دواليب توضع فيها المصاحف والأقلام والألواح، وكان الطلاب يكتبون دروسهم على ألواح الطين، والتي تصقل وتدهن بلون داكن، ويكتب عليها بطينٍ جاف، أو بالفحم[٢].

وأكد الرحالة فابري الذي زار فلسطين في أواخر القرن الخامس الميلادي وجود هذا النوع من التعليم عندما زار القدس بقولة: "بينما كنت مرة نازلاً من جبل صهيون في طريقي إلى الكنيسة سمعت أولادًا يقرؤون بصوت مرتفع، فاقتربت من باب المدرسة ونظرت إليهم فرأيت أطفالاً جالسين على الأرض في صفوف، وكانوا يرددون مجتمعين الكلمات نفسها بصوت عال ويهزون رؤوسهم للأمام والخلف، وقد استطعت أن أحفظ الكلمات التي رددوها مع موسيقاها وهي ما يعلمون صبيانهم؛ لأنها أصل عقيدتهم"[٣]. وهذه إشارة واضحة إلى استمرار طريقة التلقين في الكتاتيب حتى زمن فابري.

يستمر الأيتام في أيام حضورهم من طلوع الشمس إلى وقت العصر فينصرفون حينئذ، وقبل انصرافهم يقرؤون سورة الإخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب والصلاة على النبي ﷺ ثم يدعون، ما عدا يوم الخميس من كل أسبوع فإنهم يستمرون بالمكتب إلى الظهر ويوم الجمعة عطلتهم[٤]، وبالنسبة للراحة والعطل المدرسية، فقد لوحظ اهتمام

---

(١) نهاية الأرب، ج٩، ص٢١٨-٢١٩.

(٢) أحمد جيده، المدارس ونظام التعليم، ص٦١، ٦٢؛ سميحة أبو الفضل، المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود، بحث في المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي، القرن الخامس إلى القرن السابع، تشرين، نوفمبر، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، ٢٠٠١م ، ص ٦٠٧؛ منتصر شطناوي، التربية والتعليم، ص٥١.

(٣) جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٨، ق٢، ص٥١٩.

(٤) سعيد عاشور، المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية (مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية)، المؤسسة العربية للدراسات، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٤٥؛ حياة حجي، صور من الحضارة العربية الإسلامية، دار القلم، الكويت، ١٩٩٢م، ص ١٨٨؛ أحمد جيده، المدارس ونظام التعليم، ص٦٢.

المسلمين بإعطاء الصبي قسطًا من الراحة بعد عناء الدراسة، فهذا ابن الحاج العبدري (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) يقول: "فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها"[(١)].

ومنهم من يستثني يوم الجمعة من الإجازة ففي حجة وقف المدرسة الحسنية نصت شروطها على شيخ المدرسة ومن معه من الفقراء والصوفية والشاهد والعامل وكاتب الغيبة والأيتام ومؤدبهم والمعيدين يجتمعون صبح كل يوم جمعة من كل أسبوع بالمدرسة المذكورة، ويقرؤون سور الكهف ويس والواقعة وتبارك، ويختمون قراءتهم بالدعاء على العادة، ويهدون ذلك للواقف[(٢)].

وهناك أوقات أخرى كان يتم فيها تعطيل الدراسة في الكتاتيب، مثل أوقات الاحتفالات العامة والأعياد، فكانت تزيّن الألواح وأرض الكُتاب وحيطانه وسقفه، كما تزين الأسواق والشوارع في هذه الأوقات، خاصة الاحتفال بخروج المحمل، حيث كان الأطفال يخرجون للمشاركة في هذه الاحتفالات[(٣)].

وكان المعلم في الكُتَّاب يطبق عقوبات بدنية في التأديب بالقدر الضروري عند إساءة الأدب والفحش في الكلام والتصرفات السيئة وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن الشرع؛ ولا يضرب صبيًّا بعصاً غليظةٍ تكسر العظم، ولا رقيقة لا تؤلم الجسم، بل تكون وسطًا، ويعتمد بضربه على الأيادي والأفخاذ وأسافل الرجلين، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة، ولإلزام الطلاب على القيام بواجباتهم[(٤)].

ثالثًا: الرعاية الاجتماعية للأيتام:

تميّز التعليم في الكُتّاب بالاهتمام بالآداب الاجتماعية، حيث "يقوم المعلم بتأديب

---

(١) ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج الفاسي العبدري (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) ، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوايد، دار التراث، د.ط، ج٢، ص٣٢١.

(٢) **المدرسة الحسنية**: تقع بجوار المدرسة المنجكية، في الجانب الشمالي من طريق باب الناظر، أما واقفها فهو الأمير حسن الكشكلي واسمه حسام الدين أبو محمد الحسن ابن ناصر الدين الشهير بالكشكلي، وكان بناؤها في سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٣، ٢٥٣؛ العسلي، معاهد العلم، ص٢١٣.

(٣) مجهول، آداب المؤدب، دار الكتب، (د.م) ١٩٥٦م ، ص٣٣.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٧٠-١٧١.

الأطفال، وتربيتهم التربية الصالحة، وتعويدهم العادات الحسنة، وتعليمهم كيفية احترام الناس، ومراعاة الذوق والأدب طبقًا للعرف الجاري، وأن يلقي السلام على من يدخل عليهم، أو يمر بهم من الناس، ويأمرهم ببر الوالدين، والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة، والسلام عليهما، وتقبيل أياديهما عند الدخول إليهما، ويضرب المعلم طلابه على إساءة الأدب، والفحش في الكلام وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع"[(١)].

أ- تخصيص مواد غذائية وجراية شهرية وكسوة لهم في أثناء التعليم:

لم تكن مهمة كتاتيب الوقف قاصرة على التعليم فقط، بل كانت تحرص على تقديم الطعام والكساء أيضًا، ولذلك كان للكتاتيب دور كبير في حياة الفقراء والأيتام، سواء لنيل قدر من التعليم يتيح مجالاً لشغل إحدى وظائف الأوقاف، وهو ما كانت تشترطه بعض وثائق الوقف، أو للاستفادة مما تقدمه هذه المكاتب من معلوم يصرف شهريًّا أو يوميًّا من الدراهم والخبز، والأمثلة على ذلك كثيرة في وثائق الأوقاف منها:

وقفية طارق حارثة بن عبد الله من أوقاف القدس سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م فقد نصت الوقفية على أن يصرف من ريعها على عشرة أيتام من المسلمين لكل واحد منهم:

- في كل يوم ثلث رطل[(٢)] خبز بالدمشقي ، وربع درهم فضة.
- كما يصرف لكل منهم كل ستة أشهر كسوة كاملة (قميص، ولباس، ومداس، وقبع، وملوطة[(٣)])[(٤)].

ويتفاوت ريع الأوقاف حسب قدرة صاحبها، فنجد في وقفية أبي العباس زين الدين دلامة[(٥)] أنه رتب فيها ستة أيتام فقط، ولكل منهم عشرة دراهم شهريًّا وليس يوميًّا،

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢٦١.

(٢) **رطل**:أكثر وحدات الأوزان استعمالاً في بلاد العرب الشام يساوي عشرة أواق، والأوقية خمسون درهمًا، وبذلك يكون الرطل ستمئة درهم. انظر: المقريزي، النقود الإسلامية، المسمى" بشذور العقود في ذكر النقود"، تح: محمد السيد علي، ومحمد بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، ط٥، النجف، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٩٢-٩٣.

(٣) **ملوطة**: جمعها ملاليط، وهو رداء واسع طويل يصنع من الحرير، أو الكتان الرقيق. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٤٤.

(٤) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين ، ص٢٦.

(٥) **زين الدين دلامة**: الجناب الخواجكي الرئيسي الشهابي أبو العباس أحمد بن المجلس الخواجكي البصري أجل=

ولكل من هؤلاء الأيتام جبة قطنية، وقميص، ومنديل[١].

و لم تكن النساء أقل حظًّا من الرجال في الأوقاف، فقد عُرف عددٌ منهن كان لهن السبق في تقديم سبل الخير، منهن السيدة "أرغون" زوجة الأمير "أيدمر الأشرفي" التي أوصت بإنشاء كُتاب بجانب مدرستها "الخاتونية"[٢] لتربية الأيتام وتعليمهم، وتعيين فقيه لهم يعلمهم لقاء مرتّب شهري، ويصرف لكل واحد من الأيتام ربع درهم كل يوم، ويُكسى كل واحد منهم كسوة كاملة، من قميص ولباس وقبع (طاقية) وجُبة ومتاع.

ب- العطف عليهم في الأعياد والمناسبات:

لم يغفل المسلمون عن تذكر هذه الفئة في المناسبات والأعياد، فها هي أوقافهم خير دليل على مدى الاهتمام الذي وجده الأيتام من قبل أهل الخير، ففي كثير من الأوقاف نجد منهم من خصص في وقفيته شهر رمضان كما نصت وقفية المدرسة "الطورمشية" على وجود معلّم، مهمته التعليم أربعة أيام، ويتناول كل يتيم منهم نصف درهم يوميًّا، مع كسوة كاملة لهم في شهر رمضان[٣].

= أعيان دمشق، أنشأ المدرسة الدلامية التي تقع بالقرب من الماردانية بالجسر الأبيض بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ بالصالحية، ووقفها سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م. انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٢٤- ١٢٦؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٨.

(١) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٢٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٨.

(٢) **المدرسة الخاتونية**: تقع في منطقة الحدادين بطرابلس، أمر ببنائها أرغون خاتون وزوجها عز الدين أيدمر الشريفي. تتميز المدرسة بأنه نقش على بابها أطول نص وقفية بتاريخ ٧٧٥هـ/١٣٧٣م. انظر: عمر عبد السلام تدمري، الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهميتها في رصد حركة العمران، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام (١٧-٢١ شعبان-١٤٢٧هـ/ ١٠-١٤ أيلول ٢٠٠٦م)، لبنان، تحرير، محمد عدنان البخيت، عمان، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام(الجامعة الأردنية)، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ج٤، ص٣٧-٣٩؛ محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٢، ج٦، ص١٢٦؛ السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، ١٩٦٧م، ص٤٣١؛ عمر رضا كحالة، أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج١، ص٢٦؛ محمد التونجي، معجم أعلام النساء، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص٨.

(٣) عمر تدمري، أوقاف طرابلس وغاياتها الإنسانية، مقال في شبكة الإنترنت، ٢٠/٥/٢٠١٧م:

http://cutt.us/L3gxS

ونصّت وقفية عبد الباسط على الخانقاه الباسطية[١] بالقدس المؤرخة سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م على " أن يصرف للأيتام في عيد الفطر من كل سنة برسم كسوتهم ثلاثون درهمًا لكل واحد منهم"[٢].

أما المدرسة الفارسية فقد اشتمل وقفها في سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م على أن: " لكل يتيم في كل شهر خمسة عشر درهمًا، وفي كل موسمٍ وعيدٍ لكل واحد خمسة عشر درهمًا[٣].

والمتتبع للرعاية المالية من قبل المحسنين، يجد أن قيمة ما يصرفه المحسنون على الطلاب يتوقف على قيمة سلعة معينة، هي الخبز، وفي هذا إشارة هامة إلى أن غرض الواقف هو توفير كمية معينة من الخبز وهو سلعة أساسية للحياة، وليس مبلغاً معيناً من المال احتياطًا لارتفاع الأسعار.

و لم تتوقف الرعاية الشاملة لهم في أثناء حضورهم للكتاب، بل امتدت ببلوغهم سن الرشد أو الانتهاء من حفظ القرآن، حيث يُقام لليتيم المتخرج احتفال كبير يمشى بين يديه صبيان الكتاب ينشدون طوال الطريق، وتوقد الشموع فتزين أرض الكُتاب وحيطانه وسقفه بالحرير، ويتزيّن الصبي الذي ختم القرآن بقلائد الذهب والعنبر، ثم يركب فرس مزينة ويحمل أمامه أطباقًا فيها ثياب تتخطفها العامة بعد الانتهاء من

---

(١) **المدرسة أو الخانقاة الباسطية:** كان شيخ الإسلام شمس الدين الهروي، ناظر الحرمين الشريفين، وشيخ المدرسة الصلاحية، أول من اختط أساس المدرسة الباسطية، ولكن المنية أدركته قبل عمارتها، فعمّرها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ثم القاهري، ووقفها في سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م، فنسبت إليه. ووقف زين الدين عليها قرية صور باهر من أعمال القدس. ولها سجل شرعي يتضمن وقفتيها. وتنص الوقفية على شروط الدرس، والمصاريف، وما يتعلق بها. وقامت هذه المدرسة بدورها في الحركة الفكرية في القدس. وتولى مشيختها والتدريس فيها عدد من العلماء الأجلاء، وتتكون هذه المدرسة من عدد من الغرف والقاعات للتدريس، وسكنى المدرسين والطلاب. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩، ١٧٢، ١٨٩؛ السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٤٠٥؛ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ٢٥٣؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ص٢٨٤.

(٢) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص ٣٨.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٦٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص ١٣٥.

الاحتفال بالختم، ثم يشارك هذا الصبي الناس في الصلاة، بل يسمح له بإمامة المصلين في صلاة التراويح[١]، وعندما يصل إلى بيته يدخل الشيخ ويعطي اللوح لوالدته، فتعطيه ما تقدر عليه من مال، أما من يظل بالمكتب حتى البلوغ دون أن يحفظ القرآن، فكان يصرف ليحل محله أحد صغار الأيتام[٢].

ويصرف له مبلغ من المال ليستعين به على معيشته بعد مغادرة المكتب، كما يصرف لمؤدبه مبلغٌ إضافي على مرتبه مكافأة له على جهده مع اليتيم الذي تخرّج من المكتب[٣].

رابعًا: الرعاية الصحية للأيتام :

أولت الدولة الإسلامية على مرِّ عصورها اهتمامًا كبيرًا بالطفل وسلامته، فوضعت شروطًا وقيودًا للمحافظة على الأطفال من بعض الأمراض التي قد تنتشر في مثل هذه الظروف، فكان هناك إجراءات وقائية وطبية، فعند إصابة أحد الصبيان في الكتاب يعزل المعلم الصبي المريض عن رفاقه حتى لا ينتشر المرض بينهم، يقول ابن الحاج: "ينبغي إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو بالمكتب بوجع عينيه، أو شيء من بدنه، وعلم صدقه أن يصرفه (المعلم) إلى بيته ولا يتركه يقعد في المكتب"[٤]. وذلك ليترك لأهله الاهتمام به، والعمل على معالجته؛ خوفاً من انتشار عدوى المرض بين الصبيان.

واهتمت الدولة المملوكية بطعام الأيتام في الكُتاب من حيث النظافة، وكان المحتسب يراقب تلك الأطعمة ويتأكد من نظافة الأدوات المستخدمة، ويتأكد من أنها مغطاة، حمايةً لها من الذباب والحشرات الطائرة، كما كانت الأفران تخضع لرقابة المحتسب للاطمئنان

---

(١) ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) سعيد عاشور، المؤسسات الاجتماعية، ص٣٤٤؛ عبدالله ناصر السدحان، رعاية الأيتام في الحضارة الإسلامية، بحث نشر في الملتقى الأول لرعاية الأيتام الذي تنظمه الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان)، الرياض، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢١.

(٣) عبدالله السدحان، الآثار الاجتماعية، ص١٥، ١٦؛ رعاية الأيتام، ص٢١؛ وللمزيد عن رعاية الأيتام انظر: يسري أحمد الزيدان، رعاية الأيتام في العصر المملوكي، مجلة اتحاد المؤرخين العرب، العدد ١٥، ٢٠٠٧م، ص٣٩٧-٣٩٨.

(٤) المدخل، ج١، ص ٣٢٢.

على نظافة العجين والأوعية المستخدمة والماء المستخدم، كذلك الشخص الذي يعجن العجين لابد أن يغطي فمه حتى لا يتطاير الرذاذ منه، ويغطي رأسه حتى لا يتساقط الشعر في العجين، كما يحلق شعر يديه، وحفاظا على صحة الأطفال كان يمنع دخول الباعة المتجولين إلى كتاتيب الأطفال حتى لا يشتري منهم الأطفال ما يضر بصحتهم، "فلا يدع المعلم أحدًا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان، إذ فيه المفاسد إن اشترى منه"[١].

وانتشرت الأسبلة في عصر المماليك فقلما يوجد مدرسة أو جامع أو خانقاة إلا أُلْحِق به سبيل لشرب العامة، ومن المعروف أن كتاتيب الأطفال كانت دائمًا تنشأ أعلى الأسبلة[٢]، ولذلك كان الاهتمام بها يعني الاهتمام بالماء المقدّم للأطفال الذين يشربون منها في ذهابهم وإيابهم إلى الكتاتيب، وفي أثناء لعبهم في الشوارع، وخاصة أن بعض حالات موت الأطفال أو مرضهم كانت نتيجة لتناولهم مياهًا ملوثةً من أماكن لم يحكم تغطيتها أو تنظيفها، وقد رصدت عليها الأوقاف لملئها بالماء وتنظيفها وإزالة الأوساخ وغسل الآنية المستخدمة في الشرب وحفظها من الحشرات الطائرة والزاحفة بالتغطية[٣].

ومن وسائل الحفاظ على الصحة العامة كان هناك طبيب يزور الكتاتيب كل شهر لفحص الأطفال والكشف عليهم، حتى إن الأطفال المقررون في مكاتب الأيتام التي تقتضي ظروف مرضهم الغياب عن المكاتب فترة المرض كان يصرف لهم المعلوم المقرر لهم، وبلغ الحرص عندهم لدرجة "ترتيب طبيب يحضر بالمكتب في كل شهر"[٤].

وكان الطبيب عندما يزور المكتب في كل شهر يكشف من يظن به البلوغ منهم، فمن وجده بلغ، أخبر بحاله، فيقرر الناظر غيره مكانه، "ولم يُستَثْنَ من ذلك إلا حالات قليلة، كأن يظهر أحدهم نبوغًا وميلاً للدرس مما يبشر بفلاحه، فعندئذ كان يستمر

---

(١) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص ٣١٣.

(٢) فايز الزاملي، الأوقاف في فلسطين، ص١٤٤؛ سحر السيد، تربية الأطفال، ص٣٩.

(٣) سحر السيد، تربية الأطفال، ص٤٠.

(٤) سعيد عاشور، المؤسسات الاجتماعية، ٣٤٤.

بالمكتب، ويسمح له بالاشتغال بالعلم، أو أن يكون أحدهم قد قارب من حفظ القرآن الكريم، فيمهل إلى حين ختمه"[١].

ومن خلال ما سبق آنفا نلمس مدى الرعاية الفائقة التي حظي بها الأيتام من جانب السلاطين والأُمراء والقضاة والفقهاء، وغيرهم من عامة المسلمين.

(١) سعيد عاشور ، المؤسسات الاجتماعية ، ج١ ، ٣٤٥.

المبحث الثاني

رعاية الفقراء والمساكين

الفقر من أشد أنواع البلاء التي تعتري حياة الناس، وهو صعب لا تحتمله النفس، فمن الناس اضطرها الفقر لقتل فلذات أكبادها قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾[١].

فالفقراء[٢] والمساكين[٣] هم أُناسٌ فرضت عليهم ظروف الحياة الاعتماد – بعد الله سبحانه – على آخرين يساعدونهم على تحمُّل مشقة العيش، وتُعدُّ رعايتهم واجبًا من واجبات الدولة والمجتمع، فهو تجسيد حيٌّ لقيم التكافل الاجتماعي في الإسلام.

وعلى الرغم من اختلاف الفقهاء في تحديد أيهما أشد حاجة من الآخر إلا أنهم اتفقوا بأن كلاً من الفقير والمسكين محتاج ويستحق نصيبه من الزكاة والصدقات، فإذا ذكر أحد الصنفين منفرداً عن الآخر ،كان شاملاً لمعنى الصنف الثاني[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٦٨.

(٢) **الفقر**: مادة الفاء والقاف والراء أصل واحد صحيح يدل على انفراج في شيء، من عضو أو غير ذلك. من ذلك: الفقار للظهر، الواحدة فقارة، سميت للحزوز والفصول التي بينها. والفقير المكسور فقار الظهر. وقال أهل اللغة: منه اشتق اسم الفقير، وكأنه مكسور فقار الظهر من ذلته ومسكنته. الفَقْرُ، بالفتح ويُضَمُّ لغة، ضِدُّ الغِنَى، وأَصلُ الفَقْرِ: الحاجةُ، والفقيرُ: المحتاجُ. قال ابنُ عرفة: الفَقِيرُ عند العرب هو المحتاجُ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٦١، فصل الفاء؛ الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ج، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ص٤٧٣، فصل الفاء/ باب الراء، ج٧، ص٣٥٤.

(٣) **المسكنة**: السين والكاف والنون، تدل على أصل واحد مطّرد يدل على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سكن الشيء يسكن سكوناً فهو ساكن. والمسكين في اللّغة: الخاضعُ الذّليلُ الْمَقْهُورُ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا، والمسكنَةُ هي الذُّلُّ والخضوعُ وتَواضُعُ الحالِ. انظر: ابن منظور ، لسان العرب، ج٥، ص٦١، فصل الفاء؛ الزبيدي، تاج العروس، فصل السين/ باب الراء، ج١٨، ص٢٨٤.

(٤) حسن علي كركولي، مصارف الزكاة في الإسلام، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٥٧.

ومن خلال استقراء كتب التراجم تبرز سير شخصيات وُصفت بحبها للفقراء والإحسان إليهم، فعلى سبيل المثال لا للحصر من طبقة الأمراء المماليك: الأمير أيدكين ابن عبدالله علاء الدين الشهابي(١)، الذي وقف الخانقاه الشهابية من أجل الفقراء(٢).

والأمير حسام الدين لاجين العزيزي(٣) الجوكندار(٤) بدمشق، فلقد كان محبًّا يتولى خدمتهم بنفسه، كثير البر لهم(٥).

أما الأمير جمال الدين أيدغي العزيزي(٦) فقد كان له صلة بالفقراء في البيوت والزوايا في كل سنة تزيد على مئة ألف درهم، وألوف أرادب غلة، هذا غير صدقاته(٧).

ووصف الأمير جمال الدين النجيبي الصالحي(٨) نائب دمشق بأنه كثير الصدقة، له أوقاف في الحرمين، بنى في دمشق مدرسة إلى جانب مدرسة نور الدين، ووقف خانقاه

---

(١) **الأمير علاء الدين:** أيدكين الْأَمِير عَلَاء الدّين الشهابي أحد أُمَرَاء دمشق وَصَاحب الخانقاه الشهابية، وَقد ولي نِيَابَة حلب، توفي سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٧، ص٥٤٥؛ الصفدي ، ج٩، ص ٢٥٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٦٥.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١٧، ص٥٤٥؛ الصفدي ، ج٩، ص ٢٥٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٦٥.

(٣) **الأمير حسام الدين لاجين العزيزي:** من كبار أمراء دمشق، كان فارسًا، شجاعًا، توفي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٩٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٠.

(٤) **الجوكندار:** لقبٌ يُطلق على حامل الجوكان للملك ليلعب بالكرة. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ٥٦.

(٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٩٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٧٠.

(٦) **جمال الدين أيدغي العزيزي:** من أكابر الأمراء، سمع الحديث، وحدّث، كان مشهورًا بالشجاعة والكرم والصدقة. انظر: النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٨٤.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٨٤.

(٨) **الأمير جمال الدين النجيبي الصالحي:** ناب في دمشق تسع سنوات، كان شافعي المذهب، كثير التحامل على الشيعة، أصيب بالفالج قبل موته بأربع سنوات،كانت وفاته سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م. للمزيد انظر: الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص١٧١.

ظاهر دمشق[١].

وجاء في سيرة الأمير سيف الدين بهادر آص المنصوري (ت٧٣٠هـ/١٢٣٠م) أنه: "كان محببًا إلى العامة، وله بر وصدقة وإحسان"[٢]. فالعامة لا تحب إلا من كان محسنًا لها، فاستطاع هذا الأمير أن يكسب محبة أهل دمشق بحسن أخلاقه وبره للفقراء والمساكين، فقد كان"مشهوراً بالصدقة، وله بر ظاهر معروف مشهور"[٣].وناظر الجيش[٤] محمد بن فضل القبطي[٥]، الذي كانت صدقته في كل يوم ألف درهم[٦].

ومن الشعراء جمال الدين بن مطرح،كان كثير البر بالفقراء والمساكين[٧].

ومن العلماء كمال الدين ابن العديم، الذي كان "حسن الظّنّ بالفقراء والصالحين،كثير الإحسان إليهم"[٨].

وكان لذوي المناصب نصيب من بذل الصدقات أيضًا منهم القاضي كريم الدين

(١) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص١٧١.

(٢) **الأمير سيف الدين بهادر آص المنصوري**: كان من أمراء الألوف بدمشق، ممن طال عمره في الإمرة، توفي سنة٧٣٠هـ/١٢٣٠م. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٣) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٤) **ناظر الجيش**: تختص وظيفة ديوان الجيش في موضوع الإقطاعات في مصر والشام، ويتولى ناظر الجيش الكشف عن هذه الإقطاعات، وهو الذي يتحدث في أمر الجيوش وضبطها. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٤، ج٥، ص٤٣٧.

(٥) **محمد بن فضل القبطي**:أسلم وأعرض عن النصارى، وتسمى محمدًا، وحج عشر مرات، توفي سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م. للمزيد انظر: ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٩، ص٢٩٧ .

(٦) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٩، ص٢٩٧ .

(٧) **جمال الدين بن مطرح**: قال عنه ابن كثير: " كان فاضلاً، رئيسًا، كيسًا، شاعرًا، من خيار المتعممين"، كانت وفاته سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م. انظر: البداية والنهاية، ج١٧، ص٣١٦.

(٨)**كمال الدين بن العديم**: عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي الحلبي الحنفي، الأمير الوزير، سمع الحديث، وحدثّ وتفقّه، وأفتى ودرس، وصنّف، وكان إمامًا في فنون كثيرة، وترسَّل إلى الخلفاء والملوك مرارًا عديدة، وصنف لحلب تاريخًا يقرب من أربعين مجلدًا، وقد أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة، وكانت وفاته بمصر، ودفن بسفح جبل المقطم سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٤٤٣.

عبد الكريم بن المعلم هبة الله وكيل الخاص السلطاني، تصدّق عند زيارته لبيت المقدس بصدقات كثيرة وافرة[(١)].

وكذلك العالم الجليل شعبان بن أبي بكر الأربلي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م) شيخ الحلبية في الجامع الأموي قال عنه ابن كثير: " كان صالحًا مباركًا فيه خير كثير، كان كثير العبادة وإيجاد الراحة للفقراء"[(٢)].

صور رعاية الفقراء في العصر المملوكي :

حرصت الدولة المملوكية على بذل جهدها في رعاية الفقراء في صور عديدة منها:

- **الزكـــــاة:**

من أبرز ما يدل على حث الإسلام على مساعدة الفقراء، أنه جعل مساعدتهم من مصارف الزكاة، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[(٣)].

والزكاة من الموارد التي حرصت عليها الدولة المملوكية، حيث إن أداءها وتوزيعها في مصارفها يحل كثيرًا من المشكلات في المجتمع الإسلامي كالفقر، ويحقق نوعاً من التوازن بين أفراده، ولم يترك الشارع الحكيم أمر الزكاة لأهواء الناس، وإنما كلف ولي أمر المسلمين بأن يأخذها ممن وجبت عليه، وينفقها في مصارفها[(٤)].

وكان من أولويات السلطان الظاهر بيبرس هو استخراج أموال الزكاة فبدأ

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٣٢١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص ٦٣.

(٢) البداية والنهاية، ج١٨، ص ١١٦. للمزيد عن ترجمته انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٨٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٦.

(٣) سورة التوبة: الآية: ٦١.

(٤) كوركولي، مصارف الزكاة في الإسلام، ص ٧، ١٠ .

باستخراج الزَّكَاة والعشور من العربان ببرقة[١] في سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م[٢]، وفي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م أمر السلطان بيبرس توجه باستخراج الزكاة من سائر الجهات[٣].

ولقد تحدث النويري في هذا الصدد في أحداث سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م، زمن السلطان الظاهر بيبرس قائلاً: "كان السلطان قد اهتم بأمر الزكاة من سائر الجهات حتى المغرب والحجاز، وأذعن عربان بلاد برقة لذلك، وقاموا بالزكاة"[٤].

ومما يدلل على أن هذا المورد كان يصرف على الفقراء ما تعرض له القاضي محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي من ضغوط من أجل التفريط في أموال الزكاة، فرفض معترضًا عليهم بأنها أموال الزكاة تفرق على الفقراء[٥].

ومن أشهر النواب الذين وظفوا هذا المورد لخدمة الفقراء والمحتاجين الأمير سيف الدين تنكز[٦] نائب دمشق، الذي استجدّ ديوانًا لِلزَّكَاةِ وصرفها للْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِين وأرباب الْبيُوت[٧].

ويصور لنا الصفدي مدى حرص تنكز شخصيًّا على إخراج زكاته بشكل سنوي فيقول: "ورأيت منه شيئًا ما رأيته من غيره، وهو أنه كان له كاتب مفرد للزكاة لا يعمل

---

(١) **برقة**: اسم صقع كبير يشمل على مدن وقرى، بين الإسكندرية، وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص١٨٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٣.

(٤) نهاية الأرب، ج٣٠، ص ١٤٩.

(٥) المقريزي، السلوك،ج٢، ص٤٩٠.

(٦) **الأمير سيف الدين تنكز الحسامي الناصري**: عين نائب الشام سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م في زمن السلطان الناصر، عظم شأنه في بلاد الشام، أمنّ الرعايا وأهل البر، وجدّد المدارس، وعمرّ الأوقاف، ومن أوقافه مارستان صفد وجامع بنابلس وعجلون، ودار حديث ومدرسة وخانقاه بالقدس، غضب عليه السلطان الناصر وانتهى أمره مقتولاً بثغر الإسكندرية سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ٢٦١-٢٦٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص٣٨-٤١.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٩٣.

غير هذه الوظيفة، إذا حال الحول على شيء من حواصله عمل ما يجب على ذلك من الزكاة وقرأه عليه فرسم بصرفه"[(١)].

■ **الصدقــات:**

تعتبر الصدقات من أعظم الأعمال التي يتقرّب بها العبد إلى ربه، وهي باب واسع لمساعدة الفقراء والمساكين، ومجالات الصدقة واسعة:

أ- **ما ارتبط بتقديم الطعام:** خاصة في وقت المناسبات الدينية في بلاد الشام [(٢)]،"فعاداتهم في تلك الأعياد إخراج الصدقات والزكاة والتوسعة على الفقراء" [(٣)].

منها الاحتفال بالمولد النبوي، ولم يكن هذا الاحتفال يقتصر على العامة، بل شارك سلاطين المماليك ونوابهم العامة بتلك المناسبات الدينية[(٤)]، فقد شارك السلطان المؤيد شيخ في أثناء وجوده في بلاد الشام في تلك الليلة ووصفت بأنها من "الليالي المشهودة"[(٥)]، إذ تمد بعد صلاة المغرب أسمطة من الأطعمة الفاخرة ليأكل منها جميع الحضور، ويحمل ما فيها إلى البيوت، للتوسعة على الأبناء، ثم تمد أسمطة الحلوى السكرية المتنوعة، ويخطفها الفقراء لإطعام أولادهم[(٦)]. ويفرق السلطان على الفقراء من أكياس الذهب، وفي الصباح يفرق على مشايخ الزوايا القمح، كل واحد بحسب حاله وعدد فقرائه[(٧)].

---

(١) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تح: إحسان بنت سعيد خلوصي وآخرون، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ق٢، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) للمزيد عن البدع والمعتقدات المنحرفة عن الشرع الإسلامي انظر: ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٣٩١-٣٩١، ج٢، ص٢- ١٦.

(٣) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٢٧٥.

(٤) السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تح: لبيبة إبراهيم مصطفى ،نجوى مصطفى كامل، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، د.ط ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ج١، ص٥٥.

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج٦، ص ٤٣٧.

(٦) المقريزي ، الخطط، ج٣، ص ١٠٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٦٠-٦١.

(٧) عبد الظاهر، الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، ليبساك، ١٩٠٢م، ص٦٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٦١، ٦٢.

ولم يكن الاحتفال قاصرًا على السلاطين، بل احتفل أيضًا النواب بالمولد النبوي في الجامع الكبير في مركز النيابة، وفي نهاية الاحتفال تقدم موائد من الأطعمة وأسمطة الحلوى(١). ومن صور احتفال النواب بهذا اليوم ما ذكره الصفدي عن قراسنقر المنصوري(٢)نائب حلب فقال: "فلما مدت الأسمطة قام قراسنقر وقلع سيفه وتشمر ومد السماط المختص بالفقراء وقدم بيده الطعام وشرع يقطع المشوي لهم ولا يدع أحدًا يتولى خدمتهم سواه"(٣).

وفي يوم عاشوراء كان المجتمع الشامي يحرص على الصدقة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين ، وكان بعض الناس يؤجل إخراج زكاته إلى هذا اليوم(٤).

وكان شهر رمضان من الشهور التي يكثر التوسعة فيها على الفقراء والمساكين والإكثار من أعمال الخير، ومن صور ذلك تجهيز المطابخ لطَهْو كميات كبيرة مع اللحوم وتوزيعها مع آلاف الأرغفة من الخبز على الجوامع وبيوت الصوفية، بالإضافة إلى توزيع مبالغ من الأموال(٥).

وفي ليالي رمضان وعيدي الفطر والأضحى اهتمت المؤسسات التعليمية وبيوت الصوفية بتوزيع الهريسة والرز والحلوى على الفقراء وروادها(٦) - فعلى سبيل المثال لا الحصر — نصت وقفية المدرسة الأسعردية أن يصرف من كل سنة في ليلة النصف من شعبان وفي ليلة عيد الفطر، مبلغ مئة درهم يشرى به حلوى وخبز ويفرق على الأيتام والفقراء في المدرسة، أما في عيد الأضحى فيشرى لهم إما بقرة أو غيرها، وتذبح وتفرق

---

(١) ابن طولون، إعلام الورى، ص١٣٠؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٤٣؛ كرد علي، خطط الشام، ص٢٨٥؛ رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤١.

(٢) **قراسنقر المنصوري**: قراسنقر الجوكندار المنصوري الأمير شمس الدين أبو محمد، من أكبر الأمراء وأجل مماليك البيت المنصوري، توفي سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٥٩.

(٣) الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص١٦٥.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٩٠؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٣٧؛ رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٠.

(٥) كرد علي، خطط الشام، ص٢٧٥؛ رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٦٤؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٦٢.

(٦) أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٦٤-٢٤٦؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ٢٦٩.

عليهم، ويوزع عليهم مئة درهم في كل سنة(١).

وفي سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م ضحّى الأمير يشبك الدوادري(٢) بعد خروجه من حمص بأضاحي، وأمر بأن توزع لحومها على الفقراء والمحتاجين في الخانات على طريق حمص(٣).

وكان الأثرياء يهتمون بإطعام الفقراء والمساكين عند ولادة المولود(٤)، وعلى العكس من ذلك وجد في بلاد الشام من كان يخفي ختان ولده لما للختان من تكاليف عالية، أو يقوم فقراء الناس بحفلة واحدة لأبنائهم جميعًا(٥).

ودرجت العادة عند أهل الشام في المآتم أن يُتَصَدَّقَ على الفقراء والمعوزين بالطعام والكساء والنقود، وأن تُبْسَطَ الموائد ويُفْتَحَ الدار للفقراء فيأكلون ويزودون(٦).

ودرج على ذلك سلاطين المماليك وأمرائهم في ذلك، حيث يصف الصفدي المآتم التي أقيمت لجنازة السلطان الظاهر بيبرس فيقول: "تقرر أن يكون أحد عَشَرَ يوماً في مواضع متفرقة، ونصبت الخيام العظيمة وصنعت الأطعمة الفاخرة، واجتمع الخاصة والعامة، وحملت الأطعمة على الربط والزوايا"(٧).

وكان من عادتهم في تشييع الجنائز حمل كميات من الخبز والزبيب والملح وتوزيعها بعد الانتهاء من مراسم الدفن، ويذكر أن الفقراء في جنازة ابن لأحد أمراء دمشق في سنة

---

(١) جعفر الحسني، وثيقة وقف المدرسة الأسعردية، مج ٣٣، ج٤، ص٥٩٣، ٥٩٤.

(٢) **يشبك الدوادري**: كان من مماليك الظاهر جقمق، كان أميرًا جليلاً، كثير الصدقات،قتل سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص ٢٧٥،٢٧٤.

(٣) ابن آجا، محمد محمود الحلبي (ت٨٨١ه/ ١٤٧٦م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٦م، ص١٥٥.

(٤) كرد علي، خطط الشام، ص٢٨٥؛ رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٥٥.

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٣.

(٦) الغزي، كامل بن حسن بن مصطفى الحلبي (ت١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩ه، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص ٢٨٤-٢٨٥ .

(٧) الوافي بالوفيات، ج ٢، ص٣٣٧.

٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م قد خطفوا جميع ما على رؤوس الحمالين من الخبز والزبيب والملح[١].

كذلك كانت النذور توزع على (المقابر)، إذ يتخذها الناس مزارات يزورونها، وهذه من البدع الضالة التي انتشرت في المجتمع الشامي، وتلك الممارسات ليست على مستوى بلاد الشام، بل شاركتها العديد من المناطق الإسلامية، إذ يتخذها الناس مزارات يزورونها، وكان في دمشق وحدها نحو مئة وثلاث وثلاثين تربة في العصر المملوكي[٢].

ولم تكن ممارسة مثل هذه الأعمال على المستوى الشعبي فقط، بل زار سلاطين المماليك مثل هذه الترب، فقد زار الظاهر بيبرس قبر أبي الحسن علي بن عليل وهو المشهور عند الناس بابن عليم[٣]، ونذر النذور والأوقاف ودعا عند قبره، "وفي كل سنة له موسم في زمن الصيف يقصده الناس من البلاد البعيدة والقريبة، ويجتمع هناك خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى وينفقون الأموال الجزيلة"[٤].

ومن صور توفير الغذاء للفقراء والمحتاجين ما عرف بالأسمطة، ومن أشهرها سماط الخليل[٥] الذي أكدت المصادر المملوكية أنه انقطع مدة طويلة، ولم يُمَدَّ إلا في عهد الظاهر بيبرس، وَعُدَّتْ عودة السماط من حسنات الدولة المملوكية[٦]. وكان يطبخ كل جمعة الأرز المفلفل وحب الرمان والعدس، وفي الأعياد تطبخ الأطعمة الفاخرة [٧].

ومثل هذه الأسمطة المجانية كانت تحتاج إلى تعاون وتلاحم من جميع طبقات المجتمع الميسورة، فيذكر المقريزي في حوادث سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م أن السلطان الملك الناصر

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٢١٩.

(٢) جيدة، المدارس ونظام التعليم، ص٧٥.

(٣) **أبو الحسن علي بن عليل**: إمام جامع دمشق أبو هاشم محمد بن عبد الأعلى الأنصاري، توفي سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٤، ٥٢٩.

(٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٣٩؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٧٢.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٢٣٤.

(٦) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢١.

(٧) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٧؛ علي أحمد محمد السيد، اليهود في شرق البحر المتوسط، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١٨.

فرج بن برقوق أمر أن يحمل إلى بساط الخليل من دمشق مئة غرارة ما بين قمح وشعر لتعمل دشيشة ويخبز الخبز[١].

وأسهم أهل الخير أمثال الشيخ مجد الدين عبد الملك الموصلي[٢] (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)، الذي حبس قرى وأراضي، واشترط أن يصرف ريع تحصيلها على سماط الخليل[٣].كذلك اشترط الشيخ علاء الدين ابن طحيلان سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م، أن يصرف ريع أوقافه بعد انقراض ذريته على سماط الخليل عليه السلام[٤].

وعُرف بعض الشخصيات المملوكية بكرمهم الزائد، فحرصوا على إعداد الأسمطة في العيد، مثل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي نائب الكرك[٥]، وكان سماطه نظير سماط السلطان[٦]، وشهاب الدين أحمد التلعفري الشهير بابن المحوجب [٧] (ت٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)، الذي كان ذا كرم وافر، وسماطه من أفخر الأطعمة يأكل منه الخاص والعام حتى نائب دمشق وقاضيها[٨]. واشتهر مطبخ النائب الحموي بأنه كان يقدم أنواعًا من

(١) السلوك، ج٦، ص١٥٣.

(٢) **مجد الدين عبد الملك الموصلي:** لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة.

(٣) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٣٣.

(٤) محمد عيسى صالحية، سجل أراضي ألوية(صفد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة) حسب الدفتر رقم (٣١٢) تاريخه (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، عمان، جامعة عمّان الأهلية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٨٠.

(٥) **جمال الدين آقوش الأشرفي:** أقام في نيابة الكرك ١٩ عامًا، ثم تنقل في النيابات في حلب وطرابلس، وانتهى به الأمر معتقلاً في الإسكندرية، حتى توفي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م. انظر: الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص ٢٢٦- ٢٢٧؛ الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٩٥.

(٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٩٥.

(٧) **ابن المحوجب:** شهاب الدين أحمد بن عبد الرحيم بن حسن التلعفري الدمشقي، كان مهابًا عند الملوك والأمراء، انتهت إليه الرياسة والسيادة بالشام، توفي بدمشق سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م. انظر: الغزي، نجم الدين محمد (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح : خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص٨٣.

(٨) الغزي، نجم الدين محمد (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح : خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص٨٣.

الطعام والحلوى، ويوزعها على عامة الأهالي[١]. وقد اشترك أهل الأخيار بوقف الأوقاف لاستمراره فقد كان يوزع مجانًا[٢].

ب- **صدقات مالية:** لم تقتصر الصدقات على توفير الطعام، بل كان لأهل الخير صدقات مالية حرصوا على توزيعها على المحتاجين من الفقراء والمساكين، ففي سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م، صلى الأمير قانصوه الجمعة بالجامع الأموي بدمشق، وفرق على جمّ غفير من الناس الدراهم فدعوا له[٣].

وكان لبيت المقدس النصيب الأوفر من الصدقات لما له من مكانة دينية عند سلاطين المماليك؛ لهذا حرصوا على الإنفاق والبذل لأهله خاصة الفقراء منهم.

فعندما زار السلطان فرج بن برقوق في سنة ٨١٢هـ/ ١٤١٠م بيت المقدس تصدّق بخمسة آلاف دينار ذهبًا، وبعشرين ألف دينار من الفضة على الأهالي والأوقاف[٤].

وفي عام ٨١٧هـ/ ١٤١٥م زارها السلطان المؤيد شيخ وتصدق على الفقراء بمال جزيل[٥]، ثم زارها في سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م وصلى في المسجد الأقصى وفرق في مدة إقامته صدقات كثيرة على العلماء والفقراء والفقهاء والمستحقين ، ثم توجه إلى الخليل وتصدق أيضًا[٦].

وتصدّق السلطان قايتباي سنة٨٨٠هـ/١٤٧٥م بستة آلاف دينار، وأزال ما كان

---

(١) رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤٠،٢٣٩.

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٤.

(٣) يبدو أن هذا الأمير هو السلطان قانصوه الغوري. انظر: ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٨٦.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،ج١٣، ص ٨٩؛ وانظر ايضًا: يوسف الغوانمة، بيت المقدس، ص١١٥.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس؛ ج٢، ص٣٤٦؛ ومما يلفت النظر أن هذه المعلومة لم ترد عن العيني كاتب سيرته فقد أشار إشارة عابرة إلى أنه " لما خرج من دمشق أتى إلى القدس الشريف"، ولم يشر إلى صدقاته. انظر: العيني، السيف المهند، ص٣٢٨.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٤٥٠؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص١٣٤؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس؛ ج٢، ص٣٩٦، أيضًا لم يشر العيني الى تلك الصدقات. انظر: السيف المهند، ص٣٤١.

يعانيه الناس في القدس والخليل من مظالم[١]، إدراكًا منه أن التصدق بالأموال لن يكون حلاً لمشكلة الفقر، خاصة في ظل الضرائب التي أرهقت الشعب، لذلك كانت مبادرته لتخفيفها والحدِّ منها.

■ **الأوقــاف:**

أدت الأوقاف دورًا مهمًّا في الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لدرجة كبيرة، وشهدت تطورًا وازدهارًا في العصر المملوكي، وأسهم ســلاطين المماليــك والنــواب والميسورون بتمويل الأوقاف في مختلف مؤسساتها، طمعًا بالأجر والثواب؛ ممـا أدى إلى استمرارها وقيامها بواجبها وأداء رسالتها حتى بعد وفاة مؤسسيها وواقفيها، فكان مــن خدماتها توفير الغذاء بشكل شبه منتظم، بالإضافة إلى توفير بعض أنواع الطعام، مثل الخبز واللحم، أو وجبة كاملة في أيام معينة من الأسبوع (الجمعة)، وفي (المناسبات الدينيــة)، كرمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى[٢].

ومما يدلل على كثرة الأوقاف التي خدمت المحتاجين أقوال الرحالة في أثناء زياراتهم لبلاد الشام فقد تعجب أحدهم مما رآه من خدمات تقدم للفقراء، وعلل ذلك بأن أهــل الشام يتقربون إلى الله تعالى "ببناء المدارس رغبة في جوار المجرد الفقير البائس، ورتبوا لــه الخبز واللحم والطعام والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام"[٣].

وحرص سلاطين المماليك على تمويل الأوقاف، مثل السلطان الملك الظاهر جقمق، الذي أغدق على الديار المقدسة بمئة وعشرين غرارة قمح تقدر قيمتــها بثلاثــة آلاف وستمائة دينار وزعت على المساجد والمدارس والزوايا والربط[٤].

---

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٩٥؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٨٧.

(٢) من خلال الاطلاع على وثائق الوقف قلما نجد وثيقة تخلو من بند رئيس وهو توفير الطعام لإحدى الفئات المحتاجة.

(٣) البدري، نزهة الأنام، ص٧١،٧٠.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٢٥.

ومنهم أيضًا الملك الأشرف إينال[(١)] الذي أغدق على جهة الوقف في فلسطين بألف ومائتي إردب من القمح تصرف كل عام حتى وفاته[(٢)].

والسلطان خشقدم الذي أنعم على جهة الوقف في القدس بستين غرارة من القمح بقيمة ثمانمئة وأربعون دينارًا[(٣)].

ووقف الأمير سيف الدين فارس الدوادار التنمي، الذي جاء في وقفيته المؤرخة سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، أن يوزع ريع هذه الوقفية في كل يوم جمعة ربع قنطار من الخبز على الفقراء والمساكين[(٤)].

وجاء في وقفية خليل بن الشهابي أحمد بن يوسف الحسامي[(٥)] سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م على أن يشتري الناظر فاكهة بمبلغ سبعة دراهم تفرق على الفقراء كل جمعة[(٦)].

وذكر في وقفية شهاب الدين بن أحمد زين الدين صديق بن مراد في سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م على أن يصرف ناظر الوقف عشرة دراهم ثمن خبز ولحم يفرق على الفقراء والمساكين في كل ليلة جمعة[(٧)].

ووقف شهاب الدين القرمشي في سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م وقْفًا على ذريته، وبعد الانقراض اشترط أن يصرف ريعه على الفقراء يشترى به خبز يفرق للفقراء والمساكين في

---

(١) **الملك الأشرف سيف الدين اينال العلائي**: وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة، كان السلطان إينال ملكًا هينًا لينًا قليل الأذى، ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة ، تولى الحكم سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، وتوفي سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م، وبذلك يكون حكمه نحو ثمانية أعوام. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٦٧-٣٦٩؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٣٠٤.

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٩.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٩؛ فايز الزاملي، الأوقاف في فلسطين، ص ٧٥.

(٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٢٤؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٣٦.

(٥) معظم وثائق الوقف التي نشرها ابشرلي والتميمي، والعسلي، لا أجد ترجمة لأصحابها في كتب الطبقات، فربما ذلك راجع إلى أنهم من الطبقة العامة، وليسوا من كبار الأمراء أو الأمراء.

(٦) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٧٠.

(٧) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين ، ص٦٠.

ليلة الجمعة في حرم الظاهرية في صفد[١]. وأوقف شمس الدين الشهابي أحمد بن محمود العدوي أن يصرف من ريعه للفقراء حسب ما يراه الواقف في كل سنة ستمئة درهم[٢].

وكان للمساجد خدمات اجتماعية واضحة فقد أوقفت عليها الأموال للتوسعة على الفقراء والمساكين، منها: أن السلطان الناصر محمد خشقدم سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م أوقف أموالاً بالمسجد الأموي لشراء الخبز يوزع ليالي الجمع على الفقراء بقيمة ستين درهمًا، وقمصان بقيمة مئتي درهم كل سنة[٣]. كما اتخذت المساجد أيضًا أماكن لتوزيع لحوم الأضاحي على الفقراء[٤].

وبعض أوقاف المساجد كانت تجعل صرف ريعها للفقراء بشكل عام ، ويقرر لهم حسب ما يراه الناظر في يوم أو جمعة طعام يكفيهم فقد نصت وقفية جامع طينال[٥] في طرابلس"على أنه مهما فضل من ريع هذا الوقف عن أرباب وظائفه ومصالحه المعينة في كتاب الوقف يصرف للفقراء والمساكين المقيمين في طرابلس والواردين إليها حسب ما يراه الناظر في ذلك من غير أن يرتب لأحد مرتبًا في كل شهر أو كل يوم"[٦].

ومثل هذه الأوقاف غير المحددة بشروط يكون صرفها متوقفًا على شخص الواقف، إن كريمًا أو بخيلاً، ولا تكون في مصلحة المحتاجين عادةً.

---

(١) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين ، ص٦٠.

(٢) صالحية، سجل أراضي ألوية صفد، ص١١٩.

(٣) الطراونة، الحياة الاجتماعية ، ص١٨٧.

(٤) الطراونة، الحياة الاجتماعية ، ص١٨٧.

(٥) **جامع طينال**: من أهم مساجد طرابلس، بناه الأمير سيف الدين طينال، نائب طرابلس سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، في ظاهر المدينة في منطقة باب الرمل بجانب مقبرة الشهداء، وكانت تقوم في موضع هذا المسجد قديمًا كنيسة مهدمة من عصر الصليبيين، هجرت زمنًا طويلاً بعد أن استولى قلاوون على طرابلس، ثم استخدمها الأمير سيف الدين في إقامة هذا المسجد، ويشبه هذا الجامع مساجد القاهرة من حيث زخارفه وعناصره المعمارية، ويطلق عليه العامة اليوم اسم مسجد طيلان. انظر: ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٨٤؛ سبيتي، المماليك وآثارهم، ص٢٢٤.

(٦) سبيتي، المماليك وآثارهم، ص ٢٢٨؛ السيد، طرابلس الشام، ص ٤٠٩.

وكان للنساء مساهمة فعالة في مساعدة الفقراء والمحتاجين وكثرة الأوقاف، وخير شاهد على ذلك وقفية مريم بنت تقي الدين الطوخي، فقد أوقفت ثمن خبز يفرق على ثلاثة أشهر ولحم يطبخ في ليلة نصف رمضان، كما يوزع على الفقراء أربعين درهمًا [(١)].

ونصت وقفية ست الأشراف بنت السيد محمد سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م على أن يفرق في كل شهر كيل دقيق من ريع أوقافها في صفد على الفقراء والمساكين[(٢)].

وأسهمت المرأة الشامية بعدد كبير من تلك الأربطة، منها على سبيل المثال رباط العالمة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية الذي أوقفته لسكنى الفقراء من النساء بدمشق[(٣)]. ورباط ملكة بنت إبراهيم بن عبد الرحمن الدمشقية الذي بنته بدمشق[(٤)].

وفاطمة خاتون التي عرف عنها كثرة الإحسان إلى ذوي الحاجة [(٥)] وبَنَتْ إحدى العالمات وتدعى زينب بنت عمر كندي بن سعيد بن علي، أم محمد الدمشقية (ت٦٩٩هـ/١٢٩٩م) رباطًا في بعلبك، ووقفت عليه الأوقاف[(٦)].

- **توفير السكن:**

حرص سلاطين المماليك والمجتمع على إيواء الفقراء بتوفير أماكن لمن لا مأوى لهم، ويبدو أن كثيرًا منهم اعتادوا على المبيت في المساجد، خاصة في الجامع الأموي، ويصور ابن شداد حال المقيمين في الجامع بقوله:" وكان لكلّ ممن كان به مقيمًا موضع قد أفرده،

---

(١) الزاملي، الأوقاف في فلسطين، ص ٧٤.

(٢) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٧٠.

(٣) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨٤.

(٤) محمد أحمد درنيقة، أعلام العابدات الزاهدات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ١٢٤.

(٥) **فاطمة خاتون:** هي ابنة الملك المنصور صاحب حماة، توفيت سنة ٧٢١هـ/١٣٢٠م. انظر: أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٩٠.

(٦) الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، ج١، ص ٢٢٣.

واقتطعه وعمل فيه صندوقًا وأحاطه بمقصورة حتى صار بهم كأنه خان"[١]

ومن خلال هذا الوصف لحال المقيمين الذي استمر لسنوات سيؤدي بطبيعة الحال إلى آثار سيئة على نظافة الجامع من ناحية، ومن ناحية أخرى فيه إيذاء للمصلين؛ مما جعل السلطان الظاهر بيبرس "ينظر في أمر الجامع الأموي ويمنع مبيت الفقراء به"[٢].

ويبدو أن المنع قد اقتصر على الجامع الأموي لأهميته الدينية في بلاد الشام. وربما كان هذا المنع مقتصرًا على زمن الظاهر بيبرس، ومما يدل على ذلك وجود عدد من الوقفيات التي تثبت بأن الفقراء سكنوا المساجد، فعلى سبيل المثال في وقفية جامع غزة سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م رتب الواقف للفقراء المقيمين بالمسجد خيرات كثيرةً، منها سماط يقدّم لهم ولمن يرد عليهم[٣].

ووفرت الأوقاف مساكن للفقراء في عدد من المؤسسات التعليمية، كدور القرآن حيث وجد في دار القرآن الخيضرية فقراء خصص لهم الرواتب والخبز[٤].

فلم تكن المدارس في العصر المملوكي دورًا للعلم والعبادة فقط، بل كانت أيضًا مكانًا ومأوى للمحتاجين من المعلمين والطلاب والفقراء، يجدون فيها المسكن، ويُقرر لهم راتب معلوم نقدًا وعينًا، فمن شروط وقفية المدرسة الباسطية الإنفاق "على الفقراء

---

(١) الأعلاق الخطيرة، قسم دمشق، ص٨٠.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٣-٢٦٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٣٠؛ ابن كثير، ج١٧، ص٤٧٠.

(٣) البصروي ، علاء الدين علي بن يوسف الدمشقي (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك)، تح: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٤٠٨هـ، ص ٥٥-٥٦؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٨٧.

(٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص٧؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٥ .

والمساكين من ذوي الحاجات والفاقة"[١]. ووفرت المدرسة الأشرفية لطلابها ولفقراء المسلمين عددًا من الخلاوي للصوفية والطلبة[٢].

ومن أعظم المدارس المدرسة العمرية[٣] بصالحية دمشق عند بداية إنشائها كان فيها عشر خلاوٍ فقط، وقد زاد الناس فيها ولم يزالوا يوقفون عليها من الأوقاف حتى عظم شأنها مع مرور السنين من جملته العشر من البقاع[٤]، والمرتب على داريا[٥] من القمح ستون غرارة ومن الدراهم خمسة آلاف للغنم في رمضان، وبلغ عدد خلاوي الفقراء في المدرسة العمرية ثلاثمئة وستين خلوة[٦]؛ حتى قيل كان يترل بها خمسمئة رجل، أما المجاورون بها فكانوا سبعمئة فأكثر، وكانت توفر للمقيمين بها الطعام واللباس، ويؤمها المئات من الناس في رمضان لتناول طعام الإفطار، وكانت توزع ألف رغيف من الخبز يوميًا، كما كانت توزع الأضاحي على ساكنيها والملابس والحلوى في المواسم

---

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩، ١٧٢، ١٨٩؛ السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٤٠٥؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ٢٥٣؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ص٢٨٤.

(٢) **المدرسة الأشرفية**: تقع داخل المسجد الأقصى الشريف، وسميت أيضًا السلطانية، بنيت للمرة الأولى في زمن السلطان الملك الظاهر خشقدم (٨٦٥هـ/ ١٤٦١م)، وأعيد بناؤها سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) في زمن السلطان الأشرف قايتباي، وعدت جوهرة ثالثة في بيت المقدس بعد الأقصى وقبة الصخرة، بسبب غنى مبناها بالعناصر المعمارية والزخرفية، رتب لها السلطان الأشرف قايتباي مشايخ وفقهاء ومدرسين للتعاليم الصوفية، هدم القسم الأكبر منها في زلزال (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)، ثم أعيدت إلى سابق عهدها. للمزيد انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٥؛ السخاوي ، الضوء اللامع، ج٢، ص٥٣.

(٣) **المدرسة العمرية**: واقفها الشيخ أبو عمر محمد بن قدامة المقدسي، هاجر إلى دمشق لاستيلاء الفرنج على الأرض المقدسة، كان إمامًا فاضلًا زاهدًا، توفي سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م. للمزيد انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٥، ص٢٥؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص٢٤٩؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٧٧؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٤٧.

(٤) **البقاع**: جمع بقعة، موضع يقال له بقاع كلب، قريب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق.انظر: ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع، ج١، ص٢١١.

(٥) **داريا**: قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع ، ج٢، ص٥٠٩.

(٦) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج١، ص٢٧٣، ٢٧٤؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ١٧٩.

والأعياد[١]. مما يدل على عظم مساحة المدرسة وعظم الأوقاف التي رصدت لها لتستوعب هذا العدد من الفقراء.وشارك سلاطين المماليك في دعمها أيضًا؛ لذا رتب لها السلطان الأشرف قايتباي من قرية داريا كل سنة ستين غرارة قمح، بالإضافة إلى عشر محصول القمح في البقاع[٢].كما خصصت ربع أوقاف المدارس تقديم الطعام والمال أيضًا، ففي المدرسة التي أنشأها نائب دمشق سيباي، رتب ثلاثين صوفيًّا، وخُصص لكل واحد منهم رغيفان يوميًّا، وعشرون درهمًا شهريًّا[٣].

المؤسسات الصوفية:

وساهمت المؤسسات الصوفية برعاية الفقراء اجتماعيًّا وعلميًّا في العصر المملوكي بشكل كبير، وذلك لتشجيع السلاطين والأمراء وأهل الخير واليسار، فازداد عددها في عصرهم، فحرص سلاطين المماليك على زيارة الصوفية؛ لاعتقادهم أن هذا يقربهم من الله، ويستجلب لهم البركة بدعاء شيوخها لهم. فمن خلال هذه الزيارات يحصل للمقيم فيها من الفقراء بذل الصدقات، وزيادة في إيراداتها، فقد اجتمع السلطان برسباي مع شيخ الخانقاه الباسطية سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، وأمر بزيادة إيراداتها[٤].

وكان لشيوخ الصوفية مكانة كبيرة لدى سلاطين المماليك فعمدوا إلى بناء الزوايا لشيوخهم، وارتبط اسمها بكبار الشخصيات، كالسلطان الظاهر بيبرس الذي بنى زاوية للشيخ خضر[٥]عند زيارته لبيت المقدس سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م ورتب لها مالاً يجري على

---

(١) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص٢٦٦- ٢٦٨؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٧٧-٨٧؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٤٤-٢٤٨.

(٢) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص٢٦٧.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١،ص٣٢٠؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ١٧٩.

(٤) ابن طولون، القلائد، ق١، ص٢٧٤، ٢٧٥ .

(٥) **الشيخ خضر بن أبي بر المهراني**: شيخ الملك الظاهر بيبرس، كان حظيًّا عنده مكرمًا لديه له عنده المكانة الرفيعة كان السلطان ينزل بنفسه إلى زاويته التي بناها له في الحسينية في كل أسبوع مرة أو مرتين وبنى له عندها=

الفقراء المقيمين بها والواردين إليها[١].

واتخذت بيوت الصوفية في بلاد الشام ملجأ يلجأ إليه الفقراء والمساكين توزع فيه الأطعمة بالمجان فقد خصص منشئ الزاوية الداودية خلاوي كثيرة لإيواء الفقراء، وميضأة، ورتّب لهم فيها طعامًا من مختلف الألوان[٢].

وأثنى ابن طولون على الزاوية الملكية[٣] التي استمرت حتى عهده يطبخ الطعام بها كل ليلة سبت، وفي العيدين ورمضان يجتمع فيها الفقراء لتناول الهريسة[٤].

ومنهم من عَمَر الزوايا والخوانق والربط وأوقفها على الفقراء والمساكين، مثل عمر بن عبدالله بن عبدالنبي المغربي المصمودي المجرد، الذي عَمَر زاويته سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م وأوقفها على الفقراء[٥].

وساهم شيوخ الصوفية ببناء الزوايا لأنفسهم كزاوية عبد الله بن غانم المقدسي[١]، التي كانت ملجأ للواردين من الفقراء[٢]. وانتشرت أعداد كبيرة من الزوايا والخوانق في مختلف مدن الشام لفقراء المسلمين[٣].

=جامعًا يخطب فيه للجمعة، وكان يعطيه مالاً كثيرًا ويطلق له ما أراد ووقف له الأوقاف، وكان معظمًا عند الخاص والعام بسبب حب السلطان وتعظيمه له، كان له نفس مؤثرة مع سفه، تغيَّر عليه السلطان بعد شدة خضوعه له، مات في سجن القلعة سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٨٠٥؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب،ج٥، ص ٣٥١، ٣٥٢ .

(١) ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص٣٥٠.

(٢) **الزاوية الداودية**: أنشأها الشيخ أبو بكر بن داود الصوفي، المتوفى سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، ثم جاء ولده الشيخ عبدالرحمن زادها ووسعها وجعل لها الاوقاف والمرتبات السلطانية. انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٢٩٩؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٥٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٠٣.

(٣) **الزاوية الملكية**: إنشاء الشيخ تقي الدين أبي محمد عين الملك ابن الشيخ زين الدين رمضان الأخلاطي سنة ٦١١هـ/١٢١٥م، وزاد أوقافها ابنه أبو الصفا خليل سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م. انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص٣٠٤.

(٤) القلائد الجوهرية، ق١، ص٣٠٤.

(٥) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٣١.

=

ومنهم من أوقف داره طلبًا للأجر والثواب، فتشير إحدى الوثائق المؤرخة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م إلى شخص يُدعى جمال محمد، أوقف داره على الخانقاه الصلاحية، ويصرف ريعها على الفقراء المقيمين بها والواردين عليها، وقفًا صحيحًا مؤبدًا على ألا تباع أو توهب ولا تورث(٤).

وتعدّ الأربطة من المؤسسات الصوفية التي حرص الواقفون على إنشائها، ولا يشترط فيمن يقيم في الرباط أن يكون من فقراء الصوفية أو متبعًا إحدى الطرق الصوفية(٥).

ولسلاطين المماليك مساهمة كبيرة في هذا الجانب كالرباط المنصوري، الذي أنشأه السلطان المنصور وأوقفه على الفقراء سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م، ويتألف من عدد من القاعات من الغرف والخلوات(٦).

وساهم وقف الشيخ مجد الدين الموصلي صاحب المدرسة السلامية بتخصيص الربع من ريع أوقافه ليصرف في ثمن خبز يفرق على فقراء الرباط المنصوري(٧).

=(١) **عبد الله بن غانم أبو محمد المقدسي**: كان من أعيان المشايخ، مشهورًا بالخير والعبادة ومكارم الأخلاق. انظر: اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٥١.

(٢) العيني ، عقد الجمان، ج٢، ص١٢٢.

(٣) للمزيد عن أوقاف الزوايا انظر: ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص ٣٧، ٤٢، ٤٣.

(٤) وثيقة رقم ٥٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس انظر: الغوانمة، بيت المقدس، ص ١١٣.

(٥) ابتسام عبد القادر اليماني، الربط والزوايا والخانقاوات عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٠٢.

(٦) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٩. وانظر ايضًا: كرد علي ، خطط الشام، ج٦ ،ص١٤٩؛ العسلي، معاهد العلم، ص ٣١٨؛ العارف، المفصل، ص٢٤١.

(٧) ابشري والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص ٣٣.

ومنهم من خصص ريع أوقافه لإطعام الفقراء، ففي وقفية رباط علاء الدين النصر المؤرخة سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م حدد مصارفها كما يلي: "يصرف ثمن خبز سميط على الفقراء والمساكين الواردين في هذا الرباط، لكل فقير رطلان من الخبز المذكور"[١].

ومن العرض السابق لوثائق الأوقاف نجد معظم الصدقات التي يخرجها السلاطين والأمراء والعامة في الأوقات العادية تتركز على شراء الخبز وتوزيعه، بينما اقتصر توزيعهم للحوم في المناسبات والأعياد إلا فيما ندر، مما يظهر لنا أن طعام الفقراء كان يتكوّن بصورة أساسية من الخبز المنتج من القمح، فقد كان من أهم متطلبات الفقراء، وأهم ما يقدم إليهم، بل كان هو الطعام الأساسي الذي يعتمدون عليه في حياتهم.

ومن وجوه البر الوقفية كسوة الفقراء والضعفاء، منها على سبيل المثال وقفية زينب بنت شمس الدين الصابوني، المؤرخة في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، اشترطت أن يشتري من ريع الوقف في كل سنة ثوبين خام قطن يعملهما قمصانًا تفرّق على الفقراء والمساكين[٢].

ومن خلال الاعتماد بصورة أساسية على المعلومات المستخرجة من وثائق الأوقاف كنموذج لملابس الفقراء فإنها تنحصر في جبة قطنية وقميص ومنديل ومداس.

وكان بعض الفقراء يستعين بالقضاء، ويطالب بحقه في توفير سكن خاص له؛ ومما يدلل على ذلك ما جاء في إحدى الوثائق سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م: أنّ أحد الصوفيّة، ويُدْعى إبراهيم الناصري طَلَب من قاضي القُدس أن يُكون له سكنًا بالرباط المذكور، فوافق القاضي على طَلَبِه في حالة وجود مكان شاغِر، حيث كان الرِّباط يستوعب عشرين صوفيًّا[٣].

---

(١) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص٢١.

(٢) آيدين أوزقان، سجل الأوقاف في مصر وخلال العهد العثماني حسب الدفتر٨٦٢ (تاريخه من ٩٣١-٩٤١هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٥م (المحفوظ في مكتبة أتاتورك باستانبول)، استانبول، وقف الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إيسار ISAR)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٣٦؛ شيخة الدوسري، أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي، مركز باحثات لدراسة المرأة، الرياض، ١٤٣٧ه، ص٢٥٢.

(٣) العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (١٠أ)، (١٠ب)، م١، ص٢٠٩-٢١٣.

ربما يكون وراء طلب هذا الفقير من القاضي أن يلتحق برباط المنصوري أهـــداف أخرى؛ لأنه كما هو متعارف عليه أن ما يحكم تلك المؤسسات هو كثرة أو قلة أوقافها، والرباط المنصوري معروف بريعه المرتفع، ويدلل على ذلك ما ذكر في الوثيقة الأولى (أن يُكوِّن له سكن بالرباط المذكور)، أي أنه من اختار الرباط بنفسه؟!!

وجاء كذلك في إحدى الوثائق في سَنَة ٧٧٧هـــ/ ١٣٧٥م: أنّ أحد الصوفيّة تقدَّم بطلب إلى القاضي الشافعي بالقدس، باعتباره مسؤولاً عن الأوقاف يطلب فيه صدقةً من الرِّباط المنصوري؛ لأن له " عائلة ولم يكن له مرتَّب الدرهم الفرد، وهو مِن أهل الاستحقاق"، وعلى هذا الأساس فقد طلب إلى القاضي أن يصرفَ له رطل خبز كلّ يوم، وبعدَ التحقق مِن حاله، قرَّر له القاضي"في كل يوم أربعة أرغف"[(١)].

ومن خلال ما ذكر في الحادثتين السابقتين نستشف أنه على الرغم من كثرة المؤسسات الدينية والاجتماعية التي أوقفت على المحتاجين، إلا أنه وُجد فقراء بلا مأوى وبلا صدقة مرتبة لهم، وبعد البحث عن الوضع الاقتصادي في سنة ٧٧٧هـــ/ ١٣٧٥م، أكدت المصادر إلى ارتفاع الأسعار في بلاد الشام في تلك السنة حتى بيع رطل الخبز الحلبي بثلاثة دراهم، ثم اشتد بهم الحال حتى أُكِلَتِ الميتة، وباع بعض الناس أبناءهم، وبلغ سعر غرارة القمح بدمشق خمسمئة درهم[(٢)]، وربما هذا ما دفع هذا الفقير إلى اللجوء إلى القضاء طلبًا للمساعدة.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن نسبة الفقر تزيد زمن حدوث الكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة وارتفاع الأسعار؛ مما يـــؤدي إلى آثـــار بالغـــة في الحيـــاة الاجتماعية بشكل واضح، ولاسيما انتشار الفقر والجوع بين الناس، ويصـــبح النـــاس عاجزين عن تلبية متطلبات الحياة الضرورية هذا من جانب، ومن جانب يسلط الضـــوء

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، م١، وثيقة رقم (١٣أ)، ص ٢٠٩-٢١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٢، ص٤٨١؛ ابن العراقي، أحمد بن عبد الـــرحيم (ت ٨٢٦هـــــ/ ١٤٢٢م)، الذيل على العبر في خبر من عبر، تح: صالح مهدي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـــ/ ١٩٨٩م، ق٢، ص٤٠٢؛ ابن حجر، أنباء الغمر، ج١، ص١٠٤.

على موقف الدولة المملوكية نحو الفقراء ومد يد العون والمساعدة لهم في تلك الظـــروف الصعبة .

■ **توفير الميـــاه :**

واهتم السلاطين المماليك بتوفير المياه في أغلب أماكن في بلاد الشام؛ لتسهيل حصول الناس على مياه للشرب، ففي سنة ٧١٣هـــ/ ١٣١٣م أرسل السلطان الناصر قلاوون إلى نائب حلب سيف الدين سودون[(١)] لحل مشكلة قلة المياه في حلب، فبذلت الجهود، وحفرت قناة من نهر الساجور إلى نهر حلب، وبرغم من وفاة سودون قبل أن يرى تكلل جهوده بوصول الماء إلى حلب إلا أن تلك الجهود قد مهدت السبيل لهذا المشروع الخير، الذي سيعم أثره على فئات كثيره من المحتاجين[(٢)].

وكانت الرغبة في توفير ماء الشرب للعطشى كانت تزداد في الأماكن المقدسة طلبًا لمضاعفة الثواب؛ فقد حظي القدس الشريف بعناية الخيرين من حكام المسلمين، وخاصةً أن مدينة بين المقدس قليلة المياه، تُجلب إليها عن طريق عدة قنوات أهمها قناة السبيل، ففي سبيل تأمين المياه إلى القدس وتوزيعها قامت الدولة المملوكية بإجراءات تعمير متكررة في قناة السبيل التي كانت تحمل المياه من العروب[(٣)]إلى القدس[(٤)]، وكان من بين

(١) **سيف الدين بن سودون:** هو سودون بن عبد الله، الأمير سيف الدين نائب حلب، من مماليك الناصر محمد بن قلاوون، توفي سنة ٧١٤هـــ/ ١٣١٤م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢٦؛ الذهبي، من ذيول العبر، ج٦، ص٧٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٩، ص٢٢٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٢٨.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢٦؛ الذهبي، من ذيول العبر، ج٦، ص٧٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٢٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٢٨؛ الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٥٨.

(٣) **العرّوب:** اسم قريتين بناحية القدس. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١١٢؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٣٤.

(٤) العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٨٢م، ص١٤٧؛ علي السيد علي، دراسات حول مدينة بيت المقدس في وثائق الحرم القدسي الشريف، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٤هـــ/ ٢٠١٣م، ص٢٢٤.

من عمَّر قناة السبيل الظاهر بيبرس، والسلطان الناصر بن قلاوون بواسطة نائبه في بلاد الشام تنكز، الذي أشادت المصادر المملوكية بالانجاز الكبير الذي قام به في سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، إذ أصدر أوامره إلى ولاة النواحي التابعة لنيابته بتوفير الأيدي العاملة، وأمد المشروع بالأموال والنفقات اللازمة، واستغرق العمل في هذا المشروع عامًا كاملًا، وفرغ منه سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٣٨م، إذ وصلت القناة داخل الحرم، وصارت مياه العروب تجري فيها وتصب في حوض غطيت أرضيته وجوانبه بالرخام يقع بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة [(١)]. ويذكر النويري في أحداث سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م، أن نائب دمشق سيف الدين تنكز عمر في تلك السنة تسعًا وعشرين قناة[(٢)].

وقد استمرت رعاية سلاطين وأمراء المماليك لهذا المصدر طوال العصر المملوكي، فيذكر المقريزي في حوادث سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م أن السلطان برقوق أمر بعمارة قناة العروب لإيصال الماء إلى القدس[(٣)]، كذلك شرع السلطان الظاهر خشقدم في عمارة العين الواصلة من العروب إلى القدس، وأُكْمِل العمل في القناة سنة ٨٨٨ه/ ١٤٨٤م، في عهد السلطان الأشرف قايتباي، فدخلت مياه عين العروب إلى القدس وزينت المدينة ثلاثة أيام، وقد أنفق السلطان في عمارتها أموالًا طائلة[(٤)].

وأبدى العليمي إشارات عن مدى فرح السكان وحماستهم، حيث كان يتوجه أعيان بيت المقدس وأكابرها لمكان المشروع الذي يعمل به مئتي عامل، ومعهم أنواع المأكول كالعسل والسمن والغنم وغير ذلك[(٥)]. ومن المعلوم بأن توفير الماء يخدم جميع شرائح المجتمع، خاصة الفقراء والمساكين هم أكثر الناس تضررًا من شح المياه وغلوّ ثمنه.

ومن الوقفيات التي تثير الانتباه وقفية مؤرخة سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م، وكان من

---

(١) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٢٧٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) نهاية الأرب، ج٣٣، ص٢٦٧.

(٣) السلوك، ج٥، ص١٦٠.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٣٠؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص١٤٨.

(٥) الأنس الجليل، ج٢، ص٣٣٠.

شروط الواقف: "في كل ليلة جمعة سبعة دراهم تصرف ثمن فاكهة تصرف على الفقراء، وثمن ماء عذب في كل شهر ثمانية دراهم تسقى على باب الجامع"[(١)].

مما يدل على مدى ما اتسمت به تلك الأوقاف من بذل وجهد لإدخال الفرحة لهؤلاء الفقراء بحصولهم على فاكهة وماء عذب أسبوعيًّا.

- **توفير الرعاية الصحية:**

نال المرضى من الفقراء والمحتاجين قدرًا كبيرًا من الرعاية الصحية، بإنشاء البيمارستانات التي قدَّمت خدمات جليلة للمرضى، تتمثّل في علاجهم وإطعامهم ومتابعتهم، وقد بادر سلاطين الدولة المملوكية إلى تشييد كثير من البيمارستانات لمعالجة المرضى، وكانت لهم مساهمات مالية سخية لخدمة هذا الفئة الضعيفة في حالة المرض، منها تبرّع داود بن المقر السيفي درداس الخاصكي،كافل المملكة الحموية سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م للضعفاء المقيمين في المارستان الحموي في كل شهر مئة درهم، لاغتنام الأجر والدعاء[(٢)].

فالفقراء في وقت المرض يكونون أحوج الناس إلى المال؛ لأن الفقير يعمل ليجد قوت يومه، فإذا حصل له مانع من العمل كالمرض كان أحوج الناس للمال ليعيل نفسه وأسرته، فكان هذا الدعم المالي لمسة إنسانية من قبل النائب الحموي.

ومِن الأضواء الجديدة التي تُلقيها الوثائق على بعضِ المنشآت الاجتماعية الحمامات، حيث حرصت أن ينال الفقير نصيبه من النظافة والعناية، فتشير إحدى الوثائق المؤرخة في سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م، إلى حمام كان جاريًا في أوقاف الخانقاه الصلاحية بالقدس، وأنّه تَمَّ تأجيرُ هذا الحمام لمدة سَنَة على أن يدفع المستأجر الإيجار يوميًّا عن كلِّ يوم يمضي مِن تاريخه ثلاثة عشر درهمًا، يدفع منها عند غروب شمس كلّ يوم من يوم تاريخه عشرةَ دراهم، بينما ثلاثة الدراهم الأخرى تُخصم نظيرَ دخول الصوفية واغتسالهم في

---

(١) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص ٧٠.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٦١-١٦٢.

الحمّام المذكور[١].

فلم تستثنِ الأوقاف حقّ الفقراء في دخول الحمامات والتمتع بنوع من الرفاهية، وهي في الوقت نفسه نوع من أنواع الرعاية الصحية، من خلال النظافة.

وبعد هذه الجولة السريعة في حياة الفقراء وعلى الرغم مما سبق ذكره من رعاية واهتمام من قبل السلاطين والأمراء وأهل الخير، وعلى الرغم من الدور الأساسي والمحوري الذي أدته الأوقاف في دعم المؤسسات التعليمية والاجتماعية والدينية وتمويلها في العصر المملوكي، حيث اعتبر الوقف قربة من القربات التي دعا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية برًّا بالفقراء والمساكين ورعاية لمصالح المسلمين، وفي سبيل ذلك رصد كثير من الأموال، وأوقفت أيضًا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الخصبة، وكثير من العقارات، وغير ذلك من أنواع الصدقات والهبات من توفير خدمات كثيرة ومتنوعة للفقراء إلا أنه لا يمكننا أن نسلم بصورة كاملة أنه لا يوجد فقير جائع، وأن نسبة الفقر في ظل الدولة المملوكية نسبة منخفضة؛ بدليل ما نقرأه في المصادر المملوكية عن الوضع المتردي للفلاحين ، وكثرة المكوس والضرائب. فليس الهدف من هذا البحث هو تلميع صورة السلاطين والأمراء المماليك بقدر ما هو الوصول إلى حقيقة وضع المحتاجين في زمنهم، ومدى الرعاية التي وجهت لهم، وهذا يقودنا إلى أسباب انتشار الفقر فلكل دولة إيجابياتها وسلبياتها، خاصة أن فترة حكم المماليك فترة طويلة استمرت تقريباً ٣٠٠ عام تخللها أحداث جسيمة؛ وتقلبات في السلطة، وحروب، وأزمات اقتصادية، وكوارث طبيعية؛ فمن الطبيعي أن تؤثر هذه العوامل في انتشار الفقر على الرغم مما سبق ذكره من تقديم خدمات وإعانات كبيرة للفقراء والمساكين. وسأكتفي في هذا المبحث بهذا القدر. وأبسط الحديث عن وضع الفئات المحتاجة زمن الأزمات والكوارث في العصر المملوكي في الفصل القادم.

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية ، رقم الوثيقة (٤٦)، م١، ص٢٤٥- ٢٤٦.

المبحث الثالث

العلماء وطلاب العلم المحتاجون

كان يطلق على فئة العلماء فئة المتعممين، وهي أعلى وأرقى طبقة في المجتمع بعد طبقة المماليك، وتتألف هذه الفئة من الفقهاء[١] والعلماء والأدباء وأهل التصوف وطلاب العلم والمدرسين والقضاة والوعاظ [٢].

وكان يحظون من سلاطين المماليك بالإجلال لعلمهم وفضلهم، وتقديرًا لدورهم المميّز الذي يمارسونه في رفعة الأمة، وخدمة المجتمع وتثبيت معالم الحكم[٣].

وكان من مظاهر سياسة المماليك تقريب العلماء، والمتصوفة منهم بالذات، لمعرفة الساسة المماليك بمدى تأثير العلماء والتصوف في المجتمع آنذاك، بسبب نفوذهم المباشر في الرأي العام، ليس باعتبارهم أئمة المسلمين فحسب، بل نتيجة احتكاكهم المباشر بطبقات المجتمع واختلاطهم بهم من تجار وأصحاب حرف، فضلاً عن اتصالهم بالطبقة الحاكمة من المماليك[٤].

وليس مجالنا في هذا المبحث الحديث عن إسهامات علماء تلك الحقبة من الزمن بقدر ما يهمنا أن نتلمس حاجات العلماء وطلاب العلم ومدى الرعاية التي نالتها تلك الفئة في ظل الدولة المملوكية، في محاولة لرصد أهم مظاهر الرعاية التي حظيت بها هذه

---

(١) **الفقهاء:** تطلق صفة على الطلبة، فيقال: فقهاء المدرسة؛ أي طلابها، حيث يذكر السبكي بأن عليهم استيعاب الدروس بالتدرج، وعدم تحميل أنفسهم أكثر من طاقتها وعدم التحدث بعضهم مع بعض في أثناء القراءة، وعدم الجلوس بعيدًا عن المدرس، وعدم المطالعة في كتاب وهو في الدرس. انظر: السبكي، معيد النعم، ص٨٥.

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤، ص٤٣-٤٥.

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٣٤١.

(٤) أبي حامد القدسي، محب الدين بن خليل (ت٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، دول الإسلام الشريفة البهية (وذكر ما ظهر لي من حكم الله الخفية في جلب طائفة الأتراك إلى الديار المصرية)، تح: صبحي لبيب وأولريش هارمان، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١١٠.

الفئة، والتي مثلت دافعًا لهؤلاء الطلاب في المضي قُدمًا في طريق العلم ونشره.

فمن خلال دراسة مصادر العصر المملوكي والبحث عن تراجم كثير من العلماء نستشف حقيقة كثير ممن سطع نوره في مجال العلم، بينما نجد من ناحية أُخرى مدى الحاجة والعوز الذي كان يعيشه في حياته اليومية، وهذا الأمر لفت انتباه المؤرخ شهاب الدين الدلجي، أحد مؤرخي القرن التاسع الذي ناقش ظاهرة التلازم بين العالِم والفقر في كتابه الذي أسماه (الفلاكة والمفلوكون)[١]، وقد أرجع التصاق الفقر بالعلماء من وجهة نظره إلى عدة أسباب، منها:

أن كثيرًا من المهن لا تناسب أهل العلم، كالإمارة والتجارة، وبعض الحرف كالصناعة والفلاحة التي تلزم في نظره إلى "المهانة والتلوث برذائل الحيل الدنيوية، وأهل العلم لهم أنفة واستنكاف عن ذلك"[٢].

ومنهم من كان مختصًّا بأصحاب علوم الأوائل من الحكمة والفلسفة والطبيعة والمنطق والجدل والطب والتصوف الممزوج بالفلسفة، وعلى الجملة فمن تضلع في هذه العلوم وحدها، ولم يكن له خدمة لما في الكتاب والسنة من الأحكام والمعارف، ولا تضلع في الفقه [٣]فقد كان مصيره، كما يرى الدلجي أنه" أنكفَ الناس عن إسعافهم بمرادهم، وأخذوا في طعنهم وتنقيصهم، وربما رموهم بالزندقة والإلحاد، فتستحكم الفلاكة فيهم"[٤].

---

(١) الدَّلْجي، أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين المصري (ت ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)، الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر، د.ط،١٣٢٢هـ . ومعنى "الفلاكة" هو الفقر والعوز، والمفلوكون هم الفقراء، توجه فيه الإمام أحمد بن علي الدلجي إلى أقرانه من العلماء والناس المفلوكين، فذكر المؤلف في الكتاب معنى المفلوك، وأنه لا حجة للفقير أن يتعلق بالقضاء والقدر ولا يعمل، وذكر الآفات التي تنشأ من الفقر، ومن ثم ذكر تراجم للعلماء الذين تقلصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل، وأورد فصلاً في أشعارهم، وختم كتابه بوصايا للفقراء تعينهم على حياتهم.

(٢) الدلجي، الفلاكة، ص٣٦.

(٣) الدلجي، الفلاكة، ص٣٧.

(٤) الفلاكة والمفلكون، ص٣٧.

وأشار أيضًا إلى قضية التصوف بقوله: "وهو مختص بأصحاب علوم الأوائل أيضًا أنهم يرون أن لا كمال إلا التحلّي بالمعارف والاطلاع على النكات والحقائق والوقوف على الأسرار والدقائق، وإن الكمالات الخارجية من المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها"[(١)].

فهؤلاء العلماء اختاروا طريق الزهد والفقر بأنفسهم فهم يرون بأن المال والجاه خيالات باطلة لا كمال فيها.

ومن الأسباب المهمة التي تطرق إليها طول المدة الزمنية التي يسلكها طالب العلم حتى يستطيع أن يكّون لنفسه قاعدة جماهيرية و اسماً لامعاً بين كوكبة علماء عصره، فقال: " أن رواج العلماء إنما هو لعلمهم، كما أن رواج أرباب الحرف إنما هو لحرفهم، ولكن العلم بطيء الحصول وليست كل الطباع تقبله، والجزء الغالب عليه الوهب من الله لا الكسب، فطائفة من العمر تنقضي في تحصيل متنه وطائفة من العمر ثانية تنقضي في تصوره وأخذه عن الشيوخ، وطائفة ثالثة في تحقيقه" [(٢)].

هذه جملة من الأسباب التي تطرق إليها الدلجي[(٣)]، وقد أفرد فصلاً كاملاً من كتابه لعلماء عرفوا بالفقر والحاجة، منهم على سبيل المثال لا الحصر: العالم يحيى بن شرف بن مري النووي (ت٦٧٦هـ/١٢٦٩م)؛ فإنه كان لا يأكل إلا أكلة بعد عشاء الأخيرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر، ولا يشرب الماء المبرّد، وكان لا يدخل الحمام، ولم يتزوج، وملبسه الثياب المرقعة[(٤)] .

---

(١) الفلاكة والمفلكون، ص٣٧، ٣٨ .

(٢) الفلاكة والمفلكون ، ص٣٩.

(٣) لا يتسع المقام للإسهاب في ذكر جميع الأسباب التي فصلها الدلجي في فقر العلماء. للاستزادة انظر: الفلاكة والمفلكون، (الفصل الخامس في أن الفلاكة والإهمال ألصق بأهل العلم وألزم لهم من غيرهم وبيان السبب في ذلك)، ص ٣٦-٤١.

(٤) الفلاكة والمفلكون ، ص١٢٠.

وكذلك الحافظ المزي (ت٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)[١] "كان منقبضًا عن الناس طارحًا للتكلف فقيرًا"[٢].

والحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي[٣]، كان بحرًا في الحديث. ونقل عنه حكاية نخرج منها أنه كان في غاية الفقر، وملخصها أن الحال أعوزته وهو يكتب الحديث، و لم يبق معه غير درهم، وهو محتاج إلى كاغد[٤] وإلى خبز، فتردد بين الأمرين يومين، فلما كان اليوم الثالث قال: لم يبق إلا الخبز فإني إن اشتريت به كاغدًا لا أقدر على النسخ لأجل الجوع، فوضعه في فِيهِ وخرج ليشتري به، فاتفق إنه ابتلعه فأخذه الضحك، فلقيه صديق له فسأله عن سبب ضحكه فكتمه إياه، فألَحّ عليه فامتنع، فحلف عليه ليخبرنه الخبر، فأخبره بالحال فحمله إلى البيت وتسبب له في دراهم كثيرة[٥].

ومن خلال استقراء كتب التراجم في العصر المملوكي نطّلع على حال كثير من علماء المسلمين ممن عانوا من الفقر والعوز، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

منهم من كان يشجع على الاشتغال بالعلم منفقًا على الطلبة من ماله الخاص؛ مما أدى إلى أن يتأثر وضعه المالي،كالشيخ برهان الدين أبي إسحاق العجلوني المقدسي الشافعي(ت٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)[٦] فقد ذكر أنه انتمى إليه فقراء الناس لإقرائهم،

---

(١) **المزي**: أبو الحجاج جمال الدين يوسف الحلبي المعروف بالمزي، وانتهت إليه الرحلة من أقطار الأرض، كان إمامًا في اللغة والتصريف، صنف "تهذيب الكمال في أسماء الرجال" "وكتاب الأطراف"، ودرس بدار الحديث. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٢٧؛ ابن رافع السلامي، الوفيات، ج١، ص٣٩٦؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٥٢١.

(٢) الدلجي، الفلاكة، ص٨٠.

(٣) **الحافظ المقدسي**: محمد بن طاهر ابن علي بن أحمد، أبو الفضل القيسراني المقدسي، الجوال، الرحال، سمع بالقدس، ومصر، والحرمين، والشام، والجزيرة، والعراق، وأصبهان، وغير ذاك من المدن الإسلامية، صنف المصنفات في الحديث. للمزيد عن سيرته انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٣٦١-٢٧١.

(٤) **الكاغِد**: جمع كواغدُ، وهو القرطاس. انظر: المعجم الوسيط، ج٢، ص٧٩١.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٣٦٧؛ الدلجي، الفلاكة، ص١١٠.

(٦) **الشيخ برهان الدين أبو إسحاق العجلوني المقدسي**: كان من أهل العلم والإفتاء، ومن أعيان الشافعية في بيت المقدس، جمع بين الاشتغال بالعلم والتجارة، توفي سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٢٠٢؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١١.

فأقرأهم، وكان ينفق عليهم من ماله الخاص، فافتقر بعد أن بذل ماله في سبيل العلم والتعليم[(١)].

ومنهم من عانى الفقر الشديد برغم توليه مناصب رفيعة في الدولة، كالقاضي ناصر الدين محمد الحموي المعروف بابن اللبودي، فقد ذكر أنه ناب في الحكم مدة زمن السلطان المؤيد، وعندما قدم إلى دمشق رتب له قاضي دمشق شيئًا لأنه كان فقيرًا. وكان له تصدير في الجامع الأموي، وبرغم ذلك يكرر النعيمي بأنه :"كان فقيرًا جدًا"[(٢)].

ومنهم من كان همه الاشتغال في تحصيل العلم والعمل على نشره تبرعًا، مثل الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن أرسلان الرملي المقدسي الشافعي، الذي رفض أن يلي مشيخة مدرسة الأمير حسام الدين[(٣)]، وكان قد قرر له عشرة دراهم فضية يوميًّا، فأبى ذلك[(٤)].

ونرصد فيما يلي أهم مظاهر الرعاية التي نالها العلماء وطلاب العلم في العصر المملوكي:

١- تشييد المؤسسات التعليمية:

سار المماليك على نهج منْ سبقهم بالاهتمام ببناء المدارس، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر القلقشندي حتى وصفهم بأنهم " بنوا من المدارس ما ملأ الإخطاط وشحنها"[(٥)] .

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص١١-١٢.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٤٧.

(٣) **الأمير حسام الدين الشهير بالكشكلي الحنفي**: ناظر الحرمين ونائب السلطة، عمر المدرسة الحسينية المعروفة بباب الناظر سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. انظر : العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٧٥.

(٤) شهاب الدين أبو العباس احمد بن الفقيه أمين الدين حسين بن حسن بن علي بن يوسف بن علي بن أرسلان الرملي المقدسي الشافعي: اشتغل في كبره وحصل بقوة ذكائه وفهمه، رحل من الرملة إلى القدس الشريف، وأقام بالزاوية الختنية وراء قبلة المسجد الأقصى الشريف، وألف كتبًا في الفقه والنحو وغير ذلك، وكان متواضعا زاهدا له قدم عال في التهجد والعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توفي سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٨؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٧٤.

(٥) صبح الأعشى، ج٣، ص٤١٦.

وكانت بلاد الشام محط أنظار سلاطين المماليك لحاجتها الماسة لإعادة ما تم تدميره من مؤسسات دينية واجتماعية بعد الحروب التي تعرضت لها من قبل الصليبيين وهجمات التتار، فكان من أوليات الظاهر بيبرس إعادة إعمار ما خلفته تلك الحروب مما نتج عن بناء كثير من المؤسسات الدينية والاجتماعية، والتي عدَّ ذلك من حسناته[1].

وعمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلاد الشام المؤسسات الدينية وأوقف عليها، وخَصّ مدن فلسطين كصفد والقدس ونابلس بتلك الإسهامات، وعمر بالقدس رباطًا جليلاً[2].

ومن السلاطين الذين زاروا القدس، وأسهموا في دعم المؤسسات التعليمية حرصًا منهم على خدمة العلماء وطلاب العلم السلطان الناصر فرج، الذي زار بيت المقدس وأغدق أموالاً جزيلة في المدرسة التنكزية بالقدس[3].

وعمر السلطان الأشرف برسباي كثيرًا من الأوقاف في القدس والشام، وأصدر مراسيم بصرف الأموال على الصخرة المشرفة، وكتب اسمه على الرخام فيها[4].

وكانت المدرسة في ذلك الوقت مؤسسة كاملة تشتمل على المكان المعدّ لإلقاء الدروس، والمسكن الذي يبيت فيه الطلاب والمدرسون، والرواتب التي تغنيهم عن طلب الدنيا وتضمن انقطاعهم لطلب العلم، مع توفير المدرسين الأكفاء المتفرغين لتعليم الطلبة، وخزانة الكتب التي يرجع إليها المدرسون والطلاب، ولاسيما الفقراء منهم، ولذلك رتب لكل مدرسة بعض الأراضي والعقارات للصرف من ريعها على مصاريفها ودفع رواتب المدرسين والطلبة وغيرهم من العاملين فيها[5].

ومن سياسة المماليك الدينية دعم الصوفية،كما أسلفنا، خاصة أن التصوف يلقى

---

(١) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١١٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٦.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٥.

(٥) عبد العاطي، التعليم في مصر والشام، ص٦١.

قبولاً عند عامة الناس، ويؤثر فيهم تأثيرًا كبيرًا، لذلك كانت سياسة المماليك الدينية واضحة في مجال التصوف، فأنشأوا الزوايا والربط والخانقاوات والترب، وأغدقوا عليها الأموال والطعام، وشحنوها بالقراء والمتصوفة وطلبة العلم، وجعلوها مراكز إيواء للفقراء والمساكين وعابري السبيل، من الغرباء والمهجرين[١].

وكانت هذه المؤسسات تنشر العلم والتعليم أيضًا بين الفقراء، فكانوا يحرصون أن يتلقى الفقير قسطاً من التعليم الديني واللغة العربية، فهي تحتوي على غرف لتدريس القرآن الكريم، وأُخرى لتحفيظه[٢]، منها التربة الطازية التي أطلق عليها مجير الدين العليمي لفظ مدرسة[٣] لاشتهارها بالتعليم، وقد درس فيها جماعة من الشافعية أكثرهم من آل القلقشندي[٤].

ومن خلال استقراء المصادر المملوكية سنلقي الضوء على المؤسسات التي أنشئت في المدن الرئيسة في بلاد الشام في العصر المملوكي، في محاولة لرصد الحركة العلمية آنذاك.

(١) عبد المهدي، المدارس، ج٢، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق دمشق، ص٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٣.

(٣) المدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٤٥.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٧٣-٣٧٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥؛ سليمان اسحق عطية، تاريخ التعليم في فلسطين على عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة،١٩٥٧م، ص٣٢.

عدد المؤسسات التعليمية في دمشق في العصر المملوكي

المؤسسة التعليمية	الأربلي[١]	النعيمي	المؤسسات التي أنشئت في العصر المملوكي	ملاحظـــــــات
دور القرآن[٢]	٢	٧	٦	من خلال ترجمة نائب الشام سيف الدين تنكز نجد أنه أنشأ دار للقرآن[٧][٣]
دور الحديث[٤]	٢٢	١٨	١٦	
الدور المشتركة[٥]		٣	٣	
مدارس الشافعية[٦]	٤٣	٥٧	١٦	
مدارس للحنفية[٧]	٣١	٥١	٧	
مدارس المالكية[٨]	٤	٤	١	
مدارس الحنبلية[٩]	١٠	١٠	١	
مدارس الطب[١٠]	٣	٣	٣	ذكر كرد علي أن عدد مدارس الطب(٤)

---

(١) الأربلي، الحسن بن أحمد (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، مدارس دمشق وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، م٢٢، ج٥- ٦، ص٢٤١- ٢٤٦.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٧-١٤؛ كرد علي، خطط الشام، ص٦٩.

(٣) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٧١.

(٤) النعيمي، الدارس، ج١، ص١٥-٩٠؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٧١.

(٥) النعيمي، الدارس، ج١، ص٩٥.

(٦) النعيمي، الدارس، ج١، ص٩٦-٣٦١ ؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٧٥.

(٧) النعيمي، الدارس، ج١، ص٣٦٢-٥٠٠؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٨٨.

(٨) النعيمي، الدارس، ج٢، ص٣-٢٢؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٩٦.

(٩) النعيمي، الدارس، ج٣، ص٢٣-٩٩؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٩٦-٩٨.

(١٠) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٠٠-١٠٨؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٠٠-١٠١.

الخوانق[1]	٢٤	٢٦	٢٠	
الأربطة[2]	٢١	٢٣	١٩	
الزوايا[3]	–	٢٦	٢٥	

المدارس في بعض مدن الشام في العصر المملوكي

المدينـــــة	المـــــدارس		
حلب	الشافعية	الحنفية	المالكية و الحنبلية
	٢٠[4]	٢٤[5]	١[6]
حماة	٣[7]		
مدينة القدس	٥٠[8]		

وشهدت مدينة طرابلس حركة ملفتة للنظر في الإكثار من بناء المساجد الجامعة والمدارس، حيث زاد عددها في العصر المملوكي بشكل يندر مثيله إلا في أمهات المدن

(١) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١١٠-١٤٩؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣١.

(٢) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥٠-١٥٢؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣٤.

(٣) النعيمي، الدارس، ج٢، ص١٥٣-١٧٥؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٣٦.

(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٢٤١-٢٨٠؛ ابن الشِّحْنَة، أبو الفضل بن محمد (ت٨٩٠هـ/ ١٤٨٤م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تح: عبد الله الدويش، دار الكتاب العربي، سوريا، دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٣٤،٢٣٣.

(٥) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٢٨١-٢٨٥.

(٦) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٢٨٦

(٧) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ١٢٤.

(٨) العليمي، الأنس الجليل، ج ٢، ص٣٨٥-٤٨٩؛ كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٢٣؛ علي منصور نصر شهاب، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة (١٦٩)، الحولية (٢٢)، ٢٠٠٠- ٢٠٠١م، ص١٥.

الإسلامية، وتسابق نواب السلطنة الذين تولّوها في بناء المساجد والمدارس والزوايا.[(١)].

وكان تمويل هذه المؤسسات يعتمد في الأساس على ما تدره الأوقاف في ذلك العهد، لكي يضمن المماليك دخلاً ثابتًا للمؤسسات التي ينشؤها، فكان يُوقَفُ عليها أوقافٌ تكفي للإنفاق على الفقهاء المدرسين والدارسين[(٢)].

حيث وصل ريع الحصيلة المالية لأوقاف المدرسة العمادية سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، "من الدراهم ألف واثنتين وسبعين من الحوانيت جوار المدرسة" [(٣)].

ونقل لنا النعيمي وصف هذه المدرسة من حيث النفقة والأعطيات فقال: "بها إمامًا وله من المعلوم مئة درهم، وقيمًا وله مثل الإمام، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين في قراءة القرآن، ولكل واحد منهم ثلاثون درهمًا في كل شهر، ولشيخهم عشرة دراهم ومن شرط الإمام الراتب أن يتولى قراءة القرآن للجماعة، وله على ذلك عشرون درهمًا زيادة على معلوم الإمامية، وقرر لهم شيخًا وله من المعلوم ستون درهمًا في كل شهر، ورتب أيضًا قارئًا لصحيح الإمام البخاري في كل من شهر رجب وشعبان ورمضان، وجعل له من المعلوم مئة وعشرين درهمًا، وناظرًا وله من المعلوم في الشهر ستون درهمًا، وعاملاً وله من المعلوم في السنة ستمئة درهم، وجعل للشمع للإنارة وإمام التراويح مئة درهم، ولأرباب الوظائف الدينية خمسة عشر رطلاً من الحلوى، ورأسي غنم أضحية، ولكل يتيم جبة قطنية وقميصًا ومنديلاً في كل سنة، وعين فقيهًا في يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وله في الشهر ثلاثون درهمًا، وشرط على أرباب

---

(١) عمر تدمري، تاريخ طرابلس، ج٢، ص٢٥٨. وللمزيد عن مدارس طرابلس انظر: السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٤١٨-٤٣٤؛ عمر عبد السلام تدمري، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، دار البلاد، طرابلس، ١٩٧٤م، ص٣٣٥-٣٤٠.

(٢) ابن خلدون المقدمة، ص٤٥٣؛ سعيد عاشور، مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، بحث ضمن (بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته)، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٥١٦.

(٣) **المدرسة العمادية**: اختلف فيمن بناها ورجح النعيمي أن الذي بناها نور الدين، والواقف عليها صلاح الدين. انظر: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٣٠٨-٣١٣؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٣٣-١٣٤؛ كرد علي، خطط الشام، ص٨٥.

الوظائف حفظ حزب الصباح والمساء، يقرؤونه بعد صلاة الصبح والعصر، وان يكون الإمام هو القارئ على ضريح الواقف"(١).

وهذه المدرسة بما اشتملت به من أوقاف ضخمة، لهي نموذجًا يسلط الضوء على وضع المدرسين والطلبة في تلك الحقبة الزمنية، حيث أمَّنت لهم حاجاتهم من الناحية المعيشية، من مأكل ومال وكسوة وسكن، ونحو ذلك. وهذا بدوره مهد السبيل أمام كثير من الفقراء لطلب العلم.

٢- تقرير رواتب العلماء وطلاب العلم:

حرص سلاطين المماليك وأمرائهم على بناء المدارس، لدورها الفعَّال في خدمة العلم وطلابه، وتخريج نخبة من خيرة العلماء، وذلك أن تلك المدارس وبفضل توجيهات السلاطين كان يقوم عليها أكابر العلماء، والصفوة منهم في كل فن، مع تفرّغ طلابها تفرغاً كاملاً لطلب العلم وتحصيله، إذ كانت تجري عليهم الرواتب والأرزاق. ومن هنا حرصوا على رصد الأوقاف الكثيرة على المؤسسات التعليمية للصرف عليها من أجل استمرار العمل بصورة منتظمة، مما جعل عصر سلاطين المماليك أزهى العصور الإسلامية كافة في مجال وفرة الأوقاف خدمة للعلم والتعليم(٢).

وكان المستوى المعيشي للمدرسين يختلف حسب تعيينهم في المدارس، فمنْ كان يعيّن من قبل السلطنة تخصص لهم مرتبات شهرية منتظمة من خزينة الدولة، ففي عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، خصص السلطان قايتباي المحمودي لشيخ مدرسته الأشرفية في القدس راتبًا شهريًا قدره خمسمئة درهم وعشرة دراهم شهريًا(٣). وهذا الراتب يُعَدُّ مرتفعًا يجعل المدرس يعيش في بحبوحة من العيش، بينما نجد في مدارس أخرى أن راتبه لا يتجاوز عشرين درهمًا.

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٠٨-٣١٣.

(٢) حياة حجي، صورة من الحضارة العربية الإسلامية، ص١٥؛ محمد عثمان الخطيب، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، دار الكتاب الثقافي، إربد، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ٢٩.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٩٤.

وما يهمنا هنا هو الفئة الأخرى من المدرسين التي كانت يعيّنها أصحاب الأوقاف من أهل الخير، بمقتضى وقفيات تضمنت شروط الواقف لإنشاء الوقف وشروطه، فهذه الفئة كانت رواتبهم تتفاوت حسب إيرادات الوقف، فهي مرتبطة بريع الوقف، خاصة أن هذه الأوقاف كثيرًا ما تعرّضت للسلب في أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية كما ذكرنا في الحديث عن الأوقاف. ومن ناحية أخرى تحدد المرتبات حسب مكانة المدرس وحسب الناظر ولي الأمر، فإذا كان كريمًا أو عفيفًا أغدق على المدرسين والطلبة، أما إذا كان شحيحًا أو شرهًا قلَّ المرتب الذي يمنحه مهما كان ريع الوقف[١].

وسار على نهج السلاطين أهل الخير من النواب والميسورين من الأمراء والأميرات والتجار في بناء المدارس تقربًا إلى الله، وأوقفوا عليها الأوقاف، واشتُهر الأمير تنكز برعايته لكثير من الأعمال المعمارية في دمشق والقدس والخليل وباقي مدن فلسطين وغيرها، كان منها المدرسة التنكزية في القدس التي أسست سنة ٧٢٨ه/ ١٣٢٨م. ومن الاطلاع على شروط وقفها نجد جامكيات (رواتب) المدرسين وطلاب المدرسة على النحو التالي:

جامكيات (رواتب) وجرايات العاملين بالمدرسة التنكزية [٢] في بيت المقدس[٣]

المستفيد	(الراتب)الجامكية	الجراية (مواد عينية من خبز وغيره)
المدرس	٦٠درهمًا فضيًّا شهريًّا	رطل واحد من الخبز يوميًّا
المعيد[٤]	٣٠ درهمًا فضيًّا شهريًّا	ثلث رطل واحد من الخبز يوميًّا
الفقهاء والمنتهون	٢٠ درهمًا فضيًّا شهريًّا	نصف رطل واحد من الخبز يوميًّا

(١) جيده، المدارس ونظام التعليم، ص٢٣٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ٢٦١-٢٦٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص١٢.

(٣) وثيقة الأمير سيف الدين تنكز. انظر: العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص١٠٥-١٢١.

(٤) **المعيد**: هو رتبة بعد المدرس، وأصل موضوعه أنه إذا انتهى المدرس من الدرس وانصرف أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم ليفهموه ويحسنونه. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٤٢.

الفقهاء المتوسطون	١٥ درهمًا فضيًا شهريًا	نصف رطل واحد من الخبز يوميًّا
الفقهاء المبتدئون	١٠ درهمًا فضيًّا شهريًّا	نصف رطل واحد من الخبز يوميًّا
شيخ المحدثين	٤٠درهمًا فضيًّا شهريًّا	رطل واحد من الخبز يوميًّا
قارئ الحديث النبوي	٢٠درهمًا فضيًّا شهريًّا	نصف رطل واحد من الخبز يوميًّا
المحدثون	٧٠ درهمًا فضيًّا شهريًّا	رطل واحد من الخبز يوميًّا
شيخ الصوفية	٦٠ درهماً فضيًّا شهريًّا	نصف رطل واحد من الخبز يوميًا، ثلث رطل صابون، ثلث رطل زيت زيتون.
الصوفية	١٠دراهم لكل منهم شهريًّا	سدس رطل زيت زيتون، سدس رطل صابون، نصف رطل من الخبز يوميًّا.

وفي المدرسة الفارسية التي أسست سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م حددت أوجه الريع كالتالي[١]:

المستفيد	الراتب شهرياً	ملاحظات
الشيخ	٨٠ درهمًّا	وفي كل موسم وعيد لكل واحد ١٥ درهمًّا.
الطلاب (عددهم ١٠)	٤٥ درهمًّا	
القراء (عددهم ١٠)	١٥ درهمًّا	
الأيتام (عددهم ١٥)	١٥ درهمًّا	

وتختلف رواتب العاملين في المدارس حسب أوقافها، فنجد -مثلاً -رواتب الموظفين في دار السكرية[٢]في دمشق كالتالي:

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٢٤؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٣٥.

(٢) **دار الحديث السكرية:** تقع بالقصاعين داخل باب الجابية بدمشق، وقفت دارًا للحديث النبوي الشريف سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م، وتذكر كتب التاريخ أن أول شيوخها الإمام عبد الحليم ابن تيمية، ومن بعده ابنه الإمام =

المستفيـــد	جامكية (راتب)	جرايـــة
المحدث	٧ دراهم شهريًّا	نصف رطل خبز
الشيخ	٣٠ درهم شهريًّا	رطل من الخبز
قارئ القرآن	٧ دراهم شهريًّا	نصف رطل خبز
راوي الحديث	٢٠ دراهم شهريًّا	ثماني أواق خبز

ومن خلال الأمثلة نلاحظ مدى التفاوت بين المدارس من حيث مرتباتها، ومن هنا يظهر الاختلاف الواضح في المستوى المعيشي بين العلماء في البلد الواحد.

وساهم كثير من التجار بدفع الحركة العلمية في دمشق، فبنى التاجر برهان الأسعردي[١]، المدرسة الأسعردية، ورتب العاملين ومرتباتهم، على النحو التالي[٢]:

المستفيـــــد	الراتب الشهري
ناظر المدرسة	١٠٠ درهم
إمام المدرسة	٦٠ درهمًا
مؤذن المدرسة	٤٥ درهمًا
قارئ القرآن	٣٠ درهمًا
شيخ الفقراء	٦٠ درهمًا
قارئ البخاري	١٥درهماً في السنة
معلم الأيتام	٦٠ درهماً

=تقي الدين أحمد، وبعدهما أصبح الإمام الذهبي شيخها . غير أن النعيمي وابن كثير لم يقفا على ترجمة واقفها. انظر: البداية والنهاية، ج ١٨، ص٤٠٩؛ الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٥٦ـــ٦٠؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٤٥.

(١) **برهان الدين بن مبارك شاه الأسعردي**: من أكبر التجار بدمشق، له المتاجر في كثير من البلدان، كان ذا كرم وإحسان للفقراء، بنى مدرسته سنة ٨١٧هـــ/ ١٤١٦م. انظر: ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣١٠؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٢٨؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١٣؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٧٢.

(٢) جعفر الحسني، وقفية المدرسة الأسعردية، نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٨م، م٣٣، ج٤، ص٥٩٠-٥٩٦.

ومما يلحظ أن أوقاف المدارس كانت تخصص للطلاب حوافز تشجيعية للراغبين في طلب العلم، ومن أبرز هذه الحوافز تقديم مبالغ نقدية ، كما في المدرسة الأسعردية عشرة فقراء يُصرف لكل منهم ثلاثون درهمًا في الشهر، ولكل منهم بيت من بيوت المدرسة، شريطة دراسة القرآن الكريم من خلال معلّم خاص بهم، فإذا حفظ أحدهم القرآن صرفه الناظر بعد أن يقدم إليه كسوة ومبلغ خمسين درهمًا، ثم يحّل مكانه شخص آخر من الفقراء[١].وحرصوا في المناسبات الدينية كشهر رمضان بصرف رواتب إضافية لأرباب الوظائف وطلبة العلم[٢].

ونلحظ أيضًا اهتمام منشؤو المدارس بترتيب أعداد من الصوفية في مدارسهم، حيث رتّب السلطان قايتباي في مدرسته الأشرفية بالقدس شيخًا وصوفيةً تعدادهم ستون صوفيًا، وجعل لكل منهم خمسة عشر درهماً شهريًا[٣].

٣- توفير الغذاء والمساعدات المالية والعينية:

من الخدمات الاجتماعية التي توفرها المدارس توفير التغذية المجانية والمساعدة المالية للطلاب في كل شهر من شهور السنة على امتدادها، من خلال ما سمي في ذلك الوقت "معلوم الطالب"[٤]، الذي كان ينصّ عليه في الغالب في وثيقة أو كتاب الوقف الخاص بالمؤسسات التعليمية، ويبدو أن هذا المعلوم لم يكن موحدًا للطلبة كلهم، بل كان يختلف حسبما يراه ناظر الوقف من التسوية والفضل، وهو ما أدى في كثير من الأحيان إلى إثارة

---

(١) الحسني، وقفية المدرسة الأسعردية، م٣٣، ج٤، ٥٩٠-٥٩٦؛ محمد صالحية، سجل أراضي لواء القدس، حسب الدفتر (٣٤٢) تاريخه ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م، المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، جامعة اليرموك، الأردن- عمان، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٣٠.

(٢) ابن طولون، إعلام الورى، ص١٧١؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ٢٦٣.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٩٤. وانظر ايضًا: عاشور، مدينة القدس، ص٥١٧؛ يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١٣٩.

(٤) محمد محمد عبد القادر الخطيب، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٣٣.

التحاسد بين الطلبة[(١)].

وفيما يلي بعض المعاليم التي كانت تصرفها بعض معاهد التعليم للطلبة، والتي تشير بصورة واضحة إلى ما وفره المجتمع في ذلك العصر من عناية ورعاية لطلاب العلم.

فقد نصّ واقف المدرسة الإقبالية[(٢)] على أن يرتّب فيها "خمسة وعشرين فقيهًا لهم الجوامك الدارّة في كل شهر، والطعام في كل يوم، والحلوى في أوقات المواسم، والفواكه في زمانها، وخلع على المدرسين والمعيدين والفقهاء يومئذ، وكان وقفًا حسنًا"[(٣)].

ويذكر ابن شداد أن المدرسة الحلاوية[(٤)]في حلب كانت أغزر المدارس جامكية، وأن الواقف اشترط أن يحمل في كل شهر رمضان، من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرسة، يصنع بها للفقهاء طعامًا، ومن وقفها كانت تقدم حلوى في ليلة النصف من شعبان وفي الموالد والأعياد، كما كان يقدم لهم الكساء والدواء من وقفها أيضًا[(٥)].

---

(١) مجاهد توفيق الجندى، دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٢٤٣.

(٢) **المدرسة الإقبالية**: تقع داخل باب الفرج وباب الفراديس بينهما، شمالي الجامع، أنشأها خواجا إقبال خادم نور الدين، توفي ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م، وذكر ابن كثير في حوادث سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م، تكامل بناء المدرسة الإقبالية. للمزيد انظر: البداية والنهاية، ج١٧، ص١٨٦؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١٨-١١٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص١٨٦؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١٩؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٨١.

(٤) **المدرسة الحلاوية**: عندما ملك نور الدين حلب وقف فيها مدرسة وجدد فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً، وهذه المدرسة إحدى أشهر المدارس في "حلب"، ومتولي عمارتها القاضي فخر الدين أبو منصور محمد بن عبد الصمد بن الطرسوسي الحلبي. وكانت تضم عددًا من الطلاب كما كانت مرتّباتها من أعلى المرتبات، أما مصدر تسمية المدرسة "الحلوية" بهذا الاسم فهو من (الحلوى)، حيث يروى أن "نور الدين محمود "اعتاد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان أن يملأ حوض المدرسة بالحلوى والقطائف المحشوة ويجمع عليه فقهاء المدرسة ليأكلوا منه. انظر: سبط ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل (ت٨٨٤هـ/ ١٤٤٠م)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط١، ١٤١٧هـ، ج١، ص٣٣٩- ٣٤٥؛ الغزي، نهر الذهب فى تاريخ حلب، ج٢، ص١٦٧-١٦٨.

(٥) الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص ٢٦٥.

ومن فضائل أهل الشام، خاصة العلماء، التصدق على الطلبة وضيافتهم ودعوهم لتناول وجبات الإفطار في بيوهم[1].

وتطلعنا أوقاف المدرسة العمرية الشيخية[2]على أهم الخدمات العينية التي تقدم للمعلمين والطلبة، والتي تدل على أن قاطني هذه المدرسة كُفوا مشقة لقمة العيش على مدار العام، وهي على النحو التالي:

المستفيد	الخدمة المقدمة	الخدمة المقدمة أسبوعيًّا	الخدمة المقدمة سنويًّا
الشيخ الذي يدرس	ثلاثة أرغفة	عدس كل جمعة (انقطعت) واستمرت القمحية وزبيب	قميص، سروال
لكل واحد من المترلين	رغيفان		
	حلاوة دهنية		طعام شهر رمضان بلحم
	كعك		مشبك بعسل في ليلة ٢٠ رمضان (مستمر)
	حصر لبيوت المجاورين (مستمرة)		ختان من لم يختن من الفقراء والأيتام النازلين (انقطع)
	صابون		كنافة ليلة العشر الأول من رمضان (مستمر)
	سخانة للماء في الشتاء		حلاوة في شهر رجب
	قنديلاً يشعل طول الليل (مستمر)		لوزية وجوزية (مستمر)
			أضحية (مستمر)
			طعام في عيد الفطر (حامض، ولحم، وهريسة، وحلو) (مستمر)

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٢.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٥، ص٢٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٧٧؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١،ص٢٤٧.

٤- خدمات السكن:

كان نظام السكن الداخلي للطلبة في المدارس الإسلامية من مفاخر التعليم الإسلامي، حيث ساهم هذا النظام في التفرّغ للعلم وتوفير الجو المناسب للطلبة والمدرسين، كما أنه جعل التعليم حقًّا للجميع ولاسيما الفقراء والغرباء، فضّمت المدارس مساكن للمدرسين والطلبة، وأصحاب الوظائف الأخرى فيها، ومن خلال وقفية المدرسة التنكزية بالقدس، نستخلص مدى النظام القائم على تقسيم الغرف بشكل دقيق حسب القاطنين فيها، فقد جاء فيها أن عدد بيوتها اثنان وعشرون بيتًا، وأَحَد عشر بيتًا سفليًا خصصت للفقهاء الحنفية، وفيها بيت لبواب المدرسة، وأحد عشر بيتًا علويًا خصصت للصوفية، واشترط الواقف عليهم المبيت في المدرسة على جاري العادة(١).

وأشار ابن جماعة إلى الهدف من ذلك بقوله: " فالمدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والممر، ولا لمجرد التعبير والصلاة والصيام كالخوانق، بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له"(٢). فقد كانت الغاية من وراء توفير سكن للطلاب، انقطاع الطلبة للاشتغال بالعلم.

ومن المدرسين الذين سكنوا في المدارس الإمام كمال الدين إسحاق بن عثمان المغربي(٣) (ت٦٥٠هـ/ ١٢٥٧م)، الذي كان مقيمًا بالمدرسة الرواحية(٤). وكذلك

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص١١٠؛ محمد صالحية، لواء أراضي لواء القدس، ص٩٢.

(٢) ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مكتبة مشكاة الإسلامية، د.ط، د.ت، ص٢٢٠.

(٣) **كمال الدين إسحاق بن عثمان المغربي:** أحد مشايخ الشافعية وأعيانهم، كان إمامًا عاملاً عالمـًا فاضلاً، أفاد الطلبة من خلال إقامته، ووصف بالزهد والورع وكثرة العبادة. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٢٠٧.

(٤) **المدرسة الرواحية** : تقع شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه، بانيها زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة، توفي سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص١٥٦؛ النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٩٩، ٢٠٠.

القاضي بدر الدين حسين علي المعروف بابن قاضي أذرعات[1] (ت ٨١٤هـ/ ١٤١١م) سكن بالمدرسة الخبيصية، وكان شيخًا لها[2].

وكان كثير من واقفي المدارس في بلاد الشام يشترط على المقيم بها من الطلبة العزوبية، من ذلك أن واقف المدرسة البادرائية بدمشق، وهو الإمام نجم الدين عبد الله ابن محمد البادرائي (ت٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، شرط على من يقيم في المدرسة العزوبية، وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس[3].

ويعلل النعيمي سبب هذا الشرط بقوله: "إنما أراد بذلك توفير خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم"[4]. فقد كان يهدف إلى تفرّغ الطالب تفرّغًا كاملاً وحثّه على طلب العلم، ولكن يبدو أن هذا الشرط جلب ضررًا كبيرًا على نفسية المقيمين بها، ويبدو هذا واضحاً من استنكار النعيمي بقوله: "ولكن حصل بسبب ذلك خلل كثير وشر لبعضهم

---

(١) **القاضي بدر الدين حسين علي بن محمد بن عبد الرحمن الأذرعي الصالحي الدمشقي:** كان فاضلاً، بارعًا، كان يكتب بخط حسن سريعًا. انظر : ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٣، ص٢١١، ٢١٢ .

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٧٦؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٩٦.

(٣) **المدرسة البادرائية** : تقع داخل باب الفراديس والسلامة شمال جيرون، بدمشق، أنشأها الشيخ الإمام نجم الدين أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن البادرائي، حدّث بحلب ودمشق ومصر وبغداد ، وكان فقيهًا شافعيًا بارعًا، ولي التدريس بالمدرسة النّظامية ببغداد. وقدم إلى الشام ومِصْر مراتٍ عدة رسولاً للخليفة المستعصم بالله، آخرِ الخلفاء العباسيين، وأتاحتْ له هذه السِّفارات جمعَ ثروة كبيرة، مكّنَتْه من بناء هذه المدرسة بدمشق، ثم رجع إلى بغداد سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، فنُدب، وهو مريض، إلى تولي القضاء بها، فوليه وهو كاره. وبقي في منصبه نحو سبعة عشر يوماً، حيث توفي في سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م، ودفن في مقبرة الشُّونيْزِيَّة ببغداد، قريبًا من قبر الجُنيد. وأقيم عزاؤه بمدرسته بدمشق ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م. انظر ترجمته: سبط ابن الجوزي ،يوسف بن قزأوغلي (٦٥٤هـ/ ١٢٥٥م) ، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح : إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ج١، ص٧١؛ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (٦٦٥هـ/ ١٢٥٧م)، الذيل على الروضتين، تح: إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية ودار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ج٢، ١٢٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، ص٥٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٥٤-١٦١.

(٤) الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٥٤.

كبير"[١].

وشرط واقف المدرسة الشامية الجوانية بدمشق أن يكون الفقهاء والمتفقهة فيها والمدرس "من أهل الخير والعفاف والسنة والجماعة، غير منسوبين إلى شرّ وبدعة"[٢].

واشترطت دار القرآن الصابونية (سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م) اشترطت أن يكون مع الإمام عشرة فقراء من الأحناف يعلمهم القرآن الكريم ويخصص لهم أماكن للسكن.

واحتوت المدرسة الطشتمرية[٣] على خمس قاعات لمبيت الطلبة الفقراء؛ مما يدل على كثرتهم[٤].

٥- خدمة توفير الكتب مجانًا:

وُجد في أغلب المؤسسات العلمية في عهد المماليك، من مساجد ومدارس خزائن للكتب، ومنها مكتبات ألحقت بالمشافي والترب والمقابر، ومكتبات وُجدت في الربط والخانقاوات ومكتبات في قصور الأغنياء والسلاطين والأُمراء كان لها أكبر الأثر في تطوير النواحي العلمية في تلك الفترة، وزادت من شحذ الهمم العلمية والدينية بين جميع طبقات المجتمع الشامي. وأتاح وجود خزائن للكتب فرصة لطلاب العلم من الفقراء البحث، لعدة أسباب، منها:

أن الكتب في ذلك العصر لم تكن متيسرة، ولم يكن باستطاعة الكثيرين اقتناءها، لارتفاع أثمانها وقلة الموجود منها؛ لأن معظم الكتب كانت مخطوطات تعتمد في كتابتها على النسخ اليدوية[٥].

ومن ناحية أخرى كانت أثمان مواد الكتابة من ورق وجلد ورق وغير ذلك

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٥٤.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) **المدرسة الطشتمرية:** أنشأها المقرّ الأشرف السيفي طشتمر العلائي (ت٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) في سنة (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م). انظر: العليمي ، الأنس الجليل، ج٢، ص ٤٥.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥. وانظر ايضًا: الطروانة، الحياة الاجتماعية، ص١٧٩؛ العسلي، معاهد العلم، ص٤٩.

(٥) جمال علي الدهشان، تكافؤ الفرص التعليمية، المفهوم ومظاهر التطبيق في عصور الازدهار الإسلامي، مجلة العلوم النفسية والتربوية، كلية التربية، جامعة المنوفية، السنة التاسعة، ع ٣، ١٩٩٣م، ص ٣٤.

مرتفعة، فتوفير هذه الخدمات للطلبة جنّب كثيرًا منهم جشع تجار الكتب ومغالاتهم في أسعار شرائها واستئجارها، حتى وصلت إلى حد أن أحد التجار كان إذا احتاج شخصٌ ما إلى كتابٍ معيّنٍ أحضره له وأوهمه أنه استأجره من شخص آخر، ولا يمكنه منه إلا إذا دفع إيجاره يومية للكتاب، وقد تصل إلى ثمنه أو أزيد منه[١].

وضمَّت كبرى المساجد في بلاد الشام مكتباتٍ عامرةً بالكتب، وقد أشار أحد الباحثين إلى أن أغلب مكتبات المساجد كانت مكتبات قرآنية، إذ رافقت إقامة المساجد وضع نسخ من المصاحف فيها، وأن من الأمور العريقة إهداء المصاحف فيها[٢].

ويبدو أن هذا الاستنتاج اقتصر على بيت المقدس فقد كانت دار كتب المسجد الأقصى تضم كثيرًا من المصاحف التي وقفت عليها في العصرين الأيوبي والمملوكي[٣]، فمن حسنات الملك الأشرف برسباي بالمسجد الأقصى المصحف الشريف الذي وضعه بداخل الجامع تجاه المحراب بجانب دكة المؤذنين، وهو مصحف كبير عظيم أهدي إليه بدمشق في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م ، فجهّزه إلى القدس الشريف، ووقف عليه جهة للقارئ والخادم، وشرط النظر لمن يكون شيخ المدرسة الصلاحية بالقدس الشريف[٤].

وكان للسلطان الملك الظاهر أبو سعيد خشقدم المؤيدي في الصخرة الشريفة " مصحف كبير وضعه بإزاء مصحف الملك الظاهر جقمق من جهة الغرب"[٥].

و لا يكاد يخلو مسجد أو مدرسة في دمشق من خزانة كتب يطالعها العلماء ويرجع إليها أئمة الحديث، لا سيما الفقراء منهم، وكان لحلب ودمشق والقدس الحظ الأوفر من ذلك[٦]. وفي طليعة خزائن دمشق نذكر منها خزانة الجامع الأموي التي حبس

(١) عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر والشام، ص٢٤٨.

(٢) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط ٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، ص٦٤.

(٣) عبد الجليل عبد الناصر، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص٦٧.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٦.

(٥) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٩ .

(٦) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٨٦.

عليها أرباب العلم كتبهم ومصنفاتهم، إذ كان في كل زاوية من زوايا المسجد مشهد يضم عدة خزائن[١]، كخزانة علي بن طاهر السلمي[٢].

ومما يلاحظ أن أماكن خزائن الكتب كانت من ضمن تصميم المدرسة، فعندما وصف العليمي المدرسة الأشرفية ذكر أن بها: "ثلاث فتحات معدة لثلاث خزائن تحفظ بها الكتب الموقوفة على المدرسة"[٣]. وزوّد السلطان قايتباي المدرسة الأشرفية بعدة خزائن لاحتواء كتبها[٤].

واشتملت المدرسة اللبودية النجمية[٥]على خزانتين للكتب، احتوت على جملة كبيرة من الكتب الطبية[٦]، كما اشتملت المدرسة البادرائية على خزانة كتب نافعة[٧].

وكانت المدرسة الجوزية[٨] تضم دار كتب نصت وقفيتها سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م

---

(١) فيليب دي طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، دار الكتب، لبنان، ١٩٤٧م، م١، ص٢٧٤.

(٢) **علي السلمي**: كان ثقة، دينًا، توفي سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م). انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١،ص١٠٤.

(٣) الأنس الجليل ، ج١، ص ٣٢٨-٣٣٠.

(٤) العسلي، معاهد العلم ، ص١٦٩.

(٥) **المدرسة اللبودية النجمية**: أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن الدمشقي اللبودي في سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، كان علامة وقته في الطب، توفي سنة ٦٧١هـ/. انظر: ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٢٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٦٦٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٥-١٦٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٠٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٩٦.

(٦) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢،ص١٠٨.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣ ، ص ١٦٥، أبو شامة، الذيل على الدولتين، ج٢، ص١٢٣؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١٥٥.

(٨) **المدرسة الجوزية**: أنشأها محيي الدين ابن الشيخ جمال الدين بن الجوزي، قتل مع الخليفة العباسي المستعصم، وكان رسول الخليفة الى الملوك ولا سيما بني أيوب. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٣، بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٧.

على ما يلي: "الحمد لله على نعمه، وقف سائر المسلمين مقره بالمدرسة الجوزية بدمشق المحروسة يتبع من له حاجة ثم يرد إليها"[(١)].

وذكر النعيمي أن الشيخ الضياء وقف كتبًا كثيرًة بخطه بخزانة المدرسة الضيائية المحمدية[(٢)]، التي أشاد بها ابن طولون بقوله: "وبهذه المدرسة كتب الدنيا"[(٣)].

وألحقت الخزائن بدور الحديث أيضًا، كخزانة كتب دار الحديث الأشرفية بدمشق[(٤)].

وكذلك وُجدت مكتبات خاصة كثيرة في ذلك العصر، منها دار الكتب الفخرية في القدس التي وقفها القاضي فخر الدين بن فضل الله (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)[(٥)]، وخزانة تقي الدين اليلداني[(٦)] حبسها سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٦م[(٧)].

وساهمت المؤسسات الصوفية من خوانق وربط وزوايا في خدمة طلابها بما تحتويه من خزائن للكتب ومصاحف، فمن خلال وصف ابن طولون للزاوية الداوودية ذكر أن بها مكتبة[(٨)].

ومنهم من أوقف كتبه على تربته، كما فعل عز الدين أبو بكر محفوظ بن معتوق البزوري الذي استوطن دمشق، وحصّلَ الكتب النفيسة، ووقف كتبه على تربة أنشأها

---

(١) يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص٨٧.

(٢) **المدرسة الضيائية المحمدية**: تقع بسفح قاسيون، بانيها الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي،= كان في غاية العبادة والورع والزهد، توفي سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م. انظر: الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٧٢.

(٣) القلائد الجوهرية ، ق١، ص١٣٨.

(٤) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص٣٦٦.

(٥) العسلي، معاهد العلم، ص٣٧٢.

(٦) **اليلداني**: الشيخ المحدث تقي الدين الدين أبو محمد عبد الرحمن بت أبي الفهم الدمشقي، طلب الحديث وهو كبير، توفي سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٦م. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٣١١.

(٧) طرازي، خزائن الكتب، م١، ص٢٧٤.

(٨) القلائد الجوهرية ، ق١ ، ص٢٩٩-٣٠٠.

بالصالحية، ودفن هناك سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م[(١)].

وكان للتجار مساهماتهم أيضًا في وقف الكتب كالتاجر حسن بن محمد بن إسماعيل بن منصور بدر الدين الطحان (ت٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)[(٢)].

وهذا يقودنا إلى إدراك مدى العناية التي وجهها علماء ذلك العصر للكتب، فقد تنافسوا في ادخارها، واقتناء النفائس منها، وقد كانت المبالغة في العناية الفائقة باقتناء الكتب في هذا العصر نابعة من أسباب عدة، من أهمها: الشغف العلمي؛ فقد ذُكر أن الشيخ بدر الدين بن الغالب (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م) كان "يحب الكتب ويجمعها وخلف ألفي مجلد لما مات. [(٣)]"

ونتيجة للاهتمام بالكتب ازدهرت حرفة الوراقة، قال العكبري: كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية، وكنت أشتري كاغدًا - يعني ورقًا - بخمسة دراهم فأكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليال وأبيعه بمئتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهمًا[(٤)].

وممن لا يستطيع الشراء كان يستخدم طريقة الكتابة، كأبي الفضل محمد بن محمد بن بهادر المومني الطرابلسي (ت٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م) قال عنه السخاوي:" كتب بخطه الكثير وقيَّد وجَمعَ" [(٥)].

خاصة أن كثيرًا منهم كان يمتلك الخط الجميل الذي يعينه، فقد كتب الشيخ علاء

---

(١) ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص١١٤.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٤١.

(٣) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٣٠، ٣٣١.

(٤) **محب الدين أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري الحنبلي**: ولد في بغداد وتعلم فيها علم اللغة والحديث، وبدأ حياته معيدًا لابن الجوزي، وَعُدَّ فيما بعد أكبر اللغويين في عصره. وذُكر أنه أصيب في صباه بالجدري، فعمي. وكان إذا أراد أن يصنف كتابًا جمع عدة مصنفات في ذلك الفن، فقرئت عليه، ثم يملي بعد ذلك، توفي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م. للمزيد انظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٥، ص ٢٥٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٢، ص٩٢.

(٥) الضوء اللامع، ج٩، ص٢٠٩.

الدين علي بن أبي أيوب بن منصور المقدسي ٧٤٨هـ/ ١٣٤٩م "بخطه المليح في أول أمره كثيرًا من كتب العلم ولما بيعت في حياته تغالى الناس فيها لصحتها"(١).

وهذا أيضًا ما جعل كثيرًا من العلماء يحرص على المواظبة على سوق الكتب، مثل الإمام شمس الدين الموصلي(٢)، ومحمد بن عثمان بن أبي الوفاء العزازي بدر الدين الدمشقى (٧٣٠هـ)، الذي كان يلازم سوق الكتب فيشترى منها النفائس سنة ثلاثين وسبعمائة(٣).

ومنهم من اشتهر بتجليد الكتب، مثل الشيخ أبي العباس محمد بن الشيخ إبراهيم الكتبي (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) الذي وصفه سبط ابن العجمي بأنه: "كان عارفًا أستاذًا في تجليد الكتب، وتضرب الأمثال بصنعته،... وافتقده أهل حلب لأنه لم يكن أحد مثله في صنعته وإتقانه"(٤).

ولو تساءلنا: ما مصير تلك الكتب والنسخ التي وصل عددها إلى المئات بل الآلاف، مثل مجلدات القاضي فخر الدين بن محمد بن فضل الله سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م التي وصلت إلى نحو عشرة آلاف مجلد(٥)، لوجدنا أن أكثر العلماء أوقف كتبه في الجوامع والمدارس والخوانق، بل حتى في الترب تيسيرًا وخدمةً لطلبة العلم، خاصة الفقراء منهم، فقاضي القضاة صدر الدين ابن الآدمي(ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، كان له وقف في خزانة كتب الأشرفية بالجامع(٦).

وجعل الشيخ تقي الدين عبد الرحمن اليلداني (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م" أكثر كتبه التي بخطه موقوفة بخزنة الفاضلية في الكلاسة"(٧).

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٤٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ٥٢٦؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص١٦٩.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٩٦.

(٤) كنوز الذهب، ج٢، ص٢١٣.

(٥) العسلي، معاهد العلم، ص٣٧٢.

(٦) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٨٧.

(٧) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٦٩-٧٠؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٢٩٦.

واشتهر كثيرٌ منهم بمساعدة طلبة العلم، مثل العالم شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الحباب (ت٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، الذي" كان فيه إحسان إلى الطلبة ويساعدهم"[١].

ولنا أن نتصور أوجه المساعدة التي يمكن أن يقدمها مثل هؤلاء المدرسين لطلبتهم حتى تذكر في ترجمتهم!

وممن عرفوا بهذا الفضل الشيخ زين الدين أبو حفص القرشي (ت٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، بأنه كثير المساعدة لطلبة العلم، وملك من نفائس الكتب شيئًا كثيرًا"[٢]. ونستطيع أن نستنتج نوعًا من أنواع مساعدة هذا العالم الجليل لطلبته بما أنه يملك من نفائس الكتب الكثير، فهو لن يبخل على طلبة العلم بالاطلاع والنسخ خدمة لهم.

ومنهم القاضي تقي الدين الرقي الذي استعفى عن القضاء وقنع بإمامة المدرسة العادلية[٣]، ولازم تدريس الطلة وإفادهم[٤]. ومنهم أيضًا الشيخ سليمان بن يوسف بن مفلح الياسوفي الذي وصف بأنه كان"معينًا للطلبة خصوصًا أهل الحديث على مقاصدهم بجاهه وكتبه وماله"[٥].

أما عن النظام الداخلي لإدارة المكتبات فقد كان يعين موظف "خازن الكتب" تكون مهمته المحافظة على الكتب المدرجة في خزانة المدرسة، إضافة إلى المحافظة على المصاحف الشريفة، وتحدث السبكي في هذا الصدد فقال: "وحق عليه الاحتفاظ بها،

---

(١) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١٧-١١٨.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٣١.

(٣) **المدرسة العادلية الكبرى**: داخل دمشق شمالي الجامع، أنشأها نور الدين محمود بن زنكي، ولم تتم الا على يد العادل، وأوقف عليها الأوقاف، ودفن بها. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٢٧١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ١٢٤.

(٤) **القاضي تقي الدين الرقي**: محمد بن حياة بن يحيى بن محمد الشافعي، كان فاضلاً كثير الديانة، تولى الحكم بعدة جهات منها حمص والقدس وناب بدمشق، وكان الملك الظاهر يعرفه ويثق به، توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٥.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣١١.

وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك[١]، والضنة بها على من ليس من أهلها وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدّم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء"[٢].

والشاهد هنا هو قوله: "يقدّم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء"، حيث وضح الغاية المرجوّة من وقفها وهي إعانة طلاب العلم الفقراء وتقديمهم على من سواهم، وهذا من محاسن ذلك العصر.

ومن أمناء المكتبات الذين عملوا في مكتبات وقفية: الحسين بن علي بن بشارة شرف الدين الشبلي (ت٧٣٧هـ/ ١٢٣٦م)، الذي كان من فقهاء الحنفية، ورجال الحديث، وكان خازنًا للكتب بدار الحديث الأشرفية[٣]، والْحُسَيْن بن مبارك الْموصِلِي الصُّوفِي بالسميساطية بِدِمَشْق وخازن الْكتب بها[٤].

ويُعَدُّ هؤلاء نموذجًا توافرت فيه شروط الخازن، وأهمها أن يكون أمينًا نزيهًا، قادرًا على خدمة الكتب، عارفاً بمكانها وترتيبها[٥].

٦/ توفير فرص للعمل:

من المتعارف عليه إذا أتم طالب العلم دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه ونوع الإجازة وتاريخها ونحو ذلك[٦]، إلا أن تراجم المدارس كثيرًا ما تطلعنا عن إسناد وظيفة لأحد

---

(١) **الحبك**: الشد والإحكام وإجادة العمل والنسخ، وهنا تأتي بمعنى تغليف الكتب. للمزيد: ابن منظور، لسان العرب، ص٥٧٨؛ الزبيدي، تاج العروس، فصل الحاء/ باب الكاف، ج١٣، ص٥٣٤.

(٢) معيد النعم ، ص٨٧-٨٨.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٧٤؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٦.

(٤) **الحسين بن مبارك الموصلي**: كان خيّرًا ديّنًا، كتب كثيرًا من كتب الْعلم وَصَحب الْفُقَرَاء وَجمع المجاميع، توفي سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٨١.

(٥) ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، ص ١٤٧؛ عبد العاطي، التعليم في مصر والشام، ص ٢٥٣.

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٦٤.

الطلبة المحتاجين، مثل علي بن بكتوت، الذي عمل مؤذنًا في المدرسة العادلية، وهو أحد الطلبة في المدرسة[١].

ووصف الشيخ شرف الدين موسى بن شهاب الدين الرمثاوي بأنه دّرس وهو من صغار الطلبة في المدرسة الأسدية[٢].

ومن وسائل التعيين التي يتبعها بعض العلماء التعيين عن طريق التوريث، فإذا شعر بدنو أجله كان من حقه توريث ما بيده من الوظائف لابنه، و لم يكن الأمر بهذه البساطة، بل لابد لكي يعين الابن أن يحصل على الموافقة النهائية من قاضي القضاة[٣]. وهذا ليس فيه عيبٌ إذا كان ولده قد أَعَدَّه مسبقًا لهذه الوظيفة الدينية بالعلم والخبرة.

ومنهم منْ تم تعيينه في مناصب في الدولة، ففي سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٨٢م تولى أحد صوفية خانقاه شيخون[٤] قضاء الحنفية في القدس، وآخر في قضاء غزة، وهي وظائف مرموقة في الدولة[٥]. ومنهم من وصل الى وظيفة الحسبة كشمس الدين محمد بن يعقوب النحاس الدمشقي الذي تولى حسبة الصالحية ثم حسبة القاهرة[٦].

وكان بعض العلماء يزهد في تلك المناصب خشية الوقوع في الفتن، وأورد النعيمي

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص١٠٠.

(٢) **شهاب الدين موسى بن أحمد بن موسى الرمثاوي ثم الدمشقي الشافعي:** اشتغل على الشيخ شرف الدين الغزي ولازمه وأذن له في الإفتاء، وكتب بخطه ومهر، ثم ولي قضاء الكرك، توفي سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٤م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٧٨؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص١١٦-١١٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٢٣.

(٣) جيده، المدارس ونظام التعليم، ص٣٤٢.

(٤) **الخانقاه الشيخونية:** واقفها الأمير سيف الدين قطيشا بن علي بن محمد من رجال حلقة دمشق، كان مجاورًا بالقدس الشريف، وجعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون فسميت بالشيخونية نسبة لولد الواقف. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤١.

(٥) الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٩٨.

(٦) قال عنه المقريزي: "هو من عامة دمشق تشفع بي لما قدمت دمشق في سنة عشر وثمانمائة أن يلي حسبة الصالحية". السلوك، ج٧، ص١٨١.

إشارات إلى تغير بعض العلماء بعد توليه المنصب، مثل الشيخ شمس الدين ابن الكفتي، الذي قال عنه: "كان ذهنه جيداً وله فهم بالنحو...، ثم عاشر الناس فدخل في الترك والدواوين تغير حاله وساءت طريقته، وخرج عن وظائفه، وحصَّل مالًا من غير وجهة"[(١)].

وكان نسخ الكتب حرفة ناجحة يسترزق بها عدد كبير من العلماء وطلاب العلم ، وكان أكثر طلاب العلم الفقراء المجاورين في المدارس الإسلامية يستعينون على طلب العلم بالاسترزاق من نسخ الكتب والمصاحف[(٢)].

وفي المناسبات الدينية يجد كثير من الفقهاء والعلماء مصادرَ لرزقهم، منها ليالي الوقود[(٣)]، التي خصصت لها أوقاف معينة لقراءة كتب الحديث النبوي، لاسيما صحيح البخاري في شهري رجب وشعبان عمومًا، وليالي المواسم خصوصًا، فقد خصص السلطان الناصر خشقدم لمن يقرأ فيها صحيح البخاري مئة وخمسين درهمًا[(٤)]، وأوقف أحد المحسنين بالقدس لمن يقرأ صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان) دينارين[(٥)].

ومن هنا يتبين لنا مدى الرعاية التي تمتع بها أهل العلم (الطلاب والعلماء) بشكل عام، والفقراء منهم بشكل خاص، تحت ظل الدولة المملوكية، فقد أتيحت لهم فرص التعليم في المؤسسات التعليمية والصوفية. لم يكن التعليم مجاناً فحسب، بل كُفِلَ لهم أيضًا المسكن والكساء والغذاء، فضلاً عمّا تقرر لهم من مقررات نقدية، ففرص طالب العلم مشرعة أبوابها أمام الجميع، و لم يكن الفقر عائقًا أمام الراغب في العلم.

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٢٥٦.

(٢) الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج١، ص١٤٠.

(٣) **ليالي الوقود**: هي الليالي التي يزداد فيها إضاءة ووقود القناديل في المساجد وبيوت الصوفية والبيمارستان، وهي ليالٍ معينة: مستهل رجب، وليلة السابع والعشرين منه، وأول شعبان ومنتصفه، وثبوت هلال رمضان، وليلة السابع والعشرين منه (ليلة القدر)، وليلة المولد النبوي. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٧٤.

(٤) الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٥٨.

(٥) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٢٧؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٥٨.

المبحث الرابع
رعاية الرقيق والخدم

عرفت الأمم الرقّ منذ أقدم العصور، وكانت الحروب مصدراً أساسياً له، وتمثل في الأسر أو كجزء من الضريبة المفروضة على الخاسرين، بعد أن أدرك المنتصرون أن الإبقاء على الأسرى أفضل من قتلهم[١]، ولم تكن الحروب وحدها المصدر الأوحد للرقّ، فقد دفع الفقر بعضهم إلى بيع أنفسهم أو بيع أولادهم، للحصول على لقمة العيش، أو رغبة منهم بأن يكون أبناؤهم في بلاط السادة، وفي خدمتهم فربما أصبح لهم شأن فيما بعد[٢]. يضاف إلى ذلك مصدر آخر هو تجارة الرقيق المجلوب بالخطف أو الشراء، ثم بيعهم في أسواق الرقيق[٣].

وقبل الحديث عن الرقيق ومدى الرعاية التي نالتها تلك الفئة في العصر المملوكي لابد أن نتحدث في عجالة عن نوعين من الرقيق انتشرا في زمنهم هما: الرقيق الأسود والرقيق الأبيض، وكلاهما كان يأتي من مكان مختلف عن الآخر، فالرقيق الأسود كان يجلب من أماكن مختلفة في أفريقية كبلاد النوبة[٤]والحبشة، عن طريق الحملات العسكرية التي شنها السلاطين المماليك نحو تلك البلاد، فتشير المصادر إلى الجيش الذي أرسله السلطان الظاهر بيبرس نحو بلاد النوبة في سنة (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) لقتال ملكها انتقامًا

---

(١) عبد السلام الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص١٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٦، ص١١٣؛ الخطط، ج٣، ص٤٢١؛ الترمانيني، الرق، ص١٦؛ وليم موير، تاريخ دولة المماليك، ص١٠٠.

(٣) **الجلابة**: من الجَلَب وهو سيق الشيء من موضع إلى آخر، أي ما جلب القوم من غنم، وسبي، والجليب الذي يجلب من بلد إلى غيرها. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جلب، ج١، ص٢٦٨؛ الرازي، مختار الصحاح، ص٤٥

(٤) **النوبة**: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربيه، وأهلها أمة عظيمة نصارى بعامتهم، وهم أهل شدة في العيش، أول بلادهم بعد أسوان، يجلبون إلى مصر فيباعون بها. للمزيد انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٠٩؛ القزويني، آثار البلاد، ج١، ص٢٤؛ ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع، ج٣، ص ١٣٩٤.

مما فعله في مدينة أسوان[١]، من نهب وحرق، وانتهى بإلحاق الهزيمة الساحقة بجيش النوبة، وغنموا غنائم كثيرة من عبيدٍ وجَوَارٍ[٢].

وفي سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، أغار المماليك على بلاد الحبشة وسبوا خلقًا كثيرًا، وأُرسل السبي إلى أماكن كثيرة، وقد أشار الخطيب الصيرفي إلى نتائج هذه الإغارة فقال: "فكثر الرقيق من العبيد والإماء ببلاد اليمن والهند والحجاز ومصر والشام والروم" [٣].

مما يوحي للقارئ بكثرة العدد من الرقيق الذي غنم، وهذا يوضح مدى مساهمة الحروب في انتشار الرقيق في بلاد الإسلام.

أما الرقيق الأبيض فقد جلب من عدة مناطق مختلفة كشبه جزيرة القرم[٤]، ومن بلاد الأرمن وقاعدتها (سيس)[٥]، ومن بلاد خوارزم الذين هاموا في البلاد بعد انهيار دولتهم على يد المغول[٦]، وأجناس أخرى من القفجاق واللان (الآص) ، وفي الدولة المملوكية الثانية صار الاعتماد على شراء العنصر الجركسي.

وراجت تجارة الرقيق في العصر المملوكي، فقد حرص سلاطينهم على شراء أعداد كبيرة منهم، كالسلطان المنصور قلاوون الذي حرص على شراء المماليك السلطانية[٧] من

---

(١) **النوبة**: مدينة كبيرة، وكورة في آخر الصعيد، وأول بلاد النوبة. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٧٨.

(٢) الدوادار، التحفة المملوكية، ص٨٢-٨٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٢٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٩٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ق١، ج١، ص٣٣٥.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٢٠٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦٠-٤٦١، ٤٦٥.

(٥) **سيس**: أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكيا وطرطوس.انظر: الحموي، معجم البلدان ، ج٣، ص٢٩٧-٢٩٨.

(٦) قاسم عبده قاسم، الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث، (د.م) ١٩٩٥م، ص١٠١.

(٧) **المماليك السلطانية**: وهو أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة ، وهو المماليك الذين يشتريهم السلطان أو يبقيهم من مماليك السلطان السابق. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٤٣.

الجراكسة، وبلغ عددهم ستة آلاف وسبعمئة، حتى يكونوا عونًا له في غزواته[١].

وشغف الناصر محمد بن قلاوون بشراء المماليك من بلاد أزبك[٢] وبلاد توريز[٣] وبلاد الروم[٤]، وبذل الأموال في شرائهم[٥]، وهذه الطبقة من الرقيق كانت تلاقي رعاية وعناية من قبل سلاطين المماليك، الذين كانوا في الأصل منهم، ووصل كثير منهم إلى مناصب في الدولة[٦].وفي هذا يشير أبي حامد القدسي بقوله:" فأول أمرهم سَوْقُهم، وجلبهم من بلادهم الشاسعة مُكرهين، مُرغمين، بالأسْر والرقّ والقهر من بلاد الهمج والكفر،..ثم لا يزالون يترقون في دُرُج الكمال،...، ويصير منهم أمراء وملوكاً "[٧].

---

(١) العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٣٨٥؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص٤٤٨.

(٢) **بلاد أزبك**: بلاد مغول القفجاق. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ج٢، ص٤٠١.

(٣) **توريز**: بلدة بأذربيجان يحكمها مغول القفجاق. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ج٢، ص٤٠١.

(٤) **بلاد الروم**: مشارق بلادهم وشمالهم الترك والروس والخزر، وجنوبهم الشام وجنوبهم الإسكندرية، وغربهم البحر والأندلس، يسكنها طوائف من التركمان من أولاد قرمان. انظر: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣٧٨؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٦٤٢.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٣٠؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٤٨؛ وليم موير، تاريخ دولة المماليك، ص١٠٠.

(٦)كان من صور عنايتهم بالمماليك تطبيق نظام صارم بتربيتهم، ويبدأ هذا النظام بشراء المماليك صغار السن، حيث كانت أعمارهم تتراوح بين السبع سنوات إلى اثنتي عشرة سنة، ثم تعليمهم القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب، وكان يؤدبهم مجموعة من المؤدبين والفقهاء. ومما يدل على مدى عناية السلاطين بتعليم المماليك وتأديبهم وتعليمهم أنهم كانوا يختارون لهم كبار العلماء، مثل ابن خلكان، وبدر الدين العيني، اللذين كانا على معرفة باللسان التركي، وتُعَدُّ هذه المرحلة الأولى في تربية المماليك التي تهتم بالخلق الديني والتربوي، ثم تأتي المرحلة الثانية من تربيتهم من سن البلوغ والتي تهتم بالبناء البدني والجسماني للمملوك، والتي تؤهله للعمل العسكري، وهذا كان الهدف الأساسي من جلبهم وشرائهم، واختلف الأمر في العصر المملوكي الثاني فقد تغاضت الدولة عن القاعدة التي كان معمولاً بها، في الدولة الأولى – وهي جلب المماليك صغار السن– فصاروا يجلبون شبابًا يافعًا ومماليك كبارً وأصحاب حرف، ولم يخضع هؤلاء للتربية الأولى أو التقويم الأخلاقي أو للإعداد العسكري. وهو ما كان له آثار سياسية واجتماعية في الدولة المملوكية الثانية. للمزيد انظر: المقريزي، الخطط، ج٣، ص٣٤٥؛ سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م، ص١٩٠؛ قاسم، الأيوبيين والمماليك، ص٢١٢.

(٧) دول الإسلام الشريفة، ص١٠٤، ١٠٥.

وكانوا يتدرجون في بداية أمرهم في وظائف الخدمة، فمنهم فئة الطواشية (الخصيان)[(١)]، وهي الفئة الوحيدة التي أتيح لها غشيان غرف الحريم، بحكم ما لها من وضع اجتماعي خاص، ومن أهم أعمالهم مرافقة الحرائر أو النسوة من زوجات أصحاب النفوذ، منهم الطواشي زين الدين عبد اللطيف المنجكي العثماني[(٢)]، الذي كان من خدام الست فاطمة بنت الأمير منجك اليوسفي[(٣)] وعتيقها، وقد تدرّج بعد عتقه إلى أن أصبح مقدم المماليك السلطانية في زمن الظاهر جقمق[(٤)].

والطواشي صفي الدين جوهر الحبشي[(٥)]، الذي خدم السلطان الأشرف برسباي في أيام السلطان المؤيد شيخ، وخرج معه لما ولي نيابة طرابلس، وخدمه في أثناء سجنه بقلعة المرقب[(٦)]، وبقي معه حتى أفرج عنه[(٧)]، وعندما أصبح الأشرف برسباي سلطانًا

---

(١) **الطواشي:** لفظ فارسي تركي، معناه الخصي، دخل في العصر الإسلامي المتأخر، ليصبح لقبًا للخصي المملوك الذي يستخدم في العصور السلطانية لخدمة النساء ضمن أجنحة الحريم. للمزيد انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٢٨؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص ١٠٩.

(٢) **عبد اللطيف زين الدين الطواشي الرومي المنجكي العثماني الطنبغا:** ممن خدم بعد موت سيده فاطمة ابنة منجك فعرف به، ثم انتقل لخدمة جقمق الأرغون شاوي نائب الشام فلما قتله الظاهر ططر استخدمه وجعله من خواصه فدام سنين، وحج أمير الركب الأول مرة بعد أخرى، كان دينًا خيّرًا صالحـًا متواضعًا كريمـًا محبًّا للفقراء، وكان في نهاية عمره بطالاً يتردد لثغر دمياط لعمارة له هناك فيها مآثر إلى أن مات سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٤٠.

(٣) **الأمير سيف الدين منجك اليوسفي:** أصله من مماليك الناصر قلاوون، من أعيان الأمراء، معروف بين إخوته بالتبجيل ، تنقل في الولايات من الوزارة ونيابة السلطنة في البلاد الشامية والديار المصرية وله مآثر وصدقات وأوقاف على البر، أصلح القناطر ومهد السبل توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص١٢٣؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤٦١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢١٠.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٤٣٤.

(٥) **الطواشي صفي الدين الحبشي الزمام:** كان متديِّنًا يحب أهل الخير ويحسن إليهم، توفي في سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. انظر: المقريزي، السلوك، ج٧، ص٤٢٤.

(٦) **المرقب:** بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٥٠٠؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٢٥٩-١٢٦٠.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٧، ص٤٢٤.

جعله اللالا[١] لولده، ثم جعله خزندار[٢]، ثم ولاه زمام الدار[٣]، فصار من جمل أمراء الألوف[٤].

وانتشرت أسواق الرقيق في العصر المملوكي، ففي دمشق لوحدها ثلاثة أسواق: سوق برا (سوق المارستان[٥])، وسوق الشيخي[٦]، وخان الدكه[٧]، ويجري البيع في هذه الأسواق في يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع، ومعظم الرواد هم من الأثرياء من أهل دمشق[٨].

وكانت هناك أصول تُراعى في أثناء عملية البيع والشراء من قبل الدولة، منها توافر شروط معينة في البائع (النخاس) بأن يكون أمينًا، عادلاً، مشهورًا بالعفة والصيانة[٩].

وكان على النخاس قواعد يجب أن يراعيها قبل أن يبيع لأحد جاريةً أو عبدًا، فكان يلزم بأن يعرف المبيع، أو يأتي إليه بمن يعرفه، ويثبت اسمه وصفته في دفتره لئلا يكون

---

(١) **اللالا**: لفظ تركي، شاع استعماله بمعنى مؤدب أو مربي، عرف به عدد من كبراء الدولة وولاتها المقربين من السلطان. انظر: الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٣٧٧؛ دهمان، الألفاظ التاريخية، ص١٣٣.

(٢) **خزندار**: وظيفته الحفاظ على خزائن الأموال من نقد وقماش. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢١.

(٣) **الزمام دار**: لقب القائد العسكري، أو الأمير من الخدام الخصيان. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٨٧؛ البقلي، التعريف، ج١، ص١٧٣.

(٤) **مقدمو الألوف**: أمير تحت إمرته مئة أو ألف فارس ممن دونه من الأمراء، وهو أمير من الطبقة الأولى، وهي أعلى مراتب الإمارة، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص١٤.

(٥) ابن عبد الهادي، جمال الدين يوسف بن حسن الصالحي الدمشقي (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق بدمشق، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق، م٣٧، كانون ثاني- آذار، ١٩٣٩م، ص٢٤.

(٦) سحر عبد الله محمد، الجواري في العصر المملوكي، قسم التاريخ، كلية التدريب، الجامعة المستنصرية، مجلة الأستاذ، مج١، (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م)، ع ٢٠٨، ص٣٧٩.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص ٢٠٤.

(٨) سحر محمد، الجواري في العصر المملوكي، ص٣٧٨.

(٩) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤.

المبيع حرًّا أو مسروقًا"[١]. وعليه أن يتفقد الشروط التي قد أبرمت بين المولى وعبده أو جاريته، ليعلم المشتري بذلك، كما لا يخفي عيبًا إن كان في العبد أو الجارية[٢].

ولقد روعيت الضوابط الشرعية في أثناء عملية البيع، فإذا أراد البائع شراء جارية جاز له أن ينظر إلى وجهها وكفيها فقط، فإن طلب استعراضها في مترله والخلوة بها فلا يمكنه النخاس من ذلك، إلا أن يكون عنده نساء في مترله فينظرون جميع بدن الجارية، وإن أراد شراء غلام فله أن ينظر إلى ما فوق السرة ودون الركبة[٣].

ومن مظاهر رعاية تلك الفئة الضعيفة مراعاة وضعهم النفسي، فإن كان في العبد أو الجارية عيوب خَلْقية فلا يباعون في تلك الأسواق المفتوحة[٤]، وعدم التفريق بين الجارية وولدها[٥]، وهذا من اللمسات الإنسانية في شريعة الإسلام.

وكانت الدولة ممثلة بسلاطينها قد اعتنت بهذه الفئة، فأصدرت المراسيم لحمايتهم خاصة من ناحية العقيدة، فمنعوا أهل الذمة من شراء الجواري المسلمات؛ حيث ألزم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) النصارى واليهود بالشروط التي اشترطها الخليفة عمر بن الخطاب في زمنه[٦].

وقد تكررت مثل هذه المراسيم في العصر المملوكي، فقد ألزم السلطان الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد بن قلاوون[٧] سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) بالشروط

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤.

(٣) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤.

(٤) علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١١.

(٥) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٣٨.

(٧) **الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد:** هو الثامن ممن تسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، تولى الحكم سنة ٧٥٢هـ/١٣٤١م ، وخلع سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وليس له من الحكم إلا الاسم فقط. انظر: ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٣٣٠.

ذاتها[١].

ويبدو أن سبب هذه الإجراءات المشددة هو خشية الدولة أن تجبر تلك الفئة الضعيفة على ترك دينها الإسلامي، لذلك وقفت الدولة بكل سطوتها لحمايتها.

وعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية قد حرمّت بيع الجارية لمن يتخذها للغناء[٢] إلا أن كثيرًا من السلاطين المماليك وعِلية القوم اقتنوا الجواري للغناء والطرب[٣]. ويذكر ابن حجر في هذا الصدد أن:" دنيا بنت الأقباعي المغنية الدمشقية اشتهرت بالتقدم في صناعتها فاستدعاها الملك الناصر حسن على البريد إلى مصر فأكرمها، ثم وفدت على الملك الأشرف فحظيت عنده"[٤].كذلك اشتهرت المغنية فرحة بنت المخايلة بدمشق ذات الصوت العذب[٥].

وهناك كثير من الوثائق التي تعطي صورة شاملة عن الخطوات التي تتبع حتى لحظة إبرام العقد بين البائع والمشتري، ونستعين بإحدى الوثائق التي فصلت ذلك والمؤرخة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م أن" شمس الدين محمد الحموي التاجر بالقدس الشريف بماله لنفسه دون غيره من الصدر الأجل علم الدين سليمان بن المرحوم الفقير إلى الله تعالى شمس الدين جبريل المصري الحاضر بالقدس الشريف جميع العبد السحرتي الجنس، المسلم الدين، المدعو **رشيد** المعترف لسيده بالرق والعبودية بيعًا صحيحًا شرعيًا وشراءً لازمًا معتبرًا مرضيًا، بثمن مبلغه من الدراهم الفضة معاملة الشام المحروسة خمسمائة درهم نصفها مائتي درهم وخمسون درهماً، حالّة مقبوضة بيد البائع المذكور باعترافه وتسليم المشترى العبد المذكور تسليمًا شرعيًّا تسلم مثله وذلك بعد النظر والمعرفة والمعاقدة الشرعية والتفرق بالأبدان عن تراضٍ، وبه شهد في رابع عشري شهر صفر سنة ثلاثة وثمانين وسبعمائة

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٠٢.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٣.

(٣) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٢٠.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٦٣؛ رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص٢٩٩.

(٥) رمضان، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص٢٩٩.

والبيع المذكور بدلالة بدر الدين حسن بن معروف. شهد عليها بذلك وعاين القبض محمد بن محمد بن سالم. شهد عليها بذلك عبد الله بن عبد الله الصافي" [(١)].

وفي وثيقة أخرى صورة لعقد بيع جارية مؤرخة سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٦م جاء فيها: "اشترى الصدر الأجل المحترم بدر الدين حسن بن الفقير إلى الله تعالى المرحوم تقي الدين أبي بكر بن علاء الدين أحد المصدرين بالصخرة الشريفة أعزه الله تعالى بما له لنفسه من الحاج نجم الدين أيوب بن عبيد بن عبد الله الشهير بالسبكي التاجر السفار المقيم بالقدس الشريف، فباعه ما ذكر أنه بملكه وفي تصرفه إلى حين هذا البيع، وذلك جميع الجارية النوبية الجنس، المسلمة الدين، المرأة الكامل المدعوة مباركة شراءً شرعيًّا لازمًا مرضيا..."[(٢)].

ومن خلال السابقين وغيرهما اطلعنا على أهم بنود العقد، وهي اسم البائع والمشتري، ونوع الرقيق، وجنسه، ودينه، واسمه، واعترافه لمالكه بالسيادة، والقيمة المتفق عليها في الشراء، وتاريخ المكاتبة باليوم والشهر والسنة، ويختتم العقد بكتابه أسماء الشهود؛ مما يضفي عليه الصفة القانونية المتعارف عليها في العقود القضائية.

ويراقب سماسرةَ النخاسةِ موظّف مختص من الدولة، وهو المحتسب الذي يتابع عمليات البيع والشراء[(٣)]. مما يدل على أن هذه الفئة كانت تجد نوعًا من الحماية والرعاية من قبل الدولة المملوكية.

واختلفت أسعار الرق في الأسواق المملوكية، ويرجع التباين فيها إلى الاعتماد على قاعدة العرض والطلب من جهة، وحسب مميزات الجارية والعبد من جهة أخرى[(٤)].

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، وثيقة رقم (٥٢)، م٢، ص١٤٧. وانظر ايضًا: ضمنا بنت عبد الواحد بن سعيد الزهراني، الرعاية الاجتماعية في بيت المقدس في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، غير منشورة ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة ، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٤٦.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٥٧٤) ، م٢، ص١٥٢.

(٣) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٢؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٨٤؛ السيد محمود، الجواري، ص٩.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٥٤؛ الزهراني، الرعاية الاجتماعية، ص٤٤.

وكذلك الحال مع الجواري فقد ذكرت إحدى الوثائق أن ثمن إحدى الجواري كان ٤٨٠ درهمًا فضةً، وجاء في وثيقة أخرى: أن ثمن الجارية التركية كان خمسمئة درهم وخمسين درهمًا[(١)].

ودعا الإسلام إلى تحرير الأرقاء وجعله من أجلّ الأعمال، فأدرك كثير من المحسنين في العصر المملوكي هذا الفضل، ونعم عدد كبير من الأرقاء بالحرية، ولقد رصدت الوقائع لعدد كبير من الأمراء لم يغفلوا عن رعاية الرقيق حتى بعد مماتهم، فحرصوا على عتقهم وتأمين معيشتهم، مثل الأمير علم الدين أرجواش بن عبدالله المنصوري[(٢)] (ت٧٠١هـ/ ١٣٠٢م)، نائب دمشق الذي أوصى بعتق مماليكه وجواريه، وأوقف عليهم وقفًا[(٣)].

كما جاء أن نائب طرابلس الأمير سيف الدين اسندمر الكرجي[(٤)] قبل لقاء المماليك للمغول عند القريتين[(٥)] في سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م: أوصى بوصية بأن: "كل جارية وكل مملوك حر إن وليت ظهري حتى أبلغ قصدي) [(٦)].

فلما مات تحرر مماليكه وجواريه بناءً على وصيته، ويبدو أن سبب هذا الحرص على عتقهم خشية أن يتعرضوا للإكراه والظلم بعد وفاتهم. وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٣٨٢)، م١، ص١٢، رقم الوثيقة (٥٧٤)، م٢، ص١٥٢-١٥٤.

(٢) **الأمير المجاهد علم الدين أرجواش المنصوري:** نائب القلعة بالشام، كان ذا هيبة وهمة وشهامة، قدّر الله على يديه حفظ معقل المسلمين لما ملكت التتار الشام أيام قازان، وعصت عليهم القلعة فلم يسلمها لهم، واقتدت به بقية القلاع الشامية. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٤؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ٣١٦؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٢٩٤.

(٣) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٠٤.

(٤) **الأمير الكبير سيف الدين اسندمر الكرجي:** ولي البر بدمشق ثم نيابة طرابلس ثم حلب. كان بطلاً شجاعًا (سياسيًّا) داهيةً مهيبًا، توفي في سجن الكرك سنة ٧١١هـ/١٣١١م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٦١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨، ص٤٦، ٤٧.

(٥) **القريتين:** قرية من أعمال حمص تدعى أيضاً حوارين. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٣١٥-٣١٦؛ ابن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٠٨٦.

(٦) العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٢١.

على أن تلك الفئة الضعيفة لم تهمّش بل وجدت رعايةً واهتمامًا من قبل أسيادها.

وقد أطلعتنا الوثائق المقدسية على أسماء عدد من الجواري والعبيد الذين أعتقهم أسيادهم، وحرصت الوثائق على الإشارة بذكر لفظه "عتاقة" فلان أو فلانة، فقد جاء في الوثيقة المؤرخة سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م: "نيروز أو فيروز بنت عبد الله، عتاقة المقرّ المرحوم السيفي طاز"[(١)].

وجاء في وثيقة مؤرخة في ٢١ رمضان ٧٩٥هـ/ ٣١ يوليو ١٣٩٣م وصاحبتها تدعى: "غزال بنت عبد الله عتاقة شهاب الدين أحمد الديروطي"[(٢)].

وكان للنساء أيضاً دورهن في تحرير الجواري فقد ذكرت في إحدى الوثائق جارية أعتقت من قبل سيدها تدعى "جوير بنت عبد الله عتاقة فاطمة بنت عبد الله الدمشقية "[(٣)]، وفي وثيقة أخرى ذكرت الجارية "لوكار بنت عبد الله التركية "عتاقة" الست ملك بنت قطلوتمر الناصري"[(٤)].

ولقد شكلت الجواري والرقيق عنصرًا أساسيًا في حياة ذلك المجتمع وفي مقدمتهم السلاطين والأمراء في الدولة المملوكية، فكثير من السلاطين كانت أمهاتهم في الأصل من الجواري، فأمُّ السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون[(٥)] (ت٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) كانت رومية[(٦)]، أما السلطان الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباي[(١)]

---

(١) محمد سالم بن بكر باعمر، المرأة المقدسية في وثائق الحرم الشريف، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، مركز النشر العلمي، رقم الوثيقة (٧٦٢)، ص٢٨.

(٢) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٢٦٩)، ص٢٨.

(٣) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٥٧)، ص٥١.

(٤) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (١٣٠) ، ص٥٣.

(٥) **الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون ، السلطان الملك الكامل بن السلطان الملك الناصر**: تسلطن بعد أخيه الملك الصالح، وقيل أن أخيه أوصى له بالملك ، تولى الحكم سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، انتشر في عهده ظاهرة تولية المناصب بالرشوة، وخلع من الحكم سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، وكانت مدة حكمه سنة وسبعة عشر يومًا. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٨٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٦، ص٢٥٠.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٧. =

(ت٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) فقد كانت أمه جركسية تسمى أصل باي من جواري أبيه[٢].

وشغف السلاطين بجمع الجواري، فعلى سبيل المثال لا الحصر: كان لدى السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م مئتا جارية[٣]. وبلغ عدد جواري السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١هـ/ ٣٤٠ نحو ألف ومئتي وصيفة[٤]. وفي أحداث سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م قضى الطاعون على مئةٍ وستين جارية للسلطان الأشرف برسباي ممن كن برسم الخدمة، ومن الطواشية الخدام ستين[٥].

وتشير بعض إحدى الروايات حول من سجن من السلاطين أو الأمراء إلى وجود الرقيق معهم، فتذكر بأن السلطان الظاهر برقوق عندما وصل إلى موضع سجنه بقلعة الكرك كان له من يخدمه من "مماليك وجوار"[٦].

وعندما سجن الأشرف سيف الدين برسباي من قبل جقمق[٧] الدوادار[١] بقلعة

=(١) **الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن قايتباي:** بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بيوم واحد وهو في سن البلوغ فأقام ستة أشهر ويومين، ثم خلع وتولى الملك الأشرف قانصوه مملوك قايتباي، فأقام نحو أحد عشر يومًا، وتحرك عليه العسكر، فهرب إلى غزة، ثم فقد في وقعة خان يونس ولم يعرف موته ولا حياته، ثم عاد الملك الناصر بعد ثبوت رشده فأقام سنة وستة أشهر ونصف شهر، ثم شرع في اللهو واللعب، وكانت أيامه كلها حروب وفتن، وانتهى أمره مقتولًا سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٤٠١-٤٠٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ج٨، ص٢٢-٢٣.

(٢) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٢٨٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٩٧، ٣٣١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٣٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣١٨-٣١٩.

(٥) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٤١٣.

(٦) ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي(ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)، تاريخه، تح: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي لدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م، ج١، ج٢، ١٩٩٤م، ج٣، ١٩٧٧م، ج٤، ١٩٩٧م ، ج٣، ص٢٧٨.

(٧) **السلطان جقمق**: من أبناء التركمان، تنقل في الخدم حتى تقرر دوادارًا ثانيًا عند الملك المؤيد قبل سلطنته، ثم استقر دوادارًا كبيرًا إلى أن قرره الملك المؤيد في نيابة الشام، قيل إنه كان سيء السيرة، شديدًا على الناس، حصل أموالاً كثيرًة، ظلومًا لا يكف عن قبيح. للمزيد انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٦٤. =

المرقب، قام أحد الخدام ويدعى تغري برمش التركماني(ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) [٢] بأمره وخدمته، فجازاه برسباي بعد توليه السلطة وأعطاه الإمرة، ثم رقاه إلى رتبة أمير آخور[٣]، وأرسله في إحدى التجاريد[٤] إلى حلب ثم عينه نائبًا عليها[٥] .

وقد حظي بعض الأمراء بعناية السلطان من بينهم الأمير بكتمر الحسامي[٦] فقد كان مدة اعتقاله في صفد مكرمًا، إذ بعث إليه السلطان الناصر محمد جارية حبلت منه في الاعتقال، وكانت مدة سجنه سنة وسبعة أشهر[٧]. فيبدو أن وجود الجواري والخدم مع السلاطين وكبار الأمراء كان أمرًا شائعًا في تلك الفترة.

ولقد حاكى أمراء المماليك سلاطينهم في جمع الجواري، فقد جاء في هذا الصدد أن الأمير بيدمر الخوارزمي[٨] نائب الشام كان عنده الكثير من الجواري[١].

=(١) **الدوادار**: حامل دواة السلطان أو الأمير، ويتولى أمرها، ومن مهامه تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغه عامة الأمور. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٧٧.

(٢) **تغري برمش**: كان من التركمان من أهل بهنسا، واسمه حسين، قدم القاهرة صغيرًا، كان أميرًا جليلًا، عاقلا ذا رأي ودهاء للمزيد عن سيرته انظر: ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٩١، ١٠٥-١١٠؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص ٥٨- ٦٥؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٦٨؛ ابن شاهين ، نيل الأمل، ج٥ ، ص٨٨.

(٣) **أمير آخور**: هو رئيس الأسطبل السلطاني والمشرف على خيله. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٣٣؛ زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٤١.

(٤) **التجاريد**: جمع تجريدة، الفرقة من العسكر الخيالة دون الرجالة، والمقصود فيها سير الجنود على وجه السرعة دون أثقال أو حشد. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٢.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص ٩١، ١٠٥-١١٠؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٦٨؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٤، ص٣٩٢.

(٦) **بكتمر الحسامي**: الأمير سيف الدين بكتمر، والي الولاة، صاحب الأوقاف في بلدان شتى، من ذلك مدرسة بالصلت، توفي سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٥٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٣.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥١٦.

(٨) **بيدمر الخوارزمي**: تولى في بداية أمره أول حلب سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م ، ثم ولي دمشق في أواخر دولة الناصر حسن، وأبطل مكس الملح ومكس المغاني، توفي سنة ٧٨٤م/ ١٣٨٤م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٥٦. =

وعندما قبض على الأمير تنكز نائب الشام في سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) "ظهر له من الأملاك والضياع في مصر والشام ما قوم بمئتي ألف دينار، هذا خارجًا عن الخيول والبغال، والجمال، والغلال، والمماليك، والعبيد، والجواري"[(٢)]. واشتهر كذلك أتابك العساكر كمشيغا الحموي اليلبغاوي[(٣)] (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) بجمع الجواري[(٤)].

وظهر في المجتمع في العصر المملوكي زواج الأسياد من الجواري ، وعلى رأسهم سلاطين المماليك فتحدثت كثير من المصادر عن ذلك – على سبيل المثال- عندما عقد السلطان المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون[(٥)] نكاحه في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٣٤١م على جاريتين من المولدات اللاتي في بيته[(٦)].

وسار أمراء المماليك على ذلك النهج من زواجهم بجواريهم، فقد جاء في إحدى الوثائق المقدسية في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، عند حصر تركة امرأة تدعى بوطيّة بنت عبد الله التركية بحضور ممثل نائب السلطة؛ لأنها كانت أرملة أحد أمراء المماليك بالقدس، وقد منحها جزءاً من ثروته[(٧)].

وتحدثت أخرى عن أحد موظفي بيت المقدس ويدعى علاء الدين علي بن قيران،

=(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٧٥.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٧٨.

(٣) **كمشيغا الحموي اليلبغاوي**: تولى عددًا من النيابات منها: نيابة صفد، وحماة، وطرابلس، وحلب، ودمشق، وأتابكية مصر، انتهى به الأمر بسجن الإسكندرية، وقيل إنه دس عليه بالسجن من خنقه، سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م. انظر: المقريزي، السلوك، ج٥، ص٧٧؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٣٠؛ ابن شاهين ، نيل الأمل، ج٣، ص٢١-٢٢.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص ٢٦-٢٧.

(٥) **السلطان المنصور أبو بكر بن قلاوون**: ابن السلطان الملك المنصور، أوصى له والده بالملك بعده برغم أن أخيه الناصر أحمد أكبر سنًا منه، تولى الحكم سنة ٧٤١هـ/ ١٣١٤م، دام حكمه أقل من الشهرين. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص١٥٧؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ٣٣٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٢٩؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٣٥.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٣٥.

(٧) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٥٨٦)، مج٢، ص١٥٨، ١٦١.

أنه قد أعتق جاريته طغتاي، وتزوّجها، وأوقف عليها دارًا[١].

ويتضح من الوثائق السابقة حرص الأسياد على توفير مورد رزق لجواريه عقب وفاتهم، مثلهن في ذلك مثل نسائهم من الحرائر.

و لم يكن عتق الجواري وزواجهم محصورًا في عِلية القوم، بل كثيرًا ما تذكر المصادر عن عامة الناس من أعتق جارية لكي يزوجها شخصًا آخر من الأحرار، فتحدثت إحدى الوثائق المؤرخة سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م عن "الحاجة ألفية بنت عبد الله عتاقة علي بن حسن الدلال في سوق الرقيق بحلب، زوجة الحاج علي بن محمد بن محمود الحلبي"[٢].

وتحدثت وثيقة أخرى عن إحدى الجواري التي أعتقها أحد تجار حلب، جاء فيها أن "قطول ابنة عبد الله عتاقة الخواجا عز الدين بن بكتمر بن عبد الله الدوري التاجر في حلب، مطلقة الحاج محمد بن الآدمي"[٣].

ومن الحقوق التي روعيت في حق الجارية أنها إذا أعتقت وتزوجها سيدها وجب عليه تخصيص صداق لها مثل زوجته الحرة، كما أنها تتولى الوصاية على أبنائها، وقد أثبتت الوثائق بأن القضاء قد راعى هذه الحقوق ونفذها، من ذلك ما قام به أحد تجار بيت المقدس، فقد أسند وصيته إلى زوجته عتيقته يومئذ وبيده عشرة أولاد.. إسنادًا صحيحًا معتبرًا تتصرف لهم في ماله، المخلف لهم التصرف الشرعي"، وقد تم ذلك بحضور أحد أمراء نائب السلطان، واعتمد الوصيةَ القاضي الشافعيُّ بالقدس بعد شهادة الشهود عليها في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٦م[٤].

ومن الحالات التي أظهرتها الوثائق زواج الرقيق من عبيد وجوارٍ، من خلال كتابة عقد الزواج على يد عاقد الأنكحة؛ فمن هذه الوثائق على سبيل المثال: "هيفاء عتيقة الست فاطمة بنت أرغون من حماة، وأن الورثة هم: زوجها طيبغا المعروف أنه عتاقة

(١) باعمر، المرأة المقدسية، ص ٥٢-٥٣.

(٢) باعمر، المرأة المقدسية، ص٥٢.

(٣) باعمر، المرأة المقدسية، ص٥٢-٥٣.

(٤) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٦١٣)، م٢، ص١٤٢.

سالم الأشكال الحاضر معها في القدس"[١].

ووجدت فئة الرقيق نوعًا من الرعاية الاجتماعية، سواء من قبل أسيادهم أو من قبل المجتمع، فتؤكد الإشارات المتناثرة في بطون المصادر المملوكية رعاية السيد وحرصه على معاملة عبده أو جاريته كأحد أبناء أسرته، فيعلّمه القراءة والكتابة، وآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار[٢]؛ مما جعل كثيرًا منهم يبرع في فن من فنون المعرفة، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

أبو سعيد التركي (ت ٧١٣هـ/ ١٣٤١م) مولى مجد الدين ابن العديم[٣]. سمع مع أستاذه وانفرد بأشياء وحدّث بدمشق وحلب، وكانت وفاته في حلب[٤]. ومن المحدثين أيضًا بيليك بن عبد الله الخطيبي (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣١م) [٥] مولى معين الدين الخطيب[٦].

ومنهم من اشتهر بالشعر أمثال الطنبغا الجاولي (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٤م) الشاعر الطريف، الذي كان مملوك ابن باخل[٧]، خدم عند سنجر الجاولي[١]، فنسب إليه، وكان

(١) باعمر، المرأة المقدسية، ص ٥٢-٥٣.

(٢) الزهراني، الرعاية الاجتماعية، ص٤٧.

(٣) **مجد الدين ابن العديم**: قاضي القضاة الحنفي مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن أحمد ابن الحلبي ثم الدمشقي، ولي قضاء الحنفية بدمشق، توفي سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٥٦م. للمزيد انظر: النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٩٠؛ العيني، عقد الجمان، ج٢، ص٢٠٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٤٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٨١-٢٨٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٥٨.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢١٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٠.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٥٨.

(٦) ذكر ابن حجر في ترجمته بأنه " أبو صالح بن الخطيب معين الدين خطيب رأس العين، حدّث عن زين الدين ابن الأستاذ، وكان إمام مسجد رأس درب الحجر"، ومات سنة ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م. انظر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٦٢.

(٧) **ابن باخل**: لم توضح المصادر هوية ابن باخل، ويرجح أن يكون الأمير حسام الدين علي بن باخل أحد أمراء العشروات، المتوفى في موقعة قازان سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م. انظر: النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٣٢؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٦٠. =

سنجر يحبه ويقربه، ويبالغ في الإحسان إليه[٢].

ومنهم من برع في الأدب والنظم، كأيدمر بن عبد الله السناني الكرجي (ت ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) عتيق أقطوان الحاجي[٣].

كما عاشت الجواري جزءًا أساسيًا من الحريم، وكأنهن ضمن أفراد عائلة أسيادهن، يشاركن في المناسبات الخاصة بعائلة السيد من أفراح وأحزان وخلافه، كما طُبِّقَتَ عليهن من قواعد العزلة والحجاب ما طُبِّقَ تمامًا على باقي النساء الحرائر، والفئة الوحيدة التي أبيح لها غشيان جناح الحريم هي فئة الطواشية، أو الخصيان[٤].

ومن الأعمال التي لا تخرج عن صميم عمل الجواري مهنة الطبخ، ومن الإشارات التي تناولت مثل هذه الأعمال ما ذكره العمري في أثناء إعداد وجبات السماط، فقد كان يحتاج لإعداده كمية كبيرة من الدقيق، فاستخدمت كثير من الخادمات لعجن الطحين وخبزه، وكان العمل طوال اليوم، ليتمكن العاملون من توفير وجبات السماط[٥]، وأشار ابن إياس إلى مهارة الجواري في الطبخ عند وصفه لجاريتين برسم الطبخ فقال: "تحسن كل واحدة منهما ثمانين لونا من التقالي، سوى بقية ألوان الطعام"[٦].

وعاشت فئة الرقيق في مجتمع بلاد الشام الذي تسوده المحبة والتراحم بين أفراده،

=(١) **سنجر الجاولي**: فقيه فاضل من أمراء الجند بالديار المصرية، كان من مماليك جاول أحد أمراء الظاهر بيبرس، ولي عدة ولايات بمصر والبلاد الشامية، بنى جامعين أحدهما بغزة يعرف بالجاولية، وصنف كتبًا في الفقه وغيره، كانت وفاته بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٢٩٢-٢٩٣؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣١٦-٣١٩ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٠٩-١١٠؛ ؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٨؛ ابن العماد الحنبلي، ج٦، ص١٤٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١٠؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٠-٢٣١؛ ابن حجر، الدرر الكامنة،ج١، ص٤٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٨٦-٨٧ .

(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١، ص٥١٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص٩؛ رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٧٨.

(٥) مسالك الأبصار، ج١، ص٢٣٤؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٠٩.

(٦) بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٤.

وكثرت فيه الأوقاف التي قامت على أفعال الخير، فقد أورد لنا ابن بطوطة حادثة حضرها بنفسه فقال: "مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكًا صغيرًا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسّرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: أجمع شققها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها، وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن"(١).

وقد أشاد ابن بطوطة بهذا الوقف مصورًا حال ذلك المملوك لولا وجود مثل هذه الأوقاف في بلاد الشام، فقال: "وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بُدَّ له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو -أيضاً- ينكسر قلبه، ويتغيّر لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب، جزى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا"(٢).

وأثبتت الوثائق أن المملوك له الحق كغيره من الأحرار أن يطرق باب قاضي القضاة ويستعين بما يكفيه من الصدقات، إذ إن الحاجة والفقر جمعت بينهما أمام القضاء(٣).

ولم تَسْتَثْنِ الجواري من حقوقهن في المسكن والإعالة والإشراف من قبل المؤسسات الاجتماعية، مثلهن مثل النساء الحرائر، فقد أتاحت لهن الأوقاف ملاذًا ومقامًا ممن لا عائل لهن، وممن قعد بهن الزمن، وشملت بنود وقف رباط الأمير سيف الدين تنكز على النساء إتاحة الفرصة لمن أعتقهن من الجواري بالالتحاق بهذا الرباط، فذكر نصَّ الوقف: "ومن اختارت من عتيقات الواقف المسمّى-أدام الله نعمته- أن تكون في رباط النساء المذكور، فيرتبها الناظر من جملتهن بالمعلوم والجراية، وتكون مقدمة على غيرها من الأجانب المرتبات".

وبهذا البند يضمن لهن موردًا للرزق، وسكنًا دائمًا، إلى جانب الكسوة التي كانت

(١) الرحلة ، ج١، ص١٢٠.

(٢) الرحلة ، ج١، ص ١١٨.

(٣) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٢٣٢)، م١، ص٢١٥.

توزّع عليهن في شهور التوسعة[١].

إضافة إلى الرقيق وجدت فئة أخرى قامت بالخدمة، وهم ممن أطلق عليهم الخُدَّام، وسنسلط الضوء على هذه الفئة التي خدمت في المؤسسات الدينية والتعليمية؛ فمن خلال الاطلاع على الوظائف الإدارية للمساجد نجد منها:

قيّم المسجد: الذي يقوم على خدمة المسجد بكنسه وتنظيفه كل يوم، ونفض الغبار عن أثاثه، ومسح حيطانه، وغسل قناديله وإشعالها، وإغلاق أبوابه[٢].

ومن الوظائف الإدارية في المدارس: البوابون[٣] والفرّاشون[٤]، وممن عمل بوابًا محمد بن يوسف بن محمد الحسامي (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) وقد تحدّث ابن حجر عن سيرته بأنه "كان يتكسّب بالسؤال، ثم ترك وأقام بوابًا للشبلية[٥] وحسنت حاله"[٦].

ونستخلص من حديث ابن حجر بأن وضعه المادي تحسَّن كثيرًا بعد أن أصبح له راتب معلوم من وقف المدرسة. وليس معنى أن يعمل الشخص بوابًا أو فرّاشًا أن يكون

(١) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص١١٦، ١١٧، ١٢٠.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٧٣.

(٣) **البواب**: هو الحاجب الملازم للباب، وقد عرف البوابون بمعنى حراس الباب في جميع العصور الإسلامية، وهم الذين يلازمون الأبواب ليلاً ونهارًا، ولا يغيبون إلا للضرورة القصوى، ومهمة البواب في المدارس: ملازمة باب المدرسة وحفظ ما فيها من أدوات وفتح بابها وإغلاقه، ومراقبة الداخل والخارج من المدرسة. انظر: ابن منظور، لسان العرب ص٣٨٣؛ السبكي، معيد النعم، ص٤٢؛ محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ٢ج، حققه: ظافر القاسمي، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص٥٨.

(٤) **الفرّاش**: هو القائم بخدمة الفرش وما يتعلق به، ومهمته في المدارس: تنظيف أثاث المدرسة، والعناية بها، وتنظيف قاعات المدرسة، وقد وجدت هذه الوظيفة أيضًا في المساجد، والبيمارستان. انظر: الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٨٠٣؛ النباهين، نظام التربية الإسلامي، ص٣٩٨.

(٥) **المدرسة الشبلية**: بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثورا، من مدارس دمشق التي بنيت في العصر الأيوبي، أنشأها كافور شبل الدولة الحسامي حسام الدين بن لاجين. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤١٣؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٧٧-١٧٨.

(٦) الدرر الكامنة، ج٦، ص٧٠.

شخصًا جاهلاً، فقد ذكر بواب المدرسة القليجية[١]علي بن إبراهيم بن يوسف المنيجي بأنه "سمع من الشيخ عبد الحافظ بن بدران سنن ابن ماجه وله إجازة مصرية"[٢]، أي أنه على درجة من العلم و لم يقف وضعه الاقتصادي حائلاً بينه وبين طلب العلم!

وفي البيمارستانات هناك من يعملون أيضًا في مجال الخدمات منهم القَوَمَة والفرّاشين من كلا الجنسين، ويتولون خدمة المرضى، ويغسلون ثيابهم وينظّفون أماكنهم، ويخدمونهم في الحمام[٣] ولكل منهم الجاري والراتب على قدره[٤].

وكان للمحتسب حق الرقابة والإشراف، فقد كان يتفقد أحوال البيمارستان، ويشرف على نظافته، والضرب على أيدي المخالفين والمقصّرين في تأدية واجباتهم، سواء كانوا من الأطباء أو الخدم[٥].كما كان في الخوانق وظيفة بواب، وقيّم، إذ وجد في الخانقاه الحاجبية بدمشق بيت للبواب وبيت للقيم؛ مما يؤكد وجود مثل هذه الوظيفة، ومن مهامه حراسة الخانقاه ومراقبة الداخلين والخارجين منها[٦].

وكانت فئة خدام الحرم الشريف محط اهتمام من قبل سلاطين المماليك، منهم السلطان الأشرف شعبان الذي أصدر مرسومًا سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م، أبطل بموجبه ما كان يأخذه أحد أمراء دمشق من الجوالي التابعة لأحدى القرى في مدينة الخليل، ورسم

---

(١) **المدرسة القليجية**: وصفها النعيمي بأنها: داخل البابين الشرقي وباب توما، شرقي المسمارية، وغربي المحراب، بانيها مجاهد الدين ابن قليج محمد بن شمس الدين محمود". انظر: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٢٩-٣٣٠. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢١، ص٢٦١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ١٣٨.

(٢) ابن رافع، الوفيات، ج١، ص٤٢٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٧٨.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٦٩؛ محمد عطية أبو هويشل، الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة ، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م ، ص٢١١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٦٩.

(٥) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٦٧؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص٩٧؛ رمضان، المجتمع في بلاد الشام، ص١٥٩.

(٦) **الخانقاه الحاجبية**: تقع مقابل المدرسة العمرية بصالحية دمشق، أنشأها الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير مبارك الاينالي دوادار سودون النوروزي، ويعرف بابن مبارك، توفي سنة ٨٧٨ه/ ١٤٧٣م . انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١ ، ص١٠٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٨٣؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص١٦٦.

بأن تصرف تلك الأموال كمرتبات ثابتة لخدام الحرم الشريف بالقدس[١].

وتشير إحدى الوثائق إلى أن أحد خدام الصخرة الشريفة قبض وتسلم من مودع الحكم الشافعي بالقدس نصيبه من تركة المتوفى الحاج محمد بن نجيب ثلاثين درهمًا[٢]، وهذا يبين أن تلك الفئة كانت محط اهتمام المجتمع الشامي حتى صار لهم سهم في التركات. وهذا مما يثير الإعجاب بمدى ما وصل إليه الحسّ التراحمي بين أفراده.

وتُعَدُّ الأوقاف المصدرَ الأساسي في الصرف والإنفاق على تلك المؤسسات، فمن خلال الأوقاف نستطيع تحديد مقدار الخدمة الاجتماعية والثقافية التي تقدمها، ومن خلالها أيضًا نستطيع تحديد عدد العاملين فيها، ومقدار ما يتقاضون من مرتبات، فقد أطلعتنا وثيقة وقف جامع جراح[٣] بدمشق على شرط الواقف وعدد العاملين فيه مع مرتباتهم، فنجد أنه حددَّ للقيِّم ثلاثين درهمًا في الشهر"[٤]. وفي وثيقة المدرسة الظاهرية بدمشق كان يوزع الخبز على جميع العاملين[٥].

كما حدد واقف المدرسة التنكزية رواتب العاملين في المدرسة، وخصص لكل واحد من هؤلاء مبالغ نقدية شهرية، ومواد عينية يومية على النحو التالي[٦]:

---

(١) انظر:ملحق رقم (٣)، وثيقة لنسخه المرسوم الاشرفي الناصري، من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس رقم(٦)

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، م٢، رقم الوثيقة (٣١٢)، ص١٠١.

(٣) **جامع جراح**: يقع في دمشق، وهو مسجد كبير، وفيه بئر، جدده جراح المضحي، ثم أنشأه جامعًا الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل في سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣١م، ثم جدد بناءه الأمير مجاهد الدين محمد ابن الأمير غرس الدين قليج النوري في سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ٣٢٣، ٣٢٤.

(٤) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٣٢٤.

(٥) ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، مطابع مركز الطباعة الحديث، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٦) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص ١٠٥-١٠٧، ص١١٨؛ ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف المسلمين، ص٣٨.

المستفيد	المعلـــوم النقـــدي	المعلـــوم العينـــي
قيِّم المدرسة	عشرون درهمًا فضة شهريًّا	نصف رطل من الخبز يوميًّا
البواب	عشرون درهمًا فضة شهريًّا	نصف رطل من الخبز يوميًّا
قيم الطهارة	عشرة دراهم شهريًّا	نصف رطل من الخبز يوميًّا

وفي وثيقة وقف البيمارستان القيمري في دمشق وصل راتب خادم البيمارستان إلى ١٣ درهمًا شهرياً، ويحصل على سدس غرارة من القمح[١].

ومن خلال السرد السابق يتضح أن الرقيق والخدام لم يكونوا فئة منبوذة من المجتمع، بل وجدوا الرعاية والعناية في عصر دولة المماليك؛ إذ بلغ كثير من الأرقاء أرقى المناصب في الدولة من ناحية، ومن ناحية أخرى وجدت تلك الفئة الرعاية من مجتمع بلاد الشام الذي تسوده الألفة والتراحم بين أفراده.

(١) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٥٨-١٥٩.

المبحث الخامس
رعاية المطـلقات والأرامل

أولاً: رعاية المرأة المطلقة:

أ- الخَلْـــع:

أباح الله تبارك وتعالى لعباده النكاح، والحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وأداء كل واحد من الزوجين ما عليه من حقوق، لكن قد يطرأ على الزواج أمور تنافي الحكمة من مشروعيته، فمن حكمة الإسلام ورحمته أن رخّص بالفراق بينهما دفعًا للضرر، ولا مصلحة للزوجين حينئذ إلا في هذا العلاج الوحيد، فإن كانت الكراهة من جهة الزوجة فلها أن تطلب الخَلْع[1]، وهو فراق ببَدَل، وهو حق من حقوق الزوجة لها أن تطلبه في حدود ما شرع الله، قال الله – سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾[2].

قال ابن رشد: والفقه أن الفداء إنما جُعِل للمرأة في مقابلة ما بيد الرجل من الطلاق، فإنه لّما جُعِل الطلاق بيد الرجل إذا فرك المرأة – أي أبغضها – جُعِل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل[3].

وتضمّنت الوثائق المملوكية كثيرًا من الحالات والقضايا الزوجية التي تؤكد أن المرأة

---

(١) **الخَلْع لغة**: النزع والإزالة، فخلع الرجل ثوبه أي أزاله. انظر: ابن سيده، المحكم المحيط الأعظم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ج١، ص١٣٩؛ وقال ابن الأثير في النهاية: يقال: خلع امرأته خُلعًا وخالعها مخالعة واختلعت هي منه فهي خالع، وأصله من خلع الثوب، انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ، ج٢، ص٦٥؛ وقال ابن قدامة في المغني: يسمى خَلْعًا لأن المرأة تنخلع من لباس زوجها، ويسمى افتداءً لأنها تفتدي نفسها بمال تبذله. ابن قدامة، المغني، دار عالم الكتب، الرياض، ط٥، ١٤٢٦هـ، ج١٠، ص٢٦٨.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٢٢٩.

(٣) ابن رشد، بداية المجتهد، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦ه، ج٣، ص١٠٥٧.

في العصر المملوكي قد حصلت على حقوقها بقوة القضاء؛ مما يدل على مدى الرعاية التي نالتها المرأة في زمنهم؛ فمن هذه الحالات:

ما جاء في الوثيقة المؤرخة بتاريخ ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م أن الحاج يحيى بن خضر بن نصر الله من نابلس "تزوج من زينب بنت خليل بن أبي الفتح النابلسية، المعروف والدها بالقاضي"، ثم جاء على ظهر الوثيقة نفسها بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ٧٨٥هـ/ ٢٨ مايو ١٣٨٣م، أي بعد حوالي خمس سنوات أن الزوجة المذكورة تطلب من زوجها الحاج يحيى الخلع "في مقابل أن يسترد الصداق، وأنه قبل ذلك"[١].

وفائدة الخلع تخليص المرأة من الزوج على وجه لا رجعة له عليها إلا برضاها وعقد جديد وصداق جديد[٢]، وهذا ما سجلته مثل هذه الحالات التي تمت في تلك الحقبة الزمنية، فتشير احدى الوثائق، المؤرخة في ٦ ذي القعدة سنة٧٧٠هـ/ ١٣٦٩هـ، إلى أن رجلاً تزوج امرأته خديجة للمرأة الثالثة، وأنها قد اختلفت منه، بصداق جديد[٣].

ومن حالات الخلع أيضًا عندما يعقد القِران ثم يُكتْشف بأن الزوج مُعِسرّ عن دفع الصداق، فهنا يحق لولي الزوجة أن يطالب بخلع هذا الزواج، كما في حالة "بثينة بنت خليل بن غازي"، التي غاب عنها زوجها قبل دخوله بها، ولم يعلم مكانه، ولم يترك نفقة لها، وليس له ما ينفق عليها منه، بمعنى أنه (مُعْسِر) عن مهرها، في هذه الحالة رفعت المدعوة "بثينة" للقضاء قضيتها وشهد الشهود على ذلك فنالت الخلع بسهولة[٤].

ب- حق مؤخر الصداق والنفقة بعد الطلاق:

جرى العُرف على تدوين مؤخر الصداق، ومقداره في عقود الزواج، فقد ورد في إحدى سجلات الزواج أن قيمة الصداق ٤٠٠ درهم فضة، دفع الزوج منها النصف مقدّمَ صداق، والنصف الآخر يجب أن يُدْفّع لها في حال الفراق بموت أو بطلاق بائن،

---

(١) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٤٤) ، ص٣٨.

(٢) البهوتي، كشاف القناع، ج٥، ص ٢١٢.

(٣) كامل العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٤٧)، م١، ص٢٥٤-٢٥٧.

(٤) كامل العسلي، وثائق مقدسية ، رقم الوثيقة (٦٠٩) ، م ٢، ص٥١.

وكان تسجيل الصداق عاجله أو آجله عادة متبعة عند جميع أبناء الطوائف الدينية من مسلمين وأهل ذمة، خاصة عند الفقراء فكان المعجل منه ثلثاه والمؤجل الثلث الباقي[١].

فقد جاء في الوثيقة رقم (٢٨٧) بتاريخ ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥٥م أن الزوجة المطلقة "قبضت وتسلمت وصار إليها من زوجها.. من الذهب الهرجة، المسكوك أربعين مثالاً (دينارًا)، نصف ذلك عشرون مثقالاً، وذلك مؤخر صَدَاقها على زوجها المسمى فيه قبضًا شرعيًّا ولم يتأخر لها من ذلك شيء قلّ أو جلّ، وأقرت أيضًا أنه كان يعطيها كسوتها ونفقتها"[٢].

فقد أكدت الوثيقة سابقة الذكر أن المرأة حصلت على حقها من نفقة المتعة، وهي مال يعطيه الزوج إلى مطلقته زيادة عن الصداق، تخفيفًا على الزوجة لما قد يصيبها من ألم وحسرة بسبب تطليقها لسبب غير راجع إليها، أيضاً بسبب استعمال الرجل لحقه في طلاق زوجته[٣]، قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[٤].

ومما يلفت النظر أن المرأة في العصر المملوكي كانت تستمد قوتها من قوة القضاء الذي وجدت فيه المنفذ لحل مشكلاتها، فالمطلقة كان لها الحق في رفع دعوى قضائية لدى قاضي القضاة تطلب من طليقها ما تستحق من متعة وكسوة بعد الطلاق، ومؤخر الصداق، فتنال حقها بقوة القضاء.

ج- حق المطلقة في حضانة الأطفال والنفقة عليهم:

من حقوق المرأة المطلقة الاحتفاظ بأولادها وحضانتهم، ولها الحق في الحصول على أجرة الرضاع والحضانة، وما يتبع ذلك من أجرة المسكن، ونفقات الطفل من طعام وكساء وعلاج، قال تعالى : ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ

---

(١) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٢٨٣.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٢٨٧)، م٢، ص١١١؛ محمد باعمر، المرأة المقدسية، ص٣٩.

(٣) ممدوح عزمي، كتاب دعوى النفقة، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٤٩.

(٤) البقرة : الآية:٢٤١.

أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾[١].

ومن أكثر الأمور التي تعانيها المطلقة هو حرمانها من صغارها، وتؤكد الوثائق بأن المطلقة في العصر المملوكي قد نالت حق رعاية أطفالها، فقد جاء في الوثيقة المؤرخة سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م "مقداره ما دفعه برهان الدين الناصري بالقدس لزوجته من نفقة لولده الرضيع من الدراهم ثمانية وعشرين درهمًا نصفها أربعة عشر درهمًا، وذلك فرض ولده الرضيع من عاشر المحرم إلى سلخ شهر تاريخه من ثامن عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة". وكما يظهر من الوثيقة، فإن الزوج قد سلم هذه النفقة لأخي الزوجة لكي يسلمها لها[٢].

ثانيًا: المرأة الأرملة :

ينظُر الإسلام منذ البداية للأرْملة نظرةَ تعاطُف ورحمة باعتِبارها ذاتَ ظروف خاصَّة، وتَحتاج لمن يُسانِدُها، ويدعم كفاحَها، فهي سيدة قُدِّر لها أن تفقد زوجها وعائلها، ولا بدَّ أن تنال رعاية المجتمع المسلِم، الذي ينبغي أن يكفُلَها كفالةً سويَّة هي وأبناءها.

وقد جعل الإسلام الإحسان إلى الأرملة ورعايتها من الأعمال الجليلة والقُرُبات إلى الله تعالى، وفرض لها حقوقها الشرعية كافة التي تعينها.

ومن خلال استقراء بعض الوثائق المملوكية نتعرف إلى كثير من الحالات التي وقفت فيها المرأة الأرملة أمام القضاء مطالبة بحقوقها التي فرضها الإسلام، ونتعرف إلى موقف القضاء في العصر المملوكي من الأرملة في جميع حالاتها:

أ- حقها الشرعي في الميراث:

سبق الحديث عن ديوان المواريث الحشرية الذي يضع يده على تركات الورثة، فنجد كثيرًا من الوثائق التي يحاول أصحابها أن يتحايلوا على هذا الديوان، فمن هذه

---

(١) الطلاق: الآية: ٦.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، م١، رقم (٤٥٨)، ص١١٥، وثيقة رقم (٢٨٩)، ص١١٦.

الأساليب، أن يعمل الزوج حصرًا بموجوداته قبل الوفاة على يد أحد قضاة الشرع والشهود، ويثبت أن تركته مَدِيَنة لزوجته، وأن لها في ذمته مبلغ كذا، كمؤخر صداق، أو أن يبيع كل ممتلكاته لها، أو يوقفها عليها، كمحاولة منه ليضمن لعائلته حياة كريمة. ففي إحدى الوثائق سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م" أقر الزوج أن كل ما ذكره في الوثيقة من قماش وأثاث ونحاس وبسط وفرش ملك لزوجته، كما أقر أن لزوجته في ذمته صداقها، وقدره مائتا درهم"[١].

وفي وثيقة أخرى أرّخت سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م جاء فيها: "أن مؤخر صداق زوجة الشخص المذكور "من الدراهم الفضية معاملة يومئذ ثلاثمئة درهم وستين درهمًا"، وذلك صداق الزوجة دينًا على المذكور"[٢].

ونستشف من هذه الوثائق التي وثقت في القضاء فائدتين مهمتين:

الأولى: أنه على الرغم من قوة ديوان المواريث الحشرية إلا أننا نلاحظ منافذ استطاع من خلالها الورثة الحصول على ميراثهم بقوة القضاء، حيث وثقت تلك الوثائف عند قاضي الشرع، وبوجود الشهود.

الثانية: حصول الأرملة على حقها الشرعي في الإرث في زمن الدولة المملوكية، الذي منح المرأة حقوقها الشرعية كافة.

ب- حقها في الوصاية على أبنائها الأيتام:

سجلت لنا الوثائق أروع الصور الإنسانية التي تحققت للأرملة في كنف العصر المملوكي فقد تمتعت بحقها في الوصاية على أبنائها وعلى أموالهم، فالأم أكثر شفقةً على صغارها، وأرفق بهم، ما دامت أهلاً للوصاية[٣] فقد جاء في وثيقة مؤرخة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م أن أحد تجار بيت المقدس وهو على فراش الموت: "أسند وصيته إلى زوجته

(١) صالحية، وثائق الحرم الشريف المملوكية، ص١٠٢.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، م٢، رقم الوثيقة (٢٠٥)، ص ١١٣.

(٣) تسنيم استيسي، حقوق اليتيم، ص٥٢-٥٧.

تتصرف لهم في مالهم المخلَّف لهم التصرف الشرعي"[١].

وقد جاء في وثيقة أخرى سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م أن أحد أبناء بيت المقدس ويدعى أبا بكر بن علي بن الأرز الرومي، قد أسند وصيته على ابنته إلى زوجته خديجة بنت شهاب الدين أحمد، حسب الوصية الشرعية[٢].

ومما يُلاحظ على هذه الوثائق أن اختيار الزوجة وصيةً على أبنائها كان من قِبل الزوج؛ مما يدل على مدى المكانة التي تمتعت بها الزوجة حتى تكون أهلاً لهذه الثقة والمسؤولية التي ألقاها الزوج على عاتقها.

و لم تغفل الدولة عن واجبها نحو الأيتام والإنفاق عليهم، فقد خصصت لهم موظفين مسؤولين عن رعاية شؤون الأيتام لدى القاضي وكانوا ينفقون عليهم[٣].

ومن الوثائق التي كانت شاهدةً على حرص الدولة على مصالح الأرملة وأبنائها ما جاء في الوثيقة المؤرخة في سنة٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، أن "الشيخ شمس الدين يسلم أم أيتام برهان الدين الناصري النفقة، مئة وسبعون درهمًا عن مدة أربعة شهور كاملة"[٤].

ونلحظ أن القيمة المدفوعة للأرملة والأيتام زادت في شهر رمضان فأصبح يدفع لها مئة وعشرين درهمًا عن مدة شهرين، وهذا من باب التوسعة على المحتاجين في الشهر الكريم[٥].

ومن اللافت للنظر أن وثائق الأوقاف لم تغفل العناية والاهتمام بالنساء الأرامل والقواعد والمطلقات والفقيرات، اللاتي لا مأوى لهن، فقد كان يصرف من ريعها على خدمة هذه الفئة، وتوفير الحياة الكريمة لهن من مأكل وكسوة ومسكن، وخُصِّصَ من يقوم بخدمتهن وتوفير متطلباتهن.

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٦١٣) ، م٢، ص١٤٢.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، ج٢، ص٤٩.

(٣) سبقت الإشارة إلى واجب الدولة نحو الأيتام في مبحث الأيتام.

(٤) العسلي، وثائق مقدسية، م ٢، رقم الوثيقة (١٩٢) ، ص١٠٥.

(٥) العسلي، وثائق مقدسية، م٢، رقم الوثيقة (١٨٣)، ص١٠٧.

وأسهم السلاطين المماليك ورجال الدولة بدعم مثل هذه المؤسسات الاجتماعية، فقد أوقف في زمن السلطان الناصر محمد قلاوون كثيراً من الأوقاف في بلاد الشام لخدمة المجتمع، وعمّر بالقدس رباطًا وحمامين[1].

وكان للسلطان جقمق كثير من أعمال الخير على أهل المؤسسات الدينية والاجتماعية من مساجد وزوايا وخانقاوات وربط [2].

ووقف شمس الدين المزلق[3]سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م عدة قرى ومزارع، يصرف ريعه إلى فئات من المحتاجين، كان بينها الأرامل[4].

ووقف الشيخ برهان الدين إبراهيم بن شريف القدسي[5]في سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م عدة قرى من أعمال القدس بحيث يصرف من ريعها على الأرامل المنقطعات بالرباط المخصص لهن في مدينة القدس[6]. وخُصِّصَ ثلث أوقاف الخانقاه النورية بحماة على النساء المقيمات بها، وعلى من يرد عليهن[7].

ومن أجل إيواء المطلقات والأرامل والمنقطعات ممن لا معيل لهن وجدت أعداد من الربط والزوايا والخوانق المخصصة لمثل تلك الفئة من النساء، فمن خلال تتبع الإشارات المنتشرة في المصادر نستشف وجود مثل هذه المساكن التي خصصت لمثل تلك الفئة،

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٥٨؛

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٩٧، ٢٢٥.

(٣) **محمد بن المزلق**: القاضي شمس الدين ابن الخواجا شمس الدين، الشهير بابن المزلق الدمشقي الشافعي، توفي مقتولاً سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م. انظر: البصروي، صفحات مجهولة، ص٢٠٧؛ الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص٣٧.

(٤) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص٦٧.

(٥) **شيخ الإسلام برهان الدين ابن أبي شريف المري المقدسي**: ولد في القدس ونشأ بها ودرس على أخيه الكمال، وحفظ القرآن وهو ابن سبع، ثم انتقل إلى القاهرة، تولى المناصب الجليلة، وتوفي بها سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. انظر: الغزي، الكواكب السائرة، ج١، ص١٠٢.

(٦) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص٢٧.

(٧) الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٠١.

حيث ذكر الأربلي عشرون رباطًا للنساء[١]. بل وأشار النعيمي إلى أربطة بأسماء النساء مما يدل على أنها كانت مخصصة لسكن النساء كرباط صفية، وزهرة، وبنت السلار[٢].

أما ابن طولون فقد أشار إلى رباط للنساء شمالي دار الحديث القلانسية[٣]، ورواق معد للنساء داخل دار الحديث النظامية[٤]. ويصف الزاوية الداودية بأن بها "إيوان ومسجد وخلاوي كثيرة، ومكتبة ومساكن للنساء"[٥]. مما يثبت بأن الزوايا احتوت على مساكن للنساء، وليست حصرًا على الرجال. وهذه الإشارات واضحة جلية بوجود مؤسسات قامت بدور اجتماعي لرعاية النساء.

ويستشف من خلال عدة وثائق لحصر الإرث أنها سجلت حالات من الأرامل والعجائز اللاتي لم يتزوجن من قبل، وذكرت أسماء الدور اللاتي أقمن بها.

فقد جاء في وثيقة إحدى النساء العجائز التي كانت تسكن في دار العجائز "أم نفيسة" في حارة المغاربة، وكانت تدعى "خاتون بنت حسام الدين بن أحمد الطرابلسية"، ولأنها لم تتزوج فإن ورثتها الذين حددتهم هم: أولاد عمها.....، الغائبون في طرابلس"، وعلى الوثيقة توقيع الشهود وعلامة قاضي القضاة الشافعي". وهذه الوثيقة مؤرخة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[٦].

ويفهم من الوثيقة السابقة أن تلك العجوز طرابلسية الأصل، وأبناء عمها غائبون في مدينة طرابلس، وعلى الرغم من ذلك فإنها سكنت تلك الدار في حارة المغاربة في مدينة

---

(١) مدارس دمشق وحماماتها، م٢٢، ج٥، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢) الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٥١.

(٣) **دار الحديث القلانسية**: أنشأها الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي ابن القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار، توفي سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م. انظر: ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٤٣، ١٤٤.

(٤) **دار الحديث النظامية**: تقع شرقي الصالحية، أنشأها قاضي القضاة نظام الدين أبو الحفص عمر، توفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م. ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٤٥، ١٤٦.

(٥) القلائد الجوهرية، ق١، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٦) باعمر، المرأة المقدسية، ص٢٥.

القدس، وهذا بدوره يؤدي بنا إلى الاعتقاد أن مثل هذه الدور كانت ملجأ للنساء اللاتي لم يتزوجن و لم يكنْ لهنَّ عائل يعولهن، فسكنت تلك الدار.

ومما يؤكد وجود مثل هذه الدور إشارة أخرى في وثيقة أرخت بسنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م لامرأة تدعى مخلصة بنت صالح بن عمر العجمية، تقطن في دار تعرف باسم دار المرقب في حارة المرداوية بالقدس، وقد وضحت الوثيقة بأنها وحيدة وليس لها أهل؛ لذلك حددت وارثها، وهو بيت المال[(١)].

ولعل من أهم الوثائق الوقفية وأشهرها رباط النساء المذكور في وثيقة الوقف الخاصة بالأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الناصري (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)، فقد جاء فيها: (وقفه المسمى تقبله الله منه على اثنتي عشرة امرأة مسلمات ديّنات، خيرات، صالحات، عجائز، خاليات عن الأزواج، فقيرات، مقيمات في الرباط المذكور)[(٢)] .

فمن خلال هذا النص نستطيع أن نلقي الضوء على عدة أمور مهمة:

أولاً: الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن تسكن هذا الرباط:

فتصور لنا هذه الوقفية الصفات التي تشترط في النساء المقيمات بالرباط، ويتّضح من هذه الصفات أنهن نساء ذوات حاجة اجتماعية ملحة لا عائل لهن، خاصة أنهن فقيرات كبيرات في السن. ومن ناحية أخرى استثنى نساء أهل الذمة، ونساء البغي والفسق، والنساء الشابات والمتزوجات. و لم يغفل تحديد العدد المتوقع إعالته؛ مما يدل على مدى الدقة المتبعة في إنشاء مثل هذه المؤسسات الاجتماعية.

ثانيًا: ما ارتبط بهذا الوقف من آثار اجتماعية وإنسانية كبيرة حيث وجدت النسوة قوت يومهن، ووفرت لهن لقمة العيش الكريمة، كما أنه خفف عليهن أعباء الحياة، ومن خلال الجدول التالي يتضح لنا الرواتب النقدية والعينية التي كان تصرف على نساء

---

(١) باعمر، المرأة المقدسية، ص٢٥.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص١١٨؛ عبد الجليل عبد المهدي، المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٦٩١.

الرباط[١]:

المستفيد	الراتب (الجامكية)	الجراية (مواد عينية من خبز ونحوه)	ملاحظـــــــات
شيخة الرباط	عشرون درهمًا فضة شهريًّا	نصف رطل من الخبز يوميًّا	توزّع عليهن كسوة في شهور التوسعة رجب، شعبان، رمضان من كل عام.
القيّمة البوّابة بالرباط	عشرة دراهم فضة شهريًّا	نصف رطل من الخبز يوميًّا	
الفقيرات الواردات إلى الرباط	سبعة دراهم ونصف درهم شهريًّا	ثلث رطل من الخبز يوميًّا	
الفقيرات الواردات إلى الرباط	ربع درهم فضة	ثلث رطل من الخبز يوميًّا	يستضاف الفقيرات لمدة عشرة أيام.
عتيقات الواقف	سبعة دراهم ونصف درهم شهريًّا	ثلث رطل من الخبز يوميًّا	

وكان لهذه الأربطة بعض التأثير العلمي على ساكنيها من وعظ وإرشاد وقراءة كتب ودروس، حيث كانت شيخة الرباط تتولى تعليمهن وتثقيفهن. فيجتمعن في إحدى إيواني الرباط بعد صلاة الصبح في كل يوم، ويقرأن سورة الإخلاص والمعوذتين، وفاتحة الكتاب العزيز، ثم يذكرن الله تعالى، ويصلين على محمد ﷺ ثم تدعو شيختهن كدعاء المدرّس[٢].

ومن خلال ما سبق يمكن القول إن مثل تلك الأوقاف حققت أهدافًا علميةً وتعليميةً لنساء الرباط، فكانت أمة الكريم ابنة الناصح عبد الرحمن الحنبلي (ت ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) تقرئ طالبات العلم في رباط بلدق بدمشق [٣]. مما يدل على وفود بعض

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص١١٨؛ عبد المهدي، المؤسسات التعليمية، ج٢، ص٦٩١.

(٢) العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص ١٠٥-١٠٧، ١١٨؛ ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص٣٨.

(٣) **ابنة الناصح**: أمة الكريم ابنة الناصح عبدالرحمن بن نجم الحنبلي، امرأة جليلة كاتبة فاضلة، سمعت من أبيها، كتب عنها ابن الخباز والبرزالي، وسمعت بإربل صحيح البخاري. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٢١.

العالمات لنشر العلم بين النساء في الزوايا والخانقوات والأربطة.

وتأثرت بعض الأرامل بزوجها ودوره التعليمي، فتابعت مسيرته بعد وفاته، فيذكر أن زوجة المعلم "معاية الكيـــال"(ت٨٧٠هـــ/ ١٤٦٥م)، واصلت ما بدأه زوجها من مجالس الذكر في الزاوية المعايية[(١)] المنسوبه إليه وتدعى عائشة أخت خليل الكيال[(٢)]، واستمرت تقيم مجالس الذكر فيها إلى أن توفيت[(٣)].

لا تقتصر مهن النساء في حضارتنا الإسلامية على الاشتغال بالعلم، بل تنوعت في مختلف نواحي الحياة، ولكن في هذا المبحث سنلقي الضوء على أهم المهن التي تتوافق مع النساء الفقيرات والأرامل بشكل خاص، مع الإشارة إلى أن كثيرًا من المهن التي ســـيتم ذكرها ما هي إلا مقتطفات قليلة متناثرة هنا وهناك، نتيجة إغفال كثير مـــن المـــؤرخين لدور المرأة خاصة من الناحية الاجتماعية.

فقد أباح الإسلام للمرأة أن تعمل خارج بيتها في حالة الضرورة، ولم يتشـــدد في ذلك؛ مراعاة لحاجتها أو حاجة مجتمعها، فقد تظهر للعمل لظـــروف زوجهـــا وضـــآلة معيشته، أو لمرضه أو لسبب آخر من هذا القبيل، أو لحاجة مجتمعها، خاصـــة في بعـــض الأعمال الخاصة بالنساء[(٤)].

وكانت هناك أسباب كثيرة وراء ممارسة عدد من الأمهات بعض المهن في العصر المملوكي، مثل الفقر وعجز الآباء عن توفير النفقة للأبناء والزوجات، ولكـــن مـــن الأسباب الرئيسية في عمل المرأة كان وفاة الزوج تاركًا عددًا من الأبنـــاء تتحمّـــل نفقتهم الأم الأرملة، وهذا ما أكّده كثير من المؤرخين من أن الأمهات الأرامل كـــن يعملن للنفقة على أولادهن بل عرف عن مهنة الغزل أن أكثر القائمين عليها كن من

---

(١) **الزاوية المعايية**: بناء المعلم معاية الكيال، وقيل انه بناها من مال زوجته الصالحة عائشة، ويبدو أنها استمرت حتى زمن ابن طولون. انظر: القلائد الجوهرية ج١،ق١، ص ٢٩٨.

(٢) لم أجد لها ترجمة في المصادر المتاحة.

(٣) ابن طولون، القلائد الجوهرية ج١،ق١، ص ٢٩٨.

(٤) إبراهيم بن محمد الحمد المزيني، العمل عند المسلمين، الرياض، وزارة العمل والشـــؤون الاجتماعيـــة، ط١، ١٤٢٣هـــ، ص٤٤.

النساء الأرامل اللاتي يعملن لتربية أطفالهن[١]؛ فقد أجادت النساء كثيرًا من الأعمال والمشغولات الحرفية البسيطة التي كن يقمن بها في منازلهن في الغالب كالنسيج والغزل[٢]. ومن الأعمال التي ارتبطت بالمترل مهنة الخياطة وهي مهنة أتقنتها المرأة تتكسب منها ما تعول به نفسها[٣].

ويبدو أن النساء كانت تخرج لبيع ما تغزله بنفسها أو تعطيه إلى المنادي لبيعه ويجلسن في المسجد بأطفالهن[٤]؛ ولذلك كانت أكثر تجمعات النساء في سوق الغزل والكتان لعرض ما لديهن من سلع؛ ومما يدل على ذلك إشارة البدري إلى الأسواق النسائية في دمشق بقوله: "وتحت القلعة سوق للقماش المذروع وسوق قماش للمخيط أحدهما للرجال والآخر للنساء"[٥]. ووضح ابن الحاج ما تقوم به النساء في الأسواق من مباشرة عمليات الشراء والبيع[٦].

ومن المهن التي ارتبطت بالأسواق النسائية مهنة الدلالة التي كانت توفّر الأقمشة والملابس وأدوات الزينة للنساء وبيعها نقدًا أو بالإقراض، مقابل الحصول على رهن، وقد أورد كثير من الوثائق عمليات بيع عن طريق الرهن، وذكر فيها مهنة الدلالة؛ مما يؤكد انتشار مثل هذه المهن في العصر المملوكي[٧].

ومهنة القابلة: هذه اللفظة، في اصطلاح أهل الشام، اسم لامرأة عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد، وهي مختصة بالنساء، خاصة إذا كانت أُمًّا ولديها خبرة وتجربة بأحوال النساء، وهي من المهن المتوافقة مع طبيعة المرأة الأرملة، فمن الطبيعي أن تمتهنها

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٨؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١١٢ الصيرفي، علي بن داود المعروف بالخطيب الجوهري (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، إنباء الهصر بأبناء العصر، تح: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م ص٣٩.

(٢) المزيني، العمل عند المسلمين، ص٤٦.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٥.

(٤) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١١٣

(٥) نزهة الأنام، ص ٦٢.

(٦) المدخل، ج١، ص٢٣٩، ٢٦٨؛ ج٢، ص٥٤؛ ج٤، ص٣٢.

(٧) صالحية، من وثائق الحرم، رقم الوثيقة (١٦٣)، ص٨٥.

كثير من الأرامل[١].

ومن المهن التي ارتبطت بالمؤسسات الصوفية الخاصة بالنساء كالروابط والخوانق مهنة "الفرّاشّة"، التي سبق الحديث عن دورها آنفًا، و"السقاية"؛ إذ تشير الوثـائق إلى وجـود نساء امتهنَّ هذه المهنة فكنّ يوزّعنَ المياه على نساء الرباط[٢].

ومن مهن النساء في حمامات النساء البَلاّنة: وهي أبرز العاملات في الحمام، وكانت مهمتها رعاية شؤون المستحمّات، من جلب الماء، وعمل التفريك، وما إلى ذلك، فقـد كانت هذه المهنة تتطلب جَلَداً وصَبْراً وقدرةً على التحمل، وغالب فقيرات النساء يغسل بعضهن بعضًا[٣].

ومنهن من خرجت للبحث عن مهنة تعينها في تـوفير قـوت لأبنائهـا كمهنـة "المحمرة"، ويبدو أن هذه الحرفة لم تكن دائمة، بل مؤقتة في أيام معلومة، فإن العـادة في دمشق في أيام معيّنة من السنة أن يباشر أصحاب الكروم في قرى دمشق بتحمير غصون الكروم. والسبب في ذلك: أنه يخرج في ذلك الوقت دود صغير فيأتي أصـحاب الكـرم بالحمر من النساء اللاتي عرفن بتلك المهنة لمكافحة هذه الحشرة[٤]، وظهرت مهنة أخرى خاصة بالفلاحة وهي المعشّبة: حيث تزاول المعشّبات هذه المهنة في زمن الربيـع، عنـد خروج المزروعات، حيث يخرج معها أنواع من العشب فيـأتي أصـحاب المزروعـات بالمعشّبات، ويعشبن تلك المزروعات[٥].

وقد ورد ذكر النساء الغسّالات، حيث أشار سبط ابن الجوزي في صدر حديثـه

---

(١) حسن أمين البعيني، العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان، بيسان للنشر، بـيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٣٠، ٢٣٦.

(٢) محمد باعمر، المرأة المقدسية، ص١٠٠.

(٣) عادل أبو شنب، دمشق أيام زمان، دمشق، مطبعة الجمهورية، الشام للدراسات، ط١، ١٩٩١م، ص٥٢؛ علي السيد علي، المرأة المصرية والشامية عصر الحروب الصليبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٥٠؛ القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج١، ص٥٠.

(٤) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص٤٢١.

(٥) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص٤٥٥.

سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م فقال "وفيها جاءت الفرنج إلى حماة، وأخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصي"[١].

يتّضح من النص السابق أن هذه المهنة كانت منتشرة في تلك الفترة حيث أورد ذكر النساء بمهنتهن "النساء الغسّالات"، وأيضاً فيه إشارة واضحة إلى أنهن كن يغسلن على النهر خارج حماة، وهذا يلقي الضوء على طريقة من طرق غسل النساء للثياب. وهي من المهن التي سادت بين النساء الفقيرات، فقد كانت تدعى لبيوت الأغنياء لأجل غسل الثياب وتنظيفها، فيأتين ويغسلن ما يكون لازمًا غسله، ثم يُعْطَيْنَ أجرة على نسبة المغسول[٢].

ومن المهن التي لا تخرج من اهتمام النساء مهنة العجن والطبخ ونحو ذلك، ولقد سبقت الإشارة إلى استخدام النساء في عجن الأسمطة وخبزها في الأعياد، وهو يشكل مورد رزق لهن، وأورد سبط بن الجوزي إشارة مهمة جدًّا عندما ترجم لزوجته المتوفاة عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م: "وفيها توفيت زينب بنت أبي القاسم قاضي حماة زوجتي، وأمها خطلخ خاتون بنت سودكين، وتعرف ببنت العكبري، كانت صالحة ديّنة متفقهة، تعمل ألوان الطبائخ والحلوات، وكان الملوك يرغبون في صنعها ويعجبهم طعامها"[٣].

فقد كانت هذه العالمة تمتهن هذه المهنة، حيث كانت ماهرة في عمل ألوان الطعام، لهذا أصبح الملوك يرغبون في صنعتها ويعجبهم طعامها؛ مما يدل على أنها كانت ترسل إليهم من أنواع الطعام وما هذه الإشارات القليلة التي تناثرت في طيات الكتب إلا دلالة واضحة على انتشار هذه المهنة بين النساء في الشام.

ومن خلال ما سبق نجد أن الرعاية الاجتماعية امتدت إلى الأرامل والمطلقات باعتبارهن فئةً من الفئات المحتاجة التي لا يخلو مجتمع منهن، فبُذلت لهنَّ التبرعات النقدية والعينية، وكان لهن نصيب من الأوقاف، ولم يقتصر دورهن على انتظار الإعانات فقط؛ بل منهن من مارس العمل لتحسين وضعهن الاقتصادي.

---

(١) مرآة الزمان، ج٢٢، ص١٤٣. وانظر ايضًا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨٦، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٢.

(٢) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص٣٢٩.

(٣) مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٠.

المبحث السادس
رعاية المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة

أولت السلطة المملوكية عنايةً كبيرةً بالناحية الصحية، فهي من أهم الجوانب التي تُهِم جميع أفراد المجتمع، خاصة فئاته المحتاجة، مما جعلهم ينفقون الأموال الطائلة للنهوض بالمستوى الصحي، خاصةً أن عصرهم انتشر فيه كثير من الأوبئة والأمراض التي فتكت بأعداد كبيرة من الناس، وتجلّى الإنفاق الصحي في عدة صور، منها:

١- إنشاء المدارس لتعليم الطب:

أنفق المماليك الأموال بسخاء من أجل إنشاء مؤسسات هدفها الأول تعليم الطب، بدأت بالمساجد، التي كانت في بلاد الشام من أقدم المنشآت التعليمية في العلوم الشرعية، حتى أصبحت جامعات إسلامية تدرس العلوم المختلفة، ومنها علم الطب(١)، وقد ساهمت الزوايا أيضًا في نشر الثقافة والعلوم المختلفة، حيث كان تدريس العلوم الشرعية هو الغالب، ثم تطوّر الأمر وأصبح يدرس بها العلوم الشرعية والطب، وغيرها من العلوم العقلية. فكان لتلك المدارس النصيب الأوفر في تعليم الطب، إلى أن انتهى الأمر بتخصيص مدارس طبية منظمة لتدريس الطب، تعتمد على الإجازة والمشاهدة ومن ثمَّ الممارسة، لمن أراد ممارسة الطب وتعلمه(٢)، منها:

- المدرسة اللبودية: أوقف هذه المدرسة نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي، عندما كان ناظر الدواوين في دمشق - في عهد الظاهر بيبرس- سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م؛ وأوقف عليها ثلث أملاكه، وقرر بها مشتغلين ومقرئين(٣).

---

(١) محمود الحاج قاسم محمد، الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، السعودية، ١٤٠٧هـ، ص٣٢٣.

(٢) السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة، ص١٣٧.

(٣) **نجم الدين اللبودي**: هو الحكيم نجم الدين يحيى بن الحكم الإمام شمس الدين محمد عبدان اللبودي، كان أوحد زمانه في العلوم الطبية، مفرط الذكاء، خدم كثيرًا من أمراء البيت المملوكي، توفي سنة ٧٦١ه/ ١٣٦٢م. للمزيد انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، قسم دمشق، ص٢٦٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٦٣-٦٦٨؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٣٥، بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٥٧.

- المدرسة الدنيسرية: أنشأها عماد الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الربعي الدنيسري (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، وكان طبيبًا في البيمارستان النوري بدمشق، وله عدة مؤلفات في الطب، أوقف بيته مدرسة للأطباء(١).
- المدرسة الدخوارية: أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار في دمشق، بالصاغة العتيقة، قريبًا من الجامع الأموي، سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م، وأوقفها على الأطباء؛ لتدريس الطب، وكان هو أول من درَّس بها (٢).

فكان ينفق من خلال هذه الأوقاف على المدرسين والطلاب والعاملين، فيتعلم الطالب، وينهل من المعارف ما يُريد، ثم تعطى له الأموال الجزيلة من هذه المدارس أو بالأحرى الكليات الموقوفة؛ لتعينه على سد احتياجات الحياة(٣).

٢- إنشاء مؤسسات الرعاية الصحية، وتشمل:

أ. **المنشآت العلاجية الثابتة (البيمارستانات):**

شهدت بلاد الشام في العصر المملوكي زيادة واضحة في بناء البيمارستانات، فمن يتصفّح تاريخ نيابات بلاد الشام في ذلك العصر يجدها لا تخلو من وجود بيمارستان أو أكثر، ويبدو هذا الاهتمام ناتجًا عن انتشار الأوبئة في ذلك العصر، التي كانت تحصد أعدادًا كبيرة من الناس. وسنلقي نظرة عامة على أهم البيمارستانات المنتشرة في نيابات بلاد الشام:

---

(١) **عماد الدين الدنيسري:** كان من أعيان الأطباء، والمعدودين من الأدباء، تفقه على المذهب الشافعي. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٣؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص١١٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٠٤؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٥٥.

(٢) **مهذب الدين الدخوار:** شيخ الأطباء بدمشق، كان له مكانة كبيرة عند ملوك بني أيوب، وله العديد من المصنفات الطبية. انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، قسم دمشق، ٢٦٥؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج١، ص ٧٣٣؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ١٢٧.

(٣) السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة، ص١٣٧.

المدينـــــة	المؤســـس	السنـــــة
البيمارستان القيمري دمشق بسفح جبل قاسيون.	الأمير سيف الدين القيمري	٦٥٣هـــ/ ١٢٥٥م[١]
دمشق	الصاحب شمس الدين غبريال	٧١٨هـــ/ ١٣١٨م[٢].
الخليل	الملك المنصور قلاوون وأوقفه على الفقراء.	٦٨٠هـــ/ ١٢٨١م[٣].
صفد	سيف الدين تنكز[٤]	–
غزة	الأمير علم الدين سنجر الجاولي[٥]	
الكرك		–
البيمارستان الجديد بحلب، أو بيمارستان أرغون الكاملي	الأمير سيف الدين أرغون الكاملي	٧٥٥هـــ/ ١٣٥٤م[٦]

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٤٥.

(٢) **الصاحب شمس الدين غبريال**: كان مستوفي الخزانة بالديار المصرية، ثم ولي نظر الجامع الأموي والأوقاف في دمشق. توفي سنة ٧٣٤هـــ/ ١٣٣٤م. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٧، ص١١٤.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ٧٩. وانظر ايضًا: سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، ق٢، مج٢، بيروت، ١٩٩٠م، ص٦٠١؛ عبد الله عبد الرزاق السعيد، المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء، عمان، ١٩٨٧م، ص٢٧٩.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص٩٢.

(٥) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٩، ص١٩.

(٦) **الأمير أرغون الكاملي**: كان نائب دمشق مدة ثم صار إلى نيابة حلب، ثم سجن بالإسكندرية مدة، ثم أفرج عنه، فقام في القدس الشريف بطالًا، وكان سلطان مصر إذ ذاك الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون، توفي بالقدس الشريف سنة ٧٥٨هـــ/ ١٣٥٦م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٧٩؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٨م، ج١، ص١٢٦؛ عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٥٢.

المدينة	البيمارستان	
نابلس	محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش[١]	–
الرملة		
طرابلس	الأمير عز الدين أيبك الموصلي المنصوري[٢].	–
	بناه الأمير بدر الدين محمد أبي بكر الحلبي[٣] أحد أعيان الطبلخاناة[٤] حيث كان أحد أعيانها[٥].	–

ومما يلحظ أن تلك البيمارستانات بنيت في أماكن مختلفة؛ واللافت أنها كانت أوقافًا وقفها كبار رجال الدولة والأثرياء، ولم يتقيدوا في بنائهم بمكان معين بغية الشهرة أو الذكر؛ إذ كان همُّ الواقفين أن يخدموا المعوزين والفقراء ابتغاء لوجه سبحانه وتعالى.

وبلغ اهتمام الدولة المملوكية بالناحية الصحية مبلغًا كبيرًا، حيث نرى في المصادر المملوكية مدى اهتمامهم بتطوير البيمارستانات السابقة لعهدهم ، ويدل على ذلك ما ذكره ابن كثير عن البيمارستان النوري؛ حيث قال: "ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٣٩٨؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٩، ص٢٩٧؛ عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٦٠؛ زكار، فلسطين في عهد المماليك، مج٢، ص٦٠١.

(٢) **الأمير عز الدين أيبك الموصلي:** من مماليك الملك المنصور قلاوون، من خيار الأمراء، ولي نيابة طرابلس، وبها توفي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٦٨.

(٣) **الأمير بدر الدين محمد بن الحاج أبي بكر الحلبي**: أحد الأمراء بحلب، بن الوردي، ولي شد المملكة الحلبية مدة طويلة، ورتب بها تربة، وأوقف عليها الأوقاف، ودفن بها وكانت وفاته سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م. انظر: أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٣٧.

(٤) **الطبلخاناة:** تعني الفرقة الموسيقية السلطانية، وهي لفظ فارسي، وأمير الطبلخاناه: الأمير الذي يرقى إلى درجة يستحق بها أن تضرب الموسيقى على بابه. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٠٤.

(٥) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٣٤؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه،ج٢، ٢٣١؛ عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ص ٢٩٨.

منه النار منذ بني إلى زماننا[١].

وكان للبيمارستان النوري من المكانة حيث أنه يتبع مباشرة لنائب السلطنة بدمشق، قال القلقشندي: "ومن الوظائف الديوانية الكبيرة بدمشق نظر البيمارستان الكبير النوري، وقد صار النظر عليه معدوقًا بالنائب -أي نائب السلطان- يفوض التحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام، وكذلك يكون معه نظر الجامع الأموي بدمشق[٢].

ويبدو أن البيمارستان الصلاحي في القدس الشريف كان يؤدي خدمات علاجية طوال العصر المملوكي؛ مما دفع كثيرًا من الأثرياء والمحسنين إلى إنشاء وقفيات على البيمارستان: منها ما ذكره العسلي عن وثيقة ترجع إلى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أن إحدى النساء وقفت بستانًا في حارة بني زيد على نفسها وعلى أختها مدى حياتهما، ومن بعدهما على بيمارستان صلاح الدين، وعينت قاضي القدس ناظرًا على الوقف[٣].

ب. المنشآت العلاجية المتنقلة (البيمارستانات المتنقلة):

البيمارستان المتنقل، هو الذي ينقل من مكان إلى مكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها، وكذا الحروب. كان هذا النوع من البيمارستانات معروفًا لدى خلفاء الإسلام وملوكهم وسلاطينهم وأطبائهم، بل الراجح أن يكونوا أول من أنشأه، وهو مستشفى مجهز بجميع ما يلزم للمرضى والمداواة؛ من أدوات، وأدوية، وأطعمة، وأشربة، وملابس، وأطباء، وصيادلة[٤].

وتعددت صور البيمارستانات المتنقلة وخدماتها؛ فمنها من كان خاصًّا بالسلاطين

---

(١) البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٨٦.

(٢) صبح الأعشى ج ٤، ص ١٩٧.

(٣) العسلي، مقدمة في تاريخ الطب في القدس، منشورات الجامعة الأردنية، عمان- الأردن، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص١٤٤.

(٤) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص١١.

والأمراء، حيث كانت المنشآت العلاجية المتنقلة تصحبهم في سفرهم وترحالهم، ومنها ما كانت تصحب الجيوش والأساطيل، وما يهمنا هنا هو الصنف الذي يخدم المجتمع، وهذا النوع من المنشآت العلاجية المتنقلة يعرف بمارستانات السبيل، وهي بعثات طبية ترافق قوافل الحجاج والتجار، لأنهم يعبرون مساحاتٍ كبيرةً ويستمر سفرهم لزمن طويل، فلابد من رعاية صحية لهم، لما قد يتعرضون له من تعب وإرهاق وأمراض في أثناء سفرهم[1]. ويكثر انتشار مثل هذه العلاجات المتنقلة في وقت الأوبئة، وانتشار الأمراض خاصة في القرى والأماكن النائية[2].

ولم يكتف سلاطين المماليك ببناء البيمارستانات وإيجاد الأطباء وتعليمهم، بل أوجدوا إدارة تدير هذه المنشآت تهتم بأحوال البيمارستانات والمرضى، وعينت الدولة إداريين أكفاء لتلك البيمارستانات، كما عيّنت موظفين لصناعة الأدوية على درجة عالية من الخبرة والدقة، ولا يعطون المريض إلا حاجته من الدواء، وفرضوا رقابة شديدة على المنشآت الصحية، من خلال نظام الحسبة، الذي كان له صلاحيات الرقابة على جميع ما يخص المنشآت الصحية فراقبوا أصحاب المهن الطبية وكل ما له علاقة بها من قريب أو بعيد كالأدوات المستخدمة والأدوية المصروفة والأشربة[3].

ولعل خير شاهد على مدى التقدم الصحي في الخدمات المقدمة للمرضى ما ذكره خليل بن شاهين الظاهري عن زيارته لدمشق: "وبها مارستان، لم يُرَ مثله في الدنيا قط، واتفقت نكتة أحببت أن أذكرها: هي أني دخلت دمشق في سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م، وكان بصحبتي رجل أعجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قصد الحج في تلك السنة، فلما دخل البيمارستان المذكور، ونظر إلى ما فيه من المآكل والتحف، واللطائف التي لا تحصى، قصد اختبار رجال البيمارستان المذكور، فتضاعف (تمارض)، وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد عليه ليختبر ضعفه، فلما جس نبضه، وعلم حاله

(١) ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ص٥١.

(٢) ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب، ص ٢٥٣.

(٣) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٦٥- ١٦٩.

وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمن والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة، ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة من معناها: أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام"[١]. وهذه الحادثة أكبر دليل على مدى ارتفاع المستوى الصحي وتقدّم الطب في زمن المماليك.

وكان للتجار دور فاعل في رعاية المرضى، وتوفير ما يلزمهم، مثل التاجر وجيه الدين التاجر، كان يعمل في كل سنة من الترابيق والمعاجين والاكحال ما يكلفه أموال طائلة، ثم يفرقها طلبا للثواب والأجر[٢].

واهتم السلاطين المماليك ونوابهم بالمرضى النفسيين وأصحاب الإعاقات العقلية، وكان لهم أقسام خاصة داخل البيمارستان، وعامل الأطباء في العصر المملوكي المريض النفسي على أنه إنسان ولكنه ناقص الأهلية، والأمثلة على ذلك كثيرة فعلى على سبيل المثال: خُصِّصَ للمجانين في بيمارستان أرغون الكاملي بحلب غرف خاصة بهم، وزرع لهم أنواع الرياحين لينظروا إليها، وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنين، بل وخصص لهم من يرعاهم، فيطعمونهم ويرفعون الأقذار عنهم[٣]، فكانت تلك من الوسائل التي اتخذت لعلاج المرضى النفسي، وهذا بدوره يقودنا إلى مدى ما وصل إليه العلاج النفسي في زمنهم من تقدم وإنسانية.

وخصص قسم من البيمارستان الموجود بغزة لمداواة أصحاب الأمراض العصبية والنفسية، حيث ظل عامرًا حتى سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م[٤].

ولم يقتصر الأمر على المجانين من الذكور بل شمل كلاًّ الجنسين، وهو وارد في وقفية البيمارستان القيمري، حيث حدد الجوامك لمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل

(١) زبدة كشف الممالك، ص٤٤-٤٥.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٨٩.

(٣) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٥٧-٢٥٨.

(٤) محمود علي خليل عطا الله، نيابة غزة، ص٢٣٢-٢٤٣.

شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح[(١)].

وفي سبيل خدمة المحتاجين من فئة المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة وكذلك العجزة فقد كانت الرعاية مهيئة لجميع فئات المجتمع دون تفريق للعلاج بالمجان، ورصدت الأوقاف المختلفة. من ذلك وقف أبي الحين بن أبي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية "على معالجة المرضى والمعاجين والأشربة وأجرة الطبيب يصرف إلى الطبيب في كل شهر الواحد سبعون درهماً، ونصف غرارة من قمح، والأدنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللمشارف في كل شهر أربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، وللكحال في كل شهر خمسة وأربعون درهمًا ونصف غرارة قمح، وإلى ثلاثة رجال يقدم لكل واحد من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح، ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح، وإلى الشراب وبائعه لعمل الأشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهمًا وثلث غرارة قمح، ولأمين المشارفين والمتولين في الوقف إلى كل واحد في كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير"[(٢)].

نلحظ مما سبق مدى النظام الدقيق الذي حرص عليه الواقفون بل هذا يوضح مدى الأوقاف الضخمة التي أوقفت لمثل تلك المشروعات التي خدمت المرضى.

و لم تنحصر أوقاف البيمارستانات على ما خصص لها من واقفيها، بل ساهم أهل الخير والإحسان للوقف عليها دعمًا منهم لهذه المؤسسات، منها: وقف شمس الدين المزلق الذي نصَّ أن يصرف ربع هذه الوقفية لذوي العاهات والمجذومين[(٣)].

ووقف جعفر بن محمد بن أبي بكر من القدس، حيث حبس وقفه على مصالح البيمارستان الصلاحي في بيت المقدس، ونصت الوثيقة بأنه "وقف صحيح شرعي مؤبد.

---

(١) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٤٤.

(٢) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٤٤.

(٣) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٣٣.

وحبس دائم محلل لا يباع ولا يوهب ولا يملك ما دامت الأرض والسماوات"[١].

ووقفية الحاجة مريم زوجة ابن المسروري، التي أوقفت أحد البساتين وحانوتين على بيمارستان حصن الأكراد، وقد نقشت الوقفية فوق حجر جدران أحد المنازل الصغيرة، مقابلة لنص وقفية منشئ البيمارستان[٢].

ووقفية ست الأول ملكة خاتون بنت الأمير قماسي، المؤرخة في سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، على البيمارستان النوري[٣]. ووقفية قضاة بنت الدين محمد شرف الدين السقطي، المؤرخة في سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، والتي كانت مخصصة للمجذومين[٤].

ومن خلال ما سبق ذكره من وقفيات تخصّ نساء العصر المملوكي يتضح مدى إسهام المرأة في تلمس حاجات المجتمع خاصة في مجال الرعاية الصحية.

ومما يلفت النظر أن تلك البيمارستانات لم تقتصر خدمتها على أهل البلد المقيمين فقط، ويدل على ذلك النص المكتوب على عتبة باب مارستان حصن الأكراد بأنه (أوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين)[٥]. وهو بذلك الوقف خدم فئات كثيرة من المحتاجين من الحجاج وعابري السبيل.

بالإضافة أن الخدمات الصحية لم تقتصر على البيمارستانات، فكثير من المنشئات التعليمية والصوفية الكبيرة منها، لم يهمل واقفوها الرعاية الصحية الشاملة للنازلين بها والقائمين عليها ومن معهم من أصحاب الوظائف، حيث كان يخصص ناظر الوقف رجلين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان، والثاني عارف بصناعة الكحل" طب العيون" على أن يحضر كل منهما كل يوم لمباشرة المرضى[٦].

---

(١) وثيقة رقم (٢٠)، من وثائق المتحف الإسلامي في القدس. انظر: غوانمة، تاريخ بيت المقدس، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٤٨.

(٣) الدوسري، أوقاف النساء في بلاد الشام، ص٢٦٨.

(٤) الدوسري، أوقاف النساء، ص٢٦٩.

(٥) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص٢٤٨.

(٦) السيد، دراسات حول بيت المقدس، ص٢٢٩.

ولم تغفل الأوقاف حق ذوي الاحتياجات الخاصة في التعليم، فقد فتح أمامهم مجال التعليم كغيرهم، حيث أشار ابن طولون بأن بالمدرسة العمرية شيخ لتلقين الأضراء[١]، بل امتدت يد الرعاية إلى كبار السن وفي ذلك يقول ابن بطوطة: " وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول، وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس"[٢].

ومن صور اهتمام سلاطين المماليك بالناحية الصحية اهتمامهم ببناء الحمامات لارتباطها بالنظافة والطهارة، وكان روادها من مختلف فئات المجتمع، ولها دور اجتماعي وصحي مهم في حياة الشاميين. وكانت حمامات بلاد الشام في العصر المملوكي أكثر من أن تحصى؛ مما يدل على مدى الاهتمام البالغ بالحمامات في زمنهم. فقد وصل عدد الحمامات في دمشق زمن الأربلي (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) مئة وسبعة وثلاثين حماماً[٣]، وفي حلب ذكر ابن الشحنة أن عدد حماماتها سبعة وأربعون حمامًا[٤]. وازداد عدد حمامات القدس في العصر المملوكي زيادة تتناسب مع زيادة عدد السكان، ولقد تم إحصاء ١٣ حمامًا في أواخر العصر المملوكي[٥].

وكان الأمير تنكز من المهتمين بهذا الجانب، فقد بنى عددًا من الحمامات في بلاد الشام؛ منها: حمام بجوار جامعه في دمشق، وحمامان في بيت المقدس[٦]. وبنى الأمير علم الدين الجاولي حمام في غزة[٧]، وحمام في الخليل[٨].

وقد أوردت كتب الحسبة الكثير عن منافع الحمامات من الوجهة الصحية مثل

(١) القلائد الجوهرية، ق١، ص٢٦٥.
(٢) الرحلة، ج١، ص١١٤.
(٣) مدارس دمشق وحماماتها، م٢٢، ج٧، ج٨، ص٣٢٢.
(٤) ابن الشِّحْنَة، الدر المنتخب، ص١٤١.
(٥) السيد، دراسات حول مدينة بيت المقدس، ص٢٤٠.
(٦) العمري، مسالك الأبصار، ج٣، ص ٣٧٦؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣٥.
(٧) المقريزي، الخطط، ج٤، ص٢٥٦.
(٨) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٠.

توسيع المسام وإذهاب الحكّة والجرب، والإعياء وترطيب البدن، ومعالجة النزلات والزكام، وإذهاب الحمى بمختلف أنواعها[١].

وأول ما يلفت النظر في مجال الخدمات الصحية هو الاهتمام الفائق بوسائل الصرف الصحي؛ مما ساعد على حفظ المدن من كثير من الأمراض. حيث أشار ابن حجر في صدد حديثه عن أعمال الأمير سيف الدين تنكز إلى ذلك فقال: "وأمر بكسح الأوساخ التي في مقاسم المياه التي تخلل الدور وفتح منافذها وكانت انسدت فكان الوباء يحصل بدمشق كثيرا بسبب العفونات" [٢].

ومن ناحية أخرى اهتم سلاطين المماليك بمنشآت المياه، وهو اهتمام ينصب في مجال الرعاية الصحية العامة، حيث جرى تعمير شامل ومتكرر في البرك وقنوات المياه طوال العصر المملوكي، وحرصوا كذلك على أعمار الأسبلة لتوفير مياه الشرب النقية لأهلها، و لم يقتصر سلاطين المماليك وأمرائهم على ذلك بل أنهم وقفوا الأوقاف للصرف على مصالحها أيضًا[٣].

وحتى تؤدي الأسبلة خدماتها على أكمل وجه، لم يهمل الواقفون أمر الأدوات المستخدمة في السبيل مثل الليف أو الكتان، والأدلية الجلد، وآنية الشرب، والمكانس الخوص، والطسوت، والأسطال النحاس والأباريق والقلل الفخار، والإسفنج والفوط للمسح، وبلغ من اهتمام الواقفين بآلات السبيل أن خصصوا أماكن لحفظها وهو ما عرف باسم الحانوت[٤].

لعل فيما سبق ذكره، نتلمس الجهود المبذولة من قبل الدولة المملوكية؛ لرفع المستوى الصحي في المجتمع في زمن كثرت فيه الأوبئة والأمراض والكوارث، مما جعل الحاجة مُلحَّة إلى إنفاق ما بوسعها من نفقات لخدمة المجتمع.

---

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص١٥٤؛ العسلي، مقدمة في تاريخ الطب، ص١٤٧.

(٢) الدرر الكامنة، ج٢، ص٧٠.

(٣) للمزيد عن جهود الدولة المملوكية بتوفير المياه انظر: الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧٤؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٤٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٢؛ المقريزي، السلوك،ج٥، ص ١٦٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه ،ج٣،ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٢.

(٤) أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص١٥٣؛ الخطيب، الأوقاف الإسلامية، ص٢٠٣.

الفصـل الثالـث

رعاية الفئات المحتاجة وقت الأزمات والمواسم

المبحـث الأول: رعاية عابرو السبيل والمنقطعون

المبحث الثانـي:رعاية الفقراء من الحجاج.

المبحث الثالـث: رعاية المساجين والأسرى.

المبحث الرابـع: رعاية المصابون من الكوارث الطبيعية.

المبحث الخامـس: رعاية المتأثرون بالأزمات الاقتصادية.

المبحث السادس: رعاية الموتـى.

المبحث الأول

رعاية عابرو السبيل[١] والمنقطعون[٢].

ورعاية أبناء السبيل في بلاد الشام من العلامات البارزة في مجتمع الشام، فقد دوّنها الرحالة في أسفارهم، وكانت من أهم وسائل رعايتهم في بلاد الشام تخصيصُ الأوقاف لهم فيعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم[٣].

ولعلنا من خلال حديث ابن بطوطة، نتعرف إلى موقف أهل الشام ممن يفد إليهم من المغاربة المنقطعين، يقول: "وهم يحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد وكل منْ انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يكون مصدر رزق له، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون حال كحال بعض المتصوفة المقيمين بالخوانق، فتجري له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه ومحفوظًا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أُخر من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك"[٤].

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قصد بتوثيقه المغاربة إلا أن النص يحدد بشكل عام أمرين:

---

(١) السبيل في اللغة: هو الطريق. وابنُ السَّبيل: هو ابن الطريق، وسُمِّي المسافر ابنًا لها لملازمته لها، وكذلك المسافر الذي انقطع به الطريق وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة سبل، ج١١، ص٣١٩-٣٢٠؛ الزبيدي، تاج العروس، ج١٤، ص٣٢٦؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، المجمع، القاهرة، دار الدعوة، إستانبول، ج١، ص٤١٥. وقال ابن الأثير: "هو المسافر الكثير السفر، سمي ابنًا لها لملازمته إياها" انظر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد طناحي، دار إحياء الكتب العربية، ج٢، ص٣٣٩.

(٢) المنقطع: ابن السبيل الذي انقطع به السفر دون طيّه فهو منقطع. انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص٧٧٢.

(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص ١١٩.

(٤) الرحلة، ج، ص ١١٨.

الأول: الأسباب التي دفعت الواردين من أبناء السبيل إلى القدوم إلى بلاد الشام.

والثاني: يوضح سبل العيش التي يجدها عابر السبيل في بلاد الشام.

وتُعَدُّ المجاورة[١] من أسباب عابري السبيل لبلاد الشام، ووجد المجاورون في دمشق من أهلها الرعاية اللازمة، فكان أعيان دمشق – مثلاً- يولونهم كل اهتمام، يقول ابن بطوطة عن المجاورين في الجامع الأموي: "وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر، لا يفترون عن ذلك. ويتوضؤون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها. وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئًا من ذلك"[٢].

وأسهم سلاطين المماليك بالإحسان إلى عابري السبيل، مثل الظاهر بيبرس الذي أصدر مرسومًا سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م بعمارة مسجد الخليل عليه السلام، ورتب للمسجد مالاً ينفق على الزائرين والمقيمين[٣].

وساهم الأمراء بالصدقات على فقراء الجامع كمساهمة نائب دمشق كرتباي الأحمر[٤]، الذي أمر بتوزيع ألفي دينار على الفقراء والمساكين الموجودين في الجامع الأموي[٥].

وخصص عدد من أهل الخير أوقافه للمجاورين متلمسًا احتياجاتهم، خاصّةً من

---

(١) **المجاورة**: الجار، هو الذي يجاورك، تقول: جاورته مجاورةً وجِوَارًا وجُوَارًا. والمجاورة: الاعتكاف في المسجد. أما المجاورة بمكة والمدينة فيراد بها المقام مطلقاً غير ملتزم بشرائط الاعتكاف الشرعي. انظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ/١٠٠٢م)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٢، ص٦١٧؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص١٥٦.

(٢) الرحلة، ج١، ص١٠٧.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤١٦؛ المقريزي، السلوك،ج٢، ص٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٧.

(٤) **كرتباي الأحمر**: تولى نيابة دمشق سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وكانت وفاته سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، قمع أهل الفساد، وأبطل المنكرات من الخمور. انظر: البصروي، صفحات مجهولة، ص٢٢١، ٢٣٣؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص١١٠.

(٥) البصروي، صفحات مجهولة، ص٢٢١، ٢٣٣؛ ابن طولون، إعلام الورى، ص١١٠.

ناحية الكسوة، ومن تلك الأوقاف وقف زين الدين بن رمضان بن الناصري محمد القلعي سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م بأن يشترى به ثياب خام قطن تفرق على المجاورين بالحرم[1].

وكذلك وَقْفُ الناصر محمد خشقدم سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م الذي خُصِّصَ بعضُ ريعه لصرفه في ثمن قمصان تُفرق على الفقراء والمساكين من المسلمين والمجاورين بالجامع الأموي بدمشق، في كل سنة مئتا درهمٍ [2].

ومن أهم صور رعاية ابن السبيل والمنقطع تقديم المأوى والطعام لهم، فوجَدوا في بلاد الشام ما يريده في المؤسسات الصوفية حيث كانت دورًا للضيافة، تستضيف المغتربين القادمين من أنحاء العالم الإسلامي، بحيث لا تزيد إقامة الضيف الوافد عن ثلاثة أيام، يلقى فيها كل ترحابٍ من أهل الرباط، ويُقدم له فيها الطعام وغيره من مستلزمات، فقد كانت زوايا الصوفية في بلاد الشام ملاذًا يلجأ إليه الغريب والمحتاج، وكثر انتشارها عند مقامات قبور الصالحين[3]، فمن خلال رحلة ابن بطوطة بين مدن الشام نرصد العديد من تلك الزوايا التي تؤمن لعابر السبيل ما يحتاج إليه من طعام وشراب منها: زاوية

---

(١) أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين ، ص ٦٢.

(٢) أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص ٥١.

(٣) من البدع التي انتشرت في مصر والشام زيارة القبور، معتقدين أن زيارتها تجلب البركة، وأن الدعاء عندها مستجاب، منها أسماء عدد كبير من الأنبياء والصحابة والسلف الصالح؛ منها مشهد الحسين، حيث يذكر ابن الحوراني صاحب كتاب زيارات الشام: "وهذا المشهد يقصده الناس للزيارة، والدعاء، والتبرك، والتماس الحوائج، وهو في غاية القبول". ولفتت تلك البدع الشركية انتباه العلماء – وعلى رأسهم ابن تيمية في تلك الفترة الزمنية – فنجدهم قد فصلوا القول، ووضحوا حكم هذه العادات المبتدعة، فذكر ابن تيمية: "أن اعتقاد استجابة الدعاء عندها وفضله، قد أوجب أن تنتاب لذلك وتقصد، وربما اجتمع عندها اجتماعات كثيرة، في مواسم معينة، وهذا بعينه هو الذي نهى عنه النبي ﷺ ". وقد وضح واجب المسلمين تجاه هؤلاء الصالحين فقال: "وهؤلاء الفضلاء من الأئمة، إنما ينبغي محبتهم، واتباعهم، وإحياء ما أحيوه من الدين، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والرضوان، ونحو ذلك، فأما اتخاذ قبورهم أعيادًا، فهو مما حرمه الله ورسوله". بل أزال ابن تيمية بنفسه صخرة كانت في أحد مساجد دمشق، كان الناس يزورونها ويقبلونها للتبرك بها، زعمًا منهم بأن الأثر الذي بها هو من أثر الرسول ﷺ". وقد تأثرت نساء الشام بهذه المعتقدات، وهذه من العادات التي ابتلي بها أهل الشام، وربما يكون ذلك بسبب فِرَقَ الصوفية، خاصة في الطبقة الشعبية، وقد يحكون من الحكايات التي فيها تأثير في الناس؛ مثل: أن رجلاً دعا عندهم فاستجيب له، أو نذر لها إن قضى الله حاجته ونحو ذلك، وهذه المعتقدات هي من الأمراض الاعتقادية، التي ابتلي بها بعض المسلمين، وما تزال موجودة مع الأسف في وقتنا الحاضر.انظر:ابن تيمية، اقتضاء الصراط، ص ٢٥٦–٢٥٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٢٥؛ ابن الحوراني، الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام، ص٢٥.

عند قبر أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فيها الطعام لأبناء السبيل[١]، ومن خلال استقراء سيرة الظاهر بيبرس يبدو أنه هو من خصص وقفًا يرصد على مقام أبي عبيدة بن الجراح، بحيث يصرف ريعه على مصالح وحاجات الزائرين لهذا المقام[٢]، واستمر ريع هذا الوقف إلى زمن ابن بطوطة.

وعند قبر أبي يعقوب يوسف خارج بيروت زاوية يطعم بها الوارد[٣]، وعند قبر خالد بن الوليد ﷺ في حمص وعليه زاوية[٤]، وفي أنطاكية بها قبر حبيب النجار ﷺ وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر[٥]. وخارج مدينة صهيون[٦]، زاوية فيها الطعام للوارد والصادر[٧].

بل كان لبعض الزوايا شهرة كبيرة حتى أصبح من المتعارف عليه أن الناس يقصدونها في ليلة النصف من شعبان كزاوية الشيخ إبراهيم بن أدهم[٨]، التي يقول عنها ابن بطوطة: " زاوية حسنة فيها بركة ماء، وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها إبراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام، ويقيمون بها ثلاثًا، ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم، فيه من كل شيء، ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم"[٩].

---

(١) الرحلة، ج١، ص٨٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص١٩٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٨.

(٣) الرحلة، ج١، ص٨٢ .

(٤) الرحلة، ج١ ، ص ٨٥.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٩١.

(٦) **صهيون**: موضع معروف ببيت المقدس، وهي قلعة حصينة على جبل.انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٦؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٥٩.

(٧) الرحلة، ج١، ص٩٢.

(٨) **إبراهيم بن أدهم**: أحد مشاهير العباد، وأكابر الزهاد، أصله من بلخ، ثم سكن الشام. انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج١، ص٢٣٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ٣٥٥.

(٩) الرحلة، ج١، ص ٩٦.

كما وُجد في مدينة نابلس زاوية للشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله النابلسي[١]، التي يصفها ابن الجزري بأنها مأوى لكل من يقدم لنابلس والوارد عليه كثير، وهو يقوم بمأكلهم وعليق دوابهم[٢].

وجاء في وقفية الزاويتين البيانية[٣]: "وعلى جماعة الفقراء البيانية المقيمين بها أو الآوين إليها، يضع لهم شيخ كل منهما طعامًا في ليالي الجمع على قدر سعة الوقف، ويمدّ لهم سماط فيجتمعون عليه ويأكلون ويدعون لهذا الواقف المذكور ولوالديه وسلفه بالرحمة والرضوان ...، وكذلك يشتري لهم في أيام الرغائب[٤] والنصف من شعبان وعيد الفطر وعيد الأضحى قدر الإمكان، وإذا رأى الشيخ أحدًا من جماعة البيانية فقيرًا أو معذورًا إلى كسوة أو غيرها، أو مريضًا محتاجًا إلى شراب أو غيره"[٥].

ومن الأربطة وقف رباط علاء الدين البصير[٦] سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م على الفقراء الزائرين للقدس، ويُصرف لكل واحد منهم رطلين من الخبز لمدة خمسة أيام، وإن زاد عدد الواردين إلى الرباط عن استيعابهم قُدم من سَبَقَ على منْ يرد بعد من الفقراء[٧].

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) حوادث الزمان، ص٢٦٨.

(٣) **الزاويتان البيانية**: إحداهما بظاهر حلب أنشأها الشيخ أبو عبدالله بن الفرات، والأخرى بباطن حماة. انظر: الطراونة، الحياة الاجتماعية، هامش رقم (٤)، ص٦٤.

(٤) **الرغائب**: يزعم بعض الناس أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب، وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها صلاة الرغائب، وهي الصلاة التي يصليها الفرد تطوعًا في أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان. انظر: ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٨٦، ٢٨٨، ٣٠٤.

(٥) الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٦٤.

(٦) الأمير الكبير علاء الدين الأعمى هو أيدغدي بن عبدالله الصالحي النجمي، كان من أكابر الأمراء، وكان مهيبًا لا تخالف مراسيمه، وكان يباشر الأمور بنفسه، توفي في شهر شوال سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٦٤م، ودفن برباطه بباب بالقدس. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص ٦٧٠؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٧٠.

(٧) **رباط البصير**: يقع هذا الرباط في الجهة الشمالية من الطريق الموصلة إلى حرم المسجد الأقصى بالقرب من باب الناظر ورباط المنصوري، وأوقفه الأمير علاء الدين بن عبدالله الصالحي النجمي عام ٦٦٦هـ/١٢٦٧م في عهد الملك الظاهر بيبرس على الفقراء من القادمين لزيارة القدس. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٣=

وقد يتم وقف بعض الأربطة على فئة بعينها، كما هي الحال مع الرباط المارديني الذي بني سنة ٧٦٣هـ/١٣٧٤م، وكان من شروط وقفه أن يكون لمن يرد من ماردين[١] فقط[٢].

وكذلك الرباط الحموي الذي انحصر بالعناصر الرومية الوافدة إلى بيت المقدس من الفقراء والمجاورين[٣]

ومن الخوانق: الخانقاة الداودية التي نصتّ وقفيتها أن تكون على ثلاثين فردًا من الصوفية العرب والعجم منهم عشرين أعزب، وكانت تستضيف من يرد إليها لمدة عشرة أيام[٤].

ويبدو أن هناك نوعًا من التعاطف بين أهل الشام والمغاربة، ربما يعود إلى الأوضاع السياسية التي مرت بها الأندلس زمن المماليك، وسرعان ما انصهروا في المجتمع الشامي وتفاعلوا مع حياته اليومية[٥]. وكان كثير منهم يعاني الفقر والعوز؛ مما جعل كثير من أهل الخير من الميسورين يبني خوانق وزوايا يخصصها للمغاربة بالذات، منها الخانقاه الأندلسية بدمشق[٦]، والخانقاه السميساطية[١]، وزاوية ابن وطية التي تقع على الشمال

= عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، مطبعة المعارف، القدس، ط٥، ١٩٩٩م، ج١، ص ١٩٩؛ العسلي، معاهد العلم، ص٣١٨.

(١) **ماردين**: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٢١٩.

(٢) العليمي، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٤٢.

(٣) **الرباط الحموي**: يقع بخط مرزبان بأسفل عقبة باب القطانين، أوقفه علاء الدين الحموي قبل سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م. انظر: محمد صالحية، سجل أراضي لواء القدس، ص١٤٢.

(٤) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٢٩٩؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٥٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٠٣.

(٥) محمد معمر، المغاربة ومنصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكية، بحث مقدم لمؤتمر دمشق عاصمة الثقافة العربية، مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٥٩.

(٦) **الخانقاه الأندلسية**: واقفها أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الأندلسي. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١١٠.

من جامع جراح بدمشق القديمة. وكان شرطها الرئيس أن تكون برسم المغاربة على اختلاف فئاتهم، وأن لا يكون النازل بها شريرًا أو مبتدعًا، وأن لا يكون شيخها من القضاة أو الحكام[٢].

واهتم المماليك بمدينة الخليل ومقدساتها؛ ففي عهد السلطان الظاهر بيبرس تم ترتيب السماط، والرواتب لأهل الخليل، والوافدين إليه[٣].

ويعطي ابن فضل الله العمري الذي زار الخليل سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وصفًا مفصلاً عما يقدم من طعام، وكميته ونوعه، فيقول: "فأخبرني بعض المباشرين أن في بعض ليالي العشر من هذا الشهر، في هذه السنة، فرقوا زيادة على ثلاثة عشر ألف رغيف، وأن غالب أيام العام ما بين السبعة آلاف والعشرة آلاف. ويفرق أيضًا مع الخبز طعام العدس بالزيت الطيب والسماق. وفي بكرة النهار يطبخ أيضًا مع قدر من الدشيش، ويفرق على الواردين، وفي بعض أيام الأسبوع يطبخ ما هو أفخر من ذلك"[٤]، ويضيف ابن فضل الله العمري: "وله خدام برسم غربلة القمح، وطحنه، وعجينه، وخبزه، لا يطلون ليلاً، ولا نهارًا. وأهراء القمح والطاحون والفرن نافذ بعض ذلك إلى بعض، بحيث إنّ القمح يُفرغ في الأهراء، ويخرج خبزًا مخبوزًا، ولم يزل على هذا مدى الشهور، والأعوام والليالي والأيام، لا ينقطع له مدد، ولا يحصر بضبط ولا عدد"[٥].

ومما يذكر في الاهتمام والعناية بأبناء السبيل والمنقطعين، وجود عدد من المحسنين الذين

---

(١) **الخانقاه السميساطية**: واقفها أبو القاسم السميساطي على بن محمد بن يحيى السلمي الدمشقي من أكابر الرؤساء بدمشق، كان بارعًا في الهندسة والهيئة، صاحب حشمة وثروة واسعة، ومروءة وافرة، عاش ثمانين، توفي سنة ٤٥٣هـ/ ١١٦١م.انظر: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٣، ص٢٣١؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ١١٨.

(٢) **زاوية الوطية**: وقفها الرئيس علاء الدين علي المشهور بابن وطية الموقت بالجامع الأموي سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م، وتعرف بزاوية المغاربة". انظر: النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٥٩؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٣١٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢١؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٧.

(٤) العمري، **مسالك**، ج١، ص٢٣٤ .

(٥) **مسالك الأمصار**، ج١، ص٢٣٤.

أكرموهم، منهم عماد الدين القيسراني[١]، فكان من عاداته أنه إذا سمع أن مغربياً قدم، بحث عنه وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته. وكان يلازمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم[٢] وجماعة غيره[٣].

وكانت مدينة القدس محطة مهمة من محطات الرحالة والحجاج، خاصة المغاربة، وهم في طريقهم إلى الحجاز وبقية أقطار المشرق الإسلامي، ومركزًا لاستقرار جماعة منهم للمجاورة في القدس طمعًا في الثواب والأجر، وكثير منهم لا يتوجه إلى بلاد الحجاز حتى يزور الأماكن المقدسة في فلسطين[٤]، مثل الشيخ أبي عبد الله الفهري[٥]، والتجيبي[٦] .

لهذا نلحظ دعم كثير من المحسنين المغاربة لطائفة المغاربة الواردين إلى بيت المقدس، حيث أوقف عليهم الشيخ أبو مدين شعيب المغربي زاوية في القدس الشريف تقع في الزاوية الشمالية الغربية من حارة المغاربة، لتكون سكنًا للمغاربة المقيمين بالقدس

---

(١) **عماد الدين القيسراني:** إسماعيل ابن شرف الدين القيسراني، أحد كتاب الدست، وكان محببًا إلى الفقراء والصالحين، مات سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م بجامع دمشق.انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٧٦؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٥٠.

(٢) **علاء الدين بن غانم**: أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان بن علي المقدسي أحد الكبار المشهورين بالفضائل، وكان كثير الإحسان إلى الخاص والعام، توفي في أثناء رجوعه من الحج في منزلة تبوك سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م ودفن هناك. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٩٤.

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢١.

(٤) كامل العسلي، حارة المغاربة في القدس وأهميتها التاريخية، مجلة أرض الإسراء، عمان، ١٩٨٧م، ع ١٠٣، ص٢٠ ؛ عبد الهادي التازي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجاً، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "ايسيسكو"، ١٩٩٧م، ص ١١-١٥.

(٥) **أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري**: نشأ في مدينة سبتة، وتلقى تعليمه بجامع القرويين في فاس، وارتحل إلى الشرق، وزار القدس ووضع رحلة بعنوان "ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة". وتوفي عام ٧٢١هـ/١٣٢١م. انظر: ابن القاضي، أحمد بن محمد (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد أبو النور، دار التراث، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م،،ج٢، ص ٩٦ – ١٠٠.

(٦) **القاسم بن يوسف التجيبي**: نشأ في مدينة سبتة، ورحل إلى الشرق وزار القدس في رحلته المعروفة باسم "مستفاد الرحلة والاغتراب"، توفي عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩ م انظر: كامل العسلي، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، عمان، ١٩٩٢م، ص ٦٥.

الشريف، أو القادمين إليه للمجاورة فيه على اختلاف أوصافهم، وتباين حرفهم، ذكورهم وإناثهم كبيرهم وصغيرهم، كما خصص جانباً منه لتقديم الطعام بمناسبة عيد الفطر وعيد الأضحى، وقد بدأ هذا الوقف عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م[1].

وفي وثيقة وقف للشيخ عمر المجرد المصمودي الذي أنشأ زاوية بأعلى حارة المغاربة من جهة الغرب تشتمل على عشر حجرات بجميع مرافقها مُحَبَّسة على المغاربة المحتاجين سواء المقيمين بالقدس أو العابرين. وجعل الفائض يصرف على ضعاف الفقراء طيلة شهور التوسعة (رجب، وشعبان، ورمضان)[2].

ومن أوجه رعاية المنقطعين الغرباء تشجيعهم على طلب العلم، فكثير من المؤسسات الدينية والتعليمية تحدد نوع الطلبة في المدارس بأن يكونوا من الغرباء الفقراء الذين لا يستطيعون تحصيل العلم[3]، مثال ذلك دار القرآن الدلامية التي أنشأها الخواجا (التاجر الكبير) أبو العباس أحمد بن دلامة البصري الدمشقي إلى جانب داره سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م، ورتب فيها ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين في قراءة القرآن، ولكل منهم ثلاثون درهمًا في كل شهر[4].

وهنالك وقف محمد بن مقبل الرومي سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م الذي استفاد من ريع

---

(١) **أبو مدين الغوث**: العالم أبو مدين الغوث بن محمد بن أبي مدين بن شعيب بن الحسن المعروف بالغوث، وتوفي في قرية رباط الفتح قرب تلمسان عام ٥٩٤هـ/ ١١٥٤م، ويبدو أن أبا مدين الحفيد هو صاحب الوقفية في القدس الشريف. انظر: عبد الهادي التازي، أوقاف المغاربة في القدس الشريف، دار العلم، الرباط، ١٩٧٤م، ص ١٤، ١٨.

(٢) **زاوية المغاربة**: هي زاوية من وقف الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد، وكان رجلاً صالحًا، عمّر الزاوية وأنشأها من ماله وأوقفها على الفقراء والمساكين سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م. توفي بالقدس الشريف. انظر: العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٦٣؛ التازي، أوقاف المغاربة ، ص ١٩،٢٠؛ محمد صالحية، سجل أراضي لواء القدس، ص١٠٣.

(٣) الحسني، المدرسة الأسعردية، ج٤، ص٥٩٢.

(٤) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص١٢٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٧، ٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ص٨.

أوقافه طلبة العلم الغرباء الواردين إلى رواق[١] ابن مقبل في غزة[٢].

ويُعَدُّ بناء الطرق وإقامة الأميال وتحديدها وتوفير الخدمات اللازمة للمسافرين من الحجاج والمعتمرين وغيرهم دلالةً واضحةً للرقي الحضاري، إلى جانب تيسير النقل سواء للعبادة أو للتجارة. وهذا من الأهداف التي سعت إلى تحقيقها الدولة المملوكية[٣].

وكان الاهتمام بإنشاء الخانات[٤] التي يترل فيه التجار والمسافرون طلبًا للراحة والأمن ولقضاء الأعمال التجارية[٥]، مظهرًا حضاريًّا آخر أيضًا.

وقد وُجد نوعان من الخانات: الأول يسمى خان السبيل الذي يقدم خدماته دون مقابل، والثاني تجاري بحت لتحقيق مكاسب مالية[٦].

وما يهمنا هو النوع الأول من الخانات التي كانت مؤسسةً خيريةً حُبست عليها الأوقاف التي يرصد ريعها للأنفاق على الخدمات التي تُقدم للمسافرين والزائرين والمحتاجين وأبناء السبيل من دون مقابل، ومن أبرزها خان العطنة الذي بناه المملوك ركن الدين منكورس[٧]، واستمر هذا الخان يقدم خدماته في عصر المماليك الجراكسة، وقد

---

(١) **الرواق**: سقف في مقدم البيت، وهو جناح أو قسم من المسجد الجامع، كانت تتوافر فيه الطلبة على دراسة العلوم، يشمل الرواق مجموعة من الغرف لإيواء الطلبة، وخزانة أو مجموعة من الخزائن الخاصة بالكتب، إضافة إلى قاعة كبيرة يتحلق بها الطلاب حول شيخهم. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٣٢؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص ٢١٣.

(٢) أبشرلي والتميمي، سجل أملاك وأوقاف المسلمين، ص ٣.

(٣) فواز علي الدهاس، الوقف مكانته وأهميته الحضارية، ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية، مكة المكرمة، في ١٨-١٩شوال١٤٢٠هـ، برعاية وكالة شؤون الأوقاف في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ص٣٧.

(٤) **الخان**: وجمعه خانات، وهي الوكالات أو الفنادق المعدّة لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج، وبه اصطبل للدواب، وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين، كذلك بالخان بئر مياه وميضأة، ومسجد صغير. انظر: زناتي، معجم مصطلحات التاريخ ، ص١٣٦.

(٥) زكار، فلسطين في عهد المماليك، ص٥٧٧.

(٦) الطراونة، الحياة الاجتماعية ، ص٢٢٦.

(٧) **ركن الدين منكورس**: هو مملوك لفلك الدين سليمان أخو صلاح الدين من أمه، وبعد عتقه صار أميرًا في=

وصفه القلقشندي بقوله: " ليس بها -العطنة - مركز وإنما بها خان تُفَرَّقُ فيه صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب"[١]. وكتب على جدران قاعة المدخل بأنه أوقفه لصالح المسافرين من فقراء المسلمين، بحيث يقدَّم لهم في كل يوم نصف رطل من الخبز، ونعال لمن كان حافيًا من رواده، وإصلاح حذوات دواب المسافرين، ومدة خدمته ليلة واحدة عدا حالات نزول المطر، بحيث يبقى النزيل لحين توقف المطر عن النزول[٢].

واهتم سلاطين المماليك ببناء الخانات باعتبارها من المرافق المهمة التي تخدم شريحة المسافرين من الحجاج وعابري السبيل، فكانت لهم مساهمات، كالظاهر بيبرس الذي أنشأ خانًا للسبيل خارج أسوار مدينة القدس في الجهة الشمالية الغربية سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وهو الخان الذي اشتهر باسمه، وبنى فيه مسجدًا، واستمر يُقِّدم خدماته طوال فترة المماليك الجراكسة، لكل قادم إليه ومغادر منه ولفقراء مدينة القدس ثلاثة أرغفة من الخبز، وجعل فيه خرازاً لإصلاح أحذية نزلائه، وعين فيه بيطريًا لمعالجة دواب المسافرين، وجعل فيه طاحونًا وفرنًا لكي يوفّر حاجات النزلاء من الدقيق والخبز[٣]. وأنشأ كذلك السلطان برقوق خانًا يعرف بالوكالة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م[٤].

وأشادت المصادر بجهود الأمير سنجر الجاولي في تطوير مدينة غزة على حد وصف الصفدي بأنه " هو الذي مدَّن غزة ومصَّرها"، حيث عمَّر بها حمامًا هائلاً، ومدرسةً وجامعًا وصف بأنه عديم النظر، وعمّر الخان للسبيل[٥].

= دولة العادل، ثم المعظم عيسى، كان من خيار الأمراء، كثير الصدقات، بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون، توفي سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م. انظر: النويري، نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٢١٥، ٢١٦.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٢٧.

(٢) صبح الأعشى، ج١٤، ص٤٢٧؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٢٧.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤١٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٧.

(٤) العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص٢٠٧.

(٥) الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٢٩٢. وانظر ايضًا: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص ٣١٦؛ ابن تغري=

ورُوعي في الخانات أن تظل على أماكن مطروقة لتكتمل بها الفائدة، ولذا كثيرًا ما كانت على الطرق الرئيسة بين المدن والأمصار، وخاصة طرق القوافل التي تنقل الحجاج والتجار، كتلك التي تمتد بين مصر وبلاد الشام والحجاز، وخاصة أن هذه الطرق كثرت بها محطات للمسافرين والحجاج، منها خان يونس الذي يرجع بناؤه إلى الأمير يونس النوروزي(١)، ويلاحظ أن هذا الخان كان في الطريق بين غزة ومصر ليخدم الحجاج والمسافرين(٢).

وكان الأمير صارم الدين أزبك المنصوري (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م)، من أهل المعروف، كان من أفعاله الخيّرة بناء خان للسبيل بشرق معرّة النعمان(٣)، وعمل عنده مسجدًا وسبيلاً للماء(٤).

وساهم التجار من أهل الخير أيضًا، كالشيخ أمين الدين ابن البصّ(٥) الذي عرف بحب الخير، وقد عمر خاناً بحوران(٦)، حصل به النفع للمسافرين إلى الديار المصرية وغيرها، وخانًا آخر في اللجون(١)(٢)، وعمر الشيخ زين الدين عبد الرحمن القادري(٣)

= بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١١٠؛ محمود علي خليل عطاء الله، نيابة غزة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص ٢٤٣.

(١) **يونس النوروزي:** عتيق الأمير جرجي الناصري، تنقلّ في الخدمة إلى أن أمِّر طبلخاناة، وولي إمرة ببعلبك، ثم اتصل بالظاهر برقوق فاستقر عنده دويدارًا كبيرًا وتقدّم في سلطنته الأولى، مات مقتولاً سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢٦٤.

(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢٦٤؛ عطاء الله، نيابة غزة، ص٢٤٤ .

(٣) **معرة النعمان:** مدينة كبيرة بين حلب وحماة. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٢٨٨.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣١٤.

(٥) **أمين الدين ابن البصّ:** الحاج عثمان بن أبي بكر بن محمد التاجر، أنفق أمواله في سبيل الخير، وقُدِّرَ ما أنفقه مئتي ألف وخمسين ألفا. انظر: ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٩٧؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٨٢؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٣٢٤.

(٦) **حوران:** كورة واسعة من أعمال دمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣١٧؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٣٥. =

خاناً على طريق بعلبك وطرابلس يأوي إليه المسافرون[٤].

وقد حرص أصحاب تلك الخانات على توفير وسائل الراحة فيها، ومدّها بالمياه، يؤكد ذلك ما ذكره ابن بطوطة، فقد أشار إلى الخانات التي مر بها ونزل فيها في الصحراء الشرقية بين مصر والشام، وقال: "وبخارج كل خان ساقية للسبيل"[٥].

فالأسبلة من المؤسسات الاجتماعية ذات الأهمية البالغة في الحضارة العربية الإسلامية، التي قصد بها توفير ماء الشرب للمسافرين وعابري السبيل وجموع الناس، سواء داخل المدن أو خارجها، وقد أنفق عليها سلاطين المماليك أموالاً طائلًة، وأوقفوا عليها مالاً وفيرًا لا يوجد له مثيل في الحضارات الأخرى[٦]، فعندما عمّر الظاهر بيبرس قلعة قاقون[٧] سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م بنى بها جامعًا وشيَّد به حوضَ ماء للسبيل[٨].

وساهم نواب مدن الشام بتلك المشاريع الخيرة، فأوقف العديد من أمراء المماليك

= (١) **اللجون**: موضع في طريق مكة من الشام قرب تيماء. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ١٣؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٢٠٠.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢ ، ص١٨٢.

(٣) **زين الدين بن عبد الرحمن القادري**: زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن القادري البسطامي، العالم الناسك، وكان محببًا إلى الناس يتردد إليه النواب والقضاة والفقهاء من كل مذهب، توفي سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٤م. انظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٥٨؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٨٨.

(٤) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص ١٥٨.

(٥) الرحلة، ج١، ص٧٢.

(٦) راغب السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٠م، ص ١٤٠.

(٧) **قاقون**: حصن بفلسطين قرب الرملة، ، تعرض للهدم في الحروب الصليبية، وفي عهد المماليك أعيد بناؤه على يد الظاهر بيبرس. انظر، الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص٢٩٩؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٠٥٩؛ محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين، دمشق، دار المأمون التراث، ط١، ١٩٨٧م ، ص٥٩٠، ٥٩١.

(٨) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٧٥؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٤٣-٢٤٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٥.

الأسبلة داخل المدن على سبيل المثال، سبيل التينة في مدينة طرابلس، من إنشاء الأمير محمد بن مباركشاه العلائي[(١)] سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م[(٢)].

ومن الملاحظ بأن هذه الأسبلة كانت منتشرة في طرق بلاد الشام، وكانت للدوادار يونس النوروزي جهود كبيرةٌ في بناء عدة أسبلة في مدن شامية، كغزة وحلب، تقع على الطريق بين مصر وبلاد الشام والتي وصفت بأنها من أحسن السبل، ومن أعظم النفع لخدمة عابرين السبيل.

وفي طريق الصالحية عمر الأمير سيف الدين بلبان المحمودي مصنع ماء غباغب[(٣)]، ووقف عليه نصف البلد[(٤)].

وكانت الرغبة في توفير ماء الشرب للعطشى تزداد في الأماكن المقدسة؛ مقصد كثير من العابرين، ولذا كان لابد من إنشاء الأسبلة فيها لتوفير مياه الشرب لسكانها من ناحية، وللوافدين على المسجد الأقصى من ناحية أخرى. ويلحظ أن معظمها يقع على الطريق الرئيس المؤدي إلى قبة الصخرة والمسجد الأقصى؛ لتوفير ماء الشرب للعابرين قبل وصولهم إلى المسجد الأقصى لأداء فريضة الصلاة.

وكانت لهم جهود واضحة بتجديد إعمار الأسبلة السابقة لعهدهم منها سبيل الكأس الذي عمر على يد سيف الدين تنكز سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٣٩م، وأعيد تعميره

---

(١) لم أجد له ترجمه.

(٢) عمر تدمري، تاريخ طرابلس، ج٢، ص٣٦٧.

(٣) **غباغب**: قرية في أول عمل حوران، من نواحي دمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٨٤؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٨٢.

(٤) **الأمير سيف الدين المحمودي**: حاجب الحجاب بدمشق، ثم نقل إلى حاجبية طرابلس، كان موصوفاً بالشجاعة، توفي في طرابلس بعد مرض، وحمل إلى دمشق ودفن في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٩؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس ، ج٢ ، ص ١٨١؛ ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص٣١١.

أيضًا زمن السلطان قايتباي[1].

وسبيل شعلان الذي الذي أصلحه وجدّد عمارته السلطان الأشرف بارسباي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م[2]. كما أنشئ في عهده أيضًا سبيل البصيري: غربي الحرم سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م[3].

أما أشهر سبل القدس وأجملها، سبيل قايتباي[4] عُمر سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، مقابل مدرسته الأشرفية [5].

وكان للأمراء أيضًا مساهمات في توفير الأسبلة لعامة الناس مثل فخر الدين محمد بن فضل الذي بنى عدة أسبلة من الماء بالرملة [6][7].

وكثير من الأوقاف تنبهت لأهمية السقاية، فرصدت لذلك الأوقاف فنصت وثيقة في سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م على وقف إحدى القرى في معاملة القدس يصرف ريعها

---

(١) **سبيل الكأس**: يقع بين مبنى المسجد الأقصى ودرج صحن الصخرة المواجه له، وهو حوض مستدير من الرخام مملوء بالماء، وفي وسطه نافورة تشبه الكأس، أنشئ في عهد السلطان العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب. انظر: العسلي، من آثارنا في فلسطين، ص٢٢٩.

(٢) **سبيل شعلان**: يقع أسفل الدرج الشمالي من الحد الغربي لصحن الصخرة المشرفة، بني في عهد الملك المعظم عيسى، وهو آخر الأسبلة التي بناها الأيوبيون في القدس.انظر: العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص٢٠٨؛ العسلي، من آثارنا في فلسطين، ص٢٣٣.

(٣) العليمي، الأنس الجليل ج٢، ص٢٧٠؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص٢٠٨.

(٤) **سبيل قايتباي**: يقع في الساحة الكائنة بين باب السلسة وباب القطانين، وعلى بعد خمسين مترًا من جدار الحرم الغربي بين صحن الصخرة الغربي الأوسط والمدرسة العثمانية، وهو يتألف من ثلاث طبقات: قاعدة مستطيلة، ومنطقة انتقال (رقبة القبة)، وقبة، والجانب الجنوبية والغربية والشمالية منه فيها نوافذ عليها درابزين. انظر: العسلي، من آثارنا فلسطين، ص٢٤٨.

(٥) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٦؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ص٢١٣.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٦.

(٧) **الرملة**: مدينة كبيرة في فلسطين، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض. انظر: ابن بطوطة، ج١، ص٨٠.

على مصالح السقاية في القدس الشريف[١]، ووثيقة أخرى نصت على وقف عشرة حوانيت يصرف ريعها على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[٢].

وتطلعنا وثيقة ملفتة للنظر تدل على مدى حرص أهل القدس برعاية قنوات السبيل، حيث شملت ثلاثة أفراد من الأسرة نفسها، تنص على عمارة قناة السبيل ومراعاة مصالحها[٣].

وكان يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على طالبيه المزملاتي، وكانوا يخضعون لإشراف دقيق مباشرة من قبل المحتسب، وفي ذلك يقول ابن الأخوة: "أَمَّا سُقَاةُ الْمَاءِ فِي الْكِيزَانِ فَيُؤْمَرُوا بِنَظَافَةِ أَزْيَارِهِمْ وَتَغْطِيَتِهَا وَافْتِقَادِهَا بِالْغَسْلِ"[٤]. ويرجع هذا التشديد على السقاة؛ لما قد ينشأ من مخاطر كبيرة جراء تلوث المياه على صحة الناس، بانتقال الأمراض من شخص لآخر، إذا لم تراع قواعد النظافة.

وارتبطت النظافة والطهارة بوجود الحمامات، وهي من الحاجات التي يحتاج إليها عابر السبيل بعد عناء السفر، وهذا وجه من وجوه الرعاية التي وجدت في بلاد الشام، فقد أسهم كثير من سلاطين المماليك وأهل الخير ببناء الحمامات العامة، فبنى الظاهر بيبرس حمامًا على باب قلعة دمشق[٥]، وبنى الأمير عز الدين الحموي نائب دمشق حمامًا عرف بحمام الحموي[٦]، وبنى الأمير سيف الدين تنكز عدداً من الحمامات في بلاد الشام[٧].

---

(١) وثيقة رقم (٢٢) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس، انظر: غوانمة، بيت المقدس، ص١٠٩.

(٢) وثيقة رقم (٧٧) من وثائق المتحف الإسلامي في القدس، انظر، غوانمة، بيت المقدس، ص١٠٩.

(٣) محمد صالحية، سجل أراضي ألوية صفد، ص١٣٣.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربة، ص٢٣٩.

(٥) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، قسم دمشق، ص٤٠.

(٦) **عز الدين الحموي**: هو أيبك بن عبد الله التركي الظاهري، كان من أعيان الأمراء، توفي سنة ٧٠٣هـ/١٣١٣م انظر، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٣٣.

(٧) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢٦٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧.

ووصل تطور الخدمات في بلاد الشام إلى درجة كبيرة من التقدم، فأنشيء مجمَّع خيري يضم الخدمات السابقة الذكر في مكان واحد، فعلى سبيل المثال ما قام به الأمير طاجار الدوادار(١) من إنشاء خانٍ سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، بجينين(٢) من طريق الشام، وبنى فيه حوضًا للسبيل، وأنشأ به حمامًا وعدة حوانيت ويباع فيه ما يحتاج إليه المسافرون، وكثر الانتفاع منه(٣).

ومنهم من جمع بين الخدمات الاجتماعية والتعليمية والصحية، كما فعل بكتمر بن عبدالله الحر الأشرفي والي حصن الأكراد(٤)، الذي بنى زاوية ومدرسة وبيمارستانًا بأموال جسيمة، وأوقفها على الصادي والغادي من أبناء السبيل في سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م(٥).

ولعل فيما ذكر آنفًا من صور الحفاوة والرعاية التي وجدها ابن السبيل والمنقطع في بلاد الشام من خلال توفير الطعام والمأوى والضيافة وفتح مجالات العلم والعمل لهم ونحو ذلك، لهو دليل على مدى الرعاية التي وجدها تلك الفئة في العصر المملوكي.

---

(١) **طاجار الداودار**: طاجار المارديني الناصري أمّره الناصر عشرة، ثم أمّره طبلخاناة بعد مدة طويلة، ثم استقر دويدارًا، مات مقتولا في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٧٣.

(٢) **جينين**: بليدة بين نابلس وبيسان. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٣٦٨.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٢١٨؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٧٧.

(٤) **حصن الأكراد**: هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وقيل هو الجبل الجليل المتصل بجبل لبنان، بين بعلبك وحمص، وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجًا وجعل فيه قومًا من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج، وأجرى لهم أرزاقًا فتديروها بأهاليهم، ثم خافوا على أنفسهم في غارة فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٤؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٠٦.

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٢٦.

المبحث الثاني
رعاية الفقراء من الحجاج

دأب سلاطين المماليك على إظهار تمسكهم بالإسلام والذبّ عنه، واعتنوا كثيرًا بالأماكن المقدسة في الحجاز والقدس، وتعكس فريضة الحج الدور الأساسّي الذي سعت إليه الدولة المملوكية في تأكيد هيمنتها كدولة حامية للإسلام والمسلمين .

وسيتناول هذا المبحث الرعاية التي حظي بها حجاج بلاد الشام باعتبارهم من رعايا الدولة المملوكية، فقد كان لموقعها الجغرافي دور في مرور قوافل الحج عبر طُرقه ومسالكه، فإلى جانب حجاجها كانت ممرًا لحجاج فارس والروم وشمال العراق ومصر والشمال الإفريقي، ولذا لقيت بلاد الشام عناية ورعاية كبيرتين.

ولبلاد الشام نوع من التقاليد والطقوس التي ارتبطت بفريضة الحج، وكانت محط عناية، سواء من الدولة المملوكية أو من المجتمع الشامي، وتبدأ أولى مظاهر عنايتهم بإعداد المحمل[1] الشامي. وهو يشير إلى تأكيد سيادة الأُمراء الذين يرسلونه، وإضفاء صفة حماية الأراضي المقدسة عليهم، الأمر الذي يثبت مركزهم ويضفي عليهم شرفًا عظيمًا[2]، ولذلك اقتصر خروج المحمل على القاهرة عاصمة دولة المماليك، ودمشق عاصمة بلاد الشام. وكانت دولة المماليك أقوى الدول الإسلامية آنذاك وصاحبة الحماية على مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وكان يُلقى على كاهل الدولة المملوكية تزويد قافلة الحج بكل احتياجاتها المعاشية

---

(١) **المحمل**: صندوق خشبي مربع يعلوه هرم مزينّ بالحلي والنفائس، ويحمله جمل قوي وجميل مزين هو الآخر بمختلف الحلي، ومغطى بفاخر القماش، كان يحمل معه مصحفًا شريفًا مغطى بالحرير. ويذكر أن أول من فكر بإرسال هذا المحمل الملك الظاهر بيبرس.انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٤٥؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب، ص٣٩٠؛ زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٣٥.

(٢) صالح موسى درادكة، طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية، المطابع العسكرية، عمان، ط١، ١٩٩٧م، ص٧٨.

من مأكل ومشرب وملبس، فضلاً عن توفير الحرف والصنائع المختلفة التي يحتاج إليها الحجاج في الحل والترحال، والذين كانوا يتسلمون رواتبهم من الدولة[١].

ومما يدلل على عظم المحمل الشامي عند سلاطين المماليك ما كان يصرف عليه، ففي سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م قدر بخمسة وثلاثين ألف درهم فضة[٢].

وكان السلطان المملوكي يحرص أن يختار الشخص الذي يلتمس فيه الغاية المرجوة من رعاية الحجاج لهذا كان لابد أن تتوافر فيه شروط معينة في أمير الحج، منها: أن يكون مسلمًا بالغًا سن الرشد، خاليًا من العاهات الجسمية والعقلية، وأن يكون مطاعًا، ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية، وتتوافر فيه صفات الورع والتقوى عالماً بأحكام الحج البلد[٣]. ومهمته ليست سهلة، ففشله يؤدي إلى خسائر تصيب ركب الحج بأكمله؛ مما يكون له أبلغ الأثر على مكانة الدولة المملوكية.

وممن أُثني عليهم في المصادر بدر الدين الصوابي[٤]، الذي حجّ بالناس بالشام في سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م، وأبطل ما كان يجبى من الحجاج في كل سنة بطريق الشام بسبب مداراة العربان، وهو على كل جمل عشرة دراهم، دفع ذلك من ماله الخاص، نحو ثلاثة

---

(١) المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٢١؛ درادكة، طرق الحج الشامي، ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) ابن فهد، نجم الدين عمر بن فهد بن محمد المكي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تح: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ، ج٣، ص٤٣٨.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٧٢؛ انظر ايضًا: الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الحنبلي (ت٩٧٧هـ/ ١٥٥٩م)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط٢، ١٤٢٩هـ، ج١، ص٢٢٥؛ عائشة مانع عبيد العبدلي، إمارة الحج في العصر المملوكي وأثرها على الأوضاع الداخلية في مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٢٧-٣٠.

(٤) **بدر الدين الصوابي**: أصله من خدام الطواشي صواب العادلي، كما شغل وظيفة أمير مائة، ومقدم ألف، توفي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٨٣؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٩٨.

آلاف درهم، حيث كانوا يكتبون الجمال بالكرك ويجبون من الحجاج طول الطريق، ويفرق أولاً بأول على أهل الطرقات والمجاورين[١].

وفي المقابل تحدثت المصادر عن أمير الركب الشامي قرقماش سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، ومدى استياء الحجاج منه، فعندما وصلوا إلى زيزاء[٢] أرسلوا رسالة إلى نائب دمشق يشكون ظلمه وجهله وتشويشه على الناس، وحمقه وبطشه في غير موضعه. وهذه الحادثة تدلل على أن الحجاج لم يكونوا سلبيين في مواجهة أميرهم، وأنهم يعبرون عن سخطهم أو رضاهم، فبعد عودتهم من الحج يعبرون عن رضاهم برفع الرايات البيضاء، ونتيجة لذلك كان السلطان يكرم الأمير المشكور سيرته مع الحجاج ويثني عليه[٣].

ومن النواحي التي حرصت عليها الدولة المملوكية أمن طرق الحجاج حتى وصولهم إلى الحجاز، و كان أكثر ما شغل بال الحجاج هو غارات البدو عليهم، فعيِّن مع ركب الحاج الدوادار وأتباعه من خاصة الشرطة الذين يحفظون الأمن، والعسس وهم يطوفون بالركب في أثناء النزول للقيلولة أو المبيت[٤].

وقد أولت الدولة المملوكية أمر الطرق المؤدية للحج جُلَّ اهتمامها وعنايتها، إضافة إلى حرصها على تأمين الطرق المؤدية للمدينتين المقدستين، من حيث الإصلاحات وإزالة العقبات وحفر الآبار والبرك وإقامة خزانات المياه وصيانة المنشآت وجعلها صالحةً لخدمة الحجاج، خاصة تلك التي تصادف ركب الحج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج، ويتم التزود بما يلزمهم من الماء العذب أو الاحتياطات الضرورية وكذلك حماية أمن القوافل على طول طرق الحج المختلفة[٥].

---

(١) الجزيري، آل درر الفرائد، ج١ ، ص٦٠٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٤١.

(٢) **زيزاء**: من قرى البلقاء بها أسواق وبرك، وهي من محطات الركب الشامي. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٦٤؛ وذكرها ابن بطوطه بلفظ (زيزة)، الرحلة، ج١، ص١٢٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٦٠.

(٤) عائشة مانع عبيد العبدلي، إمارة الحج في العصر المملوكي وأثرها على الأوضاع الداخلية في مكة المكرمة، رسالة ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٦/٢٠٠٥م، ص٣٨.

(٥) ريما بنت صالح القرناس، رعاية الفئات المحتاجة في مكة والمدينة خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/=

ومن وجوه البر التي اهتم الواقفون بالصرف عليها من ريع أوقافهم تجهيز من لم يؤدِّ الحج من الفقراء لقضاء فرضه، وهذا ما أكده ابن بطوطة عندما تحدث عن أوقاف دمشق بقوله:"والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها؛ لكثرتها،... فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج"(١).

كما ساهم سلاطين المماليك في تجهيز الحجاج الفقراء، وأشاد ابن بطوطة بالسلطان المملوكي الملك الناصر محمد بن قلاوون بقوله: "وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة، وكفاه شرفًا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما كان يفعله كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي"(٢).

وخصص الأشرف شعبان في وثيقة وقفه سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م مبلغ ألفي درهم لقاصدي الحج إلى بيت الله الحرام من المشاة الذين ليس لهم زاد ولا راحلة، وقرر لكل منهم مئة درهم يستعين بها على أداء الفريضة(٣).

وكان لأهل الخير دور كبير أيضًا في مساعدة الحجاج المحتاجين، مثل القاضي زين الدين عبد الباسط(٤) الذي أوقف في الركب الشامي خيمتين على صفة الجملون للفقراء والمساكين وما يحتاجون إليها من الجمال والرجال وغير ذلك، ورتب لكل خيمة قنطارًا من

= ١٢٥٠-١٥١٧م)،رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الدمام، الدمام، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص٢٣٥. وانظر ايضًا: محمد محمد التهامي، الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية ، مجلة الدارة،ع١، السنة السادسة، ١٤٠٥هـ، ص٨٧-٨٨.

(١) الرحلة، ج١، ص ١١٨.

(٢) الرحلة، ج١، ص٥٩.

(٣) القرناس، رعاية الفئات المحتاجة، ص٢٣٩. وانظر ايضًا: راشد القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٣٤.

(٤) **القاضي زين الدين**: عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي زين الدين، ناظر الجيش، أحد أكابر الرؤساء وأرباب التصرف والمكانة في دولة الأشرف برسباي، له عدة مدارس بمصر ومكة والقدس وغيرها، وأنواع من وجوه البر، توفي سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٨٥، ٢٨٦ ؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢ ، ص١١١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٧٣.

البقسماط وما يكفيها من أحمال الماء[١]، وكان يرافق المحمل سبيل لانتفاع الحجيج[٢].

وتستمر إعانات أهل الخير لمساعدة الحجاج طوال طريقهم إلى مكة، ففي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م، بعث يلبغا الخاصكي بحوالي ألفي إردب قمح، وواصل الإمداد حتى بلغ اثني عشر ألف إردب قمح وُزعت على الناس، ومنهم الحاج الشامي"[٣].

أما إسهامات النساء فيذكر في هذا المجال زوجة نائب حلب التي قيل إنها "حجت من حلب حجةً عظيمةً، أصرفت عليها مالاً كثيرًا، وأحسنت للفقراء بالماء والزاد والنفقة، وأحسنت لأهل مكة والمدينة"[٤].

ولم تتوقف إعانات المحسنين للمحتاجين من الحجاج القادمين إلى المدينة، فخصص السلطان الأشرف شعبان من أوقافه على الحرمين مبلغًا من المال لضيافة القادمين إلى المدينة، فجاء في وقفيته ما نصه: "ويصرف في كل سنة من النقرة[٥] ألفي درهم، يصرفها الناظر لمن يرد الحرم من المشاة إلى المدينة الشريفة على الحالِّ بها أفضل الصلاة والسلام والرحمة، لكل منهم خمسة دراهم نقرة ضيافة لهم حين حضورهم، فإن فضل من ذلك فضلة صرفها في تجهيز من عجز عن التوصّل إلى أهله فيصرف إليه من ذلك ما يوصله وطنه على من يراه ويؤدي إليه اجتهاده"[٦]. وبما أن حجاج الركب الشامي هم الركب الوحيد الذي يتشرف بزيارة المدينة مرتين عند قدومه للديار المقدسة وعند عودته، فهم

---

(١) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ق١، ص ٢٥٧؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١١١.

(٢) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٢٦، ٦٩، ٧٠، ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٣، ص٥٣؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٥٣.

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص٣٣١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٩٧؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٦٦٦.

(٤) سبط ابن العجمي، كنوز الذهب، ج٢، ص٢١٤.

(٥) **الدراهم النقرة**: ثلثاها من فضة، وثلثها من نحاس، وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية، ويكون منها صحاح وقراضات مكسرة. للمزيد انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٠؛ دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٧٤؛ زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص ١٥٢.

(٦) القحطاني، أوقاف الأشرف شعبان على الحرمين، ص١٢٢؛ بدر شيني، أوقاف الحرمين، ص٢٥١ .

أكثر من يستفيد من هذه الأوقاف.

ومن الشخصيات المملوكية التي حفظت لها المصادر جهودها في موسم الحج، وما قدمته من صدقات للمحتاجين والفقراء بكتمر الجوكندار المنصوري[(١)]، الذي حج في سنة٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، وأنفق في حجته خمسة وثمانين ألف دينار وصنع معروفًا كبيرًا، منه أنه حمل سبعة مراكب مشحونة بالدقيق والقمح وأنواع الطعام، من السكر والعسل والزيت والحلوى ونحو ذلك، ونادى في الحجاج: من كان محتاجًا إلى مؤنة أو أي شيء من الطعام فليحضر! فأتاه المحتاجون، ففرق على أهل مكة، وخصص منهم فقراء حجاج الشام[(٢)].

وفي سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م جهز الأمير جركس الخليلي[(٣)] كثيرًا من القمح إلى الحرمين ليعمل منه في كل يوم خمسمئة رغيف، وبالمدينة في كل يوم خمسمئة رغيف، تفرق على الفقراء والضعفاء، و لم يحدد لهذه الصدقات شروطًا، بل يأخذ من حضر، و لم يبق أحد من الفقراء جائعًا فعمَّ نفعها الجميع[(٤)].

وعلى الرغم من أن مثل هذه الصدقات لم تحدد حجاج بلاد الشام إلا أنها أيضًا لم تحدد حجاجًا بعينهم، فكل من هو فقير محتاج شملته هذه الأوقاف المباركة.

---

(١) **بكتمر الجوكندار**: بكتمر الجوكندار المنصوري، الأمير سيف الدين، ترقى في الخدم حتى صار جوكندار وأحد أمراء الألوف بديار مصر، وكان من أهل الحل والعقد، كان الملك الناصر يقول إذا خاطبه : يا عم، فلم يزل على حاله من الرفعه حتى سئم الناصر من شدة حجره عليه، وعزم على التخلص منه، انتهى أمره مسجونًا في الكرك إلى أن قتل في سنة ٧١٦ه/١٣١٦م. انظر: المقريزي، المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م، ج٢، ص٤٥٩.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

(٣) **جركس بن عبد الله الخليلي**: تركماني، من مماليك يلبغا الخاصكي، تقدم عند الظاهر برقوق، كان مهيبًا، كثير الصدقة، مات مقتولا سنة ٧٩١هـ/١٤٩٠م. انظر: الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٧٦؛ السخاوي، الذيل التام على دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، ومحمود الأرناؤوط، مكتبة دار العروبة، الكويت، دار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص٣٥٧.

(٤) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٤٨؛ المقريزي، السلوك، ج٥، ص١٧٨؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٢٢؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٦٧١.

وحرص سلاطين المماليك على إلغاء كثير من المكوس التي كانت تفرض على الحجاج، رغبة في الأجر والثواب، وتيسيرًا على حجاج بيت الله في أيام الحج المباركة، فعلى سبيل المثال بعد تعيين أمير الركب تبدأ الرميات التي أساء المماليك استغلالها وصاروا يبالغون في جبايتها ويرهقون الأهالي، خاصة في أواخر الدولة المملوكية، فكان يفرض على كل حارة مبلغ معيّن يجمعه عرفاؤها [١]، ويفهم من نقش في الجامع الأموي أنه بلغ الملك الأشرف قايتباي أنه جدد على الحجاج في البلاد الشامية المكس، وأخذ على كل جمل عشرة دراهم، لذلك أمر بمنع المظالم، كما أمر بعدم التعرض لميراث من يتوفى بطريق الحج[٢].

وفي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م عوض السلطان الأشرف شعبان بن حسين أمير مكة بمئة وستين ألف درهم نقرة وألف إردب من قمح مقابل إسقاط ما على الحجاج من مكوس وعلى سائر ما يحملونه من بضائع[٣].

وأكثر ما شغل الدولة المملوكية هو تأمين طرق الحاج، ويبدو أن السيطرة على خطر العربان ارتبطت بقوة السلطان وشخصيته فعلى سبيل المثال اعتمد الظاهر بيبرس موازنة دقيقة في سياسته تجاه القبائل العربية الشامية، فقد ربط بين ما قدمه لأمرائها من امتيازات بشتى أشكالها، وواجب طاعة الدولة والحفاظ على أمنها وسلامتها في الداخل والخارج، ولم يتردد في اتخاذ إجراءات صارمة تجاهها في حالة خروجها عن أداء ما كان عليها من التزامات، يقول ابن عبد الظاهر: "ضمنهم البلاد وألزمهم العداد وشرط عليهم البريد وإحضار الخيل برسمه..."[٤].

والواقع أن هذه القبائل، أظهرت التزاماً عاليًا في تنفيذ ما كانت ملتزمة به في

---

(١) البصروي، صفحات مجهولة، ص١٨٠؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص٢٥٣.

(٢) الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ٢٥٣.

(٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٠١؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٣؛ الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٦٦٣، ٦٦٤؛ العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٢٥٨.

(٤) الروض الزاهر، ص١٤٩.

الحفاظ على أمن الدولة في الداخل ومواجهة أعدائها في الخارج إذا ما تعرضوا لها، وهو ما يلاحظ طوال عهد الظاهر بيبرس، فقد شارك الأمير زامل بن علي بن حديثة أمير آل علي سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، ومعه جمع من العرب في إحدى المعارك التي خاضها المماليك لصد المغول الذين كانوا قد هاجموا مدينة حمص، وقد أشاد المقريزي بدورهم في هذه المعركة، وذكر أنهم لاحقوا المغول وأفنوهم قتلاً وأسرًا(١).

وألزمهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحراسة طريق الحج من مصر إلى الحجاز ومن الشام إلى الحجاز، ففي سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م وردت الأخبار بأنه عهد إلى العربان القاطنة في الطرق عربان العايد في غزة وعربان بني سليمان، وبني عقبة، بحراسة طريق الحج من طور سيناء إلى عقبة أيلة(٢).

وخصص الأشرف شعبان في وثيقة وقفه سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، صرف مبلغ ألف درهم كل سنة لمشايخ زبيد بشرط أنهم يخفرون الحجاج، وقررت الوثيقة صرف مبلغ ألف درهم سنويًا لمن يخفر المشاة من مكة إلى المدينة ذهابًا وإيابًا(٣).

وازداد خطرها في أواخر الدولة المملوكية ففي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م، واجه الركب الشامي في طريق عودته خطر العربان في مكان يقال له الحسا فاستولوا على الركب بأكمله، ولكن لم يمس الحاج بسوء، ولم يقتل منهم أحد، إلا أن كثيرا منهم هلك في الطريق من الجوع والعطش، ولم يصل منهم إلا القليل(٤).

مما جعل الدولة تتبع أسلوبًا أخر لتأمين طريق الحج، ففي سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م أرسلت هدايا وخلع الإمرة لشيخ بني عامر مع أحد أولاده(٥). إلا أن هذه الأساليب لم تكن كافية لوقف طمع العربان؛ مما يدل على ذلك ما ذكره البصروي في حوادث سنة

---

(١) السلوك، ج١، ص٥٢٥.

(٢) ابن أيبك الدواداري، الدُّرر الفاخر، ج٩، ص١١٥.

(٣) القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٣١.

(٤) الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص٧٦٨،٧٦٩.

(٥) البصروي، صفحات مجهولة، ص ٢١٨-٢٢٢.

٩٠٣هـــ/ ١٤٩٧م: "وصل الخبر بأن الحاج تعرض إليهم العرب وأنهم أخذوا نحو ثلثهم وأنهم معهم في قتال في منزلة اللجون"[١].

ويبدو أن الدولة المملوكية فقدت هيبتها أمام العربان، حيث استمر هجوم تلك القبائل يتوالى على الحجاج، فيشير ابن إياس في حوادث سنة ٩٠٨ هـــ/ ١٥٠١م إلى أن العربان خرجوا على ركب الحج الشامي في رابغ[٢] قبل أن يدخلوا مكة المكرمة فنهبوا الركب عن آخره، وقتلوا الرجال وأسروا النساء، وفعلوا بهم ما لا فعله تيمورلنك لما دخل الشام[٣].

ومنذ بداية القرن العاشر الهجري لم تستطع الدولة المملوكية فرض سيطرتها على العربان القاطنين في طريق الحاج، ويتجلى ذلك واضحًا عندما أمر السلطان قانصوه الغوري في سنة ٩١١هـــ/ ١٥٠٥م، بإبطال الحج من القاهرة وبلاد الشام، لوصول أخبار إليه أن العرب مجتمعة وليس لهم قدرة عليهم[٤]. ويتضح من هذا القرار مدى العجز الذي وصل إليه سلاطين المماليك في تلك الفترة.

ومتابعة أخبار ركب الحجاج أيضًا من الحلول التي يمكن عن طريقها إنقاذ الحجاج في الوقت المناسب، فقد كان أمير دمشق يتابع أحوال ركب الحجاج بتجهيز ما يسمى بكتب الوفد، تتضمّن خلاصة أخبار القافلة ويوم الوقفة، وأسعار البضائع ومدى توافر المياه، والمشكلات مع البدو وأحوال أمراء الحجاز، وما إلى ذلك[٥]، وكان لهذا الإجراء عناية كبيرة من قبل أمير دمشق، فمن خلال هذه الكتب يستطيع أعانة الركب وقت الحاجة، فمن الإشارات التي تدل على ذلك ما ذكره الجزيري سنة ٨٢٧هـــ/١٤٢٤م

(١) صفحات مجهولة، ص٢٢٣.

(٢) **رابغ**: واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة، وقيل بين الأبواء والجحفة. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٩٢.

(٣) بدائع الزهور، ج٤، ص٣٦.

(٤) الجزيري ، الدرر الفرائد، ج٢، ص ٧٩٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص١٠١.

(٥) ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج١، ص٣٥٣؛ البصروي، صفحات مجهولة، ص١٩٢.

عما حصل للحاج الشامي من مشقات عظيمة من عطش وهمٍّ في طريق الرجعة بحوران بسبب الرياح، فرحل نائب دمشق تنبك البجاسي بالزاد والماء، وفرق عليهم البغال، فانتفع بها[1].

من خلال ما سبق نلحظ مدى الاهتمام والعناية اللذين وجدهما الحجاج في ظل الدولة المملوكية سواء من ناحية السلطة المملوكية أو من ناحية المجتمع الشامي. ومن جانب آخر نلاحظ أن أمان الحجاج على الطرق كان مرتبطًا بقوة السلطة المملوكية أو ضعفها، إلا أن ذلك لم يمنعنا من القول إنه على الرغم من الحوادث التي كانت تتعرض لها قوافل الحج الشامي في العقود الأخيرة من العهد المملوكي إلا أن غالبية القوافل كانت تعود بسلام؛ لأن حكام المماليك كانوا يهتمون لنجاح مواسم الحج، ولنجاح تلك القوافل، باعتبارهم حماة للأراضي المقدسة.

(١) الدرر الفرائد، ج١، ص٧٠٨.

المبحث الثالث
رعاية المساجين والأسرى

لم يرد في المصادر المملوكية معلومات واضحة عن هذه الفئة من ناحية رعايتهم وأوضاعهم داخل السجون، وكل ما توافر من معلومات اقتصر على سجناء السلاطين والأمراء، وهذا مما صعب مهمة الباحثة، الأمر الذي جعلها تعتمد على معلومات متناثرة، مبتورة، وغامضة، جاء ذكرها عرضًا في المصادر عند الحديث عن سجن شارك مساجينه في الأحداث السياسية، أو كان ذكره ضرورةً يقتضيها عرض سيرة المشهورين من السجناء.

السجن كلمة دائماً ما تأتي مع كلمة الحبس في كتب اللغة، فمعنى السِّجْنُ الحَبْسُ والسَّجْنُ، سَجَنَه يَسْجُنُه سَجْناً أي حبسه[١]، عرَّفه ابن تيمية بأنَّه: تعويق الشخص ومنعه من التصرُّف بنفسه[٢]، وذهب ابن القيم إلى مثل ما رآه شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: الحبس الشرعيّ ليس هو الحبس في مكانٍ ضيِّقٍ، وإنَّما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرّف بنفسه، سواء كان في بيت أو مسجد[٣]، وقَدْ أَفْرَدَ الْحُكَّامُ الْمُسْلِمُونَ أَبْنِيَةً خَاصَّةً لِلْحَبْسِ، وَعَدُّوا ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْمُرْسَلَة[٤].

وسنلقي الضوء على سجناء القضايا الشرعية، التي يكون أصحابها عادة من عامة الناس، وتدور قضاياهم حول الديون، وهو ما تعارف عليه بـــ (الغارمون)[٥]، من

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٠٣؛ الرازي، مختار الصحاح، ص١٢١.

(٢) مجموع الفتاوى، تح: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج ١٥، ص ١٣٦.

(٣) ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ/ ١٣٤٩م)، الطرق الحكمية، مكتبة دار البيان، د.ط، د.ت، ص ٨٩.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج١٥، ص١٣٦؛ ابن القيم، الطرق الحكمية، ص٨٩.

(٥) **الغارمون في اللغة:** جمع غارم وهو المدين الذي يلتزم ما ضمنه وتكفل به، ويقال رجل غارم أي عليه دين. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٣٦، ٤٣٧؛ الجوهري، الصحاح، باب الميم، فصل الغين، مادة (غرم)، ج٥، ص١٩٩٦، والغارمون: هم المدينون العاجزون عن وفاء ديونهم. للمزيد انظر: ابن قدامة، المغني، ج٦، ص٤٨٠.

الأصناف الثمانية الذين بينتهم آية مصارف الصدقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١] .

ولا خلاف بين الفقهاء في استحقاق الغارم سهمًا من الزكاة، لحاجته وعجزه كغيره من الفئات المحتاجة، فيدفع إليه ما يقضي به دينه[٢].

وفي العصر المملوكي كانت قضايا الديون ترتبط بالقضاء الذين خصص لهم سجونًا خاصةً بهم غالب من يسجن فيها على قضايا شرعية أو ديون[٣]. وأشار إليها ابن قاضي شهبة باسم سجن الشرع تمييزاً له عن سجن أصحاب الجرائم[٤]. وهذا نوع من العناية بهذه الفئة بعدم سجنهم مع أصحاب الجرائم.

وتطلعنا المصادر المملوكية على ضريبة فرضت على المساجين في العصر المملوكي تسمى مقرر السجون، شملت سائر السجون في جميع أرجاء الدولة المملوكية، بما فيها سجون القضاء، قدرها المقريزي "بستة دراهم سوى كلف أخرى"[٥]، أي عدا الغرامة التي تفرض على الجرم الذي ارتكبه، بينما قَدّر النويري تلك الغرامة ستة دراهم فما دونها[٦]. أما ابن تغري بردي فقد قدرها "بمئة درهم"[٧]، ولعل اختلاف المؤرخين في تقدير القيمة المالية يقودنا إلى تفسير ذلك بأن هذا المبلغ المفروض اختلف باختلاف الوضع الاقتصادي للسجين نفسه، وباختلاف الجنحة التي ارتكبها، خاصة أن الكل كان

---

(١) سورة التوبة: الآية: ٦٠.

(٢) ابن قدامة ، المغني، ج٦، ص٤٨٠؛ حسن كوركولى، مصارف الزكاة، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٣) هالة نواف يوسف الرفاعي، السجون في مصر في العصر المملوكي، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨١م، ص٦٦.

(٤) تاريخه، ج٣، ص٦١٩.

(٥) الخطط، ج١، ص١٦٨.

(٦) نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢١٥.

(٧) النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٦.

يتحدث عن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

فلو تخاصم اثنان لدى مجلس الحكم واقتضى الأمر حبس المدعى عليه لغاية التحقيق، ثم انفضت الخصومة بين الطرفين دون تدخل القاضي، وجب على المدعى عليه دفع المقرر ولو لم يَقْضِ في السجن ساعةً من نهار(١).

وقد صور النويري معاناة من حكم عليهم بالسجن نتيجة الضريبة التي يدفعونها فقال:" إن السجون إذا سجن بها أحد يجمع عليه بين السجن وبين الطلب، وإذا أفرج عنه ولو في يومه انقلب إلى أهله في الخسارة أسوأ منقلب، فهو لا يجد سرورًا بفرجه، ولا يجد عقبى مخرجه"(٢).

وممن كانت له جهود إصلاحية واضحة لتحسين أوضاع السجناء السلطان المنصور قلاوون الذي كشف عن أوضاع كثير من المساجين وما كان يعانيه أغلبهم من أحوال سيئة، فأفرج عن غالبهم(٣).

ووجه السلطان الناصر محمد بن قلاوون عناية كبيرة بالمساجين فعلى سبيل المثال أصدر مرسومًا في سنة٧١٤هـ/ ١٣١٤م يقضي بألا يؤخذ من كل مسجون إلا نصف درهم فقط(٤)، وبرغم من ذلك وصل مبلغ ما جبي من ضرائب: متحصل السجون في نيابة طرابلس في حدود سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م عشرة آلاف درهم(٥).

ثم تلا ذلك إلغاء نظام الضمان تمامًا في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(٦)، وربما يكون السبب راجعًا إلى عدم التزام الضامن بالتحديد السابق، وحصوله على مبالغ

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٤٦.

(٢) نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٦١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٣، ٣٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٠٤.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢١٥.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٦٢.

(٦) الدوداري، الدر الفاخر، ج٩، ص٢٨٦؛ الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ورقة ٨٠ب؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٧.

أكبر ربما تكون قد وصلت إلى ما ذكره ابن تغري بردي، أي: مئة درهم في بعض الأحوال، ولم تَقِلَّ عن ستة دراهم في أدنى الأحوال كما ذكر المقريزي.

وقد أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، مرسومًا يقضي بإبطال السجون الموجودة بطرابلس الشام(١).

ويرتب للسجون المملوكية سجلاتٌ خاصة أطلق عليها اسم مدارج السجون، يبين فيها أسماء المساجين وجرائمهم . وهي المرجع الأساسي الذي يعتمد عليه السلاطين لتفقد أحوال المساجين خاصة في حالات الإفراج، وقد عرف عن الظاهر بيبرس أنه كان يسترجع مدارج السجون ويطلع على الأسماء المدونة فيها في أول كل سنة، وفي أشهر رجب ورمضان وذي الحجة، ويكشف عن جرائم المساجين، ويطلق فيه كل فترة أعدادًا كبيرة من أنحاء الدولة كافة(٢).

أما مصادر الإنفاق على المساجين وما إذا كان للدولة بند خاص لنفقات السجون فهذا ما لم توضحه المصادر بشكل مباشر؟!

وأورد ابن كثير في أحداث سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م خبرًا عن وصول كتاب من شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو محبوس في سجن الجب في القاهرة قرئ على الناس في دمشق بأنه"لم يقبل من أحد شيئًا لا من النفقات السلطانية، ولا من الكسوة، ولا من الإدرارات، ولا غيرها، ولا تدنس بشيء من ذلك"(٣).

مما يؤكد وجود نوعٍ من المخصصات التي ينفق بها على المساجين، سواء من النفقات السلطانية أو ربما تكون إدارة خصصت للإنفاق على السجون.

وكانت مساهمة سلاطين المماليك واضحة في تخفيف العبء عن فئة الغارمين، ففي سنة ٧١١هـ/١٣١١م، أصدر السلطان الناصر مرسومًا بأن يصرف من الخزانة المعمورة

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٦٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٥، المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٩٦.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٨٢.

(٣) البداية والنهاية، ج١٨، ص٦٧.

من خاصية ماله الخاص ألف دينار مصرية، ويستفكّ بها من بالسجون من أرباب الديون[١]، وفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، أخرج الناصر من الخزانة السلطانية ثلاثين ألف درهم أفرج بها عن المساجين على دين[٢]، وكان يتفقد من في سجون الولاية من الرعية ويتتبع صلاحهم، ويطلق سراحهم، فامتثل جميع ذلك في سائر الممالك[٣].

وُوصف السلطان الأشرف شعبان بأنه" كان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين وأصحاب السجون"[٤].

وكثيرًا ما تطلعنا المصادر عن محاولات سلاطين المماليك للتدخل للمصالحة بين الدائنين والمديونين منها: في سنة٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م كُتبت أسماء الذين حبسوا في سجن القضاء بسبب الديون وأفرج عنهم السلطان برقوق بن آنص بعدما دفع لغرمائهم أموالهم[٥].

وكان للسلطان المؤيد شيخ المحمودي أفعال خيرة منذ أن كان نائبًا في دمشق، منها جهوده في تسديد ديون أرباب السجون المعسرين[٦]، حيث كانت تلك الفئة محط اهتمام ورعاية من قبله، خاصة أن أهل الشام كان ما يزال يعاني من تداعيات الغزو المغولي.

وأصدر السلطان الأشرف برسباي عدة مراسيم بشأن المسجونين على الديون، منها المرسوم الذي أصدره في سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م، وقضى بالإفراج عن عدد من المساجين بسجن القضاء[٧]، وفي سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٤١م أمر بإخراج كل من حُبس بسبب الديون، بعد أن قام في المصالحة عنهم"[٨]. أما الظاهر أبو سعيد جقمق فقد أمر

---

(١) ابن أيبك الدواداري، الدرر الفاخر، ج٩، ص٢٣٧.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٧٨.

(٣) ابن أيبك الدواداري، الدرر الفاخر، ج٩، ص٢٣٧.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٧٠، ٧١.

(٥) المقريزي، السلوك،ج٥، ص١٥٦؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢٧٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٧٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٢١٦.

(٧) ابن شاهين، نيل الأمل، ج٤، ص٢٣٧.

(٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٧٧؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٤، ص٣٠٥.

سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، بالنداء على كل من له مسجون أن يحضر بين يديه مع الأمر بطلب المحابيس للنظر في حالهم بالمصالحة"[(١)].

وارتبط الإفراج عن المساجين بمناسبات سياسية ودينية، من ذلك أنه عندما يتقلّد السلطان الحكم، تكون عادة من ضمن الأوامر التي يتقرّب بها من الشعب الإفراج عن مساجين الحق العام، فعلى سبيل المثال عندما تَسَلْطَنَ الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٣م)، كان أول عمل قام به هو إطلاق منْ كان في السجون من المصادرين وأرباب الديون[(٢)].

وفي شهر رمضان يكثر السلاطين من أفعال الخير طلبًا للثواب والدعاء، فكان من هذه الأعمال إطلاق سراح المساجين، فكان من عادة السلاطين في رمضان أن تُكتب لهم أوراق بأسماء المحبوسين، ويكون في ذلك فرج لمن يريد الله خلاصه، ففي سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩٠م، أطلق السلطان صلاح الدين الأشرف خليل بن قلاوون جماعة كثيرة ممن كان في السجون[(٣)].

وفي أواخر شعبان من سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، أفرج الأشرف برسباي عن المساجين بما فيهم أرباب الجرائم[(٤)].

ومنهم من يحرص على تقديم الطعام للمساجين كصدقة له في الشهر الكريم، ومن هذا الإنفاق ما كان يقوم به الظاهر برقوق، فقد اعتاد طوال أيام إمارته وسلطنته أن يأمر بذبح خمسة وعشرين بقرة، ويأمر بتخصيص آلاف من الأرغفة في كل يوم من أيام شهر رمضان لتوزيعها على المساجين، ومعهم أهل الجوامع والمشاهد والخوانق والأربطة[(٥)].

وكثيرًا ما ربط بين شفاء السلاطين أو الأمراء وبين إطلاق سراح المساجين، فعلى

---

(١) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص٣٤٠.

(٢) العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٢١١.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤١.

(٤) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٣٢٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٩٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٠٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ق٣، ص٥٣١.

سبيل المثال في سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٤م عندما شفي الملك العادل كتبغا من كسر في يده، أفرج عن المحابيس وفرق الصدقات على الفقراء[١]. وفي حوادث سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م مرض السلطان الناصر محمد قلاوون، وبعد عافيته أفرج عن أهل السجون[٢].

وسار الأمراء على هدي سلاطينهم في هذا الباب، من ذلك ما قام به نائب دمشق سيباي في سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م فقد أفرج عن جماعة من المحابيس، لأجل عافيته من وجع يده من السقطة عن الفرس[٣]. وأفرج قانصوه المحمدي عن المساجين، ونادى بالأمان بعد شفائه من وجع في رجليه[٤].

ومن حقوق السجين التي روعيت في الدولة المملوكية السماح لأهله بزيارته والاطمئنان عليه، وكان يسمح أيضًا بإدخال ما يحتاج إليه. ونستدل بذلك بخبر أورده سبط ابن العجمي في حوادث سنة٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م عن هروب جماعة من العرب من سجن قلعة حلب فقال: "هرب جماعة من العرب وأميرهم سالم بن بدران من سجن القلعة، ونزلوا من سورها واحتالوا على ذلك فأمروا امرأة من نسائهم فجاءتهم بمبرد، فبردوا قيودهم وكسروا باب السجن، وكانت قد أتتهم بصوف فغزلوه في السجن، وكانوا إذا سئلوا عن سبب غزلهم قالوا نبيعه ونأكل بثمنه"[٥]. فالشاهد في هذه الحادثة أنه سمح لتلك المرأة بزيارة ذويها، وإعطائها الغزل لهم الذي استخدموه للهرب، ومما يؤكد أنها قابلتهم بنفسها هو معرفتها بموعد هروبهم ومكانه، فجاءت بالمبرد لفك قيودهم.

وكان للعلماء دورهم في إطلاق سراح المساجين لما لهم من مكانة عند سلاطين المماليك، - على سبيل المثال- عندما شفع القاضي شرف الدين المالكي عند الأمير سيف

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٨٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ص٥٠٦.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٢٨٨ .

(٤) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٢١٣ .

(٥) كنوز الذهب، ج٢، ص٢١٠.

الدين تنكز لإطلاق الفقيه الشافعي جمال الدين ابن جملة من سجنه سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م[1].

وقد وُجدت أوقاف خاصة لتخليص السجناء ووفاء ديونهم، كما وجدت أوقاف خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يُقدَّم لهم الغذاء والكساء وما يحتاجونه من أمور أخرى[2]، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

وقف علي بن حسن الحلبي ناظر الجيش[3] في حلب على المحبوسين من الشرع، وكانوا قبل في حبس أهل الجرائم[4].

وهنالك أيضًا وقفية علاء الدين بن محمد بن محمود الدنداري وأخيه محمود سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م، التي كان يُصرف من ريعها على المساجين في صفد[5].

ومن أهل الخير الذين أوقفوا الأوقاف لصالح السجناء خطيب قرية جرود[6]، الذي أوقف وقفًا ينفق جزء من ريعه كل سنة مئة فضة لسجن باب البريد بدمشق[7].

ووقفية شمس الدين ابن المزلق سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م التي يُصرف ريعها على

---

(١) **جمال الدين ابن جملة**: يوسف بت إبراهيم بن جملة المحجي الشافعي، تفقه على المذهب الحنبلي، ثم تحول شافعيًا، ولي القضاء في دمشق، توفي سنة ٧٣٨ه/ ١٣٣٧م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢١٤.

(٢) سعيد عاشور، المؤسسات الاجتماعية، ص٣٦٨.

(٣) **عبد الله بن مشكور الحلبي**: ناظر الجيش في حلب مدة طويلة، وله مآثر معروفة فيها، منها أنه أجرى الماء إلى الجامع الناصري من القناة، وله جامع بقنسرين. قال القاضي علاء الدين كان يحب الفقراء والعلماء ويحسن إليهم كثيرًا، ومات في جمادى الآخرة سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٩٠.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٣، ص٩٠.

(٥) أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٦٤.

(٦) **جرود**: قرية من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٣٠؛ ابن عبد الحق، ج١، ص٣٢٨.

(٧) هند أبو الشعر، واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي المتأخر (٨٠١-٩١٥هـ/ ١٣٩٨-١٥٠٩م)، كتب المذكرات واليوميات مصدرًا، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ الشام: الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين، ٧-٢١ شعبان ١٤٢٧هـ/ ١٠-١٤ أيلول٢٠٠٦م، ص٤.

مطبخ الدشيشة[١] في باب البريد، للمحابيس في الشام بالقرب من الجامع الأموي[٢].

وكان للنساء أيضًا مساهمات لفعل الخير نحو المساجين، مثل زوجة نائب حلب الحمزاوي التي كانت "تحسن لأهل الحبس كثيرًا"[٣].

وتؤكد الوثائق المقدسية بأن من يعجز عن سداد دينه كان يتوجه إلى قاضي القضاء الشافعي باعتباره ناظرًا على الأوقاف، يطلب منه صدقة من أي جهة كانت لكي يسدد ديونه أو ينفق على أسرته، مما يدل أن القضاء كان بابًا يلجأ إليه المدين لسداد ديونه[٤].

وكان سلاطين المماليك يحرصون على إصدار مراسيم الإفراج خاصة مساجين الدَّيْن في زمن الأزمات الطبيعية والاقتصادية تعاطفًا مع أوضاع الشعب، ومما يؤكد ذلك ما أورده ابن إياس من موقف السلطان برقوق من حبس المدينين، نتيجة الغلاء الذي كان يعيشه الناس في سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، بقوله: "ما كفى ما الناس فيه من أمر الغلاء، ووقوف الحال"؛ مما جعله يصدر مرسومًا بالإفراج عن المساجين من المدينين وغيرهم، في جميع السجون المصرية والشامية، ومنع القضاة من سجن أحد على دين لارتفاع تكاليف المعيشة وغلاء الأسعار[٥].

ويستدل بعض الباحثين على سوء أوضاع المساجين من وصف المقريزي للوضع المتردي الذي وصل إليه حال المساجين من تسوّلهم في الطرقات تحت حراسة مشددة، وهم يصيحون من الجوع[٦]، وحديث أحد الرحالة الذي زار مصر سنة ٨٥٣هـ/ ١٤٥٠م عن حال المساجين وهم يتسوّلون في الطُّرقات قائلاً : "ويرى المرء أحيانًا في

(١) **الدشيشة**: طعام يصنع من القمح، ويرسل من بين الجرايات إلى أهل الحرمين الشريفين ليطعم به الفقراء والمستحقون. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص١٨٢.

(٢) أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٦٧.

(٣) سبط ابن العجمي، كنوز الذهب، ج٢، ص٢١٤.

(٤) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٢٣٢) ، م١، ص٢١٥؛ السيد، دراسات حول مدينة بيت المقدس، ص٢٤٢.

(٥) بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٦) المقريزي، الخطط ، ج٣، ص٣٢٨.

الطريق ثلاثة أو أربعة رجال مقيدين بسلسلة حديدية مشدودة إلى وثن بحرسهم، وهم لصوص يستجدون الناس"[١].

لكن لا يمكننا أن نعمم هذه الحادثة كأمر مُسلَّم به في العصر المملوكي، وبالرجوع إلى وضع الدولة المملوكية في تلك السنة، وهي تمثل عهد الظاهر جقمق، نلحظ استفحال أمر الطاعون، وهذا ما أكده ابن إياس بقوله: " فشا أمر الطاعون بالقاهرة جدًّا، وهو ثاني فصل وقع في دولة الظاهر جقمق، فعمل في المماليك والأطفال، والعبيد، والجوار، والغرباء، عملًا ذريعًا ومات من الناس ما لا يحصى"[٢]. ومما يؤكد أن مثل هذه التجاوزات لا تحدث إلا في وقت الأزمات، ولعلنا نستدل بذلك بالطاعون الذي فشا في مصر وبلاد الشام من سنة ٨٣٨- ٨٤١هـ/ ١٤٣٤-١٤٣٧م؛ مما كان له أكبر الأثر في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، فيحدثنا الصيرفي عن موقف السلطان الأشرف برسباي الدقماقي تجاه المساجين، حيث أصدر مرسومًا بالنظر في أحوال المساجين بسائر الحبوس ليطلقوا في حال سبيلهم بسبب شكواهم من الجوع، إلا أن ذلك المرسوم توقف خشية تضييع الحقوق، ثم ألزم أرباب الديون بالإنفاق على السجناء المدينين حتى زوال الأزمة، هذا إذا كان الدين كثيرًا، أما إذا كان يسيرًا فقد ألزم صاحب الدين بقبول تقسيطه على المدين، فان لم يرض بذلك أخرج المسجون، ويبدو أن تردي الأحوال الاقتصادية جعلت السلطان يعاود إصدار مرسوم في السنة نفسها بإطلاق سراح المساجين، ودخل في هذا الإفراج أصحاب الجرائم[٣].

ويبدو أن السجين لم يمنع من الكتابة والتأليف فقد أورد ابن ابن كثير في حوادث سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م ما يشير إلى ذلك فقال: " أخرج ما كان عند الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الكتب، والأوراق، والدواة، والقلم، ومنع من الكتب والمطالعة، وحملت

(١) عبد الرؤوف جبر القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة،١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م ، ص٩٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٧٢.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٣٤٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٨٢.

كتبه في مستهل رجب إلى خزانة الكتب بالعادلية الكبيرة،...، وكانت نحو ستين مجلدًا، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها وفرقوها بينهم، وكان سبب ذلك أنه أجاب لما كان رد عليه التقي بن الأخنائي المالكي في مسألة الزيارة، فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله، وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرسم السلطان عند ذلك بإخراج ما عنده من ذلك"(١)

فعلى الرغم من السجن الذي وُضع فيه شيخ الإسلام، إلا أنه لم يتوقف عن الكتابة والتأليف، بدليل العدد الكبير من المؤلفات التي أخرجت من السجن، وهذا بدوره يشير إلى توافر الأوراق والأقلام في السجون لمن يحتاجها؛ فلولا الخلاف الذي وقع بينه وبين الأخنائي لما منعه السلطان الناصر محمد من الكتابة.

ولقد أورد ابن كثير إشارة مهمة عن الناحية الدينية داخل السجون من خلال ترجمته للشيخ شمس الدين بن العطار الشافعي(٢)، فقد ذكر بأنه "كان إمامًا بالسجن"(٣)؛ مما يؤكد اهتمام الدولة المملوكية بتوفير الرعاية الدينية للمساجين.

و لم تغفل الدولة المملوكية عن رعاية أسرى المسلمين، وقد وتنوعت وسائل فكاك الأسرى في زمنهم منها: تخصيص ديوان عرف باسم ديوان الأسرى، ومهمة ناظره هو التحدث بالأوقاف التي تخصص كي يفدى بها الأسرى(٤). وكان يعيّن على هذا الديوان كبار العلماء أمثال الشيخ محمد بن جمال الدين محمد الطواويسي(٥) (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، والقاضي بدر الدين محمد بن يعقوب الجعفري(٦) (ت٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، ومن الأمراء الذين اسند إليهم مهمة النظر في ديوان الأسرى الأمير ناصر الدين بن

(١) البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٩٣؛ ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ج٢، ص٢٦٤.

(٢) شمس الدين بن العطار الشافعي: كان فقيهًا بالمدارس، جاوز الخمسين بسنوات، و لم يتزوج قط، توفي سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٥م. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٦٨٤.

(٣) البداية والنهاية، ج١٨، ص٦٨٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٨؛ يوسف غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك، ص٨١.

(٥) ابن حجي، تاريخه، ص ٣٧٣.

(٦) ابن حجي، تاريخه، ص٨٢٥.

الصارم[1] سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م .

وأورد ابن كثير في حوادث سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م بأنه قدم جماعة من الأسرى مع تجار الإفرنج فأنزلوا في المدرسة العادلية الكبيرة واستفكُّوا من ديوان الأسرى بنحو ستين ألفًا[2].

ومنها: تقرب الصليبيين من سلاطين المماليك، فكان من وسائلهم إرسال عدد من أسرى المسلمين كنوع من الهدايا، ففي سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م نزل السلطان الظاهر بيبرس إلى غزة، فقدم عليه بها رسل الإفرنج، ومعهم الهدايا، وعدد من أسرى المسلمين، فكساهم الظاهر بيبرس وأطلقهم[3].

ويبدو أنه أصبح من المعتاد وصول عدد من أسرى المسلمين إلى البلاد الشامية بين الحين والآخر من قبل الصليبيين من أجل الكسب المالي فقد قدم إِلَى ميناء بيروت من سواحل الشَّام سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٧م، تجار الإفرنج بمِئَة وَأَرْبَعين من أسرى الْمُسلمين قد اشتروهم من الجزائر، فاشتراهم الْأَمِير تنكز وَأَفَاد التُّجَّار فِي كل أَسِير مئَة وَعشْرين درهمًا على مَا اشْتَرَاهُ بِهِ. وكسا تنكز الْجَمِيع وزودهم[4]. وبين ابن الوردي سبب ورود هذا العدد الكبير من الأسرى من بلاد الغرب، لأنه وصل إلى مسامعهم بأن قاضي القضاة الشافعي أشهد أن كل من يحضر أسيرًا، له مبلغ معيّن، وكتب بذلك منشورًا، فلما تناهى إلى أسماع الغرب ذلك الخبر، جعلوا من الأسرى تجارة لهم، فأعطوا من وقف الأسرى ستين ألف درهم[5].

وقد أطلعنا ابن طولون على حادثة في سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، تؤكد مدى

---

(١) ابن حجي، تاريخه، ص١٤٥.

(٢) البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٨٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٨٠.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠٢.

(٥) تتمة المختصر، ج٢، ص٢٨٣.

التلاحم الذي ساد المجتمع الشامي بين أفراده فقال: " وصل جماعة من بلدان طرسوس[(١)] أسرى، وفي يوم الجمعة ثامنه بدئ باستخراج دراهم من التجار وأهل الخير للأسرى، بالجامع الأموي، ثم بالبادرائية، ثم بالقيمرية الكبرى،...، وفي يوم الأربعاء ثالث عشره سافر الأسرى الذين من طرابلس مسلحين منفكّين مجبوري الخاطر، أدام الله النفع لمن كان السبب في ذلك، ونفع ببركة علومه وأثاب المعطين الثواب الجزيل"[(٢)].

وقد ألقت تلك الحادثة الضوء على كيفية جمع المال لاستفكاك الأسرى، من خلال مرورهم بأماكن تُعَدُّ القلب النابض في دمشق، كالجامع الأموي، والمدرستين البادرائية، والقيمرية الكبرى[(٣)].

ومما يلفت النظر هو سرعة جمع المال ليس فقط لفك سراحهم بل تم تزويدهم بما يحتاجون إليه من سلاح ومؤن في خمسة أيام فقط، مما يؤكد أن الأسرى كانوا من الفئات التي وجدت رعاية واهتمام من قبل المجتمع الشامي.

وأورد المقريزي إشارة مهمة عن حال النساء الأسيرات وأطفالهن في حوادث سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، يقول في هذا الشأن: " قدم فخر الدين بن جلبان من بلاد الفرنج بعدة من الأسرى قد افتكّهم بمال الوقف المسيّر من جهة الأمير جمال الدين النجيبي نائب دمشق، فحضر عدة من النساء والأطفال فسيرت النساء إلى دمشق ليزوجهن القاضي من أكفائهن"[(٤)].

وكثيرًا ما تطالعنا الوقفيات بتوجيه ريعها إلى الأسرى، فقد اشترى السلطان الناصر

---

(١) **طرطوس**: بلد بالشام على البحر، بالقرب من المرقب. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٨٤.

(٢) مفاكهة الخلان، ق١، ص٣٩، ٤١.

(٣) **المدرسة القيمرية الكبرى**: لا يزال بناؤها قائمًا في سوق القيمرية، المعروف قديمًا بالحريميين، أنشأها الأمير ناصر الدِّين الحسين بن عبدالعزيز القيمري سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٤٩م، وتعرف الآن بمدرسة القطاط. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٢، ص٢٦٢؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٣٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص ٢٤١؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي،ج٢، ص٢٠٥.

(٤) السلوك، ج٢، ص٣٢.

محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م بعض أملاك بيت المال، ثم وقفها على فكاك أسرى المسلمين[١]. ومن أوقاف أهل الخير وقفية شهاب الدين أحمد بن محمود العدوي بأن يصرف خمسين درهمًا في كل سنة للأسرى بصيداء[٢].

وفي ختام هذا المبحث نستخلص مدى الجهود الإصلاحية المبذولة من قبل بعض سلاطين المماليك لتحسين أوضاع السجناء، وتسديد ديون المعسرين منهم، والأوقاف المرصودة من قبل أهل الخير لتخليص المساجين، وفكاك الأسرى، مما يلقي الضوء على المدى التلاحم والتراحم بين أفراد المجتمع الشامي.

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤٨٠.

(٢) ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٤٨؛ محمد صالحية، سجل أراضي ألوية صفد، ص١١٨.

المبحث الرابـع

رعاية المصابون من الكوارث الطبيعية

الكوارث لغة: من كرث: كَرَثَه الأَمْرُ ساءه واشتدَّ عليه وبَلَغَ منه المَشَقَّةَ[١]، وكارِثةٍ أَي شديدة شاقَّةٍ،كَرَثَه الغَمُّ بَلَغ منه المَشَقّةَ. وكلٌّ ما أَثْقَلَكَ فقد كَرَثَكَ[٢].

ومنهم من يرى أن الكوارث: حدث غير متوقع يؤدي إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات أو فيهما معًا، وعادة ما تكون مفاجئة وخارج السيطرة الأثر[٣]، وقيل إن الكارثة صدمة تكون سريعة وممتدة الأثر[٤].

ولقد شهدت بلاد الشام في العصر المملوكي كثيرًا من الكوارث الطبيعية التي أودت بحياة الآلاف من الناس، وكان لها جوانب عكسية على جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتعددت صور الكوارث الطبيعية، فمنها كوارث مناخية كالفيضانات والسيول، وكوارث جيولوجية كالزلازل، وكوارث بيولوجية مثل الأوبئة والأمراض المعدية.

ويعَدُّ الطاعون[٥] من أكثر الكوارث الطبيعية فتكًا بالإنسان، فقد أصاب الشام

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة كرث، ج٢، ص١٨٠.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ج٥، ص٣٣٣.

(٣) محمد حمزة صلاح، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩م، ص٣.

(٤) صلاح، الكوارث الطبيعية، ص٤.

(٥) **الطاعون**: مرض بكتيري وبائي مُعدٍ، وهو من الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان، وينتقل للإنسان عن طريق القوارض كالفئران، وفترة حضانته تنحصر بين ٢-٥ أيام حسب نوع الطاعون، تبدأ أعراضه بارتفاع في درجة حرارة الجسم، وتورم في الغدد الليمفاوية وخاصةً العقد اللمفاوية الأبطية والفخذية، ويظهر على شكل دمامل عند الفخذ وتحت الإبط والأذن، وتتضخم الدمامل وتأخذ شكلاً نزفيًّا فيصاب المريض بألم شديد ويتقيا دمًا لمدة ثلاثة أيام دون انقطاع. انظر: مبارك محمد الطراونة، الأوبئة والطواعين وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج٤، ع ٣، ٢٠١٠م، ص٤٧، حاشية رقم (٢).

خلال العصر المملوكي خمسين مرة، منها اثنتا عشرة مرة في عصر دولة المماليك الأولى البحرية (٦٥٦- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٨-١٣٨٢م)، ومنها ثمانية وثلاثون مرة[١] في فترة حكم دولة المماليك الجراكسة البرجية (٧٨٤ - ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م)، التي اتسمت بانتشار الأوبئة والطواعين والأمراض السارية المعدية ولفترات متقاربة، فلا يكاد ينتهي طاعون حتى يعود آخر وبمدة زمنية لا تتجاوز عقدًا من الزمن[٢].

وأهلكت الأوبئة أعدادًا كبيرة من سكان بلاد الشام، فقد أوصلتها المصادر المملوكية إلى الآلاف، بل أشارت إلى خلوّ كثير من المدن والقرى من سكانها، وكان من أشدها طاعون سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م الذي أطلقت عليه المصادر العربية اسم "الفناء الكبير" أو "الطاعون الأعظم"[٣].

وقامت الدولة المملوكية بإجراءات للحدّ من آثار الأوبئة، فتنبهت إلى أسباب انتشار الوباء، منها تلوث مجاري المياه؛ فقامت بحملات لإزالة الأوساخ والقاذورات، وتنظيف مجاري المياه كخطوات وقائية للحدِّ من انتشار الأوبئة. وكان للنواب دور كبير في مكافحة الأمراض والحدِّ من انتشارها في ولاياتهم، ففي سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م نظر الأمير تنكز فِي مقاسم الْمِيَاه بدِمَشْق الَّتِي تتصرف فِي دور النَّاس، وكسح مَا فِيهَا من الأوساخ، وَفتح مَا استَّد مِنْهَا حَتَّى صلحت كلهَا فَعمَّ النَّفْع بهَا، وَيُقَال إنه بلغ ما دفع في ذَلِك ثَلَاثِمِئَة ألف دِرهم[٤].

ومن الخطوات اللافتة للنظر التي قامت بها الدولة المملوكية قتل الكلاب، كخطوة وقائية لمنع انتشار المرض واستفحال أمره لما لها من علاقة كبيرة في نقل العدوى

---

(١) بني حمد، أثر الكوارث الطبيعية، ص١٧.

(٢) الطراونة، الأوبئة والطواعين، ص٥٩.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص ٥٠٢-٥١٠؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٨٢-٨٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٢٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٣٠.

(٤) الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص١٢١؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٦٧.

للإنسان، وكثيرًا ما تكرر الإشارة إلى قتل الكلاب في المصادر، حيث ذكر الذهبي في سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م، بأن الكلاب أخرجت خارج دمشق، وألقيت في خندق[1].

كما ذكر ابن كثير في حوادث سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م بأنه "استفتي في قتل كلاب البلد، فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك، فرسم بإخراجهم يوم الجمعة من البلد الخامس والعشرين منه"[2].

وتكرر أيضًا في سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م أثناء انتشار الطاعون في الشام وعلل ابن كثير السبب الذي دعى النائب لقتل الكلاب فقال:"رسم نائب السلطة بقتل الكلاب من البلد، وقد كانت كثيرة بأرجاء البلد، وربما ضرت الناس، وقطعت عليهم الطرقات في أثناء الليل، أما تنجيسها الأماكن فكثير قد عم الابتلاء به، وشق الاحتراز منه"[3].

وانطلاقًا من واجب الدولة في رعاية المرضى، خاصة المصابين من الكوارث الطبيعية أولى المماليك الجانب الصحي عناية فائقة فتم في عصرهم تشييد عدد من البيمارستانات (المستشفيات) في مدن بلاد الشام سواء على يد سلاطين المماليك أو نوابهم، وحرصوا على رصد كثير من الأموال لتلك البيمارستانات في فترات تفشي الأوبئة والطواعين، وخصصت بعض أقسامها لمداراة المصابين بالأوبئة ومعالجتهم، ووجد في بعضها قاعة لمرضى الأوبئة والطواعين والحميات[4]، وكان السلطان الظاهر ططر (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) ينفق على المرضى، ويوفر لهم الأدوية والعلاج[5].

وكان من آثار تشييد البيمارستانات ظهور طبقة من الأطباء كان لها دور في رفع المستوى التوعوي بين الناس، فأشارت كتب الأدب إلى الوعي الصحي الذي وصل إليه الناس في مواجهة الوباء، وبحثهم عن وسائل وعلاجات تحميهم منه، مع الإشارة إلى

---

(١) دول الإسلام، ج٢، ص٢٧٣.

(٢) البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٧٨.

(٣) البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٠٥.

(٤) الطراونة، الأوبئة والطواعين، ص٥٥.

(٥) العيني، الروض الزاهر، ص٣٦.

بعض العادات المتبعة آنذاك، كتبخير بيوتهم، وتناولهم بعض الأطعمة كالبصل والخل التي من شأنها رفع معدل المناعة في الإنسان يقول ابن الوردي في هذا الصدد: "وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل، وتختموا بالياقوت، وجعلوا البصل والخل والصحنا من جملة الأدم والقوت، وأقلوا من الأمراق والفاكهة "(١).

وما ذكره ابن الوردي من عادات اتبعها الناس في زمن الأوبئة ما هي إلا تدابير وقائية نصح بها الأطباء، فاستعمال الروائح الزكية يعمل على تنشيط الجهاز التنفسي، فتدفع الروائح الحاصلة من اختلاط الأهوية الرديئة من الوباء، والابتعاد عن اللحوم، وأكل الطعام الجافّ كالنواشف والحوامض.

وأشار ابن الجزري في وباء سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م إلى الوسائل التي استخدمها الناس لحماية أنفسهم من الإصابة فقال: "عم الناس من الفرات إلى دمشق، فلم تبق مدينة فيما بين ذلك حتى كثر بها المرض والموت، وباع بعض عطاري دمشق كل يوم أدوية للمرضى بنحو الألف درهم، وأخذ حجام في أجرة فصد وشراطة أذان في كل يوم أربعمئة درهم"(٢).

مما جعل المقريزي يشير إلى الاستغلال المادي الذي تعرّض له كثير من الناس في زمن الأوبئة فقال: "قد كثر مرض النَّاس بحميات حادة دموية فَشَتْ حَتَّى لم يكد يسلم مِنْهَا أحد، فَكَانَ الْمَرِيض يتمادى مَرضه أسبوعًا وَيبرأ، وَربح بياعو الْأَدْوِيَة والأطباء والحجامون مَالاً كثيرًا"(٣).

وعلى الرغم من تفشي ظاهرة الاستغلال المادي للناس في مرضهم إلا أن المقريزي أكّد شفاء كثير من المرضى؛ مما يؤكد ارتفاع المستوى الصحي في العصر المملوكي.

ومن الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها بلاد الشام، الزلازل التي خلفت وراءها دمارًا كبيرًا لمختلف المعالم العمرانية، من الدور والحوانيت والقلاع والجسور؛ ولحق ذلك

---

(١) ابن الوردي، عمر بن المظفر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، الديوان، تح: أحمد الهيب، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٨٦م، ص٩١.

(٢) حوادث الزمان، ج٢، ص١٢٣.

(٣) السلوك، ج٣، ص٩٥.

مقتل كثير من الناس تحت الردم، ففي سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م، وَقع بغزة والرملة والكرك زلزال عَظِيمَ هدم ثَلَاثَة أبراج من قلعة الكرك، وزلزلت أَيْضاً الْبِلَاد الساحلية فانهدمت عدَّة أَمَاكِن(١).

فكان من أولى الإجراءات التي عملت عليها الدولة المملوكية هي محاولة إعمار وترميم ما تخلفه الزلازل، ويفصل ابن الجزري في ذكر الإجراءات التي اتخذها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في تعمير ما تهدم بقوله: "ووصل الخبر إلى دمشق ومرسوم السلطان في ربيع الأول مع البريد بتجريد الأمير علاء الدين الشجاعي أحد أمراء الشام وفي صحبته جماعة من الصناع والمهندسين والحجارين والآلات الكثيرة لعمارة ما انهدم من قلعة الكرك"(٢).

وعندما حدثت زلازل سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م بادر السلطان الناصر محمد قلاوون إلى إعادة بنيان وترميم ما دُمر، فرمم قلعة صفد، والجامع الأموي في دمشق التي تأثر بهذه الزلازل، وأنفقت الدولة أموالاً كثيرة في الإعمار والترميم(٣).

ويشير الجزري في أحداث سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م إلى جهود الدولة في ترميم ما تخلفه الزلال من آثار فيقول بأنه تمَّ: "نقض شطر الحائط القبلي من جامع دمشق، لانحداب في وسطه من زلزال قديم، وبني في خمسين يومًا، ورخِّم وعملَ في وسطه محراب للحنفية، وجُدِّدَ برخام مذهب(٤).

ويحدثنا ابن الجزري عن أن أحد العمال أثناء عمله في ترميم الحائط القبلي وقع إلى

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٧؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج١، ص١٥٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص١٥٥. وانظر ايضًا: النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٧؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٣٩،٢٤٠.

(٣) البرزالي، القاسم بن محمد بن يوسف (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، المقتفي على كتاب الروضتين (المعروف بتاريخ البرزالي)، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٣، ص٢٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٦٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٢.

(٤) حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥٨.وانظر: الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧١؛

أسفل، مما أدى إلى وفاته، "وبعد دفنه رتب لأولاده ثلاثين درهمًا شهريًا"(١).

مما يشير إلى أمر هام وهو تطبيق نظام التعويضات عن أصابة العمل زمن الدولة المملوكية، فعندما يتعرض أحد العمال لإصابة تؤدي إلى عجزه عن مواصلة العمل، أو إلى وفاته، هنا يكون لزامًا على الدولة أن تعوضه أو تعوض أسرته في حال وفاته، ومن خلال هذا الموقف، وُجِدَ بأن فئة العمال روعيت حقوقها في هذا الجانب.

ويحدثنا ابن كثير كذلك عن زلزال سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م في حلب فيقول: " تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّهَا شَعَّثَتْ فِي بِلَادِ حَلَبَ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْعُمْرَانِ حَتَّى سَقَطَ بَعْضُ الْأَبْرَاجِ بِقَلْعَةِ حَلَبَ، وَكَثِيرٌ مِنْ دُورِهَا وَمَسَاجِدِهَا وَمَشَاهِدِهَا وَجُدْرَانِهَا، وَأَمَّا فِي الْقِلَاعِ حَوْلَهَا فَكَثِيرٌ جِدًّا، وَذَكَرُوا أَنَّ مَدِينَةَ مَنْبِجَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَأَنَّ عَامَّةَ السَّاكِنِينَ بِهَا هَلَكُوا تَحْتَ الرَّدْمِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ"(٢).

ويصور أدباء ذلك العصر ما أصاب الناس من خوف وهلع جراء هذا الزلزال منهم ابن الوردي فقال: "زاغ به العقل وزال، قنت الناس لأجله في الصلوات، وسكنوا من خوفه الصحارى"(٣).

أما المقريزي فقد وصف موقف أهل حلب من جراء تلك الزلزلة فقال: "خرج أهل حلب إِلَى ظَاهرهَا وضربوا الخيم وغلقت سَائِر أسواقها، وَفِي كل سَاعَة يسمع دوِي جَدِيد، ثمَّ إِنَّهُم تجمعُوا عَن آخرهم وكشفوا رُؤُوسهم وَمَعَهُمْ أطفالهم والمصاحف مَرْفُوعَة وهم يضجون بِالدُّعَاءِ والابتهال إِلَى الله برَفْع هدا المقت، فأقاموا على ذَلِك أَيَّامًا إِلَى خَامِس عشريه حَتَّى رفع الله ذَلِك عَنْهُم بَعْدَمَا هَلَكت بِتِلْكَ الْبِلَاد تَحت الرَّدْم خلائق لَا يحصيها إِلَّا خَالِقهَا".

ثم يختم حديثه بمبادرة السلطان علاء الدين إسماعيل ابن الملك الناصر إلى إعادة بنيان وترميم ما خربته هذه الزلازل، فندب مجموعة من الأمراء لعمارة ما تهدم من

---

(١) حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥٨.

(٢) البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٦٩، ٤٧٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج١، ص٣٦١.

(٣) الديوان، ص ١٤٩.

القلاع والإنفاق عليها من الأملاك الديوانية[١].

وحين حدوث الكوارث الطبيعية تشتدّ روح التعاون والتلاحم بين الناس، وخير ما يجسِّد ذلك المجتمع الشامي الذي يسارع في تقديم المساعدة للمتضررين من تلك الكوارث، ففي الزلزال الذي وقع في سنة ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م في مدينة القدس هدمت منارة أحد مساجدها، فسارع أهل المدينة لإحضار ما لديهم من الأموال، ومواد البناء للعمل على إعادة بناء المنارة، وبقوا يعملون ليلاً ونهارًا بكل ما لديهم من طاقات حتى أعادوا بناءها في خلال أيام بأفضل مما كانت عليه في السابق[٢].

وتعد الفيضانات الناتجة عن الأمطار التي اجتاحت بلاد الشام في بعض السنوات من أبرز الكوارث التي تسببت في خسائر بشرية وحيوانية واقتصادية كبيرة لا يقلّ ضررها عن الزلازل، من ذلك سيل عظيم داهم مدينة دمشق سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م، أهلك خلقًا كثيرًا من الروم والعجم كانوا قد قدموا حجاجًا ونزلوا بالميدان وغرقوا عن آخرهم وجمالهم ودوابهم.[٣].

وأدى السيل الذي اجتاح دمشق سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م إلى غرق خلق كثير، واقتلع الأشجار وأهلك الحيوان كالجمال والخيل، وذهب بسببه أموال لا تحصى، ويقول عنه ابن كثير: "وجاء سيل عظيم جدا حتى كسر أقفال باب الفراديس، وارتفع الماء ارتفاعًا كثيرًا، بحيث أغرق خلقًا كثيرًا، وأخذ جمال الجيش المصري وأثقالهم"[٤].

فبادرت الدولة بحملة تنظيف واسعة للأنهار في دمشق من مخلفات السيل التي تكوّمت فيها، وأدّت إلى توقف جريان الأنهار فيها، وَعَوَّضَ كل من تضرر منه بأربعمئة

---

(١) السلوك، ج٣، ص٤٠٤. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٧٠.

(٢) العليمي، الأنس الجليل، ج٢ ، ص٤٩-٥٠؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٦، ص٤٨.

(٣) ابن أيبك الدواداري، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تح: أولرخ هارمان، د.ن، القاهرة، د.ط، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج٨، ص١٦٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٧٦؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٥١.

(٤) البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٩٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٨٥.

درهم[١].

وفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، مما أدى إلى حدوث سيل عظيم في مدينة عجلون، ألحق بها أضرارًا فادحة بالممتلكات، حيث تسبب في خراب عدد كبير من المنشآت التجارية، مثل دور الطعم[٢]، والأسواق، علاوة على تدمير حوانيت الخبازين وحوانيت الطباخين، كما ردم قيسارية[٣] التجار[٤].

ويصف لنا ابن الجزري حال الناس في أثناء اجتياح هذا السيل فيقول: "ولم تزل الأمطار متواترة الهطل والبروق تلمع، وأصداء الجبال والأودية بأصوات الرعود للقلب تصدع، حتى ظن أهلها أن قد أزفت الآزفة، فارتفعت الأصوات بأن لَيس لَها مِن دونِ اللَّهِ كَاشِفة، وكُشفت الرؤوس، ووجلت القلوب، وذرفت الدموع،...، فبينما الناس على ذلك الحال ذاهلين،...، إذ داهمهم سيل عظيمٌ ماؤه، طامٍ عبابهُ، هام سحابه، له دويّ شديد، قد اجتمع من متون الجبال وبطون الأودية، وقرار الوهاد،...، فارتفع العويل، وسكبت العبرات، واشتد الخوف، وتضاعفت الحسرات، وَفر كل من الناس يطلب النجاة لنفسه، واحتسب عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه"[٥].

وفي مثل هذه الأزمات التي تحل في البلد كانت الدولة المملوكية متمثلة بنوابها تتابع

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص١١٩-١٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٩٤؛ البرزالي، تاريخه، ج٢، ص٥٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٨٥.

(٢) **دور الطعم أو الأطعمة**: أماكن تحتوي على مختلف أصناف الطعام، واستخدمت لخزن الحبوب الخاصة بالدولة والجند، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصًّا وعامًّا، وينفق منها لأصحاب الخدم في كل شهر، ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٤٦، ٥٤٧.

(٣) **القيسارية**: جمعها قياسر، كلمة لاتينية، بمعنى الخان الكبير الذي يشغله التجار، وهي مشابه للفندق والخان من حيث عملها التجاري، وشكلها المعماري، وعرفت تلك القياسر باسم بانيها أو باسم ما يباع فيها، حيث اختص بعضها بسلعة أو حرفة واحدة. انظر: عبد القادر الريحاني، خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مج ٢٥، ١٩٧٥م، ص٥٤؛ محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٢٦.

(٤) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٦؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٩٠؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤١٢،٤١٣؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٨٩، ١٩٠.

(٥) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٦.

الحدث وما يتبعه من أضرار، وتعمل على حصر الخسائر في الأنفس وفي الممتلكات المادية، ومن ثم ترسل خطابًا للمسؤولين في الدولة، كي يقوموا بما يتوجب عليهم، وأورد ابن الجزري نسخة من كتاب والي الولاة بالأعمال القبلية إلى نائب السلطنة بدمشق، محضرًا بصورة ما وقع بعجلون؛ مما جعل الأمير سيف الدين تنكز يرسل بعض رجاله لترميم الأسواق والطواحين والقياسر في مدينة عجلون التي تهدمت من هذا السيل[1].

وحرصت الدولة المملوكية على بناء الجسور والقناطر لدفع أخطار الفيضانات والسيول، ففي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م، صدر مرسوم ببناء جسر باب الفرج، وبنيت قناطر كبيرة على الجسر، لتقويته خوفًا من زيادة المياه والسيول[2].

وفي سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م فاض نهر مدينة طرابلس، وقد أدى إلى مقتل عدد كبير من الناس، وألحق أضرارًا في بعض الممتلكات[3]، كالجامع الناصري الذي تعرض لفيضان مياه النهر عدة مرات فجُدّد بناؤه في عهد أمراء طرابلس[4].

وتعرضت بلاد الشام لتساقط كثيف للثلوج في سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، ويصف المقريزي ذلك الحدث وما قامت به الدولة من جهود فيقول: "وَفِيه قدم الْبَرِيد بِوُقُوع الْمَطَر فِي قارا وحمص وبعلبك وَفِي بِلَاد حلب وإعزاز وحارم بخِلَاف الْمَعْهُود وعقبه برد قدر النارنج فِيهَا مَا زنته ثَلَاث أَوَاقٍ دمشقية، هلك بهَا من النَّاس والأغنام وَالدَّوَاب شَيْء كثير. وَخَربَتْ عدَّة ضيَاع، وَتلف من التركمان وَأهل الضّيَاع خلق كثير. وعقب هَذَا الْمَطَر نزُول سمك كثير مَا بَين صغَار وكبار بِالْحَيَاةِ تنَاوله أهل الضّيَاع واشتروه وأكلوه. وَسقط بالمعرة وسرمين عقيب هَذَا الْمَطَر ضفادع كَثِيرَة فِي غَايَة الْكبر مِنْهَا ميت وَمِنْهَا بِالْحَيَاةِ، ثمَّ نزل ثلج عَظِيم طمَّ الْقرى وسدَّ الطرقات والأودية وَامْتنع السّفر

---

(١) حوادث الزمان، ج٢، ص٢٧٤.

(٢) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٨٥٩.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٤٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج١، ص٤١٧.

(٤) **الجامع الناصري**: نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون. للمزيد انظر: التدمري، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس، ص١٣٥ وما بعدها.

حَتَّى بعث النواب الرِّجَال من الْبِلَاد وَالْجِبَال مَعَ الْوُلَاة بِالْمَسَاحِي وَعمِلُوا فِيهَا حَتَّى فتحت الطرقات" [(١)].

يتضح مما سبق جهود الدولة المبذولة في إزالة الثلوج المتراكمة في الطرقات، والأموال التي رُصدت للعاملين لإزالة تلك الكمية الكبيرة من الثلوج من عدة مدن في بلاد الشام، بالإضافة إلى تطوع أعداد كبيرة من أهالي حمص وحلب وحارم وبعلبك، بكل ما لديهم من عتاد للعمل على فتحها، وتسهيل حركة السفر والنقل، وقد أخذ ذلك منهم عدة أيام[(٢)].

ويخبرنا ابن كثير في حوادث سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م بأنه "وقع ثلج عظيم لم ير مثله بِدمشق من مدة طويلة، وكان الناس محتاجين إلى مطر، فلله الحمد والمنة، وتكاثف الثلج على الأسطحة، وتراكم حتى أعيا الناس أمره، ونقلوه عن الأسطحة إلى الأزقة يحمل، ثم نودي بالأمر بإزالته من الطرقات؛ فإنه سدها وتعطلت معايش كثيرٍ من الناس، فعوض اللَّه الضعفاء بعملهم في الثلج"[(٣)].

وذكر المقريزي المبالغ التي أنفقتها الدوله من جراء تراكم الثلوج فقال: " وفيها كثر سقوط الثَّلج بدمشق حتى خرج عن العادة، وأنفقوا على شيله من الأسطحة مَا ينيف على ثمانين ألف درهم فإنه أقام يسقط أسبوعين" [(٤)].

وفي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨٤م حدثت صاعقة[(٥)] في بيت المقدس فشب الحريق في قبة الصخرة؛ بسبب الصاعقة التي ضربت المدينة في تلك السنة. ويفصل العليمي الإجراءات

(١) السلوك، ج٢، ص٥١٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٣٣-٢٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥١٥.

(٣) البداية والنهاية، ج١٨، ص٤٧٧.

(٤) السلوك، ج٣، ص٤٢١.

(٥) يرصد فيصل عبد الله بني حمد عددًا الصواعق التي ضربت بلاد الشام، فبلغ اثنتين فقط، وذلك في العصر المملوكي الأول (٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨١م)، ويظهر ذلك من الجدول رقم (٤) عنده. للمزيد انظر: بني حمد، العوامل المؤثرة، ص٣١٧.

التي تمت بعد تلك الحادثه فيقول: "ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان الملك الأشرف قايتباي وكتب لأهل المدينة الشريفة محضرًا بما وقع وجهزوه إلى القاهرة في أسرع وقت، وجزع الناس لذلك ثم اهتم السلطان بعمارته، وقام في ذلك أعظم قيام وأنشأه وجدد عمارته فجاءت في غاية الحسن"[١].

وعند حدوث مثل تلك الكوارث ينظم الخيِّرون من أهل الشام عودة عامة إلى الله، وإظهار شعائر الإسلام والتقرب إلى الله، والتضرّع إليه بالدعاء والاستغفار، وانتشار الصيام بين العامة والخاصة، وتخرج فئات منهم إلى الصحراء تدعو الله سبحانه وتعالى وتتضرّع إليه، بينما تلزم مجموعة أخرى المساجد معتكفة فيه بين الدعاء والصلاة وقراءة القرآن. وهذه العودة إلى الله تشمل أيضاً القادة والأمراء، استجابة لدعوات الناس لهم بالابتعاد عن المعاصي وإظهار شعائر الدين والتوبة[٢]، فتصدر الأوامر بإغلاق أماكن الخمور، ودور البغاء. فعندما حدث طاعون سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م في بلاد الشام ومصر، أصدرت الدولة أوامر بمنع بيع النبيذ والحشيش، ومنع النساء الساقطات من فعل الفاحشة[٣]. وأصدرت الدولة أوامر بإبطال جميع الضرائب والمكوس المفروضة [٤] وخاصة ضريبة المشاهرة[٥].

ولقد سجل ابن بطوطة في أثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م ما شاهد من مظاهر التوبة والرجوع إلى الخالق عند الدمشقيين في أثناء انتشار الوباء الأسود،

---

(١) الأنس الجليل، ج٢، ص١٩٢؛ السخاوي، الذيل التام، ج٢، ص٢٠؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٥، ص٢٤٢.

(٢) الطراونة، الأوبئة والطواعين، ص٥٧.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٣٠٣.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٤ ، ص٣٠٤.

(٥) **ضريبة المشاهرة**: وهي ضريبة فرضها السلطان الأشرف قانصوة الغوري على التجار والباعة وعلى أصحاب الطواحين، وكانت تدفع شهريًا لمحتسب القاهرة، وكانت هذه الضريبة سببًا في زيادة أسعار البضائع والغلال وشكوى الناس، وترجح أمرها بين الإلغاء والإبقاء أكثر من مرة، فكان الغوري يقرر إلغاءها تقربًا إلى الله حينما ينزل الطاعون بالبلاد، فإذا زال الطاعون أعادها. انظر: ابن إياس، بدائع الزهور،ج٤، ص٣٠٤.

فقال: "إن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه[١] أمر مناديًا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ويطبخون بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متتالية...، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع "المسجد الأموي حتى غصّ بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍّ وذاكرٍ وداعٍ، ثم صلوا الصبح، وخرجوا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بأناجيلهم، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الإقدام وأقاموا به في تضرعهم إلى قرب الزوال، ثم عادوا إلى البلد وصلوا الجمعة، وخفف الله تعالى عنهم"[٢].

مما سبق ذكره نلحظ أن بعد كل حدث وأزمة تحدث في الشام، يتبعها كتابة محاضر ترسل إلى المسؤولين، لاعتماد اللازم، وهذا يقودنا الى تلمس موقف الدولة المملوكية حيال الأزمات التي يمر بها المجتمع الشامي بما قدمته من خدمات مادية وعينية.

---

(١) **أرغون شاه الناصري**: تولى عدد من النيابات، كانت له كلمه نافذه في سائر الممالك الشامية والمصرية، قتل سنة٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص١٦٦.

(٢) الرحلة، ج١، ص١١٤.

المبحث الخامس

رعاية المتأثرون بالأزمات الاقتصادية

الحياة الاجتماعية لأي مجتمع كان ما هي إلا انعكاس لأوضاعه الاقتصادية والسياسية، والفئات المحتاجة هي الفئات التي وقع عليها عبء الآثار الناجمة عن الأزمات الاقتصادية في الدولة، فهم الأكثر تضررًا من غيرهم، وهم الذين تحملوا وعانوا تلك الأزمات بشتى صورها وأشكالها، وما نتج عنها من تداعيات، أهمها الغلاء وارتفاع الأسعار؛ فيقعون في كثير من الأحيان ضحايا الجوع والمرض الناتجين عنها.

وإذا نظرنا في أسباب الأزمات الاقتصادية في عصر المماليك فإنها تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: وهو الناتج عن أسباب طبيعية تتمثل في: عدم نزول الأمطار، أو آفة تصيب الغلال، أو رياح شديدة، أو جراد، وما شابه ذلك،[١] ؛ مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار.

والنوع الثاني: أسباب بشرية تتمثل في عدة صور منها: سوء الإدارة، والرشوة، والحروب، والفساد النقدي، وغيرها[٢].

النوع الأول: الأسباب الطبيعية:

تركت موجات القحط والجفاف التي اجتاحت البلاد الشامية آثارًا سلبيةً في أوضاع السكان لفترة زمنية طويلة، فقد كان اعتمادهم على نزول الأمطار في زراعة كثير من المحاصيل الزراعية، لذا تأثرت هذه المحاصيل بانحباس الأمطار؛ الأمر الذي نتج عنه ارتفاع في أسعار تلك المحاصيل؛ وخاصة القمح، باعتباره الغذاء الرئيس للناس.

وقدمت السلطنة المملوكية مساعداتٍ لهم، لإخراجهم من الضائقة الاقتصادية

---

(١) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص١١٥.

(٢) المقريزي، إغاثة الأمة، ص١١٧-١٢٠.

ولتوفير ما يلزمهم من الاحتياجات الضرورية؛ للتخفيف من وقع الأزمة الاقتصادية التي يعانيها الشعب، واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

أ- توفير ما يلزمهم من الاحتياجات الضرورية:

من أهم واجبات الدولة في وقت الغلاء أن تعمل على تأمين المستلزمات الضرورية والسلع الاستهلاكية بشكل دائم، ويتم ذلك بإنتاج الكميات اللازمة للاستهلاك المحلي، ويخزّن الفائض للاستفادة منه عند الحاجة.

وسنرصد بعض الأمثلة التي تسلط الضوء على الدور الذي قامت به الدولة المملوكية خلال الأزمات الاقتصادية: ففي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م أبطل السلطان بيبرس تسعير الغلة، وكتب إلى الأهراء ببيع خمسمئة إردب كل يوم من ويبتين[١] فما دونها على الضعفاء والأرامل، وأصدر مرسومًا يقضي بتوزيع الفقراء على الأمراء وإلزامهم بدفع مؤنة ثلاثة شهور، وأخذ لنفسه خمسمئة منهم، بسبب ارتفاع الأسعار الناجم عن موجة القحط والجفاف التي اجتاحت البلاد في تلك السنة[٢].

و لم تكتفِ الدولة بذلك بل أرسلت الغلال الى غزة، وفرقت في أنحاء البلاد، في محاولة للتخفيف من الضائقة الاقتصادية فيها[٣].

ويحدثنا المقريزي عن موقف الدولة المملوكية من القحط والجفاف الذي أصاب بلاد الشام سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، فيقول: " كان ببلاد الكرك، والشوبك، وبلاد الساحل، لما يرصد للمهمات والبواكير ما ينيف على عشرين ألف غرارة حملت إلى الأمصار"[٤].

فيشير هنا إلى أن الدولة كانت تخزن الغلال في الكرك، والشوبك، والساحل، ثم

---

(١) **الويبة**: مقياس حجم قدره أربعة وعشرون مُدًّا. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٦.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٨٨-١٩٠؛ الدوادار، مختار الأخبار، ص٤٣-٤٤ .

(٣) الصقاعي، فضل الله بن أبي الفحر (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سويلة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص٥١؛ بني حمد، العوامل المؤثرة، ص٣٠٥.

(٤) إغاثة الأمة، ص١٠٨.

تحمل إلى المناطق المتضررة، وهذا من الإجراءات التي اتخذتها الدولة المملوكية للحد من أضرار القحط والجفاف.

ومن العوامل التي تؤدي إلى ارتفاع الأسعار انحباس الأمطار، فقد عانت بلاد الشام عامة من نقص حادّ في المياه في بعض السنوات، كسنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، انحبست الأمطار، فلم يتمكن المزارعون من ري مزروعاتهم إلا بكلفة عظيمة ومشقة[١] .

ولم تنحصر رعاية الفئات المحتاجة وقت الأزمات على الدولة المملوكية فقط، بل كان يساندها أهل الخير من التجار وأهل اليسار، ففي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، عم الغلاء بلاد الشام، خاصة في حماة، حتى وصل سعر الخبز خمسة دراهم، فبادر الطواشي شجاع الدين مرشد المظفري بالمساهمة للتخفيف من الأزمة عن الفقراء والمحتاجين فكان كل يوم يتصدق بمكوكين قمح خبز وهريسة، فاجتمع في حماة خلق كثير من الفقراء، وكان يتفقد أصحاب البيوت بالقمح والدراهم والملابس[٢].

ب- تحديد الأسعار:

في أوقات القحط والجفاف كان بعض التجار يستغلون ظروف الناس الصعبة، فيعمدون إلى احتكار الغلال لبيعها بأسعار مرتفعة، ففي سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، استغل التجار القحط والجفاف فاحتكروا السلع وامتنعوا عن بيعها للناس، ومما زاد من جشعهم تجاوز المحتسبين عن تصرفاتهم، وبذلك أصبح الناس بين محنتين : القحط والجفاف من جهة، وجشع التجار من جهة أخرى، فلما علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بذلك أصدر مرسومًا ألزم فيه نواب البلاد الشُوَن، وبيع الغلال التي فيها على ألا يزيد سعر الغرارة من القمح على ثلاثين درهماً[٣] .

---

(١) ابن طوق، شهاب الدين أحمد (ت٩١٥هـ/١٥٠٩م)، التعليق، مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي (٨٨٥هـ/ ٩٠٨م)، ٤ج، تح: الشيخ جعفر المهاجر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ٢٠٠٧م، ج١، ص٤٥٦.

(٢) الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص١٣٩.

(٣) نافذ محمد عبد ربه الشوارمة، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام وأثرها في العصر المملوكي، جامعة الخليل، كلية الدراسات العليا، رسالة ماجستير،غير منشورة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م،ص١١٤.وانظر: اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٩٥.

وفي سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م اشتد الغلاء في بلاد الشام بسبب القحط والجفاف فبيع رطلا الخبز بثلاثة دراهم، ولتواجه الدولة المملوكية تلك الأزمة قامت بعدة اجراءات، منها: أصدر مرسوم نودي به في دمشق بأن الخبز يباع رطلين إلا ثلث بدرهم، وكان يباع قبل المرسوم كل رطل بدرهم، كمحاولة لخفض سعر القمح، ويبدو أن ذلك الإجراء لم يأتِ بنتيجته المرجوة، فحدث العامة نائب دمشق في أمر الخبز فأمر أن يباع كل رطلين بدرهم، فلما عاد ابن الخباز إلى الحسبة أراد أن يرفع سعر الخبز، مما أثار حفيظة الناس فرجموه وشكوه إلى النائب فعمل على عزله، ومما زاد الأمر سوءًا انتشار الطاعون في البلاد الشامية، مما جعل الدولة تغيث الناس، وتأمر بنقل الغلال من مصر وتوزعها على بلاد الشام[1].

ج- إبطال المكوس:

أكثر ما لجأ إليه سلاطين الدولة المملوكية للحدّ من الأزمات الاقتصادية التي كان يعانيها السكان في سنوات القحط والجفاف إبطال المكوس عن الغلال، ففي سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م ارتفعت أسعار الغلال في بلاد الشام، حتى أصبح سعر غرارة القمح مئة وعشرين درهمًا، فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بعدة إجراءات، منها:

أصدر مرسومًا لنائب الكرك أن ينقل جملة من الغلال إلى دمشق، وقرر على كل أمير في الديار المصرية أن يرسل جملة من الغلال، وأن يحضر نائبه ما يدل على وصول ذلك إلى دمشق. أما القرار الأهم والذي ساعد على انحطاط الأسعار بشكل فوري وسريع فهو مرسوم السلطان بإبطال المكوس عن الغلال في سائر البلاد الشامية[2].

وعندما اجتاحت موجة القحط والجفاف بلاد الشام سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٣، ص٢٣٨-٢٤٢.

(٢) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٦٥؛ البرزالي، تاريخه ، ج٢، ق٢، ص٤٧٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٣٩، ٢٤٥؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٤٢؛ المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٥؛ وليم موير، دولة المماليك في مصر، ص٩٧.

بسبب قلة الأمطار، توصلت غرارة القمح بدمشق إلى مئتين وخمسين، رسم الأمير برقوق بإبطال عدد من المكوس المكوس كضمان الملح بعينتاب، وضمان الدقيق بالبيرة، وأبطل المكوس بإعزاز[١] جميعها، فيبدو أن الدولة تتبعت الأماكن المتضررة من قلة الأمطار، فعملت على دعمها اقتصاديا لتعين سكانها للتخفيف من الضائقة الاقتصادية التي تعرضوا لها بسبب احتباس الأمطار[٢].

د- توفير المياه:

لا شك أن توفير المياه للشعب من أهم الحاجات الرئيسية التي تحرص الدول على توفيرها لما قد ينشأ من شحها من أزمات اقتصادية شديدة وأضرار كبيرة على المجتمع، خاصة أن بعض مدن الشام كانت تعتمد على مياه الأمطار في معيشتها. وشهد العصر المملوكي، جهودًا واضحةً في هذا الجانب، وكان لأمراء المماليك جهود مرصودة في ذلك مثل الأمير بكتمر الجوكندار المنصوري فعندما شحت المياه في مدينة الخليل سنة٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م في مدينة الخليل، حفرَ القنوات، وأنفق من ماله الخاص على ذلك[٣].

وفي سنة٧٣١هـ/ ١٣٣٠م بادر نائب حلب أرغون الناصري[٤] في إتمام ما عزم عليه سلفه في الولاية سيف الدين سودون بإيصال القناة ما بين نهر الساجور ونهر حلب

(١) **إعزاز**: بليدة فيها قلعة، شمالي حلب، بينهما يوم، طيبة الهواء، عذبة الماء. انظر: ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٩٣٧.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٣، ص٣٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٣٢.

(٣) المقريزي ، المقفى الكبير، ج٢، ص٤٦١.

(٤) **أرغون الناصري**: الأمير الكبير سيف الدين أرغون بن عبدالله الدوادار الناصري، اتصف بالفقه، واتباع الشريعة، أذن له بعض العلماء بالإفتاء، كان يميل إلى الشيخ ابن تيمية، وكانت وفاته سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣١م. للمزيد انظر:، ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٤٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٤١٧.

لحل مشكلة نقص المياه في حلب، حيث بذل جهودًا كبيرةً احتاجوا فيها إلى نقب الجبال والصخور، يذكر أن حفر أحد الجبلين احتاج ثمانية أشهر، وبنى على الأودية قناطر، فوصلت مياه نهر الساجور إلى مدينة حلب، وخرج النائب وأهل البلد لتلقي المياه، وشعارهم التهليل والتكبير، وخلا الاحتفال من جميع المحرمات من الغناء ونحو ذلك[(١)].

ولما انحبست الأمطار عن القدس في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م بعث السلطان برقوق بالعمال لإيصال الماء من العروب إلى القدس[(٢)].

هـ- مكافحة الآفات الزراعية:

لم تغفل الدولة المملوكية عن القيام بواجبها في مكافحة الآفات الزراعية، ولا سيما هجمات أسراب الجراد، الذي يُعدُّ من العوامل الرئيسة لارتفاع الأسعار، يقول الذهبي في هذا الصدد في حوادث سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م :" وفيها وصل جراد إلى دمشق، لم يسمع بمثله، ترك غالب الغوطة عِصِيًّا مجردة، ويبست أشجار لا تحصى"[(٣)].

وفي بعض السنوات يكثر وجود الجراد بأعداد كبيرة، من كثرته منع الناس من رؤية السماء، وينتشر في مدن عدة ففي سنة ٧٤٣هـ/ ١٤٤٣م، انتشر في حلب ودمشق وغزة، وكان ضرره كبيرًا على الأشجار والثمار، فلما دخل الجراد الرمل هلك بأجمعه حتى ملأ الطرقات وتحسنت بعده أسعار بلاد الشام[(٤)].

وفي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٧م ظهر الجراد في مدينة حلب، ثم عاودها في السنة التالية، مما جعل الدولة المملوكية، ترسل العسكر للتخلص منه، وعاونهم عدد كبير من فلاحي النواحي الحلبية، فكانت أعدادهم نحو أربعة آلاف، وذلك من شدة تفاقم ضرره

---

(١) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧٤؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٤٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٢.

(٢) المقريزي، السلوك،ج٥، ص ١٦٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٣، ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٢.

(٣) دول الإسلام، ج٢، ص٢٣٣.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٣٧٩.

على المزروعات، واستطاعوا التخلص منه، ودفنه[١].

النوع الثاني: الأسباب البشرية:

أرجع المقريزي في كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) أسباب الفساد والغلاء الذي تفشّى في العصر المملوكي الثاني إلى عدد من الأسباب؛ منها تولي الوظائف المهمة والدينية في الدولة كالوزارة والقضاء والحسبة وغيره "بالبرطلة"، فيصل إلى هذه الوظائف المهمة في الدولة منْ ليس أهلاً لها، ويتحمّل دفع الأموال الطائلة، إما للسلطان أو لحاشيته، ثم يرهق عماله وأعوانه بجمع هذه الأموال، وهم بدورهم يجمعون الأموال من الرعية الذين أثقلت كواهلهم بدفع الضرائب وجور الولاة والجباة وتعسفهم في أخذ الأموال من العامة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة"[٢].

ولعل مما يؤكد هذا ما ذكره المؤرخ أبو الفداء، في عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، عندما تولى أحد القضاة وهو القاضي برهان الدين إبراهيم الرسعني الشافعي منصب القضاء بحلب بدفع رشوة لنائبها، وأنه أول من تولى منصب القضاء بالبراطيل بحلب[٣].

أما حال الولاة فلم يكن بأحسن من القضاة، فإلى جانب ما كان شائعًا بين هؤلاء الولاة من شراء المناصب بالمال، فقد كانوا يحصلون على الأموال غير المشروعة بطرق متعددة، سواء أكان ذلك من المال العام الخاص بالدولة، أو أكل أموال عامة الناس بالباطل.

فقد وصف الصفدي أيام نيابة الأمير الحاج علاء الدين طيبرس: " كان الحاج طيبرس قد أهلك أهل دمشق بإخراجهم من بلدهم، والترسيم عليهم، وإخراج عائلتهم وإهانتهم، وضيّق على الناس بتمكين العرب من مشتري الغلال من دمشق، وتخويف

---

(١) ابن الوردي، تاريخه، ج٢، ص٣٤٥؛ الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص١٥٠؛ الشوارمة، الكوارث الطبيعية، ص١١٦.

(٢) إغاثة الأمة، ص١١٧.

(٣) المختصر، ج٤ ، ١٤٢

الناس من التتار"[١].

وظهرت الرشوة بين المحتسبين أيضاً؛ ومما يدلل على ذلك ما حدث في سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، عندما صدر الأمر من نائب دمشق بتحديد سعر الخبز، لكن الخبازين لم يستجيبوا لهذا القرار، حيث استمر بيعهم كالمعتاد، وسكت عنهم المحتسب بعد أن برطلوه بمبلغ من المال[٢].

ومنْ يَطَّلع على تاريخ الدولة المملوكية في العصر المملوكي الثاني يرى بوادر الفساد تظهر على إدارتها ابتداء من (السلطان المملوكي) نفسه، فمثلاً يصف المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري بأنه من أسوء العصور، إذ كثر فيه الغلاء والوباء[٣].

وهذا يدل على سوء إدارة بعض السلاطين المماليك لشؤون الدولة؛ مما أدى إلى أزمات اقتصادية عجزوا سعن علاجها.

ولم يعد للسلطان المملوكي مهابة، ولم تعد المراسيم التي تصدر منه تطبق لدى النواب، ففي سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م احتكر بعض الأمراء سوق الصابون في مدينة حلب؛ مما دفع بصناع الصابون إلى بيع منتجهم له بأبخس الأثمان. ومن ثم باع ذلك الأمير تلك الكميات المتوافرة عنده بشروط خاصة. ولم يتوقف هذا على الرغم من المرسوم الذي أصدره السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، إذ استمر البيع القسري ساري المفعول[٤].

ومن الأسباب أيضًا التي كان لها أكبر الأثر في تدهور الاقتصاد في بلاد الشام خاصةً

(١) تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص ١٦٦،١٦٧.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٢١٦.

(٣) السلوك، ج١، ق٣، ص٨٠٧.

(٤) ابن الجيعان، بدر الدين (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو (رحلة قايتباي إلى بلاد الشام، ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)، تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٧٠؛ لابيدوس، مدن الشام، ص١٠٤؛ بني حمد، العوامل المؤثرة ، ص٢٩٧.

هو ظهور الخطر المغولي على أرض الشام في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق، حيث تلقى المسلمون أقسى الهزائم أمام المغول بقيادة تيمورلنك، الذي قاد الموجة الثانية من هجمات المغول على المشرق الإسلامي.

ففي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م هاجم المغول مدن بلاد الشام، وما يهمنا من ذلك الغزو الشرس هي الآثار التي خلفها، والتي وصفها المقريزي بقوله: " فنهبوا مَا بَقِي من الأثاث وَسبوا نسَاء دمشق بأجمعهن وَسَاقُوا الْأَوْلَاد وَالرِّجَال وَتركُوا من عمره خمس سِنِين فَمَا دونهَا وَسَاقُوا الْجَمِيع مربطين فِي الحبال. ثمَّ طرحوا النَّار فِي الْمنَازل وَكَانَ يَوْمًا عاصف الرّيح، فَعمّ الْحَرِيق الْبَلَد كلهَا وَصَارَ لَهب النَّار يكَاد أَن يرْتَفع إِلَى السَّحَاب وعملت النَّار ثَلَاثَة أَيَّام آخرهَا يَوْم الْجُمُعَة،....، وامتلأت أرْضهَا بجثث الْقَتْلَى، وَلم يبْقَ بهَا دَابَّة تدبّ إِلَّا أَطْفَال يتَجَاوَز عَددهمْ آلَاف فيهم من مَاتَ، وَفِيهِمْ من يجود بنَفسهِ"[١].

من خلال النص السابق يظهر مدى حجم الدمار الذي حلّ في بلاد الشام؛ مما يعطي صورة واضحة للكارثة الاقتصادية التي عاشها أهل الشام.

وقد أورد المقريزي في صدد حديثه عن اعتداءات الفرنج على المراكب المملوكية اشارات واضحة تدلل على دور الدولة المملوكية أثناء تلك الأزمات الاقتصادية فيقول: " وَقدم الْخَبَر أَن الفرنج أخذُوا سِتَّة مراكب موسقة قمحًا سَار بهَا الْمُسلمُونَ من دمياط إِلَى سواحل الشَّام ليباع بهَا من كَثْرَة مَا أَصَابَهَا من الْقَحْط والغلاء من نوبَة تمرلنك"[٢].

فهو يشير هنا إلى المساعدات الوافدة إلى الشام من خلال إرسال المراكب التي تحمل الغلال من دمياط وتتجه نحو بلاد الشام للتخفيف من الأزمة الاقتصادية، ومن ناحية أخرى يبدو أن نواب الشام اهتموا بالجانب المعماري الذي تأثر من جراء ذلك الغزو،

---

(١) اقتبست الباحثة نص المقريزي على الرغم من طوله؛ لتسلط الضوء على مدى الآثار الاقتصادية التي ألمت ببلاد الشام من جميع النواحي من خلال وصف مؤرخ معاصر للأحداث. انظر: السلوك، ج٦، ص٥٤؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ص٩٠-٩٢.

(٢) السلوك، ج٦، ص٦٠.

حيث ذكر المقريزي في هذا الصدد في حوادث سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٩م فقال: "وفيه شرع الأمير شيخ في عمارة مواضع من داخل مدينة دمشق مِمَّا خرب في فتنة تيمورلنك وألزم النَّاس بالعمارة في أماكنهم، ومن عجز فليؤجر ذلك فأخذ الناس في ذلك"[(١)].

وتفشّت ظاهرة الفساد النقدي وتفاقمت خلال العصر المملوكي الثاني (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨١-١٥١٧م)، فبرزت ظاهرة جديدة في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ألا وهي اختفاء العملات الفضية من الأسواق[(٢)].

ولكن بعض سلاطين المماليك اتبع سياسة حازمة للتصدي لتلك الظاهرة، مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي ظهر في عهده فساد الدنانير الذهبية، فعاقب عاملي دار الضرب بالمصادرة وبغرامات مالية يدفعونها لخزينة الدولة[(٣)].

واستفحل الفساد النقدي في زمن الناصر فرج بن برقوق في بلاد الشام، وبعد مقتله سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، فنادى نائب بلاد الشام الأمير نوروز بأن تضرب الدراهم من فضة خالصة غير مغشوشة[(٤)].

وفي سنة ٨٢٩هـ/ ١٣٢٨م، عقد السلطان الأشرف برسباي مجلسًا حضره الأمراء والقضاة والتجار وناقش إمكانية إلغاء التعامل بالعملة القبرصية المسماة بالإفرنتية[(٥)]؛ لأنها عملة أجنبية وعليها شعار الصليبيين، وضرب عملة خاصة بالمسلمين، وبالفعل فقد تم له ما أراد، وسكَّ عملةً جديدة من الذهب الخالص عُرفت بالأشرفية[(٦)].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٢١٦.

(٢) بني حمد، العوامل المؤثرة، ص٣٠١.

(٣) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٣٨٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٢٠.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٦، ص٣٣٩.

(٥) **العملة الإفرنتية**: جمع إفرنتي وهي محرفة عن إفرنسي، وتسمى الدوكات نسبة إلى لقب الحاكم هناك فهو يطلق عليه اسم دوك أو دوق، وهي عملة ضربها البنادقة في القرن الثالث عشر الميلادي امتازت بجودتها وثباتها، فحازت بذلك ثقة المتعاملين بها وأدى ذلك لانتشارها، وهي تساوي تسعة عشر قيراطًا ونصف قيراط من المصري، وقد نقش على أحد وجهي هذه العملة صورة الملك الذي ضربت هذه العملة في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٨؛ المقريزي، السلوك، ج٧، ص١٢٩.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٧، ص١٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١١٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٠٤.

ومنع التعامل بالنقود المغشوشة، ومعاقبة منْ يقوم بذلك، وأصدر نقوداً جديدة بدلاً من النقود الفاسدة[١]. وتشدد في معاقبة من يعملون على غش النقود وتزييفها، وعوقبوا بقطع أيديهم[٢].

واستشار السلطان الأشرف إينال العلائي سنة ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م العلماء ورجال الدولة لضرب فضة خالصة جديدة، وتم له ما أراد .ثم تعقب ضاربي الزغل[٣] وأمر بتوسيطهم[٤] أو قطع أيديهم؛ مما كان له أكبر الأثر في رواج العملة الجديدة وتحسّن أحوال العملات في ذلك العصر[٥].

وفي سنة ٨٨٩هـ/١٤٨٤م أصدر السلطان الأشرف قايتباي مرسوماً ينص على قطع يد من يقبض عليه من مفسدي نقود الدولة، وإن كان الفساد كبيرًا فعقوبته القتل؛ مما كان له أكبر الأثر على اختفاء أزمة تزييف النقود المملوكية في عهده[٦].

وكان لحسن تصرُّف الولاة في الدولة المملوكة دور فاعلٌ في استقرار الأوضاع الاقتصادية وتلافي وقوع الغلاء، فعلى سبيل المثال الجهود الكبيرة التي قام بها تنكز الحسامي في بلاد الشام، مما حقق للمجتمع الشامي الرخاء والاستقرار باذلاً من أجل ذلك المال والجهد المتواصل لخدمة رعاياه؛ مما جعل من سيرته محل إعجاب وثناء عند مؤرخي عصره، ومن الأزمات التي حدثت في زمنه حادثة الحرائق التي أشعلها النصارى والتي عدم على آثارها نحو خمسة وثلاثون ألف قوس، وعدمت الناس أموالاً عظيمة،

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٥٥؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص١١٦.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٢؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٤.

(٣) **الزغل**: هي النقود المزيفة، أما الزغليه فهم من يزيفون النقود. انظر: زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص١١٩.

(٤) **التوسيط**: شكل من أحكام الإعدام في العصر المملوكي، وطريقته بأن يعرى الشخص من الثياب، ثم يشد إلى خشبة مطروحة على الأرض، ويضرب بالسيف تحت سرته بقوة ضربة تقسم جسمه نصفين فتنهار أمعاؤه إلى الأرض. انظر: دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص٤٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢١١-٢١٨.

منها للتجار خاصة ما مبلغه ألف ألف وستمئة ألف دينار، وخربت أماكن كثيرة [١].

فكان من جهوده لمعالجة الأزمة ما يذكره المؤرخ الشجاعي بقوله: "رمى بذلك على باقي النصارى بدمشق، واستخلص منهم بالضرب والمقارع تسعون ألف دينار، ورسم بصرفها في عمارة ما احترق من الأملاك، وبدأ أولاً بعمارة الجامع الأموي وإصلاح ما احترق، وباشر عمارته بنفسه، وصار يقعد فيه على كرسي وهو بتحقيقه من باكر النهار إلى العشاء في غالب الأيام"[٢].

وعندما تولى الأمير سيف الدين أرقطاي نيابة حلب في عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م كانت البلاد تشهد ارتفاعًا في أسعارها، لذا قضى هذا النائب على الفساد، فأبطل الخمور والفجور، ورفع الطرح والمظالم عن القرى، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الأسعار[٣].

ومن الوسائل التي اتخذتها الدولة للحد من ارتفاع الأسعار إجبار الأمراء والتجار على فتح مخازنهم وبيع ما بها من الغلات ففي سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م أصدر نائب السلطنة جقماس الظاهري مرسومًا طالب فيه المحتكرين إطلاق الغلال في الأسواق وبيعها، وإن لم يفعلوا ذلك نهبت مخازنهم، وبذلك حلت المشكلة وانخفضت الأسعار[٤].

ومن الوسائل أيضًا، معاقبة المسؤلين عن ارتفاع الأسعار، ففي ربيع الآخر ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م أهان نائب دمشق محتسب المدينة لأنه غير كفء، إذ أمر بضربه ووضعه على حمار فطيف به شوارع دمشق[٥] .

(١) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤١٤-٤١٥؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٨٢.

(٢) الشجاعي، شمس الدين (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، تاريخ السلطان الملك الناصر محمد وبنيه، مخطوط برلين ٩٨٣٣، ورقة ٥٦ ب، ٥٩أ؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٢٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٤١٤-٤١٥؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢٨٢.

(٣) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٤٢.

(٤) البصروي، صفحات مجهولة، ص١٢٥.

(٥) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص١١٥.

وعلى الرغم من أن المصادر المملوكية قد بسطت الحديث عن كثير من الأزمات والكوارث التي عاناها المجتمع في بلاد الشام إلا أنها كانت شحيحة في تسليط الضوء على دور الدولة في أثناء تلك الأزمات التي مرت على رعاياها إلا أننا نستطيع أن نستنتج من خلال ما ذكر آنفاً بأن الدولة المملوكية قامت بإجراءات ومساعدات كان لها أكبر الأثر في التخفيف من وقع الأزمات الاقتصادية التي عاناها رعاياها في بلاد الشام.

المبحث السادس

رعايـة الموتـى

الموت حق لازم لكل مخلوق ووقوعه حق لازم لكل مخلوق؛ لقولــه تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(١)].

قررت الشريعة الإسلامية الغرّاء مبدأ حرمة المساس بجثة المتوفى، ووجوب تكريمها وعدم إهانتها، والتعامل معها باحترام وأدب، على أساس احترام القيم الدينية والأخلاقية والمعنوية، فإذا كان لجسم الإنسان حُرمة حال حياته، فإن له أيضًا حرمةً بعد مماته، لأن الآدمي محترم حيًّا وميتًا في الفقه الإسلامي. ومن مظاهر تكريم الإنسان ميتًا في الإسلام: ما شُرع من التغسيل والتكفين والدفن، هذا ولا اعتبار في الإسلام للعمر في حرمة الجثة، ولا مكان للوظيفة الاجتماعية فيها.

وكان الفقراء والمحتاجون في العصر المملوكي موضع اهتمام ورعاية من سلاطين المماليك والقادرين من أهل الخير في حياتهم، وأيضًا بعد مماتهم، فوُجدت في بلاد الشام مؤسسات خاصة بتغسيل الأموات من الفقراء الذين لا يجدون من يتكفّل بغسلهم ودفنهم، أُطلق عليها مغاسل الموتى. فكان الموتى من المسلمين يُحملون إلى تلك المغاسل ليُغسلوا فيها ويتم تجهيزهم للدفن من ريع الوقف الموقوف عليها[(٢)].

ومن أشهر هذه الأوقاف "وقف الطرحاء" [(٣)]، الذي جعله السلطان الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم[(٤)]. وإن كانت المصادر قد ذكرت هذا الوقف في مصر، فإنه لا يمنع أن تكون يد الأوقاف في بلاد الشام قد سارت على نهج مصر، خاصة أن مجتمع الشام مجتمع خيري مترابط، ومما يدل على ذلك وقف في طرابلس

---

(١) سورة القصص: الآية: ٨٨.

(٢) عاشور، المؤسسات الاجتماعية، ص٣٤٦؛ الخطيب، الأوقاف الإسلامية، ص١٧٥.

(٣) **الطرحاء**: هم الفقراء أو الضعفاء من الشعب. انظر: محمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص١٠٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٩٩؛ السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة، ص١٣٠.

عرف "بوقف الأكفان"، وهو مخصَّص لتكفين الموتى من الفقراء ودفنهم. ووقف الغُرباء، وهو مخصَّص لغسل وتكفين ودفن الغرباء عن المدينة الذين يتوفون وهم فيها، ولا يُعرف لهم أهل أو أقارب[١].

ووجدت أوقاف كثيرة لإنشاء مقابر للمسلمين، فكانت أشهرها أوقاف الملك العادل كتبغا- نائب حماة في عهد الناصر محمد بن قلاوون- الذي أوقف على مقابر سفح قاسيون في دمشق أوقافًا جليلة[٢].

ووصلت دور المغاسل في العصر المملوكي إلى مستوى كبير من الدقة والتثبت قبل تغسيل الموتى وتجهيزهم للدفن، ويذكر ابن طولون حادثة تؤكد ذلك فيقول: " أصبح رجل كان يبيع الصابون، وقد شنق نفسه في بيته في حبل، وهو ميت، لكون بعض الظلمة طرح صابونًا؛ فذهبت زوجته إلى أبيه وأخبرته بذلك، فأتى إليه وأنزله وغطاه، وذهب إلى المغسل ليغسله، فلما رأى عليه آثار الخنق امتنع، وقال: لا أغسله حتى تنظر فيه الحكام"[٣].

أما تغسيل النساء فقد أثبتت الوثائق وجود نساء امتهنَّ مهنة المغسَّلة التي عادة تُغسِّل الموتى من النساء وتكفنهنّ وتجهزهنّ للدفن[٤].

وأسهمت كثير من المؤسسات التعليمية والاجتماعية والطبية في هذا الجانب، فقد استخدمت مدارس بلاد الشام كأماكن لغسل الموتى والصلاة عليهم وإقامة العزاء بها، خاصةً إن كان المتوفى من مدرسيها[٥].

---

(١) عمر تدمري، أوقاف طرابلس وغايتها الإنسانية، مقال نشر في شبكة الإنترنت، ٢٠١٧/٥/٧م:
www.tourathtripoli.org/index.php/24-2009-10.../306-2012-10-08-08-43-05.

(٢) السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة، ص١٣١.

(٣) مفاكهة الخلان، ق١، ص١٠٠.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٤، ص٨٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٠٨؛ باعمر، المرأة المقدسية، ص٩٩.

(٥) الطروانة، الحياة الاجتماعية، ص١٨٢.

وشاركت بعض خانات السبيل الأهالي في مصابهم بالتكفل بغسل موتاهم ودفنهم، ففي عام ٩٠٣هـ/١٣٩٨م تكفل خان جقمق في مدينة دمشق بغسل ودفن الصبي الذي وسّطه متسلّم مدينة دمشق[١].

واستخدمت بيوت الصوفية كذلك كأماكنَ لغسل الموتى ولدفن واقفيها أو بعض روادها من مشهوري الصوفية[٢].

ولم تقتصرْ التُّرب على كونها مدفنًا للأمراء من المماليك وذُريتهم مِن بعدهم، بل غدتْ واحدةً من المنشآت الاجتماعيَّة المهمَّة بما قدَّمتْ من خِدْمَات، وما حوتْه من حوض للدواب، وحوانيت لتغسيل الموتى؛ فالوثيقة المؤرخة في سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م، تُلقي الضوءَ على إحدى المنشآت الاجتماعيَّة، وهي التُّربة التي أنشأها الأمير بدر الدين بن حسام الدين بركة خان، إذ ومِن ريع أوقافها كان يُنفق على مصالح التُّربة، وما تقوم به من أعمال الخير، مِن مداواة المرْضَى، وتجهيز الموتى بالقُدس الشريف[٣].

وفي زمن الكوارث التي داهمت بلاد الشام كانت الدولة المملوكية تقوم بعدة إجراءات، فمثلاً لما كان الطاعون بلاد الشام سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، كثر الموتى، وزاد ضمان الموتى جدًّا، فتضرّر الناس ولا سيما الفقراء، فإنه كان يؤخذ على الميت مبلغ كبير، فرسّم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، ووقف نعوشًا كثيرة في أرجاء البلد ففرّج على الناس بذلك[٤]، وكانت مغاسل السبيل تفتح لتستوعب الأعداد الكبيرة من الموتى[٥].

وفي ختام هذا المبحث حاولت الباحثة أن تسلط الضوء على حالة أهل الموتى بعد وفاة ذويهم في العصر المملوكي بما توافر من إشارات متناثرة هنا وهناك في المصادر والتي كانت شحيحة في التعرض لأحوالهم ومدى ما قدمته الدولة لهم بعد وفاهم.

---

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص١٥٢؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ٢٢٩.

(٢) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٧٠؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص ٢٠٢.

(٣) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٣٦)، م١، ص٢٣٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٠٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٠١.

:

الفصـل الرابـع

الآثار المترتبة على رعاية الفئات المحتاجة

المبحـث الأول: الآثار الاجتماعية.

المبحث الثانـي: الآثار الاقتصادية.

المبحث الثالـث: الآثار الأمنية.

المبحث الرابـع: الآثار الدينية والعلمية.

المبحث الأول
الآثار الاجتماعيـة

لقيت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي رعاية وعناية كبيرتين، وانصب اهتمامهم على كل ما يخدم المجتمع، فأولوا الفئات المحتاجة رعايةً خاصةً، ولعلنا نسلط في الصفحات الآتية الضوء على أهم الآثار الاجتماعية التي ترتبت على تلك العناية والاهتمام، والذي كان له أكبر الأثر في حياة المحتاجين كفئة من شرائح المجتمع، والتي تتضح من خلال الآثار التالية:

ارتفاع المستوى الاجتماعي في الطبقات الفقيرة:

كان من أهم نتائج رعاية الفئات المحتاجة هو تحسين المستوى الاقتصادي، والعلمي، لأفراد المجتمع مما كان له أكبر الأثر لتحسُّن المستوى الاجتماعي لهم، ويشير أحد الباحثين إلى أن "الآلاف الكبيرة من المجتمع من العلماء المبرزين في مختلف التخصصات كانوا من فئات اجتماعية واقتصادية رقيقة الحال"[١].

فالتعليم الجيد الذي قد يحمله شخص موهوب قد ينقله، ليس ليتسلم مرتبة الإفتاء والقضاء فحسب، بل ليتمرس في العمل الإداري وتيسير أمور الدولة، أو الانخراط في أي مهنة متخصصة كالطب أو الإدارة أو غيرها، والتي قد لا تتاح له لولا أن الله سبحانه وتعلى سخَّر له أموالاً موقوفة قد ساعدته على هذا الارتقاء، وسهلت له سبيل التعليم والانتقال والارتقاء[٢].

وهناك نماذج كثيرة لمنْ اعتمد على نفسه، ولم يجعل من الظروف عائقًا يمنع من وصوله لأعلى المراتب، من هذه النماذج المشرفة الفقيه أحمد الحريري (ت٨١٣هـ/

(١) شوقي أحمد دنيا، أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، الرياض، السنة السادسة عشر، ١٤١٥هـ، ص١٣٦.

(٢) عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، بحث مقدم لندوة (إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف)، تحرير.حسن الأمين، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ١٤١٥هـ، ص٢٥٦.

١٤١٠م)، الذي عاش اليتم والفقر واستطاع الوصول إلى مناصب كبيرة في الدولة، فوَلِيَ قضاء بعلبك سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، ثم ولي قضاء المدينة بعد سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، ثم ولي قضاء صفد وغزة والقدس(١). ومنهم من تقلَّد مناصبَ كبيرًة في الدولة، كعلي بن محمد ابن محمد الدمشقي، الذي ولي كتابة السر ونظر الجيش بدمشق، واشتغل بالقضاء بدمشق ثم القاهرة، وجُمع له القضاء والحسبة في دولة المؤيد. ويصف ابن حجر حاله في بداية أمره بأنه كان"فقيرًا جدًّا حتى إنه إحتاج إلى نزر يسير اقترضه من بعض أصحابه، ولما مات خلف من المال جملة مستكثرة"(٢).

وارتبط توافر الطعام بارتفاع المستوى الاجتماعي للأفراد؛ لذلك سعى سلاطين المماليك إلى إنشاء الطواحين لما لها من أهمية في حياة الناس، وكان من بينهم الظاهر بيبرس، الذي بنى بالقدس سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م طاحونة وفرنًا، وأوقف عليها الأوقاف(٣).

ومن خلال استقراء وصف الرحالة الذين زاروا بلاد الشام في العصر المملوكي وأكدوا مدى اهتمام أهل دمشق بطعامهم، فكانوا يرسلون الأطعمة إلى الأفران لتُطبخ وتُعد؛ مما ساعد على انتشار أسواق الطباخين بشكل واسع، وقد أشار الرحالة فابري إلى ذلك في أثناء زيارته لغزة بقوله: "هناك كثير جدًّا من الطباخين"(٤).

وذكر السيد أن أحد الرحالة (كازولا) وصف الأسواق في بلاد الشام، حيث تُباع الأطعمة مطبوخة وجاهزة للأكل فقال في ذلك:"إن تلك السوق عبارة عن شارع طويل يمتد إلى مرمى البصر، وعندما مشيت في تلك السوق أخبروني أنه لا أحد من أهل القدس

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص٤٦٩.

(٢) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٢٨.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٤٥٣؛ العيني عقد الجمان، ج١، ص ٣٧٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢١.

(٤) فابري، رحلة، ج٣٨، ق٤، ص١٢٥٨. وانظر ايضًا عاشور، المجتمع، ص ١٢٩، ١٣٠.

يطهو طعامه في مترله، وأنَّ كل ما يشتهيه الشخص من طعام يجده في تلك السوق"(١).

وتحدث الرحالة فابري بشيء من التفصيل عن مشاهداته لشارع الطباخين فقال: "رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة؛ لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم كما نفعل في بلادنا، بل يبتاعون طعامهم جاهزًا من هذه المطابخ العديدة، والطهاة ماهرون ونظيفون، وفي الأسواق يعرض الطهاة اللحوم بشكل نظيف زائد عن الحد"(٢).

فمن خلال تلك المشاهدات لهؤلاء الرحالة نصل إلى عدة نقاط هامة:

ارتفاع مستوى المعيشة الذي وصل إليه أهل الشام؛ مما أدى إلى كثرة انتشار المطاعم الجاهزة التي وجدت إقبال جماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة، على حدّ وصف فابري، ومدى تنوُّع الطعام المطبوخ، فكل ما يشتهيه الشخص يجده في تلك الأسواق، ومن ناحية أُخرى تسلط النظر إلى ارتفاع المستوى الصحي بوصف الطهاة بالمهارة والنظافة ومدى نظافة ما يعرض للبيع.

وشُهرة المطبخ الشامي غنية عن التعريف فقد كانت موائد الشام ومطابخها غنية، خاصة بأصناف الحلويات، وهذا نوع من أنواع الرفاهية التي تمتع بها أهل الشام. وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك فعندما زار مدينة نابلس كان يصنع فيها نوع من أنواع الحلوى التي تصدَّر إلى دمشق ومصر(٣). ووصف أنواعًا عدةً من الحلويات التي اشتهرت بصناعتها بلاد الشام كالمربىَ المصنوع من العنب ويصنع الدبس، ويوضع في الحلواء الفستق واللوز، ويسمونها حلواء بالملبن(٤).

وكانت موائد الناس في شهر رمضان تحفل بأنواع الطعام والحلوى، سواء التي تصنع من العسل أو السكر، إضافة لى أنواع الفواكه المختلفة، وما كان يصنع من

---

(١) علي السيد، القدس، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) رحلة، ج، ٣٨، ق٤، ص٥٦.

(٣) الرحلة، ج١، ص٨٠.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١٠٠؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٨٨٤.

القطايف والكعك المحشوّ بالتمر، والكنافة خاصة في أيام الأعياد[(١)].

وكثيرًا ما أشارت كتب الرحالة إلى ما كان يتمتع به أهل الشام من توافر مواد غذائية متنوعة. ولعل في وصف البدري لحال أهل دمشق في الشتاء ما يؤكد ذلك: "يعدّون للشتاء بالأسمان والأدهان، ويموّنون البيوت بالحبوبات، ولحم القديد والمعسولات، والفاكهة المعلقة، والحلاوات المؤنقة، ويكونون في الأماكن المبخرة ولا يخرجون منها"[(٢)].

ففي وصفه السابق ما يشير لى الرخاء الذي عاشه الشاميون ومدى الاستعدادات التي تتم في فصل الشتاء، فإذا كان هذا حالهم في أيام البرد، فلنا أن نتصور الوضع في باقي فصول السنة.

ومن الدلائل التي تشير إلى ارتفاع المستوى الاجتماعي؛ الشهرة الواسعة لسكان بلاد الشام في استهلاك الصابون بأنواعه في الاستحمام والغسيل، فإن كثرة الحمامات دليل ذلك فقد تفنن الدمشقيون في صناعة الصابون بألوانه وأطيابه[(٣)].

تعزيز الجانب الأخلاقي والسلوكي في المجتمع:

أسهمت الرعاية الموجهة إلى الفئات المحتاجة إلى تطهير المجتمع من الأمراض الاجتماعية كالحقد والعداوة والحسد، وحدَّت من جرائم السرقة في مجتمع بلاد الشام من خلال التضييق على منابع الانحراف؛ فعلى سبيل المثال كانت فئة العبيد والجواري محط اهتمام ورعاية نساء سلاطين وأمراء المماليك، حيث أعتقت زوجة الأمير سيف الدين كجكن المنصوري[(٤)] (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، عددًا من الجواري وتكفلت بتزويجهن[(١)].

---

(١) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٨٨٤؛ أحمد رمضان، المجتمع الإسلامي، ص٢٤١؛ نسيم أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية، ص ٢١٧؛ سميرة عبد اللطيف علي ذياب، صورة من المجتمع الشامي في الدولة المملوكية نثرًا، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة مؤتة، الكرك، ٢٠٠٧م، ص١٠٨.

(٢) نزهة الأنام في محاسن الشام، ص٣٧٣،٣٧٢.

(٣) العملة، نيابة دمشق الشام، ص٢٠٠.

(٤) **الأمير سيف الدين كجكن:** أحد الأمراء الكبار بدمشق، توفي سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩م. للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٢٤٨؛ الذهبي، من ذيول العبر، ج٦، ص٢٠٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣١٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٨٤. =

وهي بذلك كفلت لهنَّ حقهَّن في الزواج كغيرهن من أفراد المجتمع.

وساهمت الأوقاف على إيجاد مورد دخل للعاطلين، ولا يخفى علمًا ما قد تسببه البطالة[٢] من آثار خطيرة في المجتمع، كانتشار الجرائم السرقة والقتل أو اللجوء إلى التسول في سبيل تأمين لقمة العيش. خاصة في زمن الغلاء عندما تتعرض البلاد لكوارث اقتصادية، فقد درج سلاطين المماليك على منع الفقراء من السؤال، فيرتبون لهم ما يكفيهم من الإدام والخبز والطعام حتى تنفرج الكربة[٣].

ومن باب سد ذرائع الفساد لم تغفل الأوقاف عن فئة النساء الأرامل والمطلقات، فجاءت الأوقاف لتمدَّ لهن يد المعونة، وكان لكثير من نساء الأمراء توجه نحو تلك الفئة الضعيفة منهن الست ستيته بنت الأمير سيف الدين الكبير كوكبائي المنصوري[٤] التي أوصت بأن يُنْشَئَ رباطٌ للنساء في تربتها[٥].

ارتفاع مكانة المرأة الاجتماعية:

حظيت المرأة في زمن المماليك بمكانة رفيعة وجليلة لدى مجتمع بلاد الشام، فتصدرت مؤلفات ذلك العصر تراجم لكثير من النساء، ومن خلال الألقاب التي أوردوها لنساء عصرهم يظهر بوضوح مبلغ الاحترام والتكريم الذي حظيت به نساء ذلك العصر[٦].

=(١) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢،ص١٣٤.

(٢) **البطال**: لفظ اصطلاحي تعني الخالي من الخدمة أو العمل. انظر: أنور زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص٦٥.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص٤٠٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٤.

(٤) **الأمير سيف الدين كوكبائي المنصوري**: صهر نائب الشام تنكز، توفي بالطاعون سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٣١٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٩،٣٣٠؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٢١١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص ٣٥٠.

(٦) أفرد السخاوي في كتابه جزءًا خاصًّا لتراجم النساء، فذكرهن بألقاب وكنى تدل على مدى الاحترام الذي تمتعت به المرأة في العصر المملوكي. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢.

ولم تقتصر نظرة الاحترام على نساء علية القوم من ملوك وأمراء، بل تعدى إلى نساء العامة، فمن خلال أوضاع المرأة المطلقة والأرملة[١] نستنتج مدى الرعاية التي وجدها في ظل العصر المملوكي، فلم تكن المرأة الشامية مغلوبة على أمرها، بل نالت حقوقها كافة بقوة القضاء التي وجدت تحت مظلته العدل والإنصاف في مختلف أحوالها. فابن طولون يذكر لنا أن إحدى النساء اشترطت أن يدفع لها زوجها مالاً لتوافق على الرجوع إليه، فعندما ذهب للقضاء شاكيًا بأنه لا يملك المال الكافي أمر له بجمع المال حتى يتمكن من تنفيذ شرط الزوجة؛ فالشاهد هنا أن القضاء لم يستنكر فعل الزوجة، بل وقف إلى جانبها مبديًا احترامه لرغبتها[٢].

كما كان للمرأة في مجتمعها أحقيَّة التملُّك والتصرف في أموالها، على سبيل المثال جاء في احدى الوثائق مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي، أنها اشترت بموجبها من أخيها الدار الكائنة بباب حطة بالقدس، مؤرخة في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٦م[٣].

وأورد ابن طولون حادثة عن امرأة اعتدي عليها من قبل نائب بعلبك، مما حمل نائب دمشق على معاقبته، برغم منصبه، مما يدل على حرص ذلك المجتمع على حفظ كرامة المرأة وصون عفتها[٤].

ترسيخ العادات الاجتماعية التي تقوي الترابط بين أفراد المجتمع الشامي:

احتلت العادات والتقاليد مكانة كبيرة في المجتمع الشامي بصرف النظر عن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، مما أكسب المجتمع روابطَ وأواصرَ جمعت بين جميع فئاته، وهذا ما أجمع عليه كثير من الرحالة، سواء كان من المسلمين أو من الغرب وقد نقلت لنا كتاباتهم صورة حية لما كان يعيشه ذلك المجتمع في العصر المملوكي.

---

(١) انظر: الفصل الثاني، المبحث الخامس (الأرامل والمطلقات) .

(٢) إعلام الورى، ص١٩٩-٢٠٠.

(٣) وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس. غوانمة، بيت المقدس، الملحق رقم ١٠، ص١٩٥.

(٤) مفاكهة الخلان، ق١، ص٩٢.

ولسنا بصدد الحديث عن العادات الشامية بقدر ما يهم هنا تصوير نوع من الحياة التي عاشها المجتمع كله، والتي تعتبر الفئات المحتاجة شريحة من شرائحه، التي أثّرت وتأثّرت بتلك العادات التي أصبحت ضمن الموروث المتعارفَ عليه، بصرف النظر عن الوضع الاقتصادي لتلك الفئات.

فمن فضائل أهل الشام أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء، فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار رجال السوق صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أو في المسجد، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعًا[1]. وكان الأمراء والقضاة يتبرعون بإطعام الفقراء في رمضان[2].فمن خلال تصوير ابن بطوطة لتلك المشاهد من حياة أهل الشام وتفقدهم لأحوال فقرائهم ثم إطعامهم يبدو شاهدٌ حيٌّ على مدى ما تمتع به ذلك المجتمع من تآلف وتراحم بين أفراده.

وكان لسلاطين المماليك أيضا عادات مُتعارَف عليها في المناسبات الدينية، فكان الظاهر بيبرس يرتب في رمضان الصدقات: أربعة آلاف قميص، وألف قنطار خبز، وإطعام خمسة آلاف فقير كل ليلة، وعتق ثلاثين عبدًا، ويرتب المطبخ للفقراء، ويفرِّق الصدقات على الزوايا[3].وكثير ما تطالعنا الأوقاف بتخصيص صرف الإنفاق في مناسبات محددة، كوقفية زينب بنت شمس الدين الصابوني، المؤرخة في سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م، والتي خصصت جزءًا من محصول الوقف، ليشتري به الناظر خبزًا من الحنطة تُفرق في ليالي الجمع على السجناء في الشام[4].

ويؤكد ابن بطوطة أن جهاز الفتاة يقع على عاتق والدها: "ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها، ويكون معظم الجهاز أواني النحاس، وبه يتفاخرون، وبه يتبايعون"[5]. وفي حديثه عن أوقاف دمشق قال: "ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٢.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة. ص١٢٣.

(٣) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص٣٥، ٧٨.

(٤) أوزقان، سجل الأوقاف في مصر ، ص ٢٣٦؛ الدوسري، أوقاف النساء، ص ٢٥٧.

(٥) الرحلة، ص ٨١.

أزواجهن، وهن اللاتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن"[١].

نستخلص من هذه الرواية أن تجهيز البنات يكون على عاتق أهلهن، فإذا كان الأهل من الفقراء لا يسقط عنهم واجبهم بتجهيز البنات، إنما يستعينون بأموال الأوقاف المخصصة لمثل هذه الحالات. وهذه إشارة واضحة إلى مدى التضامن الذي كان يعيشه الناس في ذلك الزمن، حتى جعلوا جزءًا من مصارف الأوقاف لمساعدة الأُسر الفقيرة على تجهيز بناهم.

الانفتاح المجتمعي بين أجزاء العالم الإسلامي بصورته الكبيرة:

وقد تحقق هذا الانفتاح بوجود المدارس الوقفية والبيوت الموقوفة لرعاية الغرباء، وإحياء طرق السفر بالخانات والأسبلة. وقد وصف الحميري مدى الرعاية التي وجدها الغرباء في البلد، فقال:"وأما رباطات الصوفية التي يسموها الخوانق فكثيرة، وهي قصور مزخرفة، في جميعها الماء يطرد، وهناك ديار موقوفة لقراءة كتاب الله تعالى يسكنوها، ومرافق الغرباء أكثر في البلد من أن تحصى لا سيما لحفاظ كتاب الله تعالى والمنتمين للطلب"[٢].

تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع رُوح التذمُّر في المجتمع:

ساعدت رعاية المحتاجين على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع، بتحقيق نوع من المساواة بين أفراده، ومن أوجه أنواع الاستقرار أن الفقير استطاع الحصول على حقه في التعليم والعلاج والمتطلبات الأساسية في الحياة من خلال نظام الوقف، بل إن وثائق الأوقاف تنصُّ في غالبها على مساعدة الفقراء والمحتاجين [٣].

ومنها تأمين المسكن بالمجان، فكثير من الأُسر قد ضمنت العيش في المترل بدون دفع إيجار، وامتد هذا الوقف إلى نسلهم من بعدهم، فكثيرًا ما تكررت صيغ وثائق وقف

---

(١)الرحلة، ص ١١٩.

(٢) الروض المعطار، ص٢٤٠.

(٣) السدحان، الأوقاف والمجتمع، ص٨١.

المنازل على مصلحة أسرته وذريته من بعده، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في وثيقة مؤرخة بسنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م فقد أوقف أحد أبناء بيت المقدس دارًا له في القدس الشريف تشمل (ثلاثة بيوت ومطبخ ومطهرة) إلى مستحقي إرثه وهم أولاده وزوجته[١].

وجاء في بعض الوثائق أن حياً بأكمله عُرف بحي الحرفيين، وهذا يشير إلى نوعٍ من الاستقرار الاجتماعي من خلال توفير السكن اللازم لهذه الفئة، ويؤكد هذا وجود إحدى وثائق حصر الإرث التي ذكرت بأن أحد الأشخاص كان يسكن في غرفة في "بيت سكن الخبازين"[٢].

وفي حال انعدام وجود سكن خاص للفئات الفقيرة والمحتاجة كانت الأوقاف توفر لهم السكن الآمن، فكثيرًا ما أشارت الوثائق خاصة وثائق حصر المواريث إلى نوع السكن، فقد جاء في إحدى الوثائق المقدسية المؤرخة بسنة ٥٢٧هـ/ ١٣٩٣م أن بعض الأُسر الفقيرة نزلت في الأربطة[٣].

ومنهم من كان سكن الزوجية في غرفة أو عدة غرف في إحدى المؤسسات الصوفية كالزوايا فقد جاء في الوثيقة المؤرخة بتاريخ ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م، وهي وثيقة حصر موجودات رجل ملازم للفراش في زاوية محمد بك، وأقرَّ أن زوجته حاضرة معه[٤]، ووثيقة أخرى لزوجين مقيمين في زاوية الشيخ البسطامي[٥].

وشاركت المؤسسات التعليمية بتوفير سكن ليس العزاب فحسب، بل الفقيرة؛ فقد جاء في إحدى الوثائق أن محل إقامة أسرة بكاملها كان في المدرسة الميمونية[٦]، وإلى

(١) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٣٥)، م٢، ص٢٧٦ـــ٢٧٨.

(٢) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٥٢٦)، ص٧١.

(٣) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٥٢٧)، ص٧١.

(٤) باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٤٢٩)، ص٧٢.

(٥) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٤٦١)، م٢، ص٤٤؛ ابشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٣٧.

(٦) **المدرسة الميمونية**: تقع بيت المقدس، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القصري خازندار الملك صلاح الدين، ولم يبق لها نظام في عصر العليمي. انظر: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٨؛ باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٦٢٧)، ص٧٣.

جانب الطلاب كان الشيوخ يقيمون في المدارس أيضًا.

وامتدت يد المحسنين إلى فئة كبار السن فوفرت لهم الأوقاف مسكنًا يؤويهم فنجد في وقفية فاطمة بنت محمد بن علي المغربية، والمؤرخة في عام ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، بأنها خُصصت لفقراء وعجائز المغاربة، وكانت دارًا تقع في حارة المغاربة[١].

ومنها تأمين الأُسرة وصيانتها من ذُل السؤال بعد وفاة عائلها. ولعل هذا النوع من الأوقاف انتشر بشكل كبير في زمن المماليك، وربما يعود السبب إلى نظام المواريث الحشرية؛ مما كان له أكبر الأثر في حفظ الثروات والأملاك من عبث ذوي النفوذ ومصادرات الدولة، فأغلب الوقفيات كانت وقفًا على الذرية في مبتدأها، وبعد ذلك تتدرج إلى سبل الخير، منها على سبيل المثال وقفية زينب بنت شمس الدين الصابوني، المؤرخة بسنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م، التي وقفتها على نفسها؛ ثم على أولادها وذريتها من بعدها، ثم تنتهي على جهات البر من الفقراء والمساكين[٢].

ويُشكل تأمين الطعام أهم مظاهر الرعاية التي قدمت للمحتاجين، وقد أفاضت وثائق الأوقاف بتخصيص الطعام للفقراء، سواء يوميًّا أو أسبوعيًّا أو شهريًّا أو حسب المناسبات والمواسم الدينية[٣]. وهذا العمل له وقعٌ كبيرٌ في حياة الفقير؛ لأنه أزال عبء التفكير في توفير لقمة العيش له ولأسرته. وقد تسابق في ذلك سلاطين المماليك والأمراء وأهل الخير من عامة الشعب في توفير الطعام للمحتاجين[٤].

واشتهر في العصر المملوكي ما يعرف بالأسمطة التي تُقام، خاصة سماط الخليل الذي كان يعمل كل يوم جمعة، ويُعَدُّ رافدًا لا ينقطع أمام الفقراء من أهل البلد والغرباء الوافدين عليها، فكان الطعام يوزع مجانًا وكان هذا المشروع الخيري يجد من الدولة المملوكية كل دعم، فقد أوقف عليه السلاطين الأوقاف؛ يقول العليمي في هذا الصدد:

---

(١) العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٨٣٣)، م١، ص٢٣٦،٢٣٥.

(٢) أوزقان، سجل الأوقاف في مصر، ص٢٣٦؛ الدوسري، أوقاف النساء، ص٢٥٢.

(٣) سبق الحديث عن توفير الغذاء في الفصل الخاص بالفقراء.

(٤) انظر: أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٣٣، ٤٧، ٦٠، ٦٤، ٦٨، ٧٠.

"وَقَف برقوق قرية دير إسطيا من أعمال نابلس على سماط الخليل عليه السلام وشرط أن لا يصرف ريعها إلا في السماط الكريم، وكتب الوقف على عتبة باب مسجد الخليل عليه السلام"[(١)].

ومما يلاحظ بأن الناس في بلاد الشام لم تكن تستكنف من مخالطة الفقراء خاصة في أثناء الطعام، وهذا ما أشار إليه أحد الرحالة اليهود عند وجوده في الخليل، فقد تحدث عن وجود الطباخ والخباز وخدام مرتبين يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء والأغنياء[(٢)].

ومن أوقاف النساء في هذا الباب وقفية أن منك بنت عبد الله المؤرخة في سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، التي جاء فيها ما خصص لمطبخ الدشيشة، ومنها ما خُصص ليكون بيد الناظر حيث يتولى تفريق الخبز على المجاورين في الجامع الأموي[(٣)].

شيوع روح التراحم والمعاملة بالحسنى بين أفراد المجتمع:

إن الدارس للأوقاف في الحضارة الإسلامية ليعجب من التنوُّع الكبير في مصارف الأوقاف، فكان هناك تلمُّسٌ حقيقيٌّ لمواطن الحاجة في المجتمع لتسد هذه الحاجة من خلال الأوقاف، فالوقف من حيث بُعده الاجتماعي يبرهن على الحس التراحمي الذي يمتلكه المسلم ويترجمه بشكل عملي في تفاعله مع هموم مجتمعه الكبير[(٤)].

وكان المجتمع الشامي شديد الاهتمام بالمعوزين وأصحاب الحاجات، فأوقاف دمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يُعطى

---

(١) الأنس الجليل، ج٢، ص١٦٥؛ وانظر أيضا: ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٥٠؛ المقريزي، السلوك، ج٥، ص٤٤٧.

(٢) السيد، اليهود في شرق البحر المتوسط، ص١١٨.

(٣) سجل أراضي ألوية (صفد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة)، حسب الدفتر رقم (٣١٢) تاريخه (٩٦٤هـ/١٥٥٦م) المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، تح: محمد عيسى صالحية، عمان، جامعة عمّان الأهلية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٣٣.

(٤) السدحان، توجيه مصارف الوقف، ص١٥.

لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات لأزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون وما يلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها، وغير ذلك من أفعال الخير(١).

واستكمالاً لحلقات الرعاية الاجتماعية للمرضى فإن الواقفين قد نصُّوا على أن أصحاب الوظائف الذين يعملون في المدارس التي أوقفوها حين إصابتهم بأمراض خطيرة أو معدية، فإنهم يجري عليهم رزقهم طوال فترة عزلهم عن الطلاب حتى يُشفوا أو يتوفاهم اللَّه(٢). فهذه اللفتة الرحيمة التي راعاها صاحب الوقف في بنود وقفيته لهي خير دليل لما تمتع به المجتمع الشامي من حسٍّ إنسانيٍّ لمراعاة الموظفين خاصة في أثناء المرض.

---

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١١٨.

(٢) عبد الله بن ناصر السدحان، دور الوقف في بناء الحياة الاجتماعية وتماسكها، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية الاجتماعية الذي تنظمه جامعة أم القرى بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ، ص٢٣٢.

المبحث الثانـي
الآثار الاقتصاديـة

إن المعيار الحقيقي لقياس قوة أي دولة من الدول عبر العصور يخضع في الدرجة الأولى لمدى قوة هذه الدولة واتساع نفوذها وثرائها المادي[١].

والدولة المملوكية كانت من الدول الغنية والقوية باقتصادها، وهذا بدوره انعكس على رخاء المجتمع بشكل عام، والسؤال هنا إلى أي مدى نستطيع أن نقيس المستوى الاقتصادي الذي عاشه أهل الشام تحت ظل الحكم المملوكي؟

بطبيعة الحال لن تسعفنا المصادر بشكل مباشر، ولكننا نستطيع تلمُّسَ الأحوال المعيشية التي عاشها أفراد المجتمع الشامي من خلال بعض الإشارات غير المباشرة لنتوصل إلى الآثار الاقتصادية التي ارتبطت برعاية المجتمع بشكل عام، والفئات المحتاجة بشكل خاص.

ولعلنا نستشهد بذلك من خلال إشارة المقريزي إلى الوضع الاقتصادي الذي كان يعيشه أهل الشام قبل الغزو المغولي الثاني سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م في سياق حديثه عن الدور الذي أداه ابن مفلح[٢] من خلال المفاوضات التي تمت بينه وبين تيمورلنك فقال:"وَأَكْثر ابْن مُفْلِح وَمن كَانَ مَعَه من ذكر محَاسِن تمرلنك وَبث فضائله ودعا الْعَامَّة إِلَى طَاعَته وموالاته وحثهم بأسرهم على جمع المَال الَّذِي تقرر جمعه وَهُوَ ألف ألف دِينَار، فَفرض ذَلِك على النَّاس كلهم وَقَامُوا بِهِ من غير مشقة لِكَثْرَة أَمْوَالهم"[٣].

من خلال تلك الملاحظة التي أبداها المقريزي ــ عرضًا ــ بأن جمع المال كان قد

---

(١) إسماعيل البيومي، النظم المالية، ص٢٥.

(٢) **ابن مفلح**: برهان الدين أبو إسحق إبراهيم الدمشقي الحنبلي، قاضي قضاة الحنابلة، ولما وقعت فتنة التتار كان خرج إلى المغول ومعه جماعة، فحتال عليه تيمورلنك وغدر به ، وكانت وفاته سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٢، ٢٣.

(٣) السلوك، ج٦، ص٥١.

فرض (على الناس كلهم) ثم إشارته الصريحة بأن هذا المبلغ الضخم تم جمعه (من غير مشقة لِكَثْرَة أَمْوَالهم) نستطيع القول بشكل جازم بأن الوضع الاقتصادي لبلاد الشام كان جيداً، وهو أمر متعارف لدى أهل مصر ومؤرخيها.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن مدى الرعاية والاهتمام التي تمتع بها سكان بلاد الشام من قبل الدولة المملوكية والتي انعكست آثارها على فئات المجتمع المحتاجة:

انتعاش الأوضاع الاقتصادية:

أشاد كثير من الرحالة الأوربيين بانتعاش الأوضاع الاقتصادية في الشام، فيصف (فارتيما) دمشق بالمدينة الغنية والثرية التي تميزت بوفرة الغلال واللحوم والفواكه الطيبة والأقمشة الحريرية والصوفية، وزيادة السكان، ومنهم الحرفيون والتجار والصناع[(١)].

فقد كان لاهتمام السلاطين المماليك بفئة الصناع وبتحسين الإنتاج، بتوفير الأسواق الداخلية والخارجية لتوزيع الصناعات المختلفة[(٢)]؛ أكبر الأثر في ارتفاع المستوى الاقتصادي، وتحسُّن الوضع المعيشي للسكان.

وأشاد البدري بمدى تقدم صناعة النسيج في الشام فقال في هذا الصدد: "ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه."[(٣)]. وشارك الرجال والنساء بصناعة المنسوجات الصوفية التي اشتهرت في الشام لكثرة الماشية، فالرجال غنيهم وفقيرهم يقومون بعملية الغزل، أما النساء فينسجن في البيوت[(٤)].

وكان لإقبال الحجاج على شراء المنسوجات القطنية في أثناء توجههم للبقاع

---

(١) لودفيكو فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٩،٢٨.

(٢) سماح السلاوي، الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، ص١٣١.

(٣) نزهة الأنام، ص٣٦٢.

(٤) العملة، نيابة دمشق، ص١٨٧.

المقدسة تأثير كبير في تصاعد نمو المنطقة اقتصادياً؛ مما ساعد على انتشار زراعة القطن خلال عصر المماليك لرواج هذه الصناعة[١].ويصف فريسكو بالدي Frescobaldi الذي زار دمشق سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م القطن المصنع فيها بقوله: "وهناك كميات كبيرة من الأقطان، من أجمل ما في العالم، بحيث لو شاهدها أحد الناس وهو لم يكن خبيرًا، لحسبها حريرًا لما عليه من النعومة واللمعان والرقة والجمال"[٢].

وهذا أيضًا فتح أبواب العمل أمام كثير من المحتاجين من الصُّناع والحرفيين نتيجة ازدهار الحركة الاقتصادية، ويؤكد ذلك الرحالة بورخارد حين وصف مصانع النسيج في طرابلس التي يعمل فيها نساجون يصنعون الأقمشة الحريرية والكتانية العالية الجودة[٣].

وقد أنتجت بلاد الشام في العصر المملوكي أكثر من تسعين نوعًا من أنواع الأنسجة، عشرون من القطن، وعشرون من الكتان، وأربعون نوعًا من الحرير، وعشرة من أنواع القصب المختلفة[٤].

فتفنن الصُّنَّاع في عملهم حتى طار اسم دمشق في الآفاق ووصف الرحالة فريسكو بالدي Frescobaldi ، مدى التقدم الذي وصلت إليه دمشق في صناعة النسيج بقوله: "إن ما يصنع في دمشق من أي نوع كان، كبيرًا أو صغيرًا، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريرية أو القطنية، أو الكتانية"[٥]. حتى صارت صناعات دمشق من النسيج تُصدَّر إلى الأسواق الفرنجية، وأكسبها سمعة واسعة من حيث جودها، ودقة نسجها، خاصة الحرير[٦].

---

(١) علي السيد، القدس، ص١٦٥.

(٢) Frescobaldi 182 نقلاً عن العملة، نيابة دمشق، ص١٨٨.

(٣) بورخارد من جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥م، ص٥١.

poloner, Description of the Holy Land 1421 ,trans by Aburey Stewart , in P.P.T.S , vol 6 , London , 1894 ,p.330.

(٤) Ziadeh 132-133 نقلاً عن العملة، نيابة دمشق، ص١٨٦.

(٥) Frescobaldi 142 نقلاً عن العملة، نيابة دمشق، ص١٨٦.

(٦)نيقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦م، ص١٣٤.

توافر المواد الغذائية وتنوّعها:

يقول الحميري عن أهل دمشق: "وأهلها في خصب أبدًا، وهي أعز البلاد الشامية وأكملها حسناً"[١]. فمن ناحية الزراعة اشتهرت تلك البلاد عامة ودمشق خاصة بكثرة حاصلاتها ومنتجاتها وجودة أصنافها، ويشهد على ذلك الرحالة الذين زاروا البلاد في العصر المملوكي، فقد أشار ياقوت الحموي إلى أن بدمشق "فواكه جيده فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد من مصر إلى حران وما يقارب ذلك فتعم الكل"[٢].

فتوفر لأهل الشام باب واسع من الثمار والخضار، منها ما يؤكل طازجًا، وبعضها يمكن تجفيفه وحفظه لفترة طويلة خارج موسمه، وأهل الشام تعودوا أكل الثمار صيفًا وشتاءً، لا يملون من ذلك، فالفواكه عندهم كالأدم، وصحّت أبدانهم عليها[٣].

فعلى سبيل المثال يذكر أن العنب خمسون صنفًا، منه كان يزرع في غوطة دمشق[٤]. فكان جزء من العنب يؤكل طازجًا، والجزء الآخر يتم تصنيعه إلى دبس أو زبيب[٥]. وكانوا يقومون بتجفيف أصنافاً من الخُضَر التي تُزرع في الصيف، وبعضها يُخلل لاستهلاكه في غير مواسم نضجه، مثل الملوخية والبندورة والفاصوليا وغيرها، ويتم التخليل بحفظ الخضار بالملح[٦].

إلى جانب توافر الغذاء الرئيس المتمثل في القمح والحبوب والغلال، فقد اعتمد سكان الشام على الحبوب في غذائهم، فكان من تأثير تلك الرعاية انتشار المطاحن، إذ

---

(١) الروض المعطار، ص٢٤٠.

(٢) معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٩.

(٣) ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ٨٨١.

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٥٥.

(٥) صالح محمود وهبي، التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين العاشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١١٧-١١٨، كانون الثاني- حزيران لعام ٢٠١٢، ص٢٢٨؛ محمد أحمد زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٢٠٨.

(٦) وهبي، التطور الزراعي الصناعي، ص٢٣٠.

كانت تطحن الحبوب كالشعير والذرة، وخاصة القمح، والقمح هنا من النوع الممتاز، الذي يصنع منه الخبز والكعك على شكل أطواق كبيرة يمكن حفظها لفترة طويلة من الوقت[(١)].

وذكر البدري حادثة تدلل على الرخاء الذي كان يعيشه أهل دمشق فيقول:"يحكى عن ابن الصائغ الحنفى[(٢)] أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الأبيض)[(٣)] عند الأمير مجير الدين ابن تميم[(٤)] ونهر ثورا[(٥)] يمر بداره فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما أعجبه، ثم التفت لابن تميم و قال له: أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة.... أيكفيكم فلا تشرون شيئًا فقال له: نعم ونبيع أيضًا. فقال ابن الصائغ: وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان؟ قال له ابن تميم: إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه فيلقيها النسيم عندما تشتمل الأغصان، وأما البساتنة إنهم يضعون فواكه مجموعة علي أبواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ

---

(١) الفارس، دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة: أحمد الإيبش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م، ص٢٥٥؛ وهبي، التطور الزراعي الصناعي، ص٢٢٨.

(٢) **ابن الصائغ الحنفي**: الإمام العالم العلامة شمس الدين ، الشهير بابن الصائغ الحنفي، درّس بجامع ابن طولون بالقاهرة. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٣٨.

(٣) **الجسر الأبيض**: كان فوق نهر ثورا في ساحة الجسر الأبيض الحالية، والتي تحمل الاسم نفسه، بين جادة بستان الرئيس وبداية جادة العفيف، وقد اختفى الجسر بعد تغطية النهر في هذا الموضع. انظر: قتيبة الشهابي، ج١، ص١٤٠.

(٤) **الأمير مجير الدين ابن تميم**: مجير الدين بن تميم الحموي الدمشقي، الأمير سبط ابن تميم،، كان من العقلاء الفضلاء الكرماء، توفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٤٩،١٤٨؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٤٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٦٠١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٨٩.

(٥) **نهر ثورا**: نهر عظيم بدمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٨٦؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج١، ص٣٠١ .

بها ويحتاج إلي شيء فيأخذه من الفقراء و المساكين."[١].

ويسترسل البدري في الحديث، ويخبرنا عن خيرات دمشق على الفقراء فيقول: "وأخبرت فى القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله[٢] على رأسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار من غير أن يتناول بيده شيئاً وفي البساتين من يزرع أشجارًا للفقراء يعرفوها بالتكرار، وغالب ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها"[٣].

من خلال ما سبق نستشف عدة مصادر توافرت للفقراء لكي يحصلوا على طعامهم:

- ما يسقط في الأنهار من ثمار متنوعة بسبب اشتباك الأشجار و انحناء أغصانها
- ما يتركه البساتنة من فواكه مجموعة على أبواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلي شيء من الفقراء والمساكين.
- منهم من يسير في طرق البساتين فيجمع ما سقط من الأشجار من ثمار.
- ولا نندهش عندما نجد في مجتمع الشام الذي عُرف بالتكافل والرحمة بين أفراده من يزرع أشجارًا للفقراء يعرفونها بعلامة معروفة بينهم، و غالب ما يزرع من هذه الأشجار علي الطرقات ليسهل للمحتاجين تناولها .

وخلاصة ما ذكر آنفا أن الزراعة كانت تؤمِّن لأهل الشام كامل حاجاتهم فتحدث عن ذلك محمد كرد علي في هذا الصدد فقال:"لو كان عند الغوطيين الحديد والفحم الحجري، لما احتاجوا إلى شيء في زراعتهم وصناعتهم، فهم يستخرجون الزيت من زيتونهم، والدبس والنبيذ والجلاب من عنبهم، والعصير والنقوع (قمر الدين) من مشمشهم، والعطور من زهرهم، والصابون من زيتهم، والأجبان والسمون من حليب

---

(١) نزهة الأنام، ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) **مكتله**: المكتل بكسر الميم الزبيل الكبير، قيل إنه يتسع لخمسة عشر صاعًا، وهي القطعة المجتمعة من الصمغ وغيره، والكتال أيضًا: المؤونة. انظر: الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص٢٣٥.

(٣) نزهة الأنام، ص٣٢٤.

أبقارهم وماعزهم وأغنامهم، وثيابهم من صوفهم وحريرهم"[١].

انتشار الأسواق الرائجة في مختلف الصناعات:

أشاد كثير من الرحالة والمؤرخين بمدى التقدم الاقتصادي الذي وصلت إليه الأسواق في بلاد الشام، والذي يدل على مدى الاهتمام والعناية التي أولاها سلاطين المماليك لازدهار البلاد وتنميتها. فكانت تلك الأسواق تخضع لرقابة الدولة، فلكل سوق من الأسواق في أي مدينة شيخ، وهؤلاء الشيوخ كانوا يعينون من قبل نائب السلطنة في المدينة، ويعاونه رئيس وأمين صندوق وكاتب، وهم يتعاونون معه على إدارة الطائفة[٢]. فكانوا مسئولين عن النظام ومنع الاحتيال[٣]، كذلك كان كل شيخ منهم مسئولاً عن أبناء حرفته، وهو المسئول عن رعاية المرضى والفقراء من أبناء حرفته، وتحديد أجورهم، وتحديد مواصفات كل سلعة ومستوياتها، كذلك يحدد سعرها، وكان الشيخ لا يُعْزَل ويبقى في منصبه إلى أن يستقيل أو يموت[٤].

وكان لكل حرفة مُعَلِّم[٥] ينتخبه أهل الحرفة ممن اشتهر بحسن الأخلاق وامتاز بمعرفة الحرفة، وعلى علاقة طيبة مع الناس والسلطة المملوكية، وهو إمام في الصنعة ومهمته فض المشكلات بين أبناء الحرفة الواحدة والوساطة بينهم وبين السلطة المملوكية[٦].

---

(١) غوطة دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٤م، ص٢٥.

(٢) أحمد رمضان، المجتمع الشامي، ص ١١٣.

(٣) السيد، القدس، ص٢١١؛ مبارك الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٤٧.

(٤) إلياس القدسي، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، المجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن، ليدن، ١٨٨٣م، ص ١٨ــ ٢٨؛ فريال بدوي يوسف الزربا، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٤٠٠هــ/ ١٩٨٠م، ص١٦٥.

(٥) **معلم**: لقب من أرفع الدرجات، أطلق منذ بداية العصر الأيوبي على أرباب المهن من الحدادين والنجارين ومن في حكمهم. انظر: مصطفى الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٤٠١.

(٦) تيسير خليل محمد الزواهرة، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق (١٢٥٥ــ١٢٨٢هــ/ ١٨٤٠ ــ١٨٦٤م)، جامعة مؤتة، الكرك، ١٩٩٥م، ص٢٣،٢٢؛ للمزيد يُنظر: القدسي، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية.

ويتدرج الحرفيون بالحرفة بسلم وظيفي يبدأ من المبتدئ[١]، فيترفع إلى رتبة صانع، فمعلم، وكل أبناء حرفة لهم مكان خاص بهم في الأسواق، فتجد النجارين لوحدهم، والحدادين كذلك، والنحاسين وصانعي الأحذية والملابس والنساجين والصاغة وغيرهم من أصحاب الحرف، وكلهم يعملون جنبًا لى جنب مع أبناء حرفتهم[٢].

فضلاً عن اهتمام سلاطين المماليك بالمؤسسات التي تتعلق بالأسواق، كالخانات والقياسر والفنادق، واهتمامهم بالحياة اليومية لأهل السوق كبناء سقوف للأسواق بالعقود الحجرية لحماية الناس خاصة في الشتاء من سقوط الأمطار؛ ففي عهد السلطان الأشرف قايتباي رُمِّمَ سوق الطباخين بالقدس في سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م، فانتفع للناس بذلك في زمن الشتاء[٣].

وهذا ما أثار إعجاب الرحالة من المسيحيين في كتابتهم كالرحالة (كازولا) الذي أشاد بالأسواق في فلسطين بقوله: "ومما أدهشني حقًّا مشاهدة الأسواق، عبارة عن شوارع طويلة مسقوفة بعيدة، وعلى جانبيها الدكاكين المليئة بالمتاجر والبضائع المختلفة التي يقبل الناس على شرائها"[٤].

وتميزت الأسواق أيضًا بتعدد الأنشطة الاقتصادية، حيث كان يسمى كل سوق باسم النشاط الذي يمارس فيه، فعندما زار الرحالة اليهودي (عوبديا) مدينة القدس قال عن أسواقها: "طويلة من أجمل ما رأيت، وكأنما لم أرَ أبدًا بهاءً يماثل بهاءَها من قبل....وتضم بضائع من شتى الأنواع، وهي مقيمة إلى محلات بيع مختلفة حيث الدكاكين الخاصة بالتجار ودكاكين التوابل وأسواق بيع الخضار، وفي إحدى هذه الأسواق كان

---

(١) **المبتدئ:** وهو الولد الحديث السن، الداخل مجردًا إلى الحرفة، ويسمى الأجير ويعمل بدون أجر، إلا أن بعض يعطيه مبلغًا بسيطًا في الأسبوع حسب مهارته. انظر إلياس: القدسي، نبذة تاريخية، ص١٦،١٥.

(٢) البدري، نزهة الأنام، ص ٦٢-٦٣؛ علي السيد، القدس، ص٢١١.

(٣) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٠٤.

(٤) Newwtt: Gasola, pilgrims p:251 نقلاً عن السيد، القدس، ص٢٠٤.

الطعام مطهيًا وكذلك يباع الخبز"[١].

وانتشرت الأسواق أيضًا في القرى فلم تكن حكرًا على المدن، ويؤكد ذلك ابن بطوطة الذي وصف إحدى قرى دمشق بقوله: "أكثر قرى دمشق فيها الحمامات، والمساجد الجامعة، والأسواق، وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم"[٢].

ولقد أشير إلى سوق البيمارستان بدمشق، وقد عني هذا السوق ببيع الملابس القديمة، وكان قرب القلعة"[٣]؛ مما يؤكد أن مثل هذه الأسواق كانت تخصص لذوي الدخل المحدود من الفقراء.

و لم تكن حركة السوق تشمل فقط أصحاب الحوانيت، بل تضم الباعة المتجولين الذين لا يملكون مالاً كافيًا لامتلاك مكان خاصٍّ بهم، كان أكثرهم يفترشون الأرض في الأسواق ببضائعهم، وبعضهم الآخر يتجولون بما يحملون من سلع وبضائع في شوارع المدن وحاراتها، وكانوا يبيعون مختلف البضائع من المأكولات والمشروبات والفواكه والخضروات، كباعة الخبز الذين يعرضون الخبز طازَجًا وساخِنًا على ألواح خشبية كبيرة مرتفعة عن سطح الأرض، والسقائين الذين يحملون قراب الماء إلى المنازل[٤]، وكباعة الفول المدمس الذين يتجولون في الصباح في شوارع دمشق[٥].

توافر فرص العمل:

تُعَدُّ الأوقاف موردًا اقتصاديًّا مهمًّا في العصر المملوكي، الذي يمثل العصر الذهبي لنظام الأوقاف؛ فقد وفرت مؤسسات الأوقاف الوظائف لمختلف فئات المجتمع المحتاجة. ويشير ابن أيبك الدوادار إلى ذلك قائلاً: "وأما الخوانق والرباطات والزوايا وكذلك المساجد فلا تحصى كثرة، وجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء، والفقهاء،

---

(١) Newwtt: Gasola, pilgrims p:236-237 نقلاً عن السيد، القدس، ص١٢٠.

(٢) الرحلة، ج١، ص١١٧.

(٣) ابن عبد الهادي، نزهة الرفاق، ص٢٦.

(٤) السيد، القدس، ص٢١١، ٢١٠؛ أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية، ص١٥٢.

(٥) الزربا، الحياة الاجتماعية، ص٣١٥.

والمدرسين والمحدثين والطلبة، والمؤذنين والقوام والفقراء والمساكين؛ وكل من هؤلاء فله المقرر من ساير ما يحتاج إليه، مما أُوقف عليهم من البلاد والضياع والأملاك والحوانيت"[١].

فلم يقتصر دور الأوقاف على الإنفاق على توفير الاحتياجات المادية من طعام وكسوة فقط، بل تعدى ذلك ليشمل توفير فرص وظيفية برواتب معلومة لكثير من المحتاجين، وهذا أمر واضح وجلي لكل من يتصفح وثائق الأوقاف، فما من وثيقة إلا قد فصلت الوظائف التي تم تعيينها والمعلوم المقرر لها، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

في عهد برسباي تولى القاضي عز الدين خليل السخاوي[٢] نظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل، فعني بترتيب نظامهما ورتب الوظائف فيها، وعمر الأوقاف الموقوفة عليها ونماها، وجعل المؤذنين ثلاث نوبات بعد أن كانوا نوبتين[٣].

وأنشأ الأمير نجم الدين فيروز[٤] قبل سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م مسجدًا في صفد، وقد كتب عليه: " بسم الله. أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك والتربة التي بداخله العبد الفقير إلى الله نجم الدين فيروز الملكي الناصري ووقف عليها عشرة نفر من إمام ومؤذن وقراء"[٥].

لقد توافرت في بلاد الشام الأسس الاقتصادية المهمة، فأصبحت فرص العمل متاحة ووسائل المعيشة ميسّرة من جميع الوجوه لكثير من الغرباء الفقراء ممن انقطعت بهم السبل، فوجد فيها ملاذًا وبيئة توفر فرص العمل حسب كل شخص ومؤهلاته. ويصف الإربلي حاله عندما وصل إلى دمشق فيقول: "إني حين وردت دمشق المحروسة وطال مقامي بها

---

(١) الدوادار، كنز الدرر، ج٩، ص٣٩١.

(٢) **السخاوي:** خليل بن أحمد بن علي غرس الدين السخاوي ثم القاهري، تولى نظر القدس والخليل، مات سنة ٨٤٧هـ/١٤٥٠م.انظر: المقريزي، السلوك،ج٧، ص٤٥٣؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٢-١٩٣؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٧، ١٣٢، ٢٧٦.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٧، ص٤٥٣؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٩٧، ١٣٢، ٢٧٦.

(٤) **الأمير نجم الدين فيروز:** فيروز بن عبد الله الصفدي، أحد الأمراء بصفد كان شجاعًا، مات بدمشق بطالاً سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٧٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٧٤.

(٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٤، ص٧٥؛ مبارك الطراونة، مملكة صفد، ص٢٦٠.

شاهدت بلدًا كثير المحاسن، كامل الأوصاف، قريبًا من الاعتدال يجد الإنسان فيه كل ما يحتاج إليه في انتظام مصالحه لسهولة موجوده"[١].

وقد أوضح ابن جبير الأعمال المتوافرة للغرباء من الفقراء ممن تدخل في نطاق الخدمة فقال: "فالغريب المحتاج هنا، إذا كان على طريقة الخير، مصون محفوظ غير مريق ماء الوجه، وسائر الغرباء ممن ليس على هذه الحال، ممن عهد الخدمة والمهنة، يسبب له أيضًا أسباب غريبة من الخدمة. أما بستان يكون ناطورًا فيه، أو حمام يكون عينًا على خدمته، وحافظًا لأثواب داخليه، أو طاحونة يكون أمينًا عليها، أو كفالة صبيان يؤديهم محاضِرَهم ويصرفهم منازَلهم، غير ذلك من الوجوه الواسعة"[٢].

وعرف عن الأندلسيين عملهم في حراسة البساتين والعمل فيها، إذا ما أقفلت الأبواب في وجوههم في ميادين أخرى[٣]. وكثير ممن امتهن هذه المهن لم يكن يملك خيارًا آخرَ بسبب العوز والحاجة.

ومن خلال تراجم كثير من الوافدين على بلاد الشام نجد أن منهم من تحسنت أوضاعه الاقتصادية، فعلى سبيل المثال نجد عمر بن سعيد التلمساني أبو حفص خير دليل على أن الفقر لم يكن عائقًا لكي يحصل الشخص على مكانة مرموقة في الدولة؛ فبعد كان أمينًا لطاحونة أشنان بدمشق لمدة طويلة من الزمن إلى سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥٢م تقلد بعدها منصب قاضي قضاة المالكية بحلب، حيث بقي فيه حتى وفاته سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٦م، وخلف أموالاً كثيرةً[٤].

ومن امتلك حرفة استطاع من خلالها أن يكون له عملاً ينجح من خلاله أمثال

---

(١) مدارس دمشق وحمامتها ، م٢٢، ج٧، ج٨، ص٢٤١.

(٢) رحلة، ص١٩٥؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١١٩.

(٣) علي أحمد ، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية ق٥هـ وحتى نهاية ق ٩هـ ، دمشق ، دار طلاس، ط١، ١٩٨٩م، ص٢١٨، ٢٢١.

(٤) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ١٩٦.

عيسى بن علي بن عيسى الأندلسي الذي حل نزيلاً بمدينة دمشق في النصف الأول من القرن الثامن، فعرف بمهارته في صباغة الحرير وتلوينه؛ مما جعله مصدرًا لتعليم هذه الحرفة الصناعية واشتهارها[١].

والشيخ علي الفحام المغربي (ت ٨٨٦هـ/١٤٨١م) الذي استطاع أن يمتلك دكانًا في محلة باب الفراديس بمدينة دمشق، وأعده لبيع الحطب والفحم[٢]. واختياره لتجارته هذه تعتبر نوعًا من الذكاء الاقتصادي، فهو هنا تلمَّسَ حاجة الناس للحطب والفحم للتدفئة ولأعمال الطبخ والاغتسال.

ولم يكن المجال مفتوحًا للغرباء من الوافدين في المجالات الاقتصادية فقط، بل اتسع لهم المجال لتقلد كثير منهم وظائف، دينيةً وإداريةً إلى جانب أهل البلد. وكان على رأس تلك الوظائف منصب قاضي القضاة المالكي منذ إنشائه خلال القرن السابع الهجري، وقد تداول على هذه الوظيفة عدد من المغاربة الذين تحلى أغلبهم بالنزاهة والاستقامة في عملهم القضائي؛ على سبيل المثال القاضي المالكي وهو أبو محمد عبد السلام بن علي بن عمر شيخ المقرئين الملقب بزين الدين الزواوي (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٣م)، دخل مصر شابًا فقيرًا ودرس، ثم رحل إلى دمشق حيث أنهى حياة الدرس على يد شيوخ العصر، فبرع في الفقه وعلوم القرآن واشتغل بالفتوى والتدريس حتى آلت إليه رئاسة الإقراء بدمشق، حيث تصدرها في تربة أم الصالح والجامع الأموي الكبير. ولما عرض عليه منصب القضاء رفضه ثم ألزم به، فتقلده مدة تسع سنوات على كره منه، حتى عزل نفسه واستمر بالتدريس والإقراء إلى حين وفاته رحمه الله تعالى[٣]، كان مثالاً للقاضي النزيه الورع المتعفف، وهو ما أجمع عليه مترجموه الذين وصفوه بالزهد والإخلاص والورع والتواضع، إذ كان يحمل الحاجة والحطب على يده مع مكانته، كما رفض أن يأخذ راتبًا مقابل عمله، وقد أكسبه صدقه وإخلاصه في

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٤٢.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ق١، ص٣٣.

(٣) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٥، ص ٣٣٦.

عمله ثقة الناس فيه وحبهم له، فاحتل بينهم مكانة كبيرة حيًا وميتًا؛ إذ شارك في جنازته الحافلة نائب الشام نفسه[١].

انتعاش الأوضاع الاقتصادية في موسم الحج:

من الأمور المعتادة أن تفد أعداد كبيرة من الحجاج المسلمين إلى البلاد الشام في أثناء عبورهم للأماكن المقدسة، وكذلك حجاج النصارى القادمين إلى بيت المقدس. فتُعَدُّ تلك المواسم من الأوقات التي ينتعش فيها اقتصاد بلاد الشام خاصة في بيت المقدس، فقد اعتاد الحجاج والمسافرون أن يتزودوا بما يحتاجونه إليه حيث تقام الأسواق الموسمية المرتبطة بقدوم الحجاج، والتي استفاد منها كثير من المسلمين خاصة الفقراء منهم، فقد تحدث الرحالة (فابري) بأنه قدم إليه بعض المسلمين والذين وصفهم بأنهم من الفقراء "قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار وباعوها لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بها وجعلناها فرشًا لنا"، واسترسل في حديثه بقدوم تجار من الرملة ومن القدس ودخولهم مقام إقامتهم ومعهم سلع طيبة الرائحة وعملوا أسواقًا هناك، وجلبوا معهم ماء الورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثمينًا جدًّا، وكان مع بعضهم بَلْسَم، ومع بعضهم الآخر مِسْك، وجلب بعضهم صابونًا، وبعضهم أحجارًا كريمة[٢].

ومن ناحية أخرى كان لزيارة الحجاج النصارى لبيت المقدس كل عام فوائد اقتصادية تعود على قبائل البدو الذين كانوا يقدمون خدمات الحماية والإرشاد لهؤلاء الحجاج في أثناء عبورهم خلال الصحراء في فلسطين بعد الاتفاق مع مشايخهم على المبالغ التي سيحصلون عليها[٣].

أما سكان القرى فقد كانوا يستغلون وصول الحجاج بتوفير المواصلات لهم، يقول الرحالة (فابري) إنه بمجرد وصول الحجاج إلى يافا، وما أن يسمع سكان القرى المجاورة بذلك حتى يحضرون كثيرًا من الحمير، حيث يحضر الرجل منهم سبعة أو ثمانية حمير، وأن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٧.

(٢) فابري، رحلة،ج٣٨، ق١، ص٣٣٧،٣٣٦.

(٣) السيد، القدس، ص٢١٣.

السفينة التي ركبها كانت تقل أكثر من مائتي من الحجاج[١].

وكانوا يستأجرون بعض الخيام من الأهالي ليقيموا فيها بعض الوقت حتى تحميهم من حرارة الشمس، وهذا ما يؤكده دى لابروكير الذي زارها سنة٨٣٧ﻫ/١٤٣٣م [٢].

ويحصل بعضهم على مبالغ مالية من الحجاج مقابل ما يقدمه من خدمات، سواء كان في الترجمة أو توفير أشخاص يقومون يطهون، ويسقون الماء لهم، ونحو ذلك، ومثل هذه الخدمات كانت توفر لهم فرص عمل طيلة الموسم، ولعل كثرة المبالغ التي يصرفها الحجاج المسيحيون هي التي دفعت الرحالة كازولا إلى القول إنه على كل حاج من الحجاج أن يحمل معه ثلاث حقائب: حقيبة من الصبر، وحقيبة من النقود، وحقيبة من الإيمان[٣].

فمن نصوص الرحالة الغربيون يظهر لنا عدة نقاط مهمة نوجزها فيما يلي:

- ارتباط الأسواق الموسمية بقدوم الحجاج، خاصة الحجاج النصارى، حيث يكثر وجودهم في موسم الحج، ويفد إليهم التجار من معظم بلاد الشام.
- تنوُّع البضائع التي تُباع للحجاج من الحلي والحجارة الكريمة والقماش الدمشقي والحرير[٤]، وإقبالهم على شراء كثير من الحاجات التذكارية يصطحبونها معهم إلى الغرب لما لها من قدسية عندهم[٥].
- كان على هؤلاء الحجاج أن يتزودوا بالماء والأطعمة المطهية والفاكهة يوميًّا لسد احتياجهم طوال فترة إقامتهم؛ مما كان له أكبر الأثر برواج المواد الغذائية من المحاصيل، وأهمها القمح حيث تميّزت الحقول في فلسطين بأنها من أخصب الأراضي الزراعية[٦]،

(١) فابري، رحلة، ج٣٨، ق٢، ص ٣٥١؛ عطا الله، نيابة غزة، ص١٠١،١٠٠.

(٢) السيد، القدس، ص٢١٦.

(٣) Newwtt: Gasola ,pilgrims p:225 نقلاً عن السيد، القدس، ص٤٧١.

(٤) فابري، رحلة، ج٣٨، ق٢، ص٤٦٢؛ السيد، القدس، ص٢٠٩.

(٥) أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية، ص١٣٢.

(٦) السلاوي، الأوضاع الحضارية، ص ١٢٦.

ففي يافا كان يزرع القمح مرتين في العام[١] .

- ما كان يجنيه الباعة من الفقراء من الحجاج من أموال في تلك المواسم كانت مصدرًا لرزق لكثير منهم، بالإضافة إلى توافر فرص عمل لكثير من الفقراء في تلك المواسم، فزيارة الحجاج كانت مصدر رزق لكثير من البدو وسكان القرى.

وفضلاً عن ذلك تنافس السلاطين والأمراء والقادرون من أهل الخير، على تقديم الصدقات والهبات في موسم الحج تعظيمًا لهذه الشريعة؛ مما كان له أبلغ الأثر في كثير من الفقراء والمحتاجين ولقد برز في عصر المماليك البحرية عدد غير قليل من النسوة اشتهرن بالبِر والإحسان، أمثال: يلقطو بنت ابغا من ربات البر والإحسان، التي حجت سنة ٧٢٣ هـ/ ١٣٢٣م وتصدقت في الحرمين بثلاثين ألف دينار، وتصدقت في طريقها بدمشق صدقات عظيمة، ولما دخلت دمشق تلقاها تنكز وبالغ في إكرامها[٢].

وما قامت به سورباي زوجة أزدمر نائب حلب من بذل كثير من الخير في الركب في سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م[٣].

(١) السلاوي، الأوضاع الحضارية، ص ١٢٧.

(٢) **يلقطو بنت ابغا**: الخاتون عمة غازان، حسن إسلامها، وكان زوجها يقال له (عرب طي)، ولما قتل ركبت بنفسها فقتلت قاتله، وخطبها الأفرم نائب دمشق، فنهرت رسله، وامتنعت بعد أن بذل لها حمص مهرًا لها. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢١٣.

(٣) **ازدمر ابن شاهين جقمق**: قريب الأشرف قايتباي، ممن شهد وقعة الرها وقطع أنفه وشفته. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٧٥.

المبحث الثالث

الآثار الأمنيـة

الأمن في اللغة: هو سكون القلب واطمئنانه بعدم وجود مكروه وتوقعه. قال الراغب: «أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر. ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان »[(١)].

الأمن في الاصطلاح: تعددت التعريفات الاصطلاحية للأمن باختلاف المنظور الذي ينظر إليه الباحثون عند تعريفهم للأمن[(٢)]، ومن تلك التعريفات:

عرَّفه الجرجاني بأنه: «عدم توقع مكروه في الزمان الآتي »[(٣)]. ويمكن تعريف الأمن بالنظر إلى مقاصد الشرع بأنه: الحال التي يكون فيها الإنسان مطمئنًا في نفسه، مستقرًا في وطنه، سالمـــًا من كل ما ينتقص دينه، أو عقله، أو عرضه، أو ماله[(٤)].

فالحاجة إلى الأمن أساسية لاستمرار الحياة وديمومتها وعمران الأرض التي استخلف

---

(١) ابن فارس، أبي الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج١، ص١٣٤،١٣٣، الأزهري، محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، تهذيب اللغة، تح، محمد عوض مرعب،٨ج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٣٦٦ وما بعدها؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٦؛ الرازي، مختار الصحاح، مادة(أمن)، ج١، ص١١؛ الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح، صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٩٠؛ الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٥، ص ٣٦٦، ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٦.

(٢) حيدر عبد الرحمن الحيدر، الأمن الفكري في مواجهة المؤثرات الفكرية، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م، ص٣١٠ ــ ٣١٣ .

(٣) الجرجاني، التعريفات، ص٥٥؛ المناوي، التعاريف ، ص٩٤ .

(٤) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١، ص١٣٣؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٦؛ الرازي، مختار الصحاح، مادة (أمن)، ج١، ص١١؛ الجرجاني، التعريفات، ص٥٥.

الله تعالى عليها بني آدم، وانعدام الأمن يؤدي إلى القلق والخوف، ويحول دون الاستقرار والبناء، ويدعو إلى الهجرة والتشرد، وتوقف أسباب الرزق؛ مما يقود إلى انهيار المجتمعات ومقومات وجودها.

ومجالات الأمن واسعة؛ فمنه الأمن الفكري، والاجتماعي والاقتصادي والصحي وما إلى ذلك. ولعلنا نرصد هنا أهم الخدمات الأمنية التي قُدمت للفئات المحتاجة والتي نتجت عن رعايتهم وإحاطتهم بالأمن بمختلف أنواعه.

فمن أنواعه: **الأمن الفكري**(١)، والذي يؤدي الإخلال به إلى تفرق الأمة وتشرذمها شيعًا وأحزابًا، وتتنافر قلوب أبنائها، ويجعل بأسهم بينهم، فتذهب ريح الأمة، ويتشتت شملها، وتختلف كلمتها. ولقد نهى الله تعالى عن الاختلاف في محكم التنزيل، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

ولا شك في أن من أعظم أسباب اختلاف القلوب وتفرق الصفوف هو الخلاف العقدي، ولذا أولى سلاطين المماليك والعلماء عنايةً كبيرةً وجهوداً مضنية لقمع كثير من تلك البدع والانحرافات التي تطفو على سطح المجتمع، وحرصوا على نشر الوعي الديني من خلال عدة طرق، يقول العمري في هذا الصدد: "وفي هذه المملكة قائمة شعائر الإسلام بالمساجد والخطابات في جميع القرى"(٣).

فالمسجد هو المركز الأول لنشر العلوم الثقافية الإسلامية إلى جانب كونه مكانًا للعبادة، وكانت علوم القرآن والحديث والفقه تُدرس في المساجد بصورة رئيسة(٤).

---

(١) الأمن الفكري عُرف بأنه: سلامة فكر الإنسان وعقله وفهمه من الانحراف والخروج عن الوسطية، والاعتدال، في فهمه للأمور الدينية، والسياسية، وتصوره للكون بما يؤول به إلى الغلو والتنطع، أو إلى الإلحاد والعلمنة الشاملة». سعيد بن مسفر الوادعي، الأمن الفكري الإسلامي، مجلة الأمن والحياة، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، ع ١٨٧، ١٤١٨هـ، ص٥٠.

(٢) آل عمران: ١٠٥.

(٣) مسالك الأبصار، ج٣، ص٤٤٨.

(٤) القاياتي، محمد عبد الجواد (ت١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص١١٣؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ج٤، ص٤٢٢،٤٢١.

وحركة التدريس تتم في كل أيام الأسبوع، وأهم تلك الحلقات التعليمية ما كان يُعقد يوم الجمعة، وكان يُلقي فيها الفقهاء والمحدثون والقُرَّاء وغيرهم من العلماء[1].وهذا بدوره ساهم في نشر الوعي الديني والثقافي بين الطبقات الدنيا من المجتمع؛ مما كان له أكبر الأثر في تحقيق الأمن الفكري في المجتمع من البدع والانحرافات.

أما **الأمن النفسي**، فإن انعدامه يؤدي إلى القلق والخوف ويحول دون الاستقرار، وأن يكون العبد موصولاً بربه على وجه حسن، ولا يحصل كل ذلك إلا إذا كانت النفوس مطمئنة[2]، ومن أهم صور الأمن النفسي هو شعور الإنسان بالاطمئنان حال ممارسة شعائره الدينية، فوجهت كثير من ثروات الدولة إلى العناية بالأماكن المقدسة في فلسطين، من ترميم وتجديد، من ذلك ما حفظته المصادر عن جهود الظاهر بيبرس بتجديد ما كان قد تهدم في قبة الصخرة، وجدد في السلسلة وزخرفها، وأنشأ قلعة، وبني جامعًا وأوقف عليه كثيراً من الأوقاف، وبنى في الرملة جامعًا، وبنى عدة جوامع ومساجد بساحل فلسطين، وأنشأ كثيراً من الجوامع في صفد، فضلاً عن صهاريج المياه والحمامات والربط[3].

وحرص سلاطين المماليك كذلك على زيارة الأماكن المقدسة، فزار السلطان الأشرف قايتباي المحمودي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م، الخليل وبيت المقدس، وصحبه كثيرٌ من المشايخ والفقهاء، وجلس في المسجد الأقصى، وقرأ صحيح البخاري مع فقهاء مصر والشام الحاضرين معه، وأنفق في القدس والخليل الأموال الجليلة، وتصدق بستة

---

(١) السبكي، معيد النعم، ص٢٤؛ للمزيد عن دور المسجد، انظر: عبد الله قاسم الوشلي، المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٧ـ٢٧.

(٢) انظر: محمد يوسف الشريف، الأمن النفسي، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط٢، ١٤١٤هـ، ص٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٨٩؛ شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٢٣،١٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٣٢ـ٥٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩٤؛ العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص١٠٢، ج٢، ص٦٩ـ٨٧.

آلاف دينار، وأزال ما كان فيها من مظالم[١].

أما في مجال **الأمن الاجتماعي** فكانت جهود سلاطين المماليك واضحة من خلال اهتمامهم الشديد بالوقف الإسلامي[٢]، حيث بلغت الأوقاف المحبوسة على المدارس والمساجد والتعليم في عهد الناصر محمد مئة وثلاثين ألف فدان في الشام وحدها، وحرص المماليك على تنوع مصادر الوقف حتى يبقى رافدًا قويًا يعزز وجود المؤسسات الدينية بأنواعها؛ لذلك حرصوا على الإكثار من وقف الحوانيت والمزارع والطواحين والخانات والأموال والضياع وغيرها؛ تقربًا لله. وحذا حذوَهم نساؤهم والأمراء والأعيان والتجار وغيرهم، ففي عصر الناصر قلاوون بلغت الأوقاف في الشام ألف ألف دينار[٣].

فوجود مثل هذه الأوقاف الضخمة التي يديرها الفقهاء والعلماء، والتي شكلت منظومة اقتصادية لدعم المجتمع المملوكي، فهذا بدوره يحقق الأمن الاجتماعي بوصول ريع الأوقاف إلى مستحقيها، وإغاثة جماهير عريضة من الفقراء والمعوزين، وكانت سببًا لاستمرار رعاية الفئات المحتاجة طوال العصر المملوكي، سواء كان من سلاطين المماليك أو من أمرائهم أو من أهل الخير وتوفير حياة كريمة لهم مثل باقي أفراد المجتمع، وهذا يسد ثغرة اجتماعية كان سيعاني منها المجتمع المسلم في حالة إهمالها.

ولعل رعاية الأيتام صورة من صور الأمن الاجتماعي التي لم تتوقف طوال العصر

---

(١) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣١٤ـــ٣١٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١١٢ .

(٢) يذكر الغوانمة أن عدد الوثائق في المتحف الإسلامي ٧٥٠ وثيقة معظمها وقفيات وقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية في بيت المقدس والخليل فقط، فلنا أن نتصور العدد الإجمالي الذي وصلت إليه الوثائق لمدن الشام كافة؛ مما يدل على مدى الرعاية التي تمتع بها كثير من الفئات المحتاجة. انظر: الغوانمة، بيت المقدس، ص١١٢.

(٣) منصور إحميد سالم الصوفي، الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام (٦٤٨ـــ٩٢٢هـــ/ ١٢٥٠ـــ١٥٥٨م)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ والحضارة، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـــ/ ٢٠١٠م، ص٤٣،٤٤. وانظر: شافع بن علي، الفضل المأثور في سير السلطان الملك المنصور، تح: عمر بن عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٦٨؛ الحجي، صور من الحضارة، ص١٣٢.

المملوكي على تعليمهم وتوفير المأكل والكسوة والمساعدات المادية لهم؛ فكل تلك السبل الممهدة كان لها أكبر الأثر النفسي في حياة اليتيم؛ مما أنشأ جيلًا قادرًا رغم اليتم والفقر أن يشق طريقه نحو بناء مستقبله. وقد ذكر كثيراً عن عناية المماليك ببناء مكاتب السبيل لأيتام المسلمين، وحرص السلاطين على الإشراف عليها بأنفسهم، من أجل تربية أيتام المسلمين تربية إسلامية صالحة،كسبًا للأجر والثواب[1].

ومن خلال دراسة سير كثير من العلماء ممن كانوا في مناصب رفيعة في الدولة نلحظ أن منهم من كان يتيماً في نشأته؛ فوجد الرعاية والاهتمام من قبل الدولة والمجتمع؛ مما أتاح له أن يعيش حياة كريمة في ظل الدولة المملوكية. فعلى سبيل المثال لا الحصر: حياة قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مسلم الصالحي (ت٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) الذي توفي والده تاركًا ثلاثة أولاد وأمهم دون أن يترك لهم شيئًا، فلم يُعقْ الفقر طريقه في طلب العلم نتيجة السبل التي كانت مهيأة للأيتام في بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي، حيث التحق بمكاتب دمشق، وكان يحصل من المكتب على ستين درهمًا، ولما كبر اشتغل بالعلم حتى برع في الفقه والحديث، وانتشر ذكره، ثم تولى القضاء بالصالحية سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م[2].

ومن صور الأمن الاجتماعي إعمار كثير من المرافق، التي تخدم المجتمع خاصة فئاته المحتاجة؛ بتوفير الاستقرار وسبل العيش الكريمة، وهو ما ترجمه سلاطين المماليك إلى واقع ملموس، بحرصهم على توفير الخدمات الضرورية كافة للمجتمع؛ مما جعل مدن الشام في العصر المملوكي تمتاز بكثرة المنشآت الاجتماعية وتنوعها من أسبلة وحمامات وبيمارستانات، فضلاً عن كثرة المنشآت الصوفية من خوانق وأربطة وزوايا، وجميع هذه المنشآت وجدت في نظام الوقف أكبر رافد مكّنها من مواصلة رسالتها، فأصبحت مأوى

(١) الحجي، صور من الحضارة، ص١٥٣.

(٢) الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، ص٢٣٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٢٧٤؛ ابن مفلح، المقصد الأرشد، ج٢، ص٥٠٩.

لكثير من الفقراء، والعجزة، والمرضى، والمعاقين، والغرباء، وكبار السن[(١)].

وكان للأمراء المماليك دور كبير في استقرار الأمن في البلاد أمثال سيف الدين منجك[(٢)]، الذي اهتم بإصلاح القناطر ومهد السبل والقنوات والطرقات وأقام بالأماكن المخوفة الخفراء، ورتب لهم ما يكفيهم[(٣)]. والأمير سلار[(٤)] الذي أسهم ببناء الجوامع في غزة والخليل وبناء الخوانق[(٥)].

ومن سياسة المماليك العمل على الاستقرار والأمن الداخلي في المجتمع، بتفعيل الحسبة التي عدها القلقشندى ثالث وظيفة دينية مهمة في سلم الوظائف الدينية[(٦)]، لدورها الفاعل في محاربة الفساد والغش، والحث على الأخلاق وإقامة السنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أعطاها السلاطين نفوذاً كبيرًا في المجتمع لإصلاحه ومراقبته[(٧)].

فلم تغض الدولة المملوكية طرفها عن المفاسد الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع،

---

(١) السدحان، توجيه مصارف الوقف، ص١٦-١٧.

(٢) **سيف الدين منجك:** كان من أعيان الأمراء المشار إليهم والمعتمد في الأمور المهمة، معروف بين إخوته بالتبجيل والتعظيم، تنقّل في الولايات من الوزارة ونيابة السلطنة في البلاد الشامية والديار المصرية وله المآثر الحسان والصدقات والإحسان، وأوقاف على البر على اختلاف الأنواع، توفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٦م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص١٢٤،١٢٣؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤٦٢.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٨٧،٥٨٦، ٥٩٢،٥٩١؛ ابن طولون، أعلام الورى، ص٤٧ـ٤٩؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٤٦٢.

(٤) **الأمير سلار:** سيف الدين التتري الصالحي المنصوري، كان أولاً من مماليك الصالح علاء الدين بن المنصور قلاوون، ثم صار من خاصة المنصور، ثم اتصل بخدمة الأشرف وحظي عنده، وكان صديق السلطان حسام الدين لاجين، اشتهر بكثرة أمواله، وبرغم من ذلك مات جوعًا، وهو محبوس على يد السلطان الناصر قلاوون سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م. للمزيد عن ترجمته انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٣٤،٣٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٤٦٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٠٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص١٦ـ١٨.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١١٠؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨١،٨٠.

(٦) صبح الأعشى، ج٤، ص٣٨.

(٧) سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٦م، ص١٤١.

فأصدرت الأوامر والفرامانات السلطانية للحد من استفحالها. فالظاهر بيبرس عام٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، أول من حارب تلك الأمور في مدن مصر والشام، حيث أبطل الزنا وحارب البغايا، وأحرق بيوت المسكرات وأراق الخمور(١)، وأصدر مرسومًا بمنع ضمان الحشيش والخمر وأنزل العقوبة على من تعاطاها، وذلك في سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، كما أُغلقت الحانات التي كانت تبيعها وعُزِّر كل منْ وُجد سكرانًا(٢).

وما ذكره المقريزي في أحداث ٧٠٩هـ/١٣٠٩م من أن السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير المنصوري(٣) عزم على إبطال المنكرات في مصر والشام، وأمر بإهراق الخمور، وإذا علم بيتًا أن فيه الخمر إلا سكبوه وكسر ما فيه، وضرب جماعة بالمقارع حتى يدلوا على من عصر العنب أو من عنده خمر، فكتب أسماءهم، فكان فيهم عدة من الأمراء والكتاب والأجناد والتجار، وإذا ظفر بأواني الخمر كسرت، وحتى دور اليهود والنصارى سكب ما فيها من الخمور(٤).

وفي سنة ٧١٧هـ/١٣٢٠م أمر الناصر محمد قلاوون، بإبطال بيوت الفواحش وأرباب الملاهي، وأغلق الحانات، وكتب لنواب الشام بإبطال الخمور واستتابة أهل الفواحش؛ فعمل بذلك في سائر مدن الشام (٥)، وفي سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، زوجت

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٢٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٨.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٢٦٦؛ بن علي، حسن المناقب السرية، ص١١٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص١٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١،ق١، ص ٣٢٦.

(٣) **السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى:** كنيته أبو الفتح، السلطان المملوكي الثاني عشر، من أصل شركسى ومن مماليك السلطان المنصور قلاوون، تدرج في المكانة، فأصبح أميرًا ثم جاشنكيرًا، وبعد وفاة قلاوون خدم كل من ابنيه السلطانين الأشرف خليل والناصر محمد، تسلطن فترة قصيرة (٧٠٨ــ ٧٠٩ هـ/١٣٠٨ــ١٣٠٩م). للمزيد عن سيرته انظر: الذهبي، من ذيول العبر، ج٦، ص٢٢٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٢١٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٤١ــ٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢٣٢،٢٣٣؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٢٣ــ٤٣١.

(٤) السلوك، ج٢، ص٤٢٩-٤٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٨٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص١٦٦.

آلاف من الخواطئ[١].

وفي زمن الأشرف برسباي الدقماقي، تتبعت أماكن الفساد وأريقت منها الخمور الكثيرة، وشدد في المنع من عصير الزبيب، ومنع الفرنج من بيع الخمر المجلوب من بلادهم[٢].

كما أقدم أحد قضاة القدس في سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، على كسر جرار الخمر في أحد الأسواق التي اشتهرت ببيع الخمور جهارًا نهارًا ، وعزّر باعة الخمر به[٣].

وساهم العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل الشيخ ابن تيمية الذي قام بحملة تطهير لدمشق بعد وقعة غازان، بإغلاق الخمارات، وإراقة ما فيها[٤]. ومن العلماء الذين اشتهروا بهذا الجانب الشيخ أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي(ت٧٦٢هـ/١٣٧٢م)، فقد كان جريئًا على السلاطين، وأبطل عدة مكوس ومظالم كثيرة[٥].

وتمتع كثير من الفئات المحتاجة تحت مظلة القضاء في العصر المملوكي بالعدل والإنصاف؛ مما مكنهم من الحصول على حقوقهم. والأمثلة كثيرة من خلال الوثائق المقدسية حيث رفعت إحدى النساء شكوى إلى قاضي قضاة القدس الشافعي تستجير فيها من أخيها وتتهمه بأنه استولى على نصيبها من تركة والدها، وتطلب من القاضي رد حقها من الميراث[٦].

---

(١) الذهبي، دول الإسلام ، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٢٩-٤٣٠.

(٣) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ١٤٧-١٤٨.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٤٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٢٨.

(٥) **الشيخ أبو العباس الزرعي**: هو أحمد بن موسى الزرعي، كان من كبار أصحاب ابن تيمية، حتى قصده نواب الشام، وكان ينسج العبي من الصوف ويتقوّت من ذلك. للمزيد انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٨٣، ٣٨٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٢.

(٦) العسلي، وثائق مقدسية، م١، رقم الوثيقة (٢٧٨)، ص ٢١٧، ٢١٨ .

فمثل هذه الوثائق تحفظ لنا الدور الفاعل الذي أدّته الدولة المملوكية في تأمين العدل والإنصاف لفئات المجتمع الضعيفة التي وجدت في القضاء نصيرًا لها على الرغم من وضعها الاقتصادي.

وحرصت الدولة المملوكية على توفير حياة كريمة لرعاياها، بتحقيق **الأمن الاقتصادي** في البلاد. ولعل في كتب الرحالة الذين زاروا بلاد الشام خلال العصر المملوكي ما يجعلنا نلمس الوضع الاقتصادي للبلاد، فمنهم من أشار إلى ظاهرة رخص الأسعار، كالرحالة (فابري) الذي زار غزة فقال: "كل الأشياء التي يحتاجها الإنسان من أجل الحياة البشرية وافرة ورخيصة"[(١)].

ويعطينا العمري صورة عن أسعار المواد الغذائية في نيابة دمشق ومقارنتها بأسعار مصر قائلا:" أسعار اللحم بها أرخص من مصر، أما الدجاج فنظيرها، أما الأوز فأغلى من مصر"[(٢)].

ويشير القلقشندي إلى أسعار الفاكهة بقوله: "ولا خفاء في أن الفاكهة فيها أرخص من مصر بالقدر الكافي، والقمح والشعير والباقلاء نحو من سعر مصر، وذلك عند اعتدال الأسعار"[(٣)].

وفي مجال تحقيق الأمن الاقتصادي قامت الدولة المملوكية بعدة إجراءات، منها:

معاقبة المسؤولين عن ارتفاع الأسعار، كالمحتسب الذي تقع عليه مسئولية مراقبة الأسعار، ويدل ابن صصري على ذلك بقوله: "هذا جزاء وأقل جزاء من يباشر الحسبة ولا يعرف يباشرها"[(٤)].

مراقبة وتحديد أسعار بعض السلع المرتفعة، مثل الخبز في زمن الغلاء، إذ كان يصدر

---

(١) فابري، رحلة، ج٣٨،ق٤ ،ص١٢٥٨.

(٢) مسالك الأبصار، ج٣، ص٤٢٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤،ص١٨٨.

(٣) صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٨.

(٤) الدرة المضيئة، ص١١٥.

النائب أو المحتسب إعلانًا بهذا الشأن، فيحدد ثمن الخبز سواء بالرغيف أو الرطل. كما يحدد مواصفات الرغيف من حيث الجودة والنوعية. ففي أوائل سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م ارتفعت الأسعار بدمشق فكان كل ثماني أواق تباع بدرهم. كما بيعت غرارة القمح بثلاثمئة وخمسين درهمًا. الأمر الذي دفع المحتسب إلى تنفيذ أمر الحاجب بأن يكون سعر رطل الخبز الجيد بدرهم، والخبز العادي كل رطل وثلث منه بدرهم(١).

رفع المظالم والمكوس عن الأهالي للتخفيف عنهم. فعلى سبيل المثال، عندما أبطل الملك المنصور لاجين الثلج الذي ينقل في البحر من الشام إلى مصر معللا ذلك بقوله: "أنا كنت نائب الشام وأعلم ما يقاسي الناس في وسقه من المشقة"(٢).

وشهد عصر السلطان الناصر قلاوون أهم نقلة تصحيحية يشهدها العصر المملوكي، حيث أصدر مراسيم بإبطال جملة عظيمة من المكوس التي أرهقت المجتمع، وتطهيره مما علق به من منكرات اجتماعية، وكانت حملة شاملة لجميع سكان الدولة بالديار المصرية والبلاد الشامية، والتي كان لها أبلغ الأثر في تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لفئات المجتمع المحتاجة(٣).

فضلاً عما كان يتخذه السلاطين عادة عند حدوث الأزمات الاقتصادية في بلاد الشام كغلاء الأسعار ــ كما أشرتُ سابقًا ــ من إصدار الأوامر للأمراء بمصر بإرسال القمح إلى بلاد الشام. فمن ذلك ما ذكره ابن العماد في حوادث سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م: "وفيها كان الغلاء المفرط بالشام، وبلغت الغرارة أزيد من مائتي درهم أيامًا، ثم جلب القمح من مصر بإلزام سلطاني لأمرائه فنزل إلى مئة وعشرين درهمًا، بقي أشهرًا ونزل السعر بعد شدة وأسقط مكس الأقوات بالشام بكتاب سلطاني. وكان

(١) ابن طولون، إعلام الورى، ص١٧٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٥-١٠٦.

(٣) الدوادار، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج٩، ص٢٨٦؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص ٥٠٧؛ الخطط، ج١، ص١٥٧، ١٥٨، ١٦٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٤٢ــ٤٦؛ أبو الفداء، تاريخه، ج٤، ص٩٥.

على الغرارة ثلاثة دراهم"[١].

ومن خلال استقراء تاريخ العصر المملوكي يلحظ كثرة المكوس في عهد سلاطين المماليك الجراكسة؛ ولعل السبب في ذلك راجع للظروف الأمنية نفسها بسبب كثرة حروبها ضد القراصنة النصارى، الذين هاجموا السفن والسواحل الإسلامية الخاضعة لسلطنة المماليك، عدا عن الحروب الداخلية التي شنها المماليك ضد البدو والتركمان، وحروبهم البحرية ضد البرتغاليين التي استنفذت موارد الدولة[٢].

وعلى الرغم مما عانته الدولة إلا أن هناك محاولات للتخفيف من معاناة الشعب؛ فيورد لنا ما مجير الدين العليمي أن الظاهر خشقدم رسم بإبطال المظالم من القدس الشريف، ونقش بذلك رخامتين وجهزهما إلى القدس الشريف في أواخر عمره وألصقتا بحائط المسجد الأقصى من جهة الغرب[٣] .

وما قرره السلطان الملك ناصر محمد أبو السعادات ابن قايتباي "بإبطال ما جدد على القصابين والمتسببين بالقدس الشريف من الحمايات والمظالم، وأن يبيعوا اللحم بسعر الله تعلى، ولا يؤخذ منهم لحم بغير قيد ثمن بتاريخ اليوم السادس من شهر ذي القعدة الحرام من شهور سنة اثنين وتسع مائة"[٤].

ومن صور تحقيق الأمن رعاية حقوق الضعفاء ومنع التعدي عليها، فعلى سبيل المثال:

يذكر المقريزي في حوادث سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢٠م، في عهد السلطان الظاهر ططر، بأنه مرّ في طريقه إلى القدس فرفع إليه أن من عادة نائبها أن يجبي من فلاحي الضياع نحو أربعة آلاف دينار، وبسبب ذلك خربت معامل القدس، فنودي بإبطال هذه

(١) شذرات الذهب، ج٦، ص٦٢.

(٢) علي السيد، القدس، ص٢٢٤.

(٣) الأنس الجليل ج٢، ص١٠٠.

(٤) السيد، القدس، ص ٢٢٦.

المغارم، ونقشه على حجر بالمسجد، فتباشر الناس بأيامه[(١)].

وذكر ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م أنه بلغ السلطان الظاهر برقوق أن الأمير شيخ الصفوي[(٢)] المقيم بالقدس كان يتعاطى المنكرات، ويمسك نساء الناس وأولادهم، وأن نائب القدس كلمه فقبض عليه وضربه، فأمر السلطان بأن يعتقل في قلعة المرقب[(٣)].

وعندما زار السلطان قايتباي المحمودي بيت المقدس سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م، اشتكى الناس الأمير جار قطلي نائب القدس، ورفعت فيه القصص بسبب ما تعمده من الظلم والجور، فطلبه السلطان وسمع فيه الشكوى، وأنصف الناس منه، وأمره أن يدفع لهم ما أخذه منهم[(٤)].

وأكدت مواقف سلاطين المماليك رفقَهم بالرعية باختيار نواب محمودي السيرة، ففي سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، وصل إلى السلطان قايتباي خبر ثورة أهل حماة على نائبها حيث رجموه وأخرجوه، مما جعل السلطان يرسل من يكشف له حقيقة الوضع، ويبدو أن الأخبار التي وردت له جعلته يسافر إلى البلاد الشامية بصورة مفاجئة، ليكشف عن أمر النواب بنفسه، ولم يكن معه سوى أربعين مملوكًا، واستمرت جولته أربعة أشهر إلا أيامًا، حيث دخل حلب وطرابلس وحماة ودمشق[(٥)]. ثم أتبع تلك الجولة بإصدار مراسيم

(١) السلوك، ج٧، ص٤١؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٤، ص٩٦.

(٢) **شيخ الصفوي**: كان ممن رقاه الملك الظاهر برقوق إلى أن جعله أمير مائة ومقدم ألف في سلطنته الثانية، وجعله أمير مجلس ثم قبض عليه، وأخرجه الملك الظاهر إلى القدس بطالاً فساءت سيرته بها، وكان مسرفًا على نفسه منغمسًا في اللذات، فأمر الملك الظاهر به فنقل من القدس إلى حبس المرقب إلى أن مات به سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م. انظر: المقريزي، السلوك، ج٥، ص٤٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٨؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٣٨.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٥، ص٤٢١؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، ص٦٦٦؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٣٨.

(٤) العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص ٣١٥.

(٥) ابن شاهين، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٧، ص١٩١، ١٩٤، ١٩٦ــ٢٠٠؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص١٣٢، ١٣٥،١٣٦، ١٣٩.

للأمراء والنواب "بأن يتعاضدوا على المقاصد ويتوصّوا بالأحوال والرعايا"[١].

وتلك الجولة الاستطلاعية والمراسيم الصادرة تؤكد حرص السلطان قايتباي على استتباب الأمن الداخلي في أنحاء البلاد الشامية، وهذا يصب في خدمة الرعية وحمايتها من جور النواب وظلمهم.

ومن أوجه المحافظة على **الأمن الداخلي** اهتمام السلطة بما يقع في البلد من حرائق، وكثيرًا ما نصادف من خلال تتبع تاريخ بلاد الشام وقوع الحرائق بين الحين والآخر، ونلحظ مدى اهتمام المسؤلين بالبلد بمتابعة الحدث، فيخبرنا ابن كثير في حوادث سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨١م، قائلاً: " وقع حريق باللبادين[٢] عظيم، وحضر نائب السلطنة إذ ذاك الأمير حسام الدين لاجين السلحدار، وجماعة كبيرة من الأمراء،...، واستدرك بعد ذلك أمرها القاضي محيي الدين بن النحاس ناظر الجامع فأصلح الأمر، وسدَّ وأعاد البناء أحسن مما كان"[٣].

اهتم السلاطين المماليك ونواب السلطنة بتشييد وإعادة إعمار المنشآت العمرانية، التي كانت تتعرض للتدمير والتخريب جراء الحروب أو الزلازل في بلاد الشام. ويعد السلطان الظاهر بيبرس من أكثر سلاطين الدولة المملوكية الأولى الذين أبدوا اهتمامًا كبيرًا بترميم وتعمير الأبراج والأسوار التي كانت آيلة للسقوط؛ فرسم بعمارة القلاع بالبلاد الشامية، وإعادة وإصلاح ما هدم منها[٤].

وعينت الدولة للأسواق حراسًا وخفراءَ في الليل يسهرون على أمنها، ولضمان يقظة الحراس أثناء الليل كانت تقرع الطبول في القلعة على فترات منتظمة[٥]. وحينما زار سوخم (Sohem)، دمشق في أواسط العصر المملوكي، أشاد بالمستوى الأمني في الأسواق

(١) ابن شاهين، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٧، ص١٩٤.

(٢) **اللبادين**: نسبة إلى عمل اللبود من الصوف، وهكذا يتلفظ به العامة، وهو موضع في دمشق يشرف على باب جيرون. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٠؛ ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج٣، ص ١١٩٦ .

(٣) البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٨٥-٥٨٦.

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٥.

(٥) نقولا زيادة، رواد الشرق في العصور الوسطى، هدية المقتطف، لبنان، ط١، ١٤٦١هـ/ ١٩٤٣م، ص١٨٤.

فقال: "ومع أن المدينة مزدحمة بالسكان، ومع أن البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكر أن أحدًا قتل في دمشق، وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع"[(١)].

وحرصت الدولة المملوكية على **تأمين الأمن على المستوى الخارجي** والتصدي لكل ما يزعزع أمن البلاد واستقرارها، ومن صور ذلك: التصدي لغارات القبائل البدوية التي أدّت إلى إثارة الخوف وزعزعة أمن المجتمع الشامي، وتدمير الاقتصاد في المدن والقرى، وتسببت في هجرة الفلاحين وتركهم لأرضهم، أو تعرضهم للتجار والحجاج، خاصة في أثناء المسير في قوافل بين الشام ومصر. ومن هذه الإغارات ما كان سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، حيث نهبوا مدينة نابلس وقتلوا عددًا كبيرًا من السكان؛ مما دفع الأمير علاء الدين أيدكين الفخري[(٢)] إلى التوجه إليهم من غزة وألقى القبض على جماعة منهم، وأعدم اثنين وثلاثين من أكابرهم، وسجن كثيرًا منهم بصفد، وعيّن الأمير علاء الدين الصرخدي[(٣)] نائبًا بالبلاد الغزاوية لردعهم[(٤)].

ومن صور الأمن حرص سلاطين المماليك على التوسع بإنشاء الخدمات والمرافق الخدمية؛ مما كان له أثر في خدمات الفئات المحتاجة وسد متطلباتهم، بتوفير الخانات والفنادق والقياسر على طول الطريق بين دمشق ومصر[(٥)]، وخير دليل على ذلك ما ذكره المقريزي عند ذكره للطريق بين مصر والشام: "...كانت طرق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا أن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بفردها راكبة، أو ماشية لا تحمل زادًا ولا

---

(١) زيادة، رواد الشرق، ص١٨٤؛ نقولا، دمشق في عصر المماليك، ص١٠٩.

(٢) **علاء الدين أيدكين الفخري**: أحد الأمراء الكبار، كان ديّنًا عاقلاً شجاعا، وعنده كفاءة وحزم، وحسن تدبير، توفي بصفد سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٧٥،٢٧٤.

(٣) **علاء الدين الصرخدي**: الأمير علاء الدين الحراني الظاهري، عينه السلطان الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، نائبًا للبلاد الغزاوية والساحلية لمواجهة خطر العشران، توفي بالقدس وصلي عليه بدمشق غائبًا سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢٧٢.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٥١.

(٥) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٩٤؛ سماح السلاوي، الأوضاع الحضارية، ص٢٠١.

ماءً"[١].

وأمنت الدولة المملوكية للحجاج وعابري السبيل الطرق، حيث وضعت حراسة من البدو في أماكن سيطرتهم على الطرق، مقابل مبالغ مالية تدفع لحماية سالكي الطرق وحماية الحجاج[٢].

(١) الخطط، ج١، ص٤٢٠.

(٢) علي ابن شافع، حسن المناقب السرية، ص٤٧؛ القحطاني، وثيقة وقف الأشرف شعبان، ص٢٥١.

المبحث الرابع

الآثار الدينية والعلمية

من خلال ما سبق تعرفنا إلى مدى الرعاية التي وجدها العلماء وطلبة العلم تحت مظلة الحكم المملوكي، مما كان له الأثرَ الواضح في خدمة المحتاجين على طلبة العلم الفقراء، بتوفير السكن المناسب لهم، والرواتب، ولوازم الدراسة، وهيَّأ لهم الجو المناسب لتلقي العلم ونشره[1]، وكان لتلك الرعاية والاهتمام آثار علمية ودينية نوجزها فيما يلي:

كثرة المراكز التعليمية وتنوّعها أمام الفئات المحتاجة :

اتبع المماليك سياسة الأيوبيين في الاهتمام بالعلم والأدب، حتى إن الدرجة التي وصل إليها هذا النشاط الثقافي والعلمي في العصر المملوكي، ربما زادت عن النشاط العلمي زمن الأيوبيين، ولذلك وجدنا الحكام المماليك يندفعون في نهضة علمية وعمرانية تزيد في منشآتها على ما كان زمن بني أيوب، فكانت النتيجة منشآت معمارية رائعة تخلد ذكرهم حتى يومنا هذا[2].

كانت بلاد الشام في العصر المملوكي زاخرةً بمراكز العلم على اختلاف أنواعها، حيث فتحت أبوابها لطالبه من الفئات المحتاجة، إذ يتوجه أحدهم منذ الصغر إلى الكُتّاب حيث يحفظ القرآن الكريم، ويتعلم الخط والكتابة، ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية التي تتألف من المدارس، حيث يجد فيها التخصصات المختلفة من علوم القرآن والتفسير والطب ونحو ذلك. و لم تكن المدارس الباب المفتوح الوحيد بل تشاركها المؤسسات الصوفية التي فتحت أبوابها للأيتام وطلبة العلم من الفقراء، فلم تقتصر وظيفة تلك المؤسسات على

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٦٩.

(٢) إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، دار العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص٦١.

الناحية الدينية بل كانت مؤسسات علمية تقدم العلم لطالبيه، وتوفر لهم الإيواء، وما يحتاجون إليه من طعام وشراب وكساء[١].

وأسهم سلاطين المماليك وأمراؤهم في دعم النواحي الدينية بشكل كبير، يدلّ على ذلك كثرة المؤسسات الدينية التعليمية، من مدارس، ومساجد، وأربطة، وخوانق، وغيرها، حيث بلغ عدد المساجد والمؤسسات الدينية في عهد السلطان الناصر محمد "أكثر من أن تحصى، وأعز من أن تستقصى"[٢].

ولا نغفل عن الدور الثقافي والعلمي في الجوامع، فهي تشكل جامعات إسلامية كبرى تعقد فيها حلقات العلم المتنوعة، ويحاضر فيها كبار العلماء والمشايخ في ذلك العصر، ففي الجامع الأموي من الحلق للاشتغال بالعلوم الشرعية، والمصروف عليها من مال الصالح، إحدى عشرة حلقة، وكانت فيه من حلق الحديث ثلاثة مواعيد، بالإضافة إلى ثلاث زوايا ، وفي الجامع أيضًا من الحلق المخصصة لقراءة القرآن مئة وعشرون حلقة، وكل منْ فيها له راتب على ديوان الجامع[٣].

أما المسجد الأقصى، بما قام فيه وفي ساحاته وما حوله من مؤسسات علمية: مدارس، ومكتبات، ودور قرآن، ودور حديث، وزوايا، وخوانق، ورباطات؛ فقد كان عبارة عن معاهد علمية أو كليات أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشرعية، وعلوم اللغة العربية، والتاريخ، وعلم الكلام، والمنطق، والعلوم الرياضية، وغير ذلك من فنون العلم[٤].

---

(١) للمزيد عن مراكز العلم في بلاد الشام. انظر: منتصر شطناوي، التربية والتعليم في بلاد الشام، ص٥٠-٩٦؛ منصور الصوفي، الأوضاع الدينية للمسلمين، ص١٢٨-١٧٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٦٧.

(٣) النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج٢ ، ص٣١٧ .

(٤) عبد الجليل عبد المهدي، أثر الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص٩٢، جلال يوسف العطاري، حركة التأليف العلمي في مصر والشام في العصر المملوكي الأول، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٢٩.

و لم يقتصر التعليم على مذهب معين بل رَعَتِ الدولة المذاهب الأربعة[1]، ويشير ابن فضل الله العمري إلى ذلك في أثناء وصفه للجامع الأموي بأنه يقام فيه حلقات للتدريس، فَيَصِفُ ثلاثة محاريب للمالكية والحنفية والحنابلة، ولكل من هذه المحاريب إمام ومؤذن ووقف على كل محراب مدرسًا وجماعة من الفقهاء كل طائفة في محاربها[2].

ازدياد الوافدين إلى بلاد الشام:

وجد كثير من عابري السبيل ملجأ ومستقرًا له في مواقع شتى من الشام، خاصة المغاربة؛ فقد استقر قسم كبير منهم في مدينة القدس، وتفاعلوا مع المجتمع المحلي، واندمجوا فيه[3].

والسؤال الذي يطرح هنا: ما العوامل التي جعلت من بلاد الشام محطة جذب لكثير من عابري السبيل؟

في بادئ الأمر لابد أن نوضح بأن عابري السبيل اختلفت توجهاتهم؛ فمنهم من كان يطلب العلم، ومنهم من كان فقيرًا محتاجًا يبحث عن الرزق، ومنهم من كان حاجًّا في طريقه إلى الحجاز، لذلك سنحصر تلك العوامل حسب توجهات الوافدين إلى الشام فيما يلي:

- امتاز العصر المملوكي ولا سيما في العصر الأول (البحرية) باستقرار سياسي وتطوّر علمي، مما أثر في الانفتاح الداخلي والخارجي وأوجد لكثير من الوافدين خاصةً المغاربة ملاذًا آمنًا لهم في التخلص من الأوضاع السياسية السائدة في بلدانهم من هجمات الأسبان وتفكك الدويلات المغربية[4].

---

(١) جلال العطاري، حركة التأليف، ص ١٧؛ للمزيد عن المذاهب الدينية في الشام. انظر: منصور الصوفي، الأوضاع الدينية، ص٩١ــ١٢٠.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص١٩٥.

(٣) معمر، المغاربة ومنصب قاضي القضاة، ص١٤٦.

(٤) علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة، ص٨٥.

- من ناحية أخرى أثّرت السياسة التي تبناها سلاطين المماليك وأمرائهم في تشجيع العلم والعلماء، فقد كان السلطان الظاهر بيبرس يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائدًا، ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب"(١).

وكانوا يكنّون الاحترام والتقدير للعلماء فقد ذكر الصفدي عن السلطان المنصور لاجين قوله: "حكى لي الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس(٢): لما دخل عليه لم يدعه يبوس الأرض، وقال : أهل العلم مترهون عن هذا وأجَلَّهُ عنده"(٣).

وكان من أمراء المماليك من كان له حظٌّ من العلم، فمنهم من يحضر حلقة العلماء أمثال علاء الدين الطنبغا(٤)، فقد كان أحد أخيار حلقة تقي الدين ابن تيمية بدمشق(٥)، كما ظهرت مجموعة منهم درسوا العلوم المختلفة(٦)، وحرصوا على وجودهم في مجالسهم، مثل نائب الشام الطنبغا بن عبد الله الجوباني الذي حرص على وجود العلماء والأدباء في مجلسه(٧).

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٢.

(٢) **الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس:** الحافظ العلامة فتح الدين بن أبي الفتح محمد بن الإمام أبي عمرو محمد بن الإمام الحافظ الخطيب أبي بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس الربعي اليعمري الأندلسي الإشبيلي، دخل دمشق واشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو من العربية وعلم السير والتواريخ، وغير ذلك من الفنون. وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين، توفي سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م وكانت جنازته حافلة، انظر: الذهبي، معجم محدثي الذهبي، تح: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص١٧٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٢١؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٩، ص٢٦٨؛ ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢، ص٢٩٥.

(٣) الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٨.

(٤) **علاء الدين الطنبغا:** مملوك ابن باخل، اشتهر بالذكاء، والشعر، وحسن الأخلاق، بلعب الرمح والفروسية. للمزيدانظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٢١٠-٢١١؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٠؛ ابن حجر، الدرر الكامنة؛ ج١، ص٤٨٦.

(٥) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٥٠، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٣٦٦؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٣٠.

(٦) خصاونه، طبقات المجتمع، ص٤١ .

(٧) **الطنبغا بن عبد الله الجوباني:** أحد كبار الأمراء، تنقلّ في الولايات إلى أن قتل بدمشق وهو نائبٌ سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٢م. انظر : ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٠٤.

- اهتمام السلاطين والأمراء وأهل الخير بإنشاء دور التعليم بشكل لم يسبق لـه مثيـل، وهذا يعد عاملاً أساسيًا وحيويًّا في تنشيط الحركة العلمية[(١)].

- كانت بلاد الشام محطة مهمة من محطات الرحالة والحجاج، خاصة المغاربة في أثنـاء طريقهم إلى الحجاز، وهو ما يعرف بقافلة الركب الشامي، ومنهم من فضَّل جـوار الحرام القدسي الشريف باعتبارها أرضًا مقدسةً[(٢)].

- توفر الشام البيئة المناسبة للبحث وطلب العلم من خلال التعليم المجاني من ناحية، ومن ناحية أخرى توفّر سبل العيش الكريم من راتب، ومأكل، وكسوة؛ مما جعل طالـب العلم مرتاح البال متفرغًا للدرس والتأليف[(٣)].

وكان نتيجة تلك العوامل السابقة أن أصبحت بلاد الشام محط أنظار العلماء مـن مختلف أقطار العالم الإسلامي في مختلف توجهاهم العلمية[(٤)] واستطاعوا أن يصلوا لى أعلى مستويات العلم والأهلية وغدا عدد كبير منهم معلمين وأساتذةً كبارًا ظهرت مكانتـهم العلمية في المدارس الشامية التي ترأسوها أو درسوا فيها، وتخرج على يديهم تلامذة كثر، والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى: فمنهم ابـن مالـك النحـوي (ت٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م)، الذي لقب بشيخ النحاة، لسعة علمه واطلاعه وخبرته الواسعة في هذا العلم، الأمر الذي أهّله لأن يتسنّم رئاسة المدرسة العادلية الكبرى، وكان شيخ النحو والنحويين فيها ولمدة طويلة من الزمن ومن ناحية أخرى أفاد طلاب العلم في بلاد الشام بمؤلفاتـه الكثيرة التي تبحث في مجاهل علم النحو وقواعده والتي بلغت أكثر من عشرين مؤلفًا "[(٥)].

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٣؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م ، ج٣، ص٢٧.

(٢) العسلي، حارة المغاربة في القدس، ص٢٠؛ التازي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، ص ١١ ــ ١٥.

(٣) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٦٩؛ ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٣؛ المقريزي، الخطط، ص٨٩.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٣.

(٥) **الشيخ محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الطائي الأندلسي الشافعي النحوي**، نزيل دمشق، توفي سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م.للمزيد انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٦٥؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٢٧٦؛ ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت٨٣٣هـ/١٤٣٠م)، غاية النهاية في طبقة القراء، تح: ج.برجستراسر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٧ه/٢٠٠٦م، ج٢، ص١٥٩، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٧٦.

والإمام محمد بن الحسن الحسيني الواسطي (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٦م) " قدم الشام وتميز وأفاد ودرسّ، وكان بارعًا في الفقه والأصول[١]. وممن أفاد في علوم العربية أيضًا الإمام فخر الدين أبو طالب أحمد بن علي الكوفي (ت٧٥٥هـ/ ١٣٥٥م)، الذي قدم دمشق فأعاد ببعض مدارسها، وتصدى لشغل الطلبة والإفادة "[٢] .

ومن اليمن قدم العالم تاج الدين اليمني المخزومي عبد الباقي بن عبد المجيد (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م)، حيث أقام بها متصدرًا بالجامع، يقرئ الطلبة العروض والمقامات الحريرية، ورتب له نائب الشام سيف الدين تنكز راتبًا مائة درهم في كل شهر، وتردد لى حلب وطرابلس وعمل له راتب أيضًا[٣].

ووصف الصفدي الشيخ أبا حيان الغرناطي محمد بن يوسف أثير الدين فقال: "لم أرَ في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأني لم أره إلا وهو يسمع أو يشتغل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك ، وله إقبال على الطلبة الأذكياء ، وعنده تعظيم لهم"[٤].

وتلك الأمثلة السابقة ما هي إلا دليل على أن الوافدين وجدوا في بلاد الشام البيئة المناسبة التي أتاحت لهم الفرصة للتأليف، والتدريس، وترؤس مشيخات لمدارس الشام الكبرى، وكانت تُجْرىَ لهم الرواتب والأوقاف.

وكان الوافدون يجدون الحب والتقدير، ويستقبَلون ويعاملَون على قدم المساواة مع إخوتهم أهل الشام، فعندما وفد من بلاد فارس العالم الجليل شمس الدين محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأصفهاني الذي حج ثم توجه إلى دمشق فبالغ ابن تيمية في

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٩٠ .

(٢) ابن رافع السلامي، الوفيات، ج٢، ص١٧٢،١٧١؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص١٨٣.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٨، ص١٥.

(٤) الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٧٥. للمزيد عن ترجمته انظر: الذهبي، معرفة القراء الكبار، تح، بشار عواد معروف، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ، ج٢، ص٧٢٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٤٦٢؛ أبو المحاسن الحسيني، محمد بن علي الدمشقي (ت٧٦٥هـ/١٣٦٥م)، ذيل تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص١٣ـ١٥.

تعظيمه، وقال عنه: "ما دخل البلاد مثله، وكان يلازم الجامع الأموي ليلاً ونهارًا، مكبًّا على التلاوة وتدريس الطلبة[١]".

فإن ملازمة الشيخ الأصفهاني للجامع الأموي ليلاً ونهارًا لدليل على أنه قد كفل مشقة البحث عن أسباب الرزق، حتى يتفرغ للتلاوة وتدريس الطلبة.

ونجد من أهل دمشق من وقف جزءًا من ثروته على فقهاء المغاربة بعد وفاته، كما فعل أحمد بن عبد الله الذهبي الكتبي (ت٦٦٣هـ/١٢٦٥م) الذي يقول عنه أبو شامة المقدسي "وقف داره على فقهاء المالكية وأوصى لهم بثلث ماله"[٢]. وأغلب فقهاء المالكية هم من المغاربة.

وكان من أهم نتائج رعاية الوافدين من علماء وطلاب علم أن ساهموا في استمرار الزخم العلمي في مختلف فروعه، من خلال التدريس والتأليف، حيث اشتهر كثير منهم بتصنيف كثير من المؤلفات مثل: نزيل دمشق جمال الدين السرمري العقيلي (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٦م)، الذي كان من أصحاب الثقافة الموسوعية، وبلغت مصنفاته مئة، وكانت في نيف وعشرين علمًا[٣].

بروز المكانة العلمية العالية للمرأة الشامية:

لم تكن الرعاية والاهتمام بطلاب العلم حكرًا على الرجال دون النساء، فقد تمتعت المرأة بقدر وافر من الرعاية العلمية في بلاد الشام، ونالت قسطًا وافرًا من احترام العامة والخاصة، مما أنتج نماذج لنساء عالمات أصبحن من ثوابت مقومات بناء المجتمع الصالح، ولم تقلَّ مكانة النساء العالمات عن مكانة علماء المسلمين.

وكان لهن فضل كبير بنفع نساء المسلمين، خاصة في مجال حفظ القرآن وتجويده، وأصبحن عالمات في هذا التخصص العظيم؛ مما جعل ابن كثير يشيد بالشيخة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم السلمي الدمشقي (ت٧٤١هـ/

---

(١) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٥٠؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص٣٨٨ .

(٢) الذيل على الروضتين، ص٢٣٥؛ الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، ص٢١٢.

(٣) أبو المحاسن الحسيني، ذيل تذكرة الحفاظ، ص١٦١؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٠٢.

١٣٤١م) فقال عنها: " كانت عديمة النظير في نساء زمانها، لكثرة عبادتها وتلاوته وقراءتها القرآن العظيم بفصاحة، وبلاغة، وأداء صحيح يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختمت نساء كثيرات، وقرأ عليها من النساء خلق، وانتفعن بها"[1].

و لم يكن الفقر عائقًا أمام طلبهن للعلم فكثير من تراجم النساء وصفت حالهن وأكدت أنهن من فئة الفقراء، إلا أنَّ أنهن تأثرن بالجو السائد في تلك الحقبة الزمنية، وانطلقن لطلب العلم، في بيئة شجعت العلم ويسّرت أسبابه، حتى حظيت نساء ذلك العصر بالإجلال والتقدير، فلم يتوانَ طلبة العلم من الرجال عن الأخذ عنهن وملازمة مجالسهن العلمية، مثل العالمة زينب بنت مكي الحراني (ت٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، التي وصفت بأنها من النساء الفقيرات، وعلى الرغم من ذلك وصفت بأنها أسند من بقي من النساء في الدنيا، وروى عنها خلق كثير[2].

و لم يكن حضور النساء في المساجد مستغربًا، بل منهن من كانت تتردد لحضور الحلقات التي كانت تعقد في المساجد في أماكن مخصصة لهن ومعزولة عن أماكن الرجال، حتى لا يكون هناك اختلاط، ويؤكد ذلك بعض الإشارات القليلة التي وجدت في تراجم النساء فيذكر أن مولاة أبي أسامة في مسجد حمص، كانت "تعلم النساء القرآن والسنن، والفرائض، وتفقههن في الدين"[3].

فهذه إشارة واضحة تدل على أن المسجد كان من الوسائل التي تلجأ إليها النساء لتلقي العلم، خاصة النساء اللاتي لم يتيسر لهن أن يتلقين تعليمهن داخل المترل على يد محارمهن؛ لم ينشأ في بيوت علم ودين.

وما ذكره ابن بطوطة في رحلته لى دمشق بأنه أجازه عدد من الشيخات العالمات في الجامع الأموي، كالشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة

---

(١) البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٤٣،٤٢.

(٣) عبد المهدي، المؤسسات التعليمية والثقافية، ص٤٠.

الحراني (ت٧٣٦هـ/١٣٣٦م)[١]، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد عبد الرحيم المقدسي[٢] (ت٧٤٠هـ/١٣٣٩م)، وقد حصل منهما على إجازة عامة سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٧م[٣].

وهذه الإشارة دلالة واضحة على وجود كثير من الشيخات في المساجد الكبرى، كالجامع الأموي، فإذا كان ابن بطوطة قد سمع عليهما أجزاء من الحديث، فنحن نستنتج أن المسجد كان مركزًا تلجأ إليه المرأة عالمة ومتعلمة لتلقي العلم وتنشره.

وقد أورد الرحالة الخياري في إلى دمشق خبرًا مهمًّا عن وصف المكان الذي تعقد فيه حلقات تدريس النساء في المسجد الأموي، فقال: "وبالمسجد المذكور قبتان في طرفي صحنه، إحداهما بالقرب من باب جيرون، مركبة على عمد ستة يقال إنها فلانة من النساء العالمات كانت تجلس بها وتنصب عليها الستائر تتحدث العلم فيأخذونه عنها"[٤].

ومن الأمثلة على تدريس المرأة للرجال بشكل واضح، العالمة زينب بنت محمد بن عثمان بن عبد الرحمن الدمشقية (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م)، التي كانت تعتبر أحسن نساء زمانها، وأعذبهن مقالاً، وأفصحهن منطقًا وأعلمهن بالفقه والحديث، من تلاميذها الحافظ ابن حجر وله منها إجازة، وعمرت أكثر من مائة وعشر سنين، وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالبًا للحديث، ولم يسمع بامرأة فتحت حلقة درس واجتمع فيها طلاب مثل حلقة درسها[٥].

---

(١) اليافعي، مرآة الجنان، ج٤، ص٢٩٢؛ الذهبي، من ذيول العبر، ج٦، ص١٩٢، ١٩٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٣٤٧؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٥؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٧٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص١١٣.

(٢) زينب بنت أحمد كمال الدين بن عبد الرحيم بن أحمد المقدسي، أجازت للصفدي سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م بدمشق. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٥، ص٤٣.

(٣) الرحلة، ج١، ص١٢٣.

(٤) صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٧م، ص٣٠٤.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٥٣٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٥٨؛ زينب علي فواز العاملي (ت ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)، الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور، تح، مني الخراط، مؤسسة الريان ، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٣٧٢-٣٧٣.

وخبر آخر عن امرأة درّست بالمدرسة، وسُمع عليها هناك، فيــذكر أن الشــيخة العالمة عائشة بنت منصور قواليج الدمشقية المعروفة ببنــت قــواليج (ت ٧٩٣هــــ/ ١٣٩٠م) "محدثة سمع عليها بالمدرسة الخاتونية في ظاهر دمشق"[(١)]

وأثبتت التراجم أن النساء تركن كثيرًا من المصنفات، على الرغم من أنها لم تــرد إلينا، فعلى سبيل المثال: أمة اللطيف بنت الناصح بن الحنبلي(٦٥٣هــــ/١٢٥٥م) [(٢)]، التي ذكر المؤرخون أن لها تصانيف ومؤلفات كثيرة[(٣)]. والعالمة فاطمة بنت إبراهيم بــن عبدالله المقدسية (ت٧٤٧هــ/ ١٣٤٦م)[(٤)]، ذكر الكتاني في فهرس الفهــارس أن لهــا الكثير من المصنفات[(٥)]، ومريم بنت عبد الرحمن بن أحمد الحنبلية[(٦)]، التي لها معجم خرجه لها الشهاب ابن حجر العسقلاني، وهو مخطوط[(٧)].

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٣؛ إنباء الغمر، ج١، ص٤٢٥؛ ابن العماد الحنبلي، شــذرات الــذهب، ج٦، ص٣٢٨.

(٢) **أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي:** هي عالمة من أهل دمشق كانت في خدمة السيدة ربيعة خــاتون بنــت أيوب، وهي التي أرشدت الخاتون إلى بناء المدرسة الصالحية، ووقفها على الحنابلة، وقد أحبّت ربيعة خاتون أمــة اللطيف، وحصل لها من الخاتون أموالاً عظيمة، فأوقفت هي الأخرى مدرسة "العالمة" على الحنابلة، ولمــا ماتــت الخاتون ربيعة، صودرت أموالها وحبست مدة ثم أفرج عنها، وتزوجها الملك الأشرف صاحب حمص، توفيت سنة ٦٥٣هــ/ ١٢٥٥م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٤، ص٦٧؛ ابن كثير، البداية والنهايــة، ج١٧، ص ٢٨٦؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص٨٠؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٣٨،٢٣٧.

(٣) بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٣٧، ٢٣٨.

(٤) **فاطمة بنت إبراهيم بن عبد الله المقدسية:** كنيتها أم ابراهيم ولدت عام ٦٥٦هــ/ ١٢٥٨م، كانت عابــدة خيّرة، توفيت عام٧٤٧هــ/١٣٤٧م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٨.

(٥) الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير (ت١٣٨٢هــ/ ١٩٦٢م)، فهرس الفهــارس والأثبــات ومعجــم المعــاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢/١٤٠٦هــ، ج٢، ص٦٥٤.

(٦) **مريم بنت عبد الرحمن بن أحمد النابلسية:** تدعى ست القضاة، مسندة، حنبلية، من العالمات بالحديث، حدثت بنابلس ودمشق وغيرها، ماتت بنابلس عام ٧٥٨هــ/١٣٥٨م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص١٠٧.

(٧) صدر كتاب بعنوان: "مسند أمة الله مريم بنت عبدالرحمن الحنبلية: جزء من ٢٤ رواية"..قال محقق الكتاب: "لها معجم خرجه لها الشهاب ابن حجر العسقلاني، وهو مخطوط، يسر الله لنا تحقيقه". انظر: مقدمة كتاب "مسند أمــة الله مريم.."، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ، ١٤٠٩ه، ص٧٩. انظر: محمد خــير رمضــان، المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن في التاريخ الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ١٤٢١هــ/٢٠٠٠م، ص ٩٦.

نشر العلم والوعي الثقافي بين الطبقات الدنيا:

نظر المماليك وأهل الخير إلى نشر التعليم بأنه عمل من أعمال البر التي تعود إليهم بالأجر والثواب، فكانت فئة المحتاجين من الشرائح التي استفادت من التعليم المجاني، ونظر إليها كفئة لها حقها في طلب العلم، فتم توفير كل السبل لتفرغهم لطلب العلم، فوجد اليتيم والفقير منذ نعومة أظفاره أماكن مخصصة للتعلم، فقلما تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من ريع ذلك الوقف لتعليم عدد من الأطفال الأيتام والفقراء "(١).

فلم يكن التعليم مقصورًا في بلاد الشام على الأغنياء، بل وجد طالب العلم الفقير جميع الأبواب مفتوحة أمامه لينهل من العلم ما يشاء، فتحت أبواب العلم أمامهم، وتشجيعهم على الانصراف إلى طلب العلم، دون انشغالٍ بالسعي لتوفير لقمة العيش، وقد برز ذلك من خلال تلك الأوقاف التي خصصت لهم، لتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج(٢)؛ مما كان له أكبر الأثر في ارتفاع المستوى التعليمي بين شريحة الفقراء.

ومن خلال كتب التراجم أظهر عدد كبير من اليتامى والفقراء نبوغًا علميًّا واسعًا بدليل المكانة العلمية التي وصل إليها كثير من علماء تلك الفترة، مثل الإمام العلامة حافظ بلاد الشام إبراهيم الطرابلسي (ت ٨٤١هـ/١٤٣٧م) ، فعند النظر إلى سيرته نجد أنه كان يتيمًا توفي والده وهو صغير، فكفلته أمه، وانتقلت به لى دمشق، ثم رجعت به لحلب وأدخلته أحد مكاتبها، وكان لناصر الدين الطواشي(٣) فحفظ به القرآن الكريم، ثم انكب على الحديث النبوي، حتى أصبح حجة بلاد الشام في الحديث(٤).

---

(١) محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٢٦٢؛ السدحان، دور الوقف في بناء الحياة الاجتماعية، ص٢٢٥ـ ٢٢٧.

(٢) العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص٢٣.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص ١٠٥؛ السدحان، والأوقاف والمجتمع، ص٧٠.

(٤) الحلبي، زين الدين عمر بن أحمد (ت٩٣٦هـ/ ١٥٥٩م)، القبس الحاوي، تح: حسن إبراهيم وخلدون حسن، دار صادر، بيروت، ج٢، ص١٣،١٢؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٥٥١؛ يسري زيدان، رعاية الأيتام، ص٤٠٤.

نشر المذهب السني في بلاد الشام:

سعى سلاطين المماليك بمساعدة العلماء والفقهاء، إلى إحياء الشرع وقمع البدع، متطلعين من وراء ذلك إلى حفظ الأمة من الانحراف من خلال تصحيح العقائد ومحاربة التشيّع، وإحياء ودعم المذاهب السنية؛ لحماية دولتهم من التيارات الفكرية المنحرفة والمعادية للدين الإسلامي(١).

وكان من أهداف المماليك ومن قبلهم الأيوبيين من بناء المدارس في مصر وبلاد الشام تثبيت الحكم المملوكي ومحاربة ذيول التشيع(٢)؛ لذلك سعى المماليك إلى زيادة عدد المدارس والمؤسسات الدينية، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة(٣)، لذلك زخرت مدنهم بالمدارس المشهورة، حتى القرى كان لها نصيب وافر من المدارس والمؤسسات الدينية الأخرى.

وترتب على ذلك انتشار المدارس في بلاد الشام حسب المذاهب السنية الأربعة، وهذا واضح من خلال تقسيم المدرس الشامية حسب المذهب(٤).

وكانت سياسة المماليك بدعم الصوفية، كما ذكرنا سابقًا عن إسهامات سلاطين المماليك وأمرائهم في بناء الزوايا والربط والخوانق وإغداق الأموال عليهم(٥) إدراكًا منهم لعظم تأثير تلك الفئة في الناس، فأرادوا توظيف الصوفية لنشر المذهب السني عند العامة .

نشاط حركة التأليف:

حرص السلاطين المماليك، على دعم العلم من خلال اقتناء الكتب النفيسة، وتشجيع التأليف، وإنشاء المكتبات الضخمة، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد ومدرسة

---

(١) الصوفي، الأوضاع الإسلامية، ص١٢.

(٢) إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية، ص٥٦.

(٣) غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك، ص١٣٦.

(٤) عاشور، العصر المماليكي، ص٣٤٩؛ الصوفي، الأوضاع الدينية، ص٩٣

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٣؛ المقريزي، الخطط، ج٤، ص٨٩.

وأي مؤسسة تعليمية مكتبة عامرة، يلجأ إليها الطلاب والمتعلمون للدراسة، وقد كثرت المكتبات الخاصة والعامة في عصرهم، وحوت الكتب الثمينة والنافعة في شتى العلوم والفنون، فالارتباط بين نهضة العلم في بلد ما، وانتشار المكتبات أمر بديهي، فالكتاب هو أهم العناصر في العملية التعليمية والتربوية[١].

حتى غدت المكتبات الوقفية قبلة لطلاب العلم المحتاجين، وأعانتهم على التزود بكل جديد، كما أصبحت هذه المكتبات من أبرز دعائم حركة الازدهار الفكري والثقافي التي شهدها العالم الإسلامي طوال عصوره التالية المختلفة[٢].

- **تطهير المجتمع من البدع والانحراف العقدي:**

مما يلفت الانتباه في هذا الجانب موقف الدولة المملوكية من بعض المتصوفة، فعلى الرغم من الاهتمام والرعاية التي وجدها الصوفية تحت كنف سلاطين المماليك إلا أن كثيرًا منهم حاد عن الطريق القويم؛ مما جعل الدولة تتصدى لبعض المفاسد والمخالفات العقدية التي كان يرتكبها بعض طوائف الصوفية، ومنها استعمال الموسيقى والرقص، وادعاء علم الغيب، وإسقاط العبادات عن كبار شيوخهم، حيث أصدر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أوامره سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، بمنعهم من عمل هذه الأمور المنكرة في زواياهم من استعمال الآلات الموسيقية والرقص[٣]، حرصًا منها على سلامة عقيدة المجتمع الإسلامي وخلوه من الشرك والغلو.

كما شنَّ كثير من علماء السنة الحرب ضد الصوفية وأفكارها المنحرفة القائلة بالحلول والتناسخ وتناولت انحرافتهم الفكرية بالنقد والردود، وحذرت منها العامة، اعتبرت أقوالهم تلك كفرًا، ومن أبرز دعاتها الذين كان لهم تأثير شهاب الدين

(١) الحجي، صور من الحضارة، ص١٩٠؛ إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية، ص٦٨.

(٢) يحيى بن جنيد، الوقف وبنية المكتبة، ص٤٩.

(٣) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج١، ص١٨٣؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج٢، ص١٠٠.

الباجربقي[١]، الذي ذكر عنه التهاون في الصلاة، وكان يهوّن للناس أمر الشرائع، ومن أقواله: "أن الرسل طولت على الأمم الطريق إلى الله، فحكم عليه بإراقة دمه[٢]. بل منهم من خرج كليًّا عن الإسلام، مثل الصوفي عثمان الدوكالي[٣]، الذي اهم بالتنقيص من مكانة الأنبياء، فعقد له القضاء مجلسًا وحكم عليه بإراقة دمه، فأعدم بسوق الخيل[٤] سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م[٥].

كما حرصت الدولة المملوكية على إزالة كثير من البدع التي استفحل أمرها في البلاد الإسلامية، ومنها بلاد الشام، كإبطال بدعة الوقيد بالمساجد ليلة النصف من شعبان، ففي سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م أصدر السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن

---

(١) **شهاب الدين الباجربقي:** محمد بن عبد الرحيم بن عمير الجزري، جمال الدين الباجربقي، وتحولّ به والده لى دمشق وكان مدرسًا عالمـًا، فاشتغل بالعلم، ثم تزهد وصحب الفقراء وحصلت له أحوال فصار يزار وكثر أتباعه، فحسَّن لهم ترك الشرائع، وكان يظهر لهم من الخوارق ما يخلب به عقولهم، حكم عليه القاضي جمال الدين المالكي بهدر دمه، إلا أنه استطاع أن يتخفى، توفي سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٠٤؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٦٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٦٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧، ص٤٧٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٠٤؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج٢، ص٣٦٩؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٥، ص٢٦٠.

(٣) **عثمان الدوكالي:** عثمان بن عبد الله الدوكالي الصوفي، كان من الخانقاه الشميساطية، دعا طائفة إلى مقالات (الباجربقي)، فشاع أمره، فأمسك وقامت عليه البينة بالأمور المنكرة فحبس، وشهد عليه المزي والذهبي، فحكم عليه بإراقة دمه، فقتل سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م. انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٣، ص٢٥٢.

(٤) **سوق الخيل:** تسمية كانت تطلق على ساحة سوق الخيل، جنوب سوق صاروجا، شرقي ساحة المرجة، وتخصصت بتجارة الخيول وتمويل قطاعات الخيالة بها في العهد السلجوقي والأيوبي والمملوكي والعثماني، كما كانت مركزًا لتجمع الجيش ومهماته بدءًا بالخياطين وصناع الأسلحة، واستمر تطور الساحة والسوق تجاريًّا فاجتمع فيه باعة الخضار والفواكه والعطارة بُدَلاءَ عن باعة الخيل، وهو حالياً في منطقة الميدان، بدف الشوك، خلف منطقة (ضهر البير)، يجتمع فيه باعة الخيول كل يوم جمعة. انظر: قتيبة الشهابي، معجم دمشق، ج٢، ص٩-١٠، ٣٢.

(٥) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)،البداية والنهاية، تح: عبدالله عبدالله التركي، دار هجر، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١٨، ص٤٢٢.

قلاوون مرسومًا بإبطال الوقيد[1] بالجامع الأموي، ولقد علق ابن كثير على هذا المرسوم المبارك بقوله: " كانت هذه البدعة قد استقرت بين أظهر الناس من نحو خمسين وأربعمائة ولى زمننا هذا، وكم سعى فيها من فقيهٍ وقاضٍ، ومفتٍ وعالمٍ، وعابدٍ وأميرٍ،...ولم ييسر الله ذلك إلا في عامنا هذا، والمسؤل من الله تعلى إطالة عمر هذا السلطان ليعلم الجهلة الذين استقر في أذهانهم من أنه إذا أبطل هذا الوقيد في عام يموت سلطان الوقت"[2].

وأصدر السلطان برقوق سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م، أمرًا إلى المحتسب بإبطال ما يحدث في الأعياد من القبائح واللهو والفجور، وما يترتب على ذلك من كثرة المشاحنات والمشاجرات وتعطيل الأسواق[3].

ولعل فيما ذُكِر من أمثلة لدليل واضح على حرص الدولة المملوكية على محاربة البدع الضالة، والحدّ من انتشارها في المجتمع، لاسيما بين الفئة البسيطة الفقيرة التي يسهل خداعها على يد أحد الصوفية ممن حادوا عن الصراط القويم.

---

(١) يزداد في ليالي معينة إضاءة وقود القناديل في المساجد، وبيوت الصوفية، كمستهل رجب، وليلة السابع والعشرين منه، وأول شعبان ومنتصفه، وثبوت هلال رمضان، وليلة السابع والعشرين منه، وليلة المولد النبوي. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى،ج٣، ص٥٧٤؛ الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص٢٢١؛ وللمزيد انظر: ابن الحاج، المدخل، (فصل في وقود القناديل ليلة الختم)، ج٢، ص٣٠٢.

(٢) البداية والنهاية، ج١٨، ص٥٢٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٦٣-٣٦٥.



الخاتمـــة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر لله من قبل ومن بعد، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات. والصلاة والسلام على وافر الصفات، محمد سيد الخلائق والبريات.في نهاية هذه البحث ظهر للباحثة عدة نتائج منها:

- عمّ الرخاء الاقتصادي الدولة المملوكية وعلى الرغم من ذلك فقد وجد فيها فئات من من الطبقات المعدمة، كالفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأرامل والأيتام وفئة من العلماء وطلاب العلم.
- حرصت دولة المماليك على توفير ما تحتاج إليه تلك الفئات، فقامت بتوفير موارد لبيت المال من الزكاة، والخراج، والجوالي، والعشور، والمواريث الحشرية، والأوقاف، لتوجيه أموالها لخدمة المجتمع وفئاته، مما كان له أبلغ الأثر في تطور الحياة الدينية والتعليمية التي أسهمت في خدمة شريحة كبيرة من المحتاجين.
- كثرة الأوقاف في العصر المملوكي؛ مما أدى إلى تنوع كبير في مصارف الأوقاف، فكان هناك تلمس حقيقي لمواطن الحاجة في المجتمع لسدها من خلال الأوقاف، ولم تكن السلطة المملوكية بمنأى عن الأوقاف والاهتمام بها، فقد أولتها عناية كبيرة، وأصبح الإشراف عليها مسؤولية قائمة، يتولاها جهاز الدولة.
- تميّز المجتمع الشامي بالتراحم والترابط بين أفراده، واحتوائه لكثير من الفقراء المحتاجين، بعدة صور كالصدقات التطوعية، ويلاحظ أنها تتم في صورة نقدية، أو عينية، أو في صورة تقديم منافع؛ مثل: كشف الأطباء على بعض المرضى بدون مقابل.
- شهد العصر المملوكي اهتمامًا كبيرًا برعاية الأيتام، سواء من الدولة والمجتمع، فكانوا باباً من أبواب الخير والثواب تنافس عليه السلاطين والأمراء وأهل الخير بما امتلكوا، فوظف الأمراء والتجار أموالهم في رعاية الأيتام؛ مما يدل على مدى شعورهم بالمسؤولية تجاه تلك الفئة الضعيفة، وشملت هذه الرعاية جوانب متعددة في حياة اليتيم، كرعاية حقوقه المالية، وحقه في التعلم، وتوفير ما يحتاج إليه من نفقات مالية وعينية.

- ساعدت رعاية المحتاجين على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع، بتحقيق نوع من المساواة بين أفراده، فقد تمكن الفقير من الحصول على حقه في التعليم والعلاج والمتطلبات الأساسية في الحياة من خلال نظام الوقف، بل إن وثائق الأوقاف تنص في غالبها على مساعدة الفقراء والمحتاجين.

- ألقت الدراسة الضوء على فئة الرقيق والخدام وأوضحت أن تلك الفئة لم تكن فئة منبوذة من المجتمع، بل وجدوا الرعاية والعناية في عصر دولة المماليك؛ حيث رصدت الوقائع حرص العديد من المحسنين على عتق رقيقهم وجواريهم، واعتباره من أجلِّ أعمال البر، ولم تَسْتَثْنِ تلك الفئة في المسكن والإعالة والإشراف من قبل المؤسسات الاجتماعية الوقفية، مثلهم مثل غيرهم من الأحرار.

- امتدت الرعاية الاجتماعية إلى الأرامل والمطلقات باعتبارهن فئةً من الفئات المحتاجة التي لا يخلو مجتمع منهن، حيث يظهر لنا من خلال دراسة أوضاع المرأة المطلقة والأرملة في العصر المملوكي أن المرأة الشامية لم تكن مغلوبة على أمرها، بل نالت حقوقها بقوة القضاء، ، وبُذلت لهنَّ التبرعات النقدية والعينية، وكان لهن نصيب من الأوقاف، ولم يقتصر دورهن على انتظار الإعانات فقط؛ بل منهن من مارسن العمل لتحسين وضعهن.

- نتلمس الجهود المبذولة من قبل الدولة المملوكية؛ لرفع المستوى الصحي في المجتمع الشامي، من خلال بناء البيمارستانات، وتخصيص أقسام خاصة للمرضى النفسيين وأصحاب الإعاقات العقلية، وإيجاد الأطباء وتعليمهم، بل أوجدوا إدارة تدير هذه المنشآت تهتم بأحوال البيمارستانات والمرضى، وفرضت رقابة شديدة على المنشآت الصحية، من خلال نظام الحسبة، ثم سخرت تلك الخدمات الطبية لجميع فئات المجتمع دون تفريق للعلاج بالمجان.

- ساهم سلاطين المماليك في تخفيف العبء عن فئة الغارمين، بدفع الديون لغرمائهم، لاسيما في المناسبات الدينية، وفي زمن الأزمات الطبيعية والاقتصادية تعاطفًا مع أوضاع الشعب وسار الأمراء وأهل الخير على هدي سلاطينهم في هذا الباب، حيث وُجدت أوقاف خاصة لتخليص السجناء ووفاء ديونهم.

- لم تغفل الدولة المملوكية عن رعاية أسرى المسلمين، وقد وتنوعت وسائل فكاك الأسرى في زمنهم منها: تخصيص ديوان عرف باسم ديوان الأسرى.
- خصص المماليك الربط والخانقوات والخانات والزوايا لرعاية العابرين وأبناء السبيل، خاصة، المنقطعين منهم، وتابعهم في ذلك الميسورين من الأمراء والمشايخ والتجار. وأسهمت هذه المؤسسات في نشر العلم ورعاية المنقطعين للعلم اجتماعيًّا وصحيًّا.
- كشفت الدراسة أن بلاد الشام في العصر المملوكي شهدت كثيرًا من الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية التي أودت بحياة الآلاف من الناس، وكان لها جوانب عكسية على جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأبرزت الدور الذي قامت به الدولة المملوكية للحد من تلك الآثار وتمثل ذلك بعدة صور منها: إنفاق أموالاً كثيرة في الأعمار والترميم، توفير ما يلزم الناس من الاحتياجات الضرورية، عملت على تحديد الأسعار ومعاقبة المسؤلين ، أبطلت العديد من المكوس تخفيفًا عن الرعية.
- كان الفقراء والمحتاجون في العصر المملوكي موضع اهتمام ورعاية من سلاطين المماليك والقادرين من أهل الخير في حياهم، وأيضًا بعد مماهم، فوُجدت في بلاد الشام مؤسسات خاصة بتغسيل الأموات من الفقراء الذين لا يجدون من يتكفّل بغسلهم ودفنهم، أُطلق عليها مغاسل الموتى، وأوقاف كثيرة لإنشاء مقابر للمسلمين.
- حرصت الدولة المملوكية على محاربة البدع الضالة، والحد من انتشارها في المجتمع، لاسيما بين الفئة البسيطة الفقيرة التي يسهل خداعها على يد بعض الصوفية ممن حادوا عن الصراط القويم.
- اهتمّ السلاطين المماليك بفئة الصُّناع، وبتوفير الأسواق الداخلية والخارجية لتوزيع الصناعات المختلفة. مما كان له أكبر الأثر في ارتفاع المستوى الاقتصادي، وهذا بدوره ساعد على تحسن الوضع المعيشي لشريحة كبيرة من العامة، وفتح لهم أبواب رزق واسعة.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

المـــلاحـــق

ملحق رقم (١): جداول بأسماء سلاطين المماليك.

ملحق رقم (٢): الخرائط والصور.

ملحق رقم (٣): الوثائـق.

ملحق رقم (٤): نصوص منوعة.

ملحق رقم (٥): نماذج لأوجهه الرعاية المقدمة للفئات المحتاجة.

ملحق رقم (١): أسماء سلاطين دولة المماليك

ملحق رقم (١): أسماء السلاطين المماليك

(أ) سلاطين المماليك البحرية[1] (٦٤٨ – ٧٨٤/ ١٢٥٠ – ١٣٨٢م).

الرقم	اسم السلطان	فترة الحكم
١	شجر الدر	٦٤٨هـ/١٢٥٠
٢	المعز عز الدين أيبك	٦٤٨ – ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ – ١٢٥٧م
٣	المنصور نور الدين علي	٦٥٥ – ٦٥٦هـ / ١٢٥٧ – ١٢٥٨م
٤	المظفر سيف الدين قطز	٦٥٧ – ٦٥٨هـ / ١٢٥٨ – ١٢٥٩م
٥	ركن الدين بيبرس البندقداري	٦٥٨ – ٦٧٦هـ / ١٢٥٩ – ١٢٧٧م
٦	السعيد ناصر الدين محمد بركة خان	٦٧٦ – ٦٧٨هـ / ١٢٧٧ – ١٢٧٩م
٧	العادل بدر الدين سلامش	ربيع أول – رجب ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م
٨	المنصور سيف الدين قلاوون	٦٧٨ – ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠م
٩	الأشرف صلاح الدين خليل	٦٨٩ – ٦٩٣هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٣م
١٠	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (المرة الأولى)	٦٩٣ – ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ – ١٢٩٤م
١١	العادل زين الدين كتبغا	٦٩٤ – ٦٩٦هـ / ١٢٩٤ – ١٢٩٦م
١٢	المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦ – ٦٩٨هـ / ١٢٩٦ – ١٢٩٨م
١٣	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (المرة الثانية)	٦٩٨ – ٧٠٧هـ / ١٢٩٨ – ١٣٠٨م
١٤	المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨ – ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ – ١٣٠٩م
١٥	الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (المرة الثالثة)	٧٠٩ – ٧٤١هـ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠م
١٦	المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١ – ٧٤٢هـ / ١٣٤٠ – ١٣٤١م
١٧	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	صفر – شوال ١٣٤١/٧٤٢م
١٨	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	شوال ٧٤٢ – محرم ١٣٤٢/٧٤٣م
١٩	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	٧٤٣ – ٧٤٦هـ / ١٣٤٢ – ١٣٤٥م
٢٠	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦ – ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ – ١٣٤٦م
٢١	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	٧٤٧ – ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ – ١٣٤٧م
٢٢	الناصر أبو المحاسن حسن الناصر محمد (المرة الأولى)	٧٤٨ – ٧٥٢هـ / ١٣٤٧ – ١٣٥١م
٢٣	الصالح صالح الدين محمد صالح بن الناصر محمد	٧٥٢ – ٧٥٥هـ / ١٣٤١ – ١٣٥٤م
٢٤	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (المرة الثانية)	٧٥٥ – ٧٦٢هـ / ١٣٥٤ – ١٣٦٠
٢٥	المنصورصلاح الدين محمد حاجي	٧٦٢ – ٧٦٤هـ / ١٣٦٠ – ١٣٦٢م
٢٦	الأشرف أبو المعالي زين الدين شعبان بن الحسين	٧٦٤ – ٧٧٨هـ / ١٣٦٢ – ١٣٧٦م
٢٧	المنصور علاء الدين بن شعبان بن حسين	٧٧٨ – ٧٨٣هـ / ١٣٧٦ – ١٣٨١م
٢٨	الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين	٧٨٣ – ٧٨٤هـ / ١٤٣٨ – ١٣٨٢م

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد المملوكي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٣٥-٣٦؛ محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٥٧٥؛ سامي عبدالله بن أحمد المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٣٣ه، ص١٤.

(ب) المماليك البرجية " الجراكسة[1] " (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ – ١٥١٧م):

الرقم	اسم السلطان	فترة الحكم
١	الظاهر سيف الدين برقوق (المرة الأولى)	٧٨٤ – ٧٩٠هـ /١٣٨٢ – ١٣٨٨م
٢	الصالح حاجي بن شعبان	٧٩٠ – ٧٩٢هـ /١٣٨٨ – ١٣٩٠م
٣	الظاهر سيف الدين برقوق (المرة الثانية)	٧٩٢ – ٨٠١هـ / ١٣٩٠ – ١٣٩٩م
٤	الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق	٨٠١ – ٨١٥هـ / ١٣٩٩ – ١٤١٢م
٧	الخليفة العباسي المستعين	٨١٥ هـ / ١٤١٢م
٨	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	٨١٥ – ٨٢٤هـ / ١٤١٢ – ١٤٢١م
٩	المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤هـ / ١٤٢١م
١٠	الظاهر سيف الدين ططر	٨٢٤هـ/١٤٢١م
١١	محمد بن ططر	٨٢٤ – ٨٢٥هـ / ١٤٢٢ – ١٤٢٢م
١٢	الأشرف برسباي	٨٢٥ – ٨٤١هـ / ١٤٢٢ – ١٤٣٨م
١٣	أبو المحاسن يوسف بن برسباي	٨٤١ – ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م
١٤	الظاهر جقمق	٨٤٢ – ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣م
١٥	المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧هـ / ١٤٥٣م
١٦	الأشرف اينال	٨٥٧ – ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ – ١٤٦١م
١٧	المؤيد أحمد بن إينال	٨٦٥هـ / ١٤٦١م
١٨	الظاهر أبو سعيد خشقدم	٨٦٥ – ٨٧٢هـ / ١٤٦١ – ١٤٦٧م
١٩	الظاهر يلباي المؤيدي	٨٧٢هـ/١٤٦٧م
٢٠	الظاهر تمربغا	٨٧٢هـ/١٤٦٨م
٢١	الأشرف قايتباي	٨٧٢ – ٩٠١هـ / ١٤٦٨ – ١٤٩٦م
٢٢	محمد بن قايتباي (المرة الأولى)	٩٠١ – ٩٠٢هـ / ١٤٩٧ – ١٤٩٨م
٢٣	الأشرف قانصوه خمسمائة	٩٠٢هـ / ١٤٩٧هـ
٢٤	محمد بن قيتباي (المرة الثانية)	٩٠٢ – ٩٠٤هـ / ١٤٩٧ – ١٤٩٨م
٢٥	الظاهر قانصوه الأشرفي	٩٠٤ – ٩٠٥هـ / ١٤٩٨ – ١٥٠٠م
٢٦	الأشرف أبو النصر جانبلاط	٩٠٥ – ٩٠٦هـ / ١٥٠٠ – ١٥٠١م
٢٧	العادل طومان باي الأول	٩٠٦هـ/ ١٥٠١م
٢٨	الأشرف أبو النصر قانصوة الغوري	٩٠٦ – ٩٢٢هـ / ١٥٠١ – ١٥١٦م
٢٩	الأشرف طومان باي الثاني	٩٢٢ – ٩٢٣هـ / ١٥١٦ – ١٥١٧م

(١) شاكر، التاريخ الإسلامي، ، ص٦٩-٧٠؛ طقوش، تاريخ المماليك، ص٥٧٦؛ سامي عبدالله بن المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص١٧٠.

ملحق رقم (٢): الخرائط والصور

(أ) خريطة توضح حدود الدولة المملوكية.

(ب) خريطة توضح دولة المماليك البرجية في أقصى اتساع لها.

(ج) خريطة توضح غزوات تيمورلنك ما بين سنة ٧٧١-٨٠٧هـ/١٣٧٠-١٤٠٥م.

(د) صورة سبيل الكأس.

(هـ) صورة سبيل قايتباي.

(و) سبيل البصيري.

(ز) صورة الخانقاه الصلاحية.

(ح) صورة المدرسة الأشرفية.

(ط) موقع المدرسة الصابونية ضمن مخطط مركز دمشق.

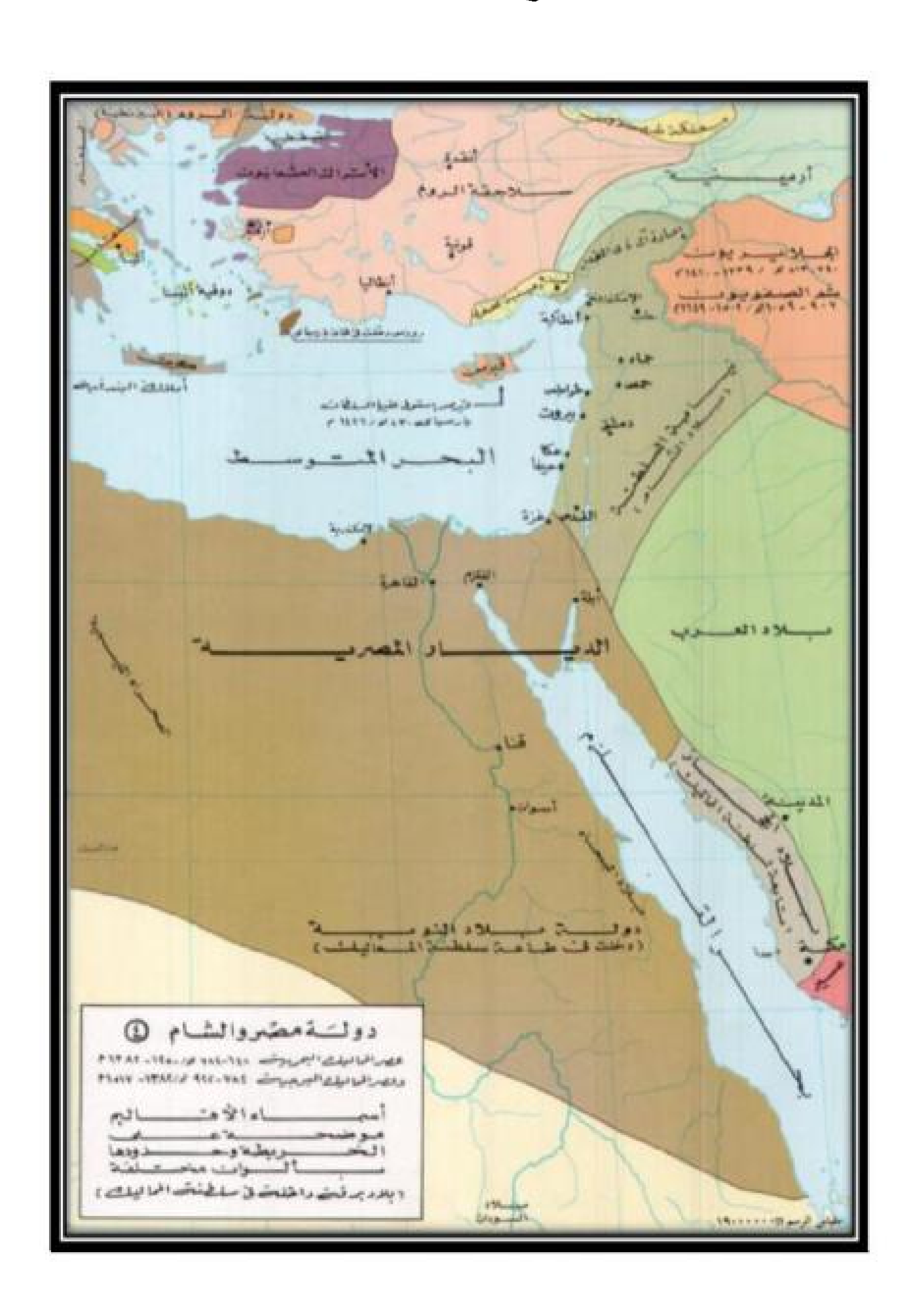
(ي) نقش دار القرآن الصابونية على اللوحة الرخامية.

(ك) صورة المدرسة الصابونية.

(ل) المدرسة التنكزية.

(م) المدرسة الأسعرية.

(أ) خريطة توضح حدود الدولة المملوكية[1]



---

(١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٣٠٥.

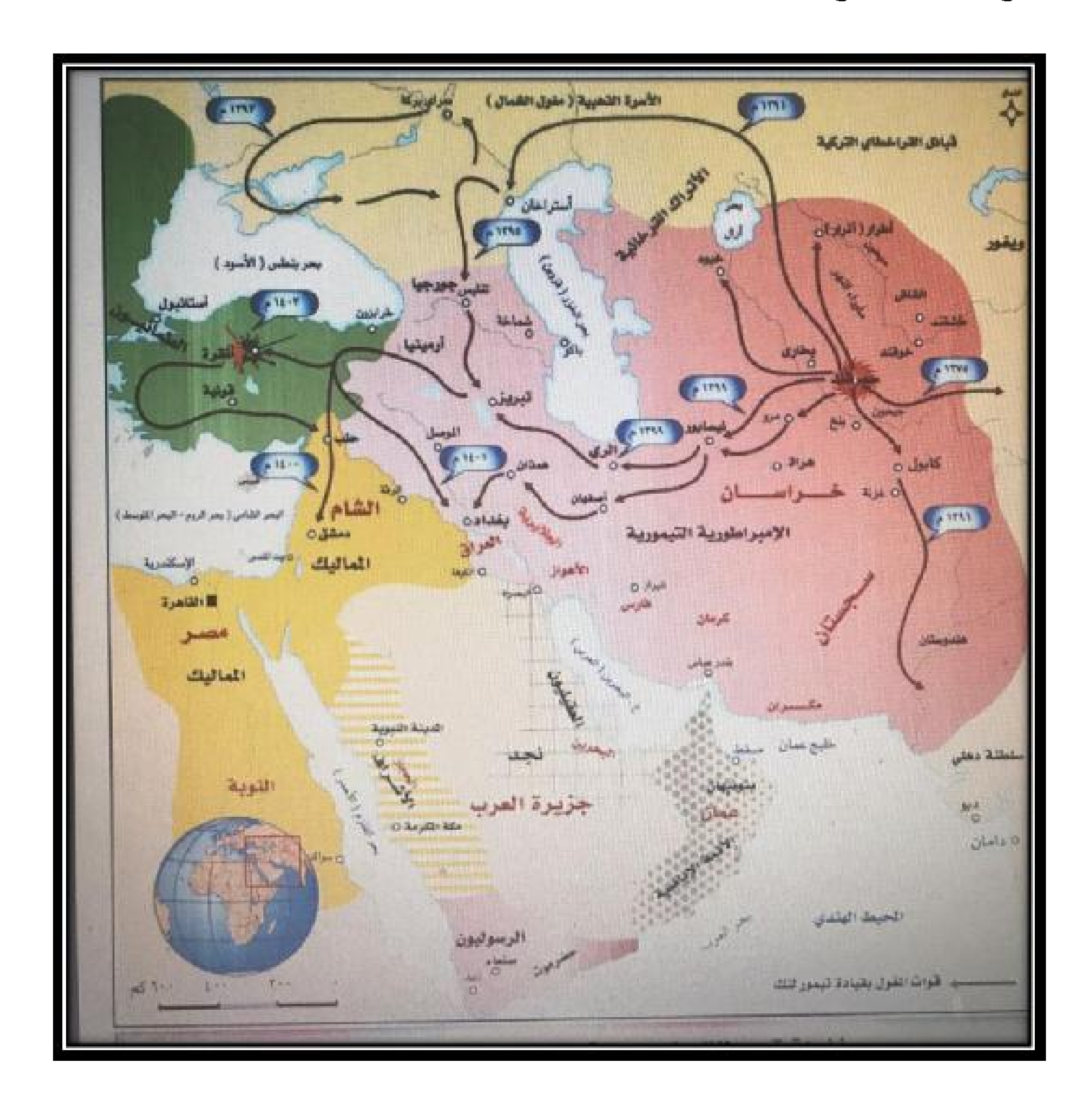
(ب) خريطة توضح دولة المماليك البرجية في أقصى اتساع لها[(١)].



---

(١) سامي المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص١٥٦.

(ج) خريطة توضح غزوات تيمورلنك[١] ما بين سنة ٧٧١-٨٠٧هـ/١٣٧٠-١٤٠٥م



---

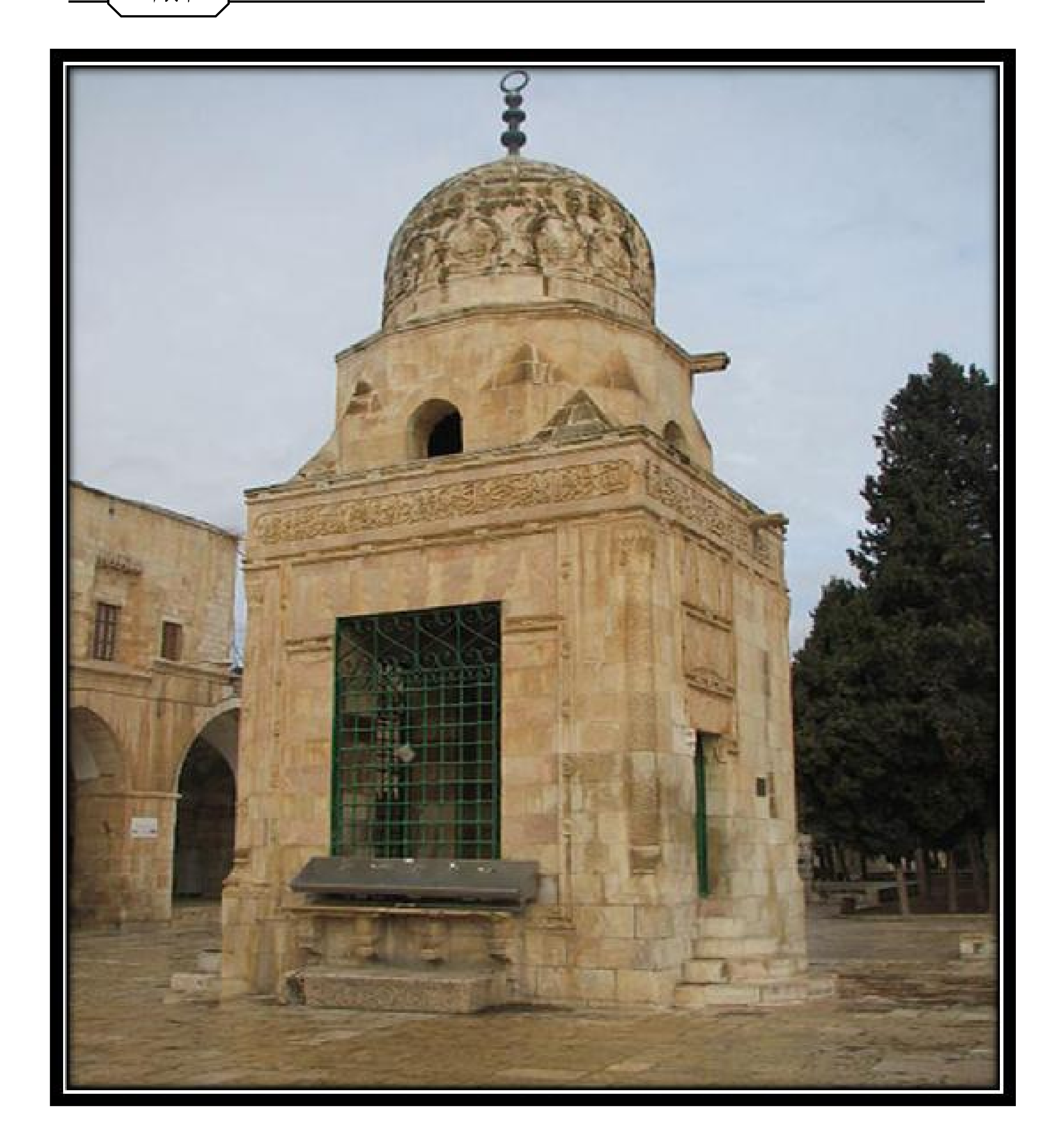
(١) سامي المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص١٨١.



(د) سبيـــل الكـــأس

من موقع: مواقع أثرية في فلسطين

/https://archpalblog.wordpress.com/jerusalem



(هـــ) سبيل قايتباي

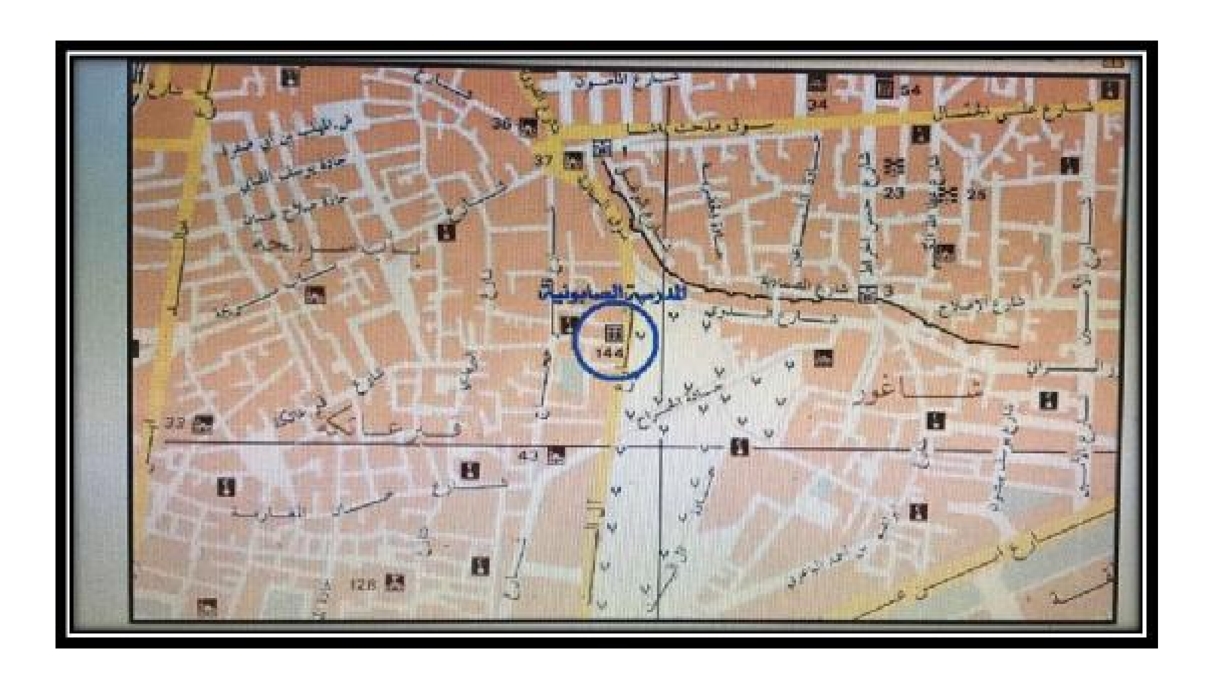
سامي المغلوث، أطلس تاريخ العصر المملوكي، ص٢٧٨

وانظر:: مواقع أثرية في فلسطين

/https://archpalblog.wordpress.com/jerusalem



(و) سبيـــل البصـــيري
موقع: أخوات من أجل الأقصى
http://cutt.us/YQjt.



(ط) موقع المدرسة الصابونية، منقول عن: **مخطط مركز مدينة دمشق الصادرة عن وزارة السياحة السورية بالتعاون مع محافظة مدينة دمشق الممتازة عام ٢٠٠٥م**[١].

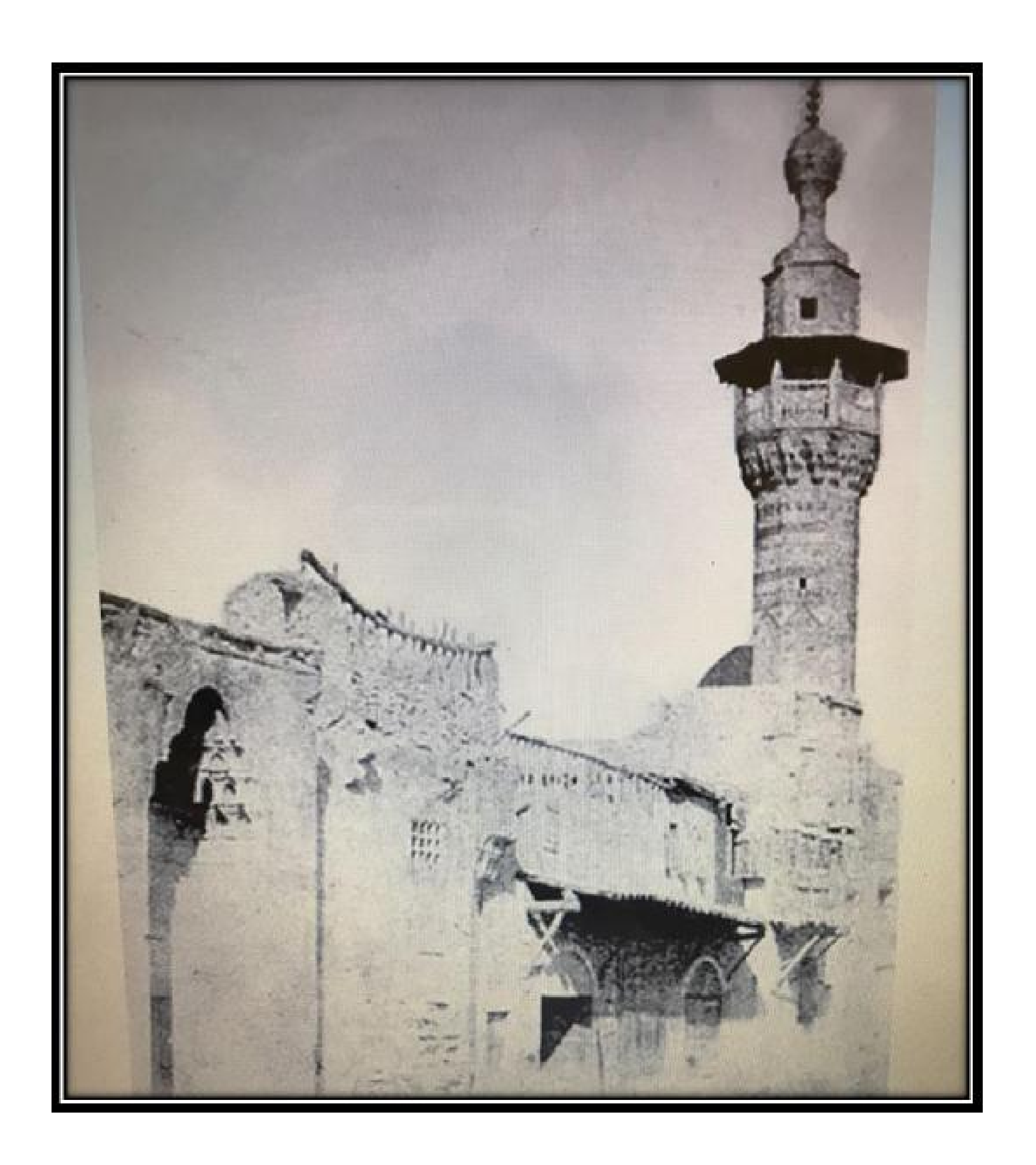


اللوحة الرخامية على جدار المدرسة الصابونية بعدسة عماد الأرمشي

(ي) نقش دار القرآن الصابوينة على اللوحة الرخامية

---

(١) عماد الأرمشي، المدارس المملوكية بدمشق "المدرسة الصابونية"، مقال في شبكة الأنترنت، ٢٠١٣/٢/١٠م.
http://naim-almadani.com/cc/showthread.php?t=3673



(ك) دار القرآن الصابونية

عماد الأرمشي، المدارس المملوكية بدمشق "المدرسة الصابونية"، مقال في شبكة الأنترنت، ٢٠١٣/٢/١٠م.

http://naim-almadani.com/cc/showthread.php?t=3673



(ل) المدرسة التنكزية



(م)المدرســـة الأسعريـــة

http://cutt.us/x5yaC

الملحق (٣) نصوص منوعة

(أ) نسخة توقيع بقضاء قضاة الشّافعيّة بطرابلس

(ب) رسائل الإمام النووي للسلطان الظاهر بيبرس .

(أ) نسخة توقيع بقضاء قضاة الشّافعيّة بطرابلس، ينسج على منواله[1]، وهي:

الحمد لله الّذي أعزّ الدّين بعلمائه، وعضّد الحكم بالمتّقين من أوليائه، وأوضح الرّشد للمقتدين بمن جعلهم في الهداية كنجوم سمائه، وجعل لكلّ من الأئمّة من مطالع الظهور أفقا يهتدى فيه بأنواره ويقتدى بأنوائه.

نحمده على أن جعل سهم اجتهادنا في الارتياد للأحكام مصيبا، وقسم لكلّ من أفقي ممالكنا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيبا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تعصم من الهوى في الحكم لعباده، وتفصم العرا ممن جاهر فيها بعناده، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الّذي أضاءت أنوار ملّته، فاستشفّ العلماء لوامعها، ووضحت آثار سنّته، فأحرز أئمّة الأمّة جوامعها، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دعوا إلى الله فأجابوا، ودعوا إلى الحكم بسنّته فأصابوا، صلاة لا تزال الألسن تقيمها، والإخلاص يديمها، وسلّم تسليما كثيرا.

وبعد، فإنّ أولى ما أدّى فيه الاجتهاد جهده، وبلغ فيه الارتياد حدّه؛ واستضيء فيه بنور التّوفيق، واستصحب فيه من استخارة الله خير رفيق- أمر الحكم العزيز وتفويضه إلى من وسّع الله تعالى مجال علمه، وسدّد مناط حكمه، وطهّر مرام قلبه، ونوّر بصره في الحكم وبصيرته فأصبح فيهما على بيّنة من ربّه، فأجرى الحق في البحث والفتيا على لسانه ويمينه، ونزّهه عن إرادة العلم لغير وجهه الكريم، ونبّهه على ابتغاء ما عند الله بذلك والله عنده أجر عظيم.

ولما خلا منصب قضاء القضاة بطرابلس المحروسة على مذهب الإمام الشافعيّ رضي الله عنه: وهو المنصب الّذي يضيء بالأئمة الأعلام أفقه، وتلتقي بالفضلاء الكرام طرقه، وتحتوي على أرباب الفنون المتعدّدة مجالسه، وتزكو بالفوائد المختلفة مغارسه، وكان فلان هو الّذي أشير إلى خصائص فضله، ونبّه على أنّ الاجتهاد للأمّة أفضى إلى إسناد الحكم منه إلى أهله، وأنّه واحد زمانه، وعلّامة أوانه، وجامع الفضائل على اختلافها، وقامع البدع على افتراق شبهها منه وأتلافها، وحاوي الفروع الّتي لا تتناهى، والمربي على ربّ

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص١٨١.

كلّ فضيلة لا يعرف غيرها ولا يألف سواها- اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجزم من ارتياده لهذه الرتبة بهذا الرّأي [السديد] ، وأن نقرّب سراه إلى هذا المنصب الذي ناداه بلسان الرّغبة من مكان بعيد.

فلذلك رسم بالأمر الشّريف- لا زال إحسانه كالبدر، يملأ المشارق والمغارب، وبرّه كالبحر، يقذف للقريب الجواهر ويبعث للبعيد السّحائب- أن يفوّض إليه كذا. فليطلع بذلك الأفق الّذي يترقّب طلوعه رقبة أهلّة المواسم، ويسرع إلى تلك الرّتبة الّتي تكاد تستطلع أنباءه من الرياح النّواسم، وينشر بها فرائده الّتي هي أحقّ أن تطوى إليها المراحل ، ويقدم بها على الأسماع الظّامية لعذب فوائده قدوم الغمام على الرّوض الماحل، ويلي هذا المنصب الّذي هو فيه بين عدل ينشره، وحقّ يظهره، وباطل يزهقه، وغالب يرهقه، ومظلوم ينصره.

وليكن أمر أموال الأيتام المهمّ المقدّم لديه، وحديث أوقاف البرّ من أوّل وأولى ما يصرف فكره الجميل إليه، ويتعاهد كشف ذلك بنفسه، ولا يكتفي في علمه فعل اليوم باطّلاعه [على أمره] في أمسه؛ وهو يعلم أنّ الله يجعله بذلك مشاركا للواقفين في الأجر المختصّ بهم والشّكر المنسوب إليهم، خارجا من العهدة في أمر اليتامى باستعمال الذين يخشون لو تركوا من خلفهم ذرّيّة ضعافا خافوا عليهم؛ وليقم منار الحق على ما يجب وإن سرّ قوما وساء قوما، ويقم بالعدل على ما شرع: فإنّ «عدل يوم خير للأرض من أن تمطر أربعين يوما.

وأمّا ما عدا ذلك من أحوال الحكم وعوائده، وآداب القضاء وقواعده، فكلّ ذلك من خصائصه يستفاد، ومن معارفه يستزاد؛ وملاك ذلك كلّه تقوى الله وهي من أطهر حلاه الحسنة، وأشرف صفاته الّتي تتداولها الألسنة؛ فليجعلها وسيلة تسديده في القول والعمل، وذخيرة آخرته التي ليس له في غيرها أمل، ويقلد العلى فيما حدّثته من أسباب نقلته فإن كمال العزّ في النقل؛ والله تعالى يمدّه بموادّ تأييده وقد فعل، ويجعله من أوليائه المتّقين وقد جعل، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى.

رسائل الإمام النووي للسلطان الظاهر بيبرس[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله يحيى النَّواوي.

سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المُحْسِنِ ملكِ الأمراء بدر الدين، أدام الله الكريم له الخيرات، وتولاَّه بالحسنات، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آمالِه، وبارك له في جميع أحواله، آمين.

ويُنْهَى إلى العلوم الشريفة أنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضيقِ عيشٍ، وضَعْف حالٍ، بسبب قلَّة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلّة الغلاَّت والنبات، وهلاك المواشي، وغير ذلك.

وأنتم تعلمون أنَّه تجب الشفقةُ على الرعيةِ والسُّلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإنَّ الدِّينَ النَّصيحة. وقد كتب خَدَمَةُ الشَّرْعِ؛ الناصحون للسلطان، المحبُّون له؛ كتاباً بتذكيره النَّظَر في أحوال رعِيَّتِهِ، والرفق بهم، وليس فيه ضررٌ، بل هو نصيحةٌ مَحْضَةٌ، وشفقة تامة، وذكرى لأولي الألباب.

والمسؤول من الأمير -أيده الله تعالى- تقديمه إلى السلطان -أدام الله له الخيرات-، ويتكلم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعية بما يجدُهُ مُدَّخَراً له عند الله: {يَوْمَ تَجدُ كُل نَفسٍ مَا عَمِلَت مِن خَير وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَء تَوَدُ لَو أَن بَينَهَا وَبَينَه أَمَدَا بَعِيدا وَيُحَذِرُكم اللهُ نَفْسَه}

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان -أعز الله أنصاره- [والمسلمين كلِّهم في الدُّنيا والآخرة، فيجب عليكم الصالُهُ للسُّلطانِ -أعزَّ الله أنصاره-،] ، وأنتُم مسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عُذْرَ في التأخُّرِ عنها، ولا حُجَّةَ لكم في التقصيرِ فيها عند الله تعالى، وتُسألون عنها {يَومَ لَا يَنفعُ مَال وَلَا بنَوُنَ} ، (يَومَ يَفِر المَرء من أَخيه وَأُمه وَأبيه وَصَاحِبَته وَبَنِيهِ لِكل امرئ مِنْهُمْ يؤمَئذ شَأن يُغْنِيهِ } أنتم بحمد الله تحبون

(١) ابن العطار، علي بن إبراهيم بن داود(ت٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، تحفة الطالبين في ترجمة الامام النووي، تح، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، الدار الأثرية ، عمان- الأردن، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧، ص ٩٩-١١٠.

الخير، وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات، وقد أُهِّلْتُم له، وساقه الله إليكم، وهو مِن فضلِ الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحْصُلِ النظَرُ في الرِّفقِ بهم. قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } وقال تعالى: {وَمَا تفعَلُو مِن خير فَإِنَ اللهَ به عَلِيم} والجماعة الكاتِبون منتظرون ثمرةَ هذا؛ مما إذا فَعَلْتُموهُ، وَجَدْتُموهُ عند الله {إِنَ اَللهَ مع اَلذِينَ اَتقَوا وَاَلَذِينَ هُم مُحسنُونَ}

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فلما وصلتِ الورقتان إليه؛ أوقفَ عليهما السُّلطان، فلما وقف عليهما؛ ردَّ جوابَها جواباً عنيفاً مؤلماً، فتنكَّدَت خواطرُ الجماعة الكاتبون وغيرهم، فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب: إيضاحَ الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ } فوجب علينا حينئذٍ بيانه، وحَرُمَ علينا السكوتُ؛ قال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } وذُكِرَ في الجواب أنَّ الجهادَ ليسَ مختصّاً بالأجنادِ، وهذا أمرٌ لم نَدَّعِهِ، ولكنَّ الجهادَ فرضُ كفايةٍ، فإذا قَرَّرَ السُّلطانُ له أجناداً مَخْصوصينَ، ولهم أخباز معلومةٌ مِن بيت المال؛ كما هو الواقع؛ تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم؛ من الزراعة، والصَّنائع، وغيرهم ، الذي يحتاجُ الناسُ كلُّهم إليها، فجهادُ الأجنادِ مُقابِل الأخبازِ المقرَّرةِ لهم، ولا يَحِلُّ أنْ يؤخَذَ مِن الرَّعيَّةِ شيءٌ ما دامَ في بيتِ المالِ شيءٌ؛ مِن نَقْدٍ، أو متاع، أو أرضٍ، أو ضياعٍ / تباع، أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمينَ في بلاد السلطان -أعزَّ الله أنصاره- مُتَّفِقون على هذا، وبيت المال -بحَمْدِ الله- معمورٌ، زادَهُ الله عمارةً وسَعَةً وخيراً وبركةً في حياة السلطانِ المقرونةِ بكمالِ السعادةِ له، والتَّوفيق والتَّسديد والظهورِ على أعداء الدين، (وَمَا النَّصرُ إلا مِنْ عِندِ اللهِ) ، وإنما يُسْتَعانُ في الجهادِ وغيرِه بالافتقارِ إلى الله تعالى، وإتباع آثار النبي -صلى الله عليه وسلم -، ومُلازمةِ أحكام الشرع.

وجميعُ ما كتبْناهُ -أوَّلاً وثانياً- هو النصيحةُ التي نعتَقِدُها، ونَدينُ الله بها، ونسألهُ

الدَّوامَ عليها حتى نَلْقاه.

والسلطانُ يعلمُ أنَّها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة، وليس فيها ما نُلامُ عليه، ولم نكتُب هذا للسلطان؛ إلَّا لعِلْمِنا أنَّه يُحِبُّ الشَّرعَ، ومتابعَتَهُ أخلاقَ النبي - صلى الله عليه وسلم - في الرفقِ برعيَّتِه، والشفقةِ عليهم، وإكرامِه لآثارِ النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكلُّ ناصح [للسلطانِ] موافِقٌ على هذا الذي كَتَبْناهُ.

وأما ما ذُكِرَ في الجواب مِن كوننا لم نُنكِر على الكفَّارِ حين كانوا في البلاد؛ فكيف يُقاسُ ملوكُ الإسلامِ وأهلُ الإيمان والقرآنِ بطُغاةِ الكفَّارِ؟! وبأيِّ شيءٍ كُنَّا نُذَكِّرُ طغاةَ الكفَّارِ وهُم لا يعتَقِدونَ شيئاً مِن ديننا؟!

وأما تهديدُ الرعيةِ بسبب نصيحَتِنا، وتهديدُ طائفة (٤)؛ فليس هو المَرْجُوُّ مِن عدْلِ السلطانِ، وحِلْمِهِ/ وأيُّ حِيلة لضعفاء المسلمين المفرَّقين في أقطار ولايةِ السلطان في كتاب كَتَبهُ بعضُ المسلمين النَّاصحينَ نصيحةً للسلطان ولهُم، ولا عِلْمَ لهُم به؟! وكيفَ يؤاخَذونَ بهِ لو كانَ فيه ما يُلامُ عليه؟!

وأما أنا في نفسي؛ فلا يضرُّني التهديدُ، ولا أكبرُ منه، ولا يمنَعُني ذلك من نصيحةِ السُّلطانِ، فإني أعتَقِدُ أنَّ هذا واجبٌ علي وعلى غيري، وما ترتَّبَ على الواجب؛ فهو خيرٌ وزيادةٌ عند الله تعالى؛ {إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} ، {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ، وقد أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نقول بالحق حيث ما كنا، وأن لا نخافَ في الله لومَةَ لائِمٍ. ونحنُ نُحِبُّ للسلطانِ معاليَ الأمورِ، وأكمَلَ الأحوالِ، وما يَنْفَعُهُ في آخرتِه ودُنياه، ويكونُ سبباً لدوامِ الخيراتِ له، ويَبْقى ذكرُهُ له على ممرِّ الأيام، ويخْلُدُ في سننه الحسنة، ويجد نفعَه {يَومَ تَجدُ كل نَفس مَا عَمِلَت مِن خير محضَراً} .

وأما ما ذُكِر من تمهيد [السلطان] البلادَ، وإدامتَه الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء؛ فهذا بحمدِ الله من الأمور الشائعة، التي اشترك في العلم بها الخاصَّةُ والعامَّة، وسارَتْ في أقطارِ الأرضِ، ولله الحمد، وثواب ذلك مُدَّخَرٌ للسلطانِ إلى (يَومَ تَجدُ كُل نَفس مَا عَمِلَت مِن خير مُحْضَراً}

ملحق رقم (٤)

نماذج لأوجهه الرعاية المقدمة للفئات المحتاجة

(أ) بيان أنواع الرعاية المقدمة للفئات المحتاجة في العصر المملوكي.

(ب) الخدمات المقدمة وقت الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية.

(ج) مراسيم الإعفاءات لتخفيف عن الرعية.

(أ) بيان أنواع الرعاية المقدمة للفئات المحتاجة في العصر المملوكي

نوع الرعاية	المتبرع	نوع التبرع	السنة	المدينة	المستفيد	المصدر
تعليمية	نجم الدين يحي بن محمد بن الدمشقي اللبودي	أنشأ المدرسة اللبودية النجمية على خزانتين للكتب، احتوت على جملة كبيرة من الكتب الطبية.	٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م	دمشق	طلاب العلم	ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦٦٣؛الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٦٥-١٦٦؛
اجتماعية	السلطان الظاهر بيبرس	بنى زاوية للشيخ خضر، ورتب لها مالاً يجري على الفقراء المقيمين بها والواردين إليها.	٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م	بيت المقدس	فقراء الصوفية وعابري السبيل	ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، ص٣٥٠.
دينية اجتماعية	السلطان الظاهر بيبرس	أصدر مرسوماً بعمارة مسجد الخليل عليه السلام ورتب للمسجد مالاً ينفق على الزائرين والمقيمين.	٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م	بيت المقدس	عابري السبيل	ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر،ص٤١٦؛ العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٧.
اجتماعية	علاء الدين البصير	أنشأ رباط على الفقراء الزائرين، ويصرف لكل واحد منهم رطلين من الخبز لمدة خمسة أيام.	٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م	بيت المقدس	الفقراء وعابري السبيل	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٧؛ عارف العارف، المفصل، ص ١٩٩؛ العسلي، معاهد ، ص٣١٨.
اجتماعية	إمرأتين من عتقاء الملك الصالح	أوقفا الرباط المارديني وكان من شروط وقفه أن يكون لمن يرد من ماردين فقط.	٦٧٣هـ/ ١٢٦٤م	بيت المقدس	عابري السبيل	العليمي، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص٨٩.
اجتماعية	الأمير طاجار	أنشأ خاناً في جنين وبنى فيه حوضاً للسبيل وأنشأ به حماماً وعدة حوانيت ويباع فيه ما يحتاج إليه المسافرون وكثر الانتفاع منه.	٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م	جنين	انتفع بها المسافرين من عابري السبيل والحجاج	الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١٦ ، ص٢١٨؛ المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ص٢٧٧
اجتماعية	بدر الدين الصوابي	تصدق من ماله الخاص نحو ثلاثة آلاف درهم.	٦٨١هـ/ ١٢٨٣م	دمشق	الحجاج	الجزيري، درر الفرائد، ج١ ، ص٦٠٧؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٤١.
اجتماعية	السلطان المنصور	أنشأ الرباط المنصوري للفقراء والمساكين، ويتألف من عدد من القاعات من الغرف والخلوات	٦٨١هـ/ ١٢٨٢م	بيت المقدس	للفئات المحتاجة	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨٩
تعليمية	واقف دار القرآن الصابونية الخواجكي أحمد الشهابي	أوقف دار القرآن الصابونية خصص لطلبه أماكن للسكن، وأوقف مكتب للأيتام ملحق بدار الصابونية بمعاليم شرطها لهم.	٦٨٦هـ/ ١٤٦٣م	دمشق	طلاب وأيتام	النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس،ج١ ، ص ١٢-١٣؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١ ، ص١٧.

تعليمية	أبو بكر محفوظ بن معتوق البزوري.	حصّل الكتب النفيسة، ووقف كتبه على تربه أنشأها بالصالحية.	٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م	دمشق	للعلماء وطلاب العلم	ساعاتي ، الوقف ، ص١١٤.
دينية	السلطان الناصر محمد بن قلاوون	أصدر مرسوم منع أهل الذمة من شراء الجواري المسلمات وألزم النصارى واليهود بالشروط التي اشترطها الخليفة عمر بن الخطاب في زمنه.	٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م	الديار المصرية والبلاد الشامية	العبيد والجواري	المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٣٨.
اجتماعية	الأمير علم الدين أرجواش بن عبدالله المنصوري	أوصى بعتق مماليكه وجواريه، وأوقف عليهم وقفًا	٧٠١هـ/ ١٣٠٢م	دمشق	العبيد والجواري	العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٠٤.
تعليمية وصحية واجتماعية	الأمير بكتمر بن عبد الله الحر الأشرفي	بنى زاوية ومدرسة وبيمارستاناً بأموال جسيمة وأوقفها على الصادي والغادي من أبناء السبيل	٧١٩هـ/ ١٣١٩م	بين بعلبك وحمص	انتفع بها المسافرين من عابري السبيل والحجاج	محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٢٦.
اجتماعية اقتصادية	الشيخ أبي مدين شعيب المغربي	أوقف زاوية في القدس الشريف ، لتكون سكن للمغاربة المقيمين بالقدس الشريف، أو القادمين إليه للمجاورة فيه على اختلاف أوصافهم.	٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م	بيت المقدس	لفقراء المغاربة الوافدين والمجاورين	عبد الهادي التازي، أوقاف المغاربة في القدس الشريف،، ص ١٤-١٨.
اجتماعية	يلقطو بنت ابغا	حجت وتصدقت بثلاثين ألف دينار.	٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م	في بلاد الحرمين وفي طريقها إلى دمشق	الفقراء من الحجاج	ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٦، ص٢١٣ ؛ كحالة، أعلام النساء، ج ٥، ص ٢٩٩.
اجتماعية	زوجة الأمير سيف الدين كجكن المنصوري	بإعتاق عدد من الجواري وتكفلت بتزويجهن	٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م	دمشق	الجواري	ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢،ص١٣٤.
اجتماعية	سيف الدين تنكز	عمر ٢٩ قناة للمياه.	٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م	بلاد الشام	كافة فئات المجتمع	النويري، نهاية الأرب، ج٣٣، ص٢٦٧.
تعليمية واجتماعية	سيف الدين تنكز	أوقف مدرسة ورباط، ورتب بها الخلاوي لسكن فضلًا عن الرواتب والأوقاف عليها.	٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م	بيت المقدس	العلماء وطلبة العلم والفقراء من الرجال والنساء الأحرار والجواري	وثيقة الأمير سيف الدين تنكز. انظر: العسلي، وثائق مقدسية، م ١ ،ص١٠٥-١٢١.

اجتماعية	الست ستيتة بنت الأمير كوكبائي.	أنشأت رباط للنساء في تربتها	٧٣٠هـ/ ١٢٣٠م	دمشق	الأرامل والمطلقات	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٣٣٠، ٣٢٩؛ الدارس، ج٢، ص٢١١؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص ٢٥٠.
اجتماعية	التاجر نجم الدين عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الرحمن الرجي	أوصى بثلث تركته وحدد خمسين ألف درهم يشترى بها ولده عقارًا ويوقفه صدقه	٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م	دمشق	لم يحدد	ابن طولون، تاريخ المزة و آثارها، ص٧١.
دينية - اجتماعية	الأمير سيف الدين طينال بن عبد الله الناصري	نصت وقفية جامع طينال أن يصرف ريع الوقف حسب ما يراه الناظر في ذلك من غير أن يرتب لأحد مرتباً في كل شهر أو كل يوم.	٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م	طرابلس	موظفين الجامع، الفقراء والمساكين المقيمين والواردين	سبيتي، المماليك وآثارهم، ص ٢٢٨؛ السيد، طرابلس الشام، ٤٠٩
اجتماعية	كولدي خاتون الجالقي	نصت وقفيتها بتحديد أجر شهري للعاطلين	٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م	دمشق	العاطلين	أسماء خليل، وقف المرأة في لواء دمشق، ص٢٣٠.
اجتماعية	علاء الدين النصر	أنشأ رباط وحدد مصارف وقفه بأن "يصرف ثمن خبز سميط على الفقراء والمساكين الواردين في هذا الرباط، لكل فقير رطلان من الخبز	٧٤١هـ/ ١٣٤١م	بيت المقدس	الفقراء والمساكين وعابري السبيل	أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين، ص٢١.
تعليمية	التاجر حسن بن محمد بن إسماعيل بن منصور بدر الدين الطحان	أوقف الكتب	٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م	دمشق	لطلاب العلم والعلماء	ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص ١٤١.
اجتماعية	فاطمة المغربية	أوقفت دارًا لها في حارة المغاربة	٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م	بيت المقدس	كبار السن	كامل العسلي، وثائق مقدسية، م١، ص٢٣٥-٢٣٦.
تعليمية	محي الدين أبي الفرج بن الجوزي	أوقف دارًا للكتب	٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م	دمشق	العلماء وطلاب العلم	النعيمي، الدارس، ج٢، ص٢٣، بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٢٢٧. يحيي محمود ساعاتي، الوقف وبنية، ص٨٧

اجتماعية	طارق حارثة بن عبد الله	وقف في كل يوم ثلث رطل خبز بالدمشقي ، وربع درهم فضة. ويصرف لكل يتيم كل ستة أشهر كسوة كاملة	٧٦٣هـ/ ١٣٦١م	بيت المقدس	عشرة أيتام من المسلمين	أبشرلي والتميمي، أوقاف وأملاك المسلمين ، ص٢٦.
تعليمية	الأمير طاز بن قفطفاج	أوقف المدرسة الطازية وملحق بها مكتب.	٧٦٣هـ/ ١٣٦٣م	دمشق	للأيتام وطلاب العلم	ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٣٧٣-٣٧٤؛
اجتماعية	قاضي القضاة الشافعي	خلع زوجة من زوجها المعسر عن مهرها	٧٧٠هـ/ ١٣٦٩هـ	بيت المقدس	حق الخلع للمرأة	العسلي، وثائق مقدسية، م٢، رقم الوثيقة (٦٠٩)، ص٥١.
تعليمية - اجتماعية	السيدة "أرغون" زوجة الأمير أيدمر الأشرفي	أوقفت المدرسة الخاتونية وبجانبها كتاب لتربية الأيتام وتعليمهم ،وتعيين فقيه لهم يعلمهم لقاء مرتَّب شهري، ويصرف لكل واحد من الأيتام ربع درهم كل يوم ، ويُكسى كل واحد منهم كسوة كاملة من (قميص ولباس وقبع (طاقية) وجُبة ومتاع)	٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣م	طرابلس	للأيتام وطلبة العلم	محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٢٦؛ السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام، ص٤٣١.
اجتماعية	حكم قاضي القضاء الشافعي بالقدس	توفير صدقة من أوقاف الرباط المنصوري "في كل يوم أربعة أرغف"	٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م	بيت المقدس	أهل الاستحقاق من الفئات المحتاجة	العسلي، وثائق مقدسية، الوثيقة، م١، رقم (١١٣أ) ، ص ٢٠٩-٢١٣.
اجتماعية	جمال محمد	أوقف داره على الخانقاه الصلاحية	٧٨٣هـ/ ١٣٨١م	بيت المقدس	الفقراء والمساكين والواردين عليها من المحتاجين	وثيقة رقم ٥٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس انظر: الغوانمة ، بيت المقدس ، ص ١١٣.
تعليمية	المقر الأشرف السيفي طشتمر العلائي	أوقف المدرسة الطشتمرية التي احتوت على خمس قاعات لمبيت الطلبة الفقراء.	٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م	دمشق	طلاب العلم الفقراء	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٤٥؛
اجتماعية	قاضي القضاة الشافعي	حصول المطلقة على حقها في مؤخر صداقها، ونفقة المتعة.	٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م	بيت المقدس	المطلقة	محمد باعمر، المرأة المقدسية، ص٤٩.
اجتماعية	حكم قضائي	حصول المطلقة على حقها بالحضانة ونفقة أطفالها	٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م	بيت المقدس	المطلقة	العسلي، وثائق مقدسية، م١، رقم (٤٥٨)، ص١١٢- ١١٥.
اجتماعية	مودع الحكم	نفقة مالية من قاضي القضاة الشافعي بمبلغ (مائة درهم وسبعون درهمًا)	٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م	بيت المقدس	أرملة (أم طفلين يتيمين)	وثيقة رقم(١٩١) علي السيد محمود، وثائق الحرم القدسي، ص ٢٠٤.

اجتماعية	الأربطة	وثيقة تظهر أسرة سكنت الرباط	٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م	بيت المقدس	أسرة فقيرة	محمد باعمر، المرأة المقدسية، رقم الوثيقة (٥٢٧)، ص٧١.
اجتماعية	الأمير بدر الدين بن حسام الدين بركة خان	بنى تربة له وأوقف عليها قرية دير الغصون في طولكرم، ومن ريع هذه القرية كان يُنفق على التُربة، وما تقوم به من أعمال الخير، من مداواة المرْضَى، وتجهيز الموتى بالقُدس الشريف.	٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م	بيت المقدس	رعاية الموتى	كامل العسلي، وثائق مقدسية، رقم الوثيقة (٣٦)، م١، ص٢٣٩.
اجتماعية	الشيخ أبو بكر بن داود الصوفي .	أنشأ الزاوية الداودية وخصص خلاوي كثيرة لإيواء الفقراء، وميضأة، ورتب لهم فيها طعاماً من مختلف الألوان.	١٣٩٧/٨٠٠م	دمشق	الفقراء والمساكين	ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج١، ص ٢٩٩.
اجتماعية -اقتصادية	الرئيس علاء الدين علي المشهور بابن وطية	زاوية ابن وطية وكان شرطها الرئيس أن تكون برسم المغاربة على اختلاف فئاتهم.	٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م	دمشق	على عابري السبيل من المغاربة	النعيمي، الدارس، ج٢، ص ١٥٩.
اجتماعية - صحية	داود بن المقر السيفي الخاصكي	تبرع في كل شهر مائة درهم للمارستان الحموي	٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م	حماه	للضعفاء المرضى	كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص١٦١-١٦٢.
اجتماعية - اقتصادية	السلطان فرج بن برقوق	تصدَق بخمسة آلاف دينار ذهباً، وبعشرين ألف دينار من الفضة .	٨١٢هـ/ ١٤١٠م	بيت المقدس	الأهالي والأوقاف	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،ج١٣، ص ٨٩؛ الغوانمة، بيت المقدس، ص١١٥.
تعليمية - اجتماعية	الأمير سيف الدين فارس الدودار التميمي	وقف مدرسة الفارسية يقرئ خمسة عشر يتيماً، وخصص الرواتب للشيخ وطلبة العلم والأيتام، ويوزع ريع هذه الوقفية في كل يوم جمعة ربع قنطار من الخبز على من الخبز على الفقراء والمساكين،	٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م	دمشق	للأيتام والفقراء والعلماء وطلبة العلم	الدارس في تاريخ المدارس ، ج١ ،ص٣٢٤، ٣٦٨.
اجتماعية	زمن السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق	أمر أن يحمل إلى بساط الخليل من دمشق مائة غرارة ما بين قمح وشعر لتعمل دشيشة ويخبز الخبز	٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م	الخليل	للفقراء والمحتاجين	المقريزي، السلوك، ج٦، ص١٥٣.
اجتماعية	السلطان المؤيد شيخ	تصدق على الفقراء بمال جزيل	٨١٧هـ/ ١٤١٤م	بيت المقدس	الفقراء	ابن الصيرفي، نزهة النفوس؛ ج٢، ص٣٤٦؛

تعليمية - اجتماعية	التاجر برهان الأسعردي	أوقف المدرسة الأسعرية ورتب الأوقاف والرواتب والكسوة، لطلبة العلم وعشرة فقراء يُصرف لكل منهم ثلاثون درهماً في الشهر، ولكل منهم بيت من بيوت المدرسة	٨١٧هـ/ ١٤١٦م	دمشق	العلماء وطلاب العلم والأيتام	النعيمي، الدارس، ج١، ص١١٣؛ جعفر الحسني، وقفية المدرسة الأسعردية، ٣٣م، ج٤، ص٥٩٠-٥٩٦.
اجتماعية - اقتصادية	السلطان المؤيد شيخ	صدقات كثيرة	٨٢٠هـ/١٤١٧م	بيت المقدس -الخليل	العلماء والفقراء والمستحقين	المقريزي، السلوك، ج٦، ص ٤٥٠؛ العيني، السيف المهند، ص٢٤١.
دينية - اجتماعية	قاضي القضاة قطب الدين الخيضري	رتب في دار القرآن الخيضرية فقراء وخصص لهم الجوامك والخبز	٨٢١هـ/١٤١٨م	دمشق	الفقراء	النعيمي، الدارس، ج١ ،ص٧؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص ٥
تعليمية	الأمير سيف الدين جقمق	أوقف مكتبًا للأيتام ملحق بالتربته	٨٢٤هـ/ ١٤٢١م	دمشق	للأيتام	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٣٩-٢٤٠
اجتماعية	زينب بنت شمس الدين الصابوني	أوقفت الأوقاف على جهات البر المختلفة، اشترطت أن يشتري من ريع الوقف في كل سنة ثوبين خام قطن يعمل بها قمصانًا تفرق على الفقراء والمساكين	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	دمشق	الفقراء والمساكين واطعام المساجين	آيدين أوزقان، سجل الأوقاف في مصر وخلال العهد العثماني حسب الدفتر ٨٦٢، ص٢٣٦.
اجتماعية	زين الدين بن رمضان القلعي	أوقف ريع أوقافه يشترى به ثياب خام قطن تفرق على المجاورين بالحرم	٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م	بيت المقدس	المجاورين	أبشرلي والتميمي، أوقاف وأملاك ، ص ٦٢.
تعليمية - اجتماعية	الخواجا مجد الدين أبو الفداء إسماعيل	أوقف المدرسة السلامية وجعل لكل طالب سبعة دراهم	٨٣١هـ/ ١٤٢٨م	بيت المقدس	الطلبة الفقراء	العليمي ، الأنس الجليل ، ج٢ ،ص٤٢.
تعليمية - اجتماعية	القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي	أوقف الخانقاه الباسطية والتي نصت "أن يصرف للأيتام في عيد الفطر من كل سنة برسم كسوتهم ثلاثون درهما لكل واحد منهم"	سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م	بيت المقدس	الأيتام والفقراء وطلاب العلم والعلماء	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٣٩، ١٧٢، ١٨٩؛ ؛ أبشرلي والتميمي، أوقاف وأملاك ، ص ٣٨.
تعليمية	الصفوي جوهر	أوقف كتّاب ملحق بالمدرسة الجوهرية	٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.	بيت المقدس	للأيتام وطلبة العلم	الذهبي، العبر، ج٥، ص٣٨٥؛ ابن كثير، البداية، ج ١٧، ص٥٧٧؛
تعليمية اجتماعية	أبو العباس زين الدين دلامة	أوقف المدرسة الدلامية، وجعل لكل طالب عشرة دراهم شهرياً، ولكل يتيم (جبة قطنية، وقميص، ومنديل)	٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م	دمشق	طلاب العلم من الفقراء وستة أيتام	النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٨؛ بدران، منادمة الأطلال، ج١، ص٨.
اجتماعية	وقفية أن منك بنت عبد الله و زوجها كش بغا	على عدة جهات من البر منها ما خصص لمطبخ الدشيشة، وتفريق الخبز على المجاورين	٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م	دمشق وبيت المقدس	الفقراء والمجاورين	سجل أراض ألوية (صفد، نابلس، غزة،)حسب الدفتر رقم(٣١٢)، ص١٣٣.

اجتماعية	شهاب الدين القرمشي	أوقف الأوقاف على ذريته وبعد الانقراض اشترط أن يصرف ريعه على الفقراء في صفد	٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م	صفد	الفقراء والمساكين	أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك المسلمين ، ص٦٠.
دينية واجتماعية	السلطان الملك الظاهر جقمق	أغدق على الديار المقدسة بمائة وعشرين غرارة قمح تقدر قيمتها بثلاثة آلاف وستمائة دينار	-	الديار المقدسة	وزعت على المساجد والمدارس والزوايا	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٢٥.
اجتماعية	الملك الأشرف إينال	أغدق على الوقف في فلسطين بألف و مائتي أردب من القمح تصرف كل عام حتى وفاته	كل عام	فلسطين	المستحقين من الأوقاف	العليمي، الأنس الجليل، ج٢،ص ٩٩.
اجتماعية	السلطان خشقدم	أنعم بستين غرارة من القمح القيمة عنها ثمانمائة واربعون دينارا	-	القدس	جهات الأوقاف	العليمي، الأنس الجليل، ج٢ ، ص ٩٩
اجتماعية	عايشه بنت الياس وابنتها سوندك	كان ريع الأوقاف موقوف على أبنائهن، ثم من بعدهم تعود وقفًا على عتقاء الواقفتين، ثم على أنسالهم وأعقابهم.	٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م	دمشق	الأقارب والعتقاء	أسماء خليل، وقف المرأة في لواء دمشق، ص٣٣٩
اجتماعية	السلطان الناصر محمد خشقدم	أوقف أموالاً بالمسجد الأموي لشراء الخبز يوزع على الفقراء ، وقمصانَ بقيمة مائتي درهم كل سنة	٨٦٦هـ/ ١٤٦١م	دمشق	الفقراء	الطراونة، الحياة الاجتماعية ، ص١٨٧.
اجتماعية	شهاب الدين بن أحمد زين الدين صديق بن مراد	نصت وقفيته أن يصرف ناظر الوقف عشرة دراهم ثمن خبز ولحم يفرق على الفقراء والمساكين في كل ليلة جمعة	٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م	صفد	الفقراء والمساكين	أبشرلي والتميمي، أوقاف و أملاك المسلمين ، ص٦٠.
دينية- اجتماعية	واقف جامع غزة	رتب الواقف للفقراء المقيمين بالمسجد خيرات كثيرةً، منها سماط يقدَم لهم ولمن يرد عليهم	٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م	غزة	الفقراء المقيمين والواردين الى الجامع	البصروي ، صفحات مجهولة ، ص ٥٥-٥٦؛ الطراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٨٧.
اجتماعية- دينية	السلطان قايتباي	صدقات بقيمة بستة آلاف دينار، وأزال كثير من المظالم	٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م	بيت المقدس - الخليل	العلماء والفقراء والمستحقين	العليمي، الأنس الجليل،ج ٢،ص ٩٥؛ طراونة، الحياة الاجتماعية، ص١٨٧.
تعليمية واجتماعية	السلطان الأشرف قايتباي المحمودي	أوقف المدرسة الأشرفية ورتب مشايخ وفقهاء ومدرسين و لطلابها ولفقراء المسلمين عدداً من الخلاوي للصوفية . وخصص لشيخ مدرسته راتباً شهرياً قدره خمسمائة درهما وعشرة دراهم شهريًا، ورتب ستون من الصوفية، وجعل لكل منهم خمسة عشر درهماً شهرياً.	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م	بيت المقدس	المشايخ وللفقراء من طلبة العلم والصوفية	العليمي، الأنس الجليل، ج٢، ص٢٥، ٣٢٨، ٢٩٤، ٣٣٠ ؛ السخاوي ، الضوء اللامع، ج٢، ص٥٣.
اجتماعية	سورباي زوجة أزدمر نائب حلب	صدقات	٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م	حلب	فقراء الحجاج	السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص٢٧٥.

اجتماعية	شمس الدين المزلق	أوقف عدة قرى ومزارع، ونصت وثيقة وقفه بأن يصرف ريع هذه الوقفية إلى فئات من المحتاجين	٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م	بيت المقدس	المحتاجين ومنهم الأرامل	أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف وأملاك، ص٦٧.
اجتماعية	ست الأشراف بنت السيد محمد	نصت الوقفية أن يفرق في كل شهر كيل دقيق من ريع أوقافها في صفد على الفقراء	٩٠١هـ/ ١٤٩٥م	صفد	الفقراء والمساكين	أبشرلي والتميمي، سجل أوقاف و أملاك المسلمين ، ص٧٠.
اجتماعية	الشيخ برهان الدين القدسي	أوقف عدة قرى من أعمال القدس بحيث يصرف من ريعها على الأرامل	٩١٦هـ/ ١٥١٠م	بيت المقدس	الأرامل	أبشرلي والتميمي، أوقاف وأملاك، ص٢٧.
تعليمية	محمد بن مقبل الرومي	أوقف ريع أوقافه على طلبة العلم الغرباء الواردين إلى غزة	٩١٦هـ/ ١٥١٠م	غزة	طلبة العلم الغرباء	أبشرلي والتميمي،أملاك وأوقاف، ص ٢.

(ب) الخدمات المقدمة وقت الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية.

نوع الأزمة	السنة	المدينة	نوع الخدمة المقدمة	المصدر
غلاء الأسعار	٦٥٩هـ/١٢٦٠م	حماة	بادر الطواشي شجاع الدين مرشد المظفري بالمساهمة لتخفيف من الأزمة عن الفقراء والمحتاجين فكان كل يوم يتصدق بمكوكين قمح خبز وهريسة، فاجتمع في حماة خلق كثير من الفقراء، وكان يتفقد أصحاب البيوت بالقمح والدراهم والملبوس.	الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص١٣٩.
أزمة غلاء الأسعار الناجم عن موجة القحط والجفاف التي اجتاحت البلاد في تلك السنة	٦٦٢هـ/١٢٦٣م	مصر وبلاد الشام	أبطل السلطان بيبرس تسعير الغلة، وكتب إلى الأمراء ببيع خمسمائة أردب كل يوم من ويبتين فما دونها على الضعفاء والأرامل، وأصدر مرسوماً يقضي بتوزيع الفقراء على الأمراء والزامهم بدفع مؤنة ثلاثة شهور، وأخذ لنفسه خمسمائة منهم، وقامت بإرسال الغلال إلى غزة، وفرقت في أنحاء البلاد، في محاولة للتخفيف من الضائقة الاقتصادية فيها.	ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص١٨٨-١٩٠؛ الدوادار، مختار الأخبار، ص٤٢-٤٤؛ الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص٥١
قلة المياه في مدينة القدس	٦٦٥هـ/١٢٦٦م	القدس	عمدت الدولة إلى جلب الصُناع من غزة، للعمل على فتح القنوات وتنظيفها لإيصال الماء إلى مدينة القدس، بسبب شكوى السكان من قلة المياه	الدواداري، مختار الأخبار، ص٥١؛ مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٧؛ ابن الفرات، تاريخه، ج٨، ص١٤٥.
أغرق السيل خلق كثير، وذهب بسببه أموال لا تحصى	٦٨٣هـ/١٢٨٢م	دمشق	بادرت الدولة بحملة تنظيف واسعة للأنهار في دمشق من مخلفات السيل الذي تشكل فيها، وأدى إلى توقف جريان الأنهار فيها، وعوض كل من تضرر منه بأربعمائة درهم، وسارع أهل دمشق إلى تنظيف شوارعها، وإزالة العوارض من الأنهار حتى جرت المياه فيها.	النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص ١١٩-١٢٠؛ ابن كثير، البداية، ج١٧، ص٥٩٤؛ البرزالي، تاريخه، ج٢، ص٥٣؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٨٥.
زلال	٦٨٦هـ/١٢٨٧م	اللاذقية	أحد نواب السلطان المنصور بإزالة ما تبقى من برج اللاذقية، الذي تهدم بفعل الزلزلة في تلك السنة، وأقام مكانه برجًا آخر، وكان من أصعب المنشآت العمرانية تشيداً؛ لوقوعه في وسط البحر.	ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور،ص ١٥١-١٥٢.
زلازل عَظيمَ هدم ثَلاثة أبراج من قلعة الكرك، وزلزلت أيْضاً الْبِلَاد الساحلية فانهدمت عدَّة أمَاكِن	٦٩٢هـ/١٢٩٣م	بغزة والرملة والكرك	أصدر السلطان الأشرف خليل بن قلاوون مرسومًا بتجريد الأمير علاء الدين الشجاعي أحد أمراء الشام وفي صحبته جماعة من الصناع والمهندسين والحجارين والآلات الكثيرة لعمارة ما أنهدم من قلعة الكرك.	النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٤٧؛ ابن الجزري، تاريخ حوادث الزمان، ج١، ص١٥٥؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٣٩، ٢٤٠.

القحط والجفاف في بلاد الشام مما نجم عنه مجاعة شديدة	٦٩٥هـ/١٢٩٦م	بلاد الشام	فبادرت الدولة في البحث عن الأقوات المخزنة من العام المنصرم للتخفيف من حدة المجاعة، وأوكلت للأمير علم الدين الدواداري جمع الأقوات من صفد، والكرك، والشوبك، والساحل، فوجد فيها ما يقارب من عشرين ألف غرارة من الحنطة، وقام بحملها وتوزيعها على المناطق المتضررة	ابن الجزري،حواث،ج١، ص٢٨٥.
شح المياه في مدينة الخليل	٧٠٠هـ/١٣٠٠م		قلت المياه في مدينة الخليل، وعزّ وجودها، وارتفعت أسعارها، إذ بلغ سعر الشربة من الماء بنصف درهم والدرهم أحياناً، لذا عمل الأمير بكتمر الجوكندار المنصوري على حل ضائقة المدينة من المياه، عن طريق تسيير المياه من العيون المجاورة إليها فحفر القنوات، وأنفق من ماله الخاص ما يقرب من الأربعين ألف دينار.	المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٤٦١.
زلازل	٧٠٢هـ/١٣٠٢م	صفد - دمشق	بادر السلطان الناصر محمد قلاوون إلى إعادة بنيان وترميم ما دُمر، فقام بترميم قلعة صفد، والجامع الأموي في دمشق التي تأثر بهذه الزلازل، ووزعت الدولة عشرة آلاف من القمح على الأهالي في بلاد الشام	مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص١٢٧؛ البرزالي، المقتفي على كتاب الروضتين، ج٣، ص٢٣٠؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٦٩؛ العيني، عقد الجمان، ج٤، ص٢٦٢.
ضائقة أهل سكان حلب من قلة المياه	٧١٣هـ/١٣١٣م	حلب	أوعز السلطان الناصر قلاوون إلى نائب حلب سيف الدين سودون، فعمل على جلب المياه من نهر الساجور إلى نهر حلب عن طريق حفر ، وأنفق عليها مائة ألف درهم، نصفها من ماله الخاص، والنصف الآخر من مال السلطان.	الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦،ص٣٦؛ الذهبي، من ذيول العبر ج٦، ص٧٧؛ الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص١٧٥؛
مطر شديد أهلك والناس والدواب شيء كثير، ثم نزل ثلج عظيم طمَّ القرى وسد الطرقات	٧١٦هـ/١٣١٦م	قارا وحمص وبعلبك وحلب وأعزاز وحارم.	وكان من أثر تراكم الثلوج في الطرقات تعطيل حركة المسافرين والتجارة؛ لذا اهتمت الدولة المملوكية اهتمامًا فائقا بإزالته من الطرقات، وخصصت الأموال اللازمة للعاملين من أجل ذلك.	النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص ٢٣٣-٢٣٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٥١٥. .
هجوم الجراد	٧٢٤هـ/١٣٢٣م	بلاد الشام	أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً لمواجهة الغلاء الذي نتج عن أسراب الجراد التي هاجمت بلاد الشام وقضت على جميع المزروعات، فأبطل مكس الغلال وأرسل الغلال من مصر إلى الشام فرخصت الأسعار	الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٦٥؛ البرزالي، تاريخه ، ج٢، ق٢، ص٤٧٣
عم الناس من الفرات إلى دمشق، فلم تبق مدينة فيما بين ذلك حتى كثر بها المرض والموت	٧٢٧هـ/١٣٢٧م		باع بعض عطاري دمشق كل يوم أدوية للمرضى بنحو الألف درهم، وأخذ حجام في أجرة فصد وشراطة أذان في كل يوم أربعمائة درهم، فكَانَ الْمَرِيض يتمادى مَرضه أسبوعاً وَيبرأ وَربح بياعو الْأَدْوِيَة والأطباء والحجامون مَالا كثيرًا	ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص١٢٢؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٩٥.

تلوث مجاري المياه فقامت بحملات لإزالة الأوساخ، والقاذورات، وتنظيف مجاري المياه كخطوات وقائية للحدّ من انتشار الأوبئة	٧٢٧هـ/١٣٢٧م	دمشق	نظر الأمير تنكز في فِي مقاسم الْمِيَاه بدِمَشْق الَّتِي تتصرف فِي دور النَّاس وكسح مَا فِيهَا من الأوساخ، وَفتح مَا استدّ مِنْهَا حَتَّى صلحت كلهَا فَعم النَّفْع بهَا.	الصفدي،أعيان العصر، ج٢، ص١٢١؛ المقريزي، السلوك، ج٣،ص ١٠٢؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢،ص٦٧.
نقص المياه في مدينة القدس	٧٢٨هـ/١٣٢٧م	بيت المقدس	بعث السلطان الناصر محمد بن قلاوون الحرفيين والعمال لشق قناة من عين العروب شمال مدينة الخليل، واستطاعوا من خلال قطع الصخور إيصالها إلى مدينة القدس.	اليافعي،مرآة الجنان، ج٤، ص٢٧٧؛ ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٢٩٠-٢٩١.
هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، مما أدى إلى حدوث سيل عظيم في مدينة عجلون، ألحق بها أضراراً فادحة بالممتلكات.	٧٢٨هـ/١٣٢٨م	عجلون	أرسل الأمير سيف الدين تنكز بعض رجاله لترميم الأسواق والطواحين والقياسر في مدينة عجلون التي تهدمت من هذا السيل.	الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٦؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٤٠٦، ٤١٢؛ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٢، ص١٨٩، ١٩٠.
آثار زلزال قديم	٧٢٨ه/١٣٢٨م	دمشق	نقض شطر الحائط القبلي من جامع دمشق، لانحداب في وسطه من زلازال قديم، وبني في خمسين يوما، ورخم وعمل في وسطه محراب للحنيفية، وجدد برخام مذهب	الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧١؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٢٥٨.
خطر الوباء	٧٢٩ه/١٣٢٩م	دمشق	أخرجت الكلاب خارج دمشق، وألقيت في خندق	الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧٢.
الفساد النقدي	٧٣٠ه/١٣٣٠م	البلاد الشامية والديار المصرية	عاقب السلطان الناصر محمد بن قلاوون عاملي دار الضرب بالمصادرة وبغرامات مالية يدفعونها لخزينة الدولة.	ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٣٨٤؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٣٢٠.
ضائقة المياه في حلب	٧٣١هـ/١٣٣٠م	حلب	بادر نائب حلب أرغون الناصري في إتمام ما عزم عليه سلفه في الولاية سيف الدين سودون بإيصال القناة ما بين نهر الساجور ونهر حلب لحل مشكلة نقص المياه في حلب	الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٢٧٤؛ ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٤٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٨، ص٣٢٢. الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص١٧٥.
خطر السيول والفيضانات	٧٣٦ه/١٣٣٦م	دمشق	أصدر مرسوم ببناء جسر باب الفرج، وبنيت قناطر كبيرة على الجسر، لتقويته خوفا من زيادة المياه والسيول.	ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٢، ص٨٥٩.
أزمة القحط والجفاف أدت إلى ارتفاع الأسعار	٧٣٦هـ/١٣٣٥م	دمشق	استغل التجار الشاميين القحط والجفاف فاحتكروا السلع وامتنعوا عن بيعها للناس، فلما علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بذلك أصدر مرسوماً ألزم فيه نواب البلاد	اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٩٥؛ نافذ الشوارمه، الكوارث الطبيعية، ص١١٤.

			الشامية فتح الشون ، وبيع الغلال التي فيها على ألا يزيد سعر الغرارة من القمح على ثلاثين درهم	
حادثة الحرائق التي أشعلها النصارى وعدمت الناس أمولا عظيمة، منها للتجار ما مبلغه ألف ألف وستمائة ألف دينار وخربت أماكن كثيره .	٧٣٩هـ/١٣٣٩م	دمشق	رمى تنكز نائب الشام بذلك على باقي النصارى بدمشق واستخلص منهم بالضرب والمقارع تسعون ألف دينار ورسم بصرفها في عمارة ما احترق من الأملاك وبدأ أولا بعمارة الجامع الأموي وإصلاح ما احترق وباشر عمارته بنفسه	الشجاعي، تاريخ السلطان الملك الناصر،ورقة٥٦ ب، ٥٩أ؛ المقريزي،السلوك، ج٢، ص٤٩٥.
زلزال هدم فِي بِلَادِ حَلَبَ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الْعُمْرَانِ حوَذَكَرُوا أَنَّ مَدِينَةَ مَنْبِجَ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَأَنَّ عَامَّةَ السَّاكِنِينَ بِهَا هَلَكُوا تَحْتَ الرَّدْمِ	٧٤٤هـ/١٣٤٣م	حلب ـ منبج	بادر السلطان علاء الدين إسماعيل ابن الملك الناصر إلى إعادة بنيان وترميم ما خربته هذه الزلازل، فندب مجموعة من الأمراء لعمارة ما تهدم من القلاع والإنفاق عليها من الأملاك الديوانية	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٤٧٠؛ ابن الوردي، الديوان، ص ١٤٩؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج١، ص٣٦١؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٠٤
انتشار الوباء	٧٤٥هـ/١٣٤٤م	دمشق	قامت بها الدولة المملوكية بقتل الكلاب.	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٤٧٨.
في فترات تفشي الأوبئة والطواعين	-	بلاد الشام	حرص سلاطين المماليك على رصد الكثير من الأموال لتلك البيمارستانات وخصصت بعض أقسامها لمدارات المصابين بالأوبئة ومعالجتهم، ووجد في بعضها قاعة لمرضى الأوبئة والطواعين والحميات	مبارك الطراونة،الأوبئة والطواعين، ص٥٥.
أثناء الأوبئة والأمراض	-	-	السلطان الظاهر ططر أنفق الأموال على المرضى، ووفر لهم الأدوية والعلاج.	العيني، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، ص٣٦.
فاض نهر مدينة طرابلس، وقد أدى إلى مقتل عدد كبير من الناس، وألحق أضرار في بعض الممتلكات	٧٤٥هـ/١٣٤٥م	طرابلس	فبادرت الدولة إلى أعادة أعمار الجسر المقام على نهر الدامور الذي تهدم.	ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٣٤٠؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج١، ص٤١٧؛
وَقعَ ثَلْجٌ عَظِيمٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ بِدِمَشْقَ مِنْ مُدَّةٍ طَوِيلَة	٧٤٥هـ/١٣٤٥م	دمشق	أنفقت الدولة في مسحه من الأسطح مَا ينيف على ثَمَانِينَ ألف دِرْهَم لاستمراره لمدة إسبوعين .	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٤٧٧؛ المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٢١.
ارتفاع الأسعار	٧٤٦هـ/١٣٤٥م	حلب	قام الأمير سيف الدين أرقطاي نيابة حلب بالقضاء على الفساد، فأبطل الخمور والفجور، ورفع الطرح والمظالم عن القرى، الأمر الذي أدى إلى انخفاض الأسعار.	ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٤٢.

هجوم الجراد مما أدى إلى تدمير المحاصيل	٧٤٨هـ/١٣٤٧م	حلب	عندما تكرر هجوم الجراد وتفاقم ضرره على مدينة حلب سنة وكلت الدولة للعساكر مهمة قتله.	ابن الوردي، تاريخه، ج٢، ص٢٤٥؛ الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص١٥٠؛ نافذ الشوارمه، الكوارث الطبيعية، ص١١٦.
الطاعون الأسود	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	الديار المصرية والبلاد الشامية	شاركت السلطة العامة بطقوس التوبة والرجوع إلى الله سبحانه حيث أمر ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع المسجد الأموي حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة مابين مصل وذاكر وداع	ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص١١٤.
انتشار الطاعون في الشام	٧٤٩هـ/١٣٤٨م	بلاد الشام	قتل الكلاب كخطوة علاجية لمنع انتشار المرض واستفحال.	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٥٠٥.
هجمات الجراد	٧٦٦هـ/١٣٦٤م	حلب	أحضرت الدولة ماء جاذب لطير السمرمر، وعلق على مئذنة أحد المساجد، فقدم طير السمرمر بأعداد كبيرة فطار الجراد إلى أن خلت البلاد منه.	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٧٠١؛ المقريزي، السلوك، ج٤، ص٢٨٠.
اجتاحت البلاد موجة القحط والجفاف	٧٨٢هـ/١٣٨٠م	بلاد الشام	رسم برقوق بإبطال عدد من المكوس المكوس كضمان الملح بعينتاب، وضمان الدقيق بالبيرة، وأبطل المكوس بأعزاز جميعها، فيبدو أن الدولة تتبعت الأماكن المتضررة من قلة الأمطار، فعملت على دعمها اقتصاديا لتعين سكانها للتخفيف من الضائقة الاقتصادية التي تعرضوا لها بسبب احتباس الأمطار	ابن قاضي شهبة،تاريخه، ج٣، ص٣٩؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢١٩؛ ابن إياس، ج١، ق٢، ص٥٣٢.
انحباس الأمطار	٧٨٥هـ/١٣٨٣م	القدس	بعث السلطان برقوق بالعمال لإيصال الماء من العروب إلى القدس.	المقريزي، السلوك،ج٥، ص ١٦٠ ؛ ابن قاضي شهبة، تاريخه ،ج٣،ص١١٧؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٢.
اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار فبيع رطلا الخبز بثلاثة دراهم أتبع ذلك ظهور بوادر الطاعون	٧٩٠هـ/١٣٨٨م	بلاد الشام	ولتواجه الدولة المملوكية تلك الأزمة قامت بعدة اجراءات منها: أصدر مرسوم نودي به في دمشق بأن الخبز يباع كل رطلين بدرهم، زاد الأمر سوء انتشار الطاعون في البلاد الشامية، مما جعل الدولة تغيث الناس، وتأمر بنقل الغلال من مصر وتوزيعها على بلاد الشام(.	ابن قاضي شهبه، تاريخه، ج٣،ص٢٣٨-٢٤٢.
هاجم بلاد الشام عامة ودمشق بشكل خاص أسراب ضخمة من الجراد، ألحقت خسائر كبيرة بالأشجار المثمرة والزروع شديد.	٨٠٣هـ/١٤٠١م	بلاد الشام (دمشق)	ارتفعت أسعار الغلال ارتفاعاً كبيراً، إذا بلغ سعر الغرارة من القمح بدمشق نحو ألف درهم، فتوجه الأمير شرف الدين عيسى إلى بلاد مصر وابتاع القمح وأحضره في البحر إلى بيروت وطرابلس فحصل لأهل الشام رفق بعد أن كانوا في شدة	ابن حجي، تاريخ، ج١، ص٢٠٥؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص٢٣٨.
بعد غزو تيمورلنك	٨٠٣هـ/١٤٠١م		أرسلت الدولة سِتَّة مراكب موسقة قمحاً سَار بهَا الْمُسلمُونَ من دمياط إِلَى سواحل الشَّام ليباع بهَا	المقريزي، السلوك، ج٦، ص٦٠.

			من كَثرَة مَا أَصَابَهَا من القَحط والغلاء من نوبَة تمرلنك الا أنها وقعت في يد الفرنج.	
أزمة فساد الفلوس النحاسية	٨١٥هـ/١٤١٢م	بلاد الشام	نادى نائب الشام الأمير نوروز بأن تضرب الدراهم من فضة خالصة غير مغشوشة	المقريزي، السلوك، ج٦، ص٣٣٦.
أزمة الفلوس المغشوشة	٨٢٩هـ/١٣٢٨	الديار المصرية والبلاد الشامية	سكّ عملة جديدة من الذهب الخالص عُرفت بالأشرفية. وقام بمنع التعامل بالنقود المغشوشة، ومعاقبة منْ يقوم بذلك، وأصدر نقوداً جديدة بدلاً من النقود الفاسدة.وتشدد في معاقبة من يعملون على غش النقود وتزييفها، وعوقبوا بقطع أيديهم .	ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٥٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١٠٢؛ الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص١١٦؛ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٤٤.
أزمة الفساد النقدي	٨٦٢هـ/١٤٥٧م	الديار المصرية والبلاد الشامية	قام السلطان الأشرف إينال العلائي باستشارة العلماء ورجال الدولة لضرب فضة خالصة جديدة وتم له ما أراد .ثم تعقب ضاربي الزغل، وأمر بتوسيطهم أو قطع أيديهم، مما كان له أكبر الأثر في رواج العملة الجديدة وتحسن أحوال العملات في ذلك العصر.	ابن إياس :بدائع الزهور، ج ٢، ص ٣٤٤
زلزال	٨٦٣هـ/١٤٥٨م	مدينة القدس	هدم منارة أحد مساجدها، سارع أهل المدينة لإحضار ما لديهم من الأموال، ومواد البناء للعمل على إعادة بناء المنارة، وبقوا يعملون ليلاً ونهاراً بكل ما لديهم من طاقات حتى أعادوا بناءها في خلال أيام بأفضل مما كانت عليه في السابق.	العليمي، الأنس الجليل، ج٢ ، ص٤٩-٥٠؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج٦، ص٤٨.
حدثت صاعقة فشب الحريق في قبة الصخرة	٨٨٦هـ/١٤٨٤م	بيت المقدس	كتب أهل المقدس محضراً بما وقع وجهزوه إلى القاهرة في أسرع، واهتم السلطان بعمارته وأقام في ذلك أعظم قيام وأنشأه وجدد عمارته فجاءت في غاية الحسن.	الأنس الجليل، ج٢، ص١٩٢؛ السخاوي، الذيل التام، ج٢، ص٢٠؛ ابن شاهين، نيل الأمل،ج٥، ص٢٤٢.
الفساد النقدي	٨٨٩هـ/١٤٨٤م	الديار المصرية والبلاد الشامية	أصدر السلطان الأشرف قايتباي أصدر مرسوماً ينص على قطع يد من يقبض عليه من مفسدي نقود الدولة، وإن كان الفساد كبيراً فعقوبته القتل مما كان له أكبر الأثر على اختفاء أزمة تزييف النقود المملوكية في عهده.	ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٢١١-٢١٨.
انحباس الأمطار مما إلى ارتفاع الأسعار فلم يتمكن المزارعون من ري مزروعاتهم إلا بكلفة عظيمة ومشقة	٨٩٠هـ/١٤٨٥م	بلاد الشام	فأرتفع سعر الغرارة من القمح في الرملة إلى ثلاثمائة درهم فضة، ونقل الناس الغلال من ديار مصر	ابن طوق، التعليق، ج١، ص٤٥٦.

ارتفاع الأسعار	٨٩٣هـ/١٤٨٧م	بلاد الشام	قام نائب السلطنة جقماس الظاهري الذي أصدر مرسوماً طالب فيه المحتكرين إطلاق الغلال في الأسواق وبيعها، وإن لم يفعلوا ذلك نهبت مخازنهم، وبذلك حلت المشكلة وانخفضت الأسعار.	البصروي، تاريخ البصروي، ص١٢٥.
شح المياه	٩٠١هـ/١٤٩٥م	حلب	أصدر السلطان الأشرف قايتباي الظاهري مرسوماً يمنع سقي المزروعات المغروسة على جانب نهر الساجور؛ للحفاظ على كمية المياه الموجودة في النهر حتى تكفي احتياجات أهل مدينة حلب	الغزي، نهر الذهب، ج٣، ص٢٣٧.
الطواعين والأوبئة	٩١٩هـ/١٥١٣م	بلاد الشام ومصر	تصدر الدولة أوامر بمنع بيع النبيذ والحشيش، ومنع النساء الساقطات من فعل الفاحشة، وأصدرت الدولة أوامر بإبطال جميع الضرائب والمكوس المفروضة وخاصة ضريبة المشاهرة.	ابن إياس، بدائع، ج٤، ص٣٠٢-٣٠٤

(ج) بعض مراسيم الإعفاءات لتخفيف عن الرعية

السلطان	مراسيم الإعفاءات لتخفيف عن الرعية	المصدر
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقاري	فرض على نواحي الشقيف بعد فتحها سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م بقيمة ألف ألف درهم، ثم خفضها إلى أربعمائة ألف درهم بعد أن سأله الناس ذلك.	النويري، نهاية الارب، ج٨، ص ٢٥٩؛ الطروانة، مملكة صفد، ص ١٧٩-١٨٠.
	أبطل كل ما فرض في عهد سيف الدين قطز من ضرائب لصرفه لقتال جموع التتر، منها: تصقيع الأملاك، وتقويمها وزكاتها، وأحدث على كل إنسان دينارا يؤخذ منه، وأخذ ثلث التركات الأهلية، فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار في كل سنة.	المقريزي، الخطط، ص١٩٨-١٩٩.
	أبطل ضمان الخمر وجهاته سنة٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م	المقريزي، الخطط، ص١٩٨-١٩٩.
	أبطل ضمان الحشيش من ديار مصر كلها في سنة ٦٦٥ه/١٢٦٦م، وأمر بإراقة الخمور، وابطال المنكرات، ومنع الخانات والخواطيء بجميع أقطار مملكة مصر والشام، فطهرت من ذلك البقاع	المقريزي، الخطط، ص١٩٨-١٩٩.
	سامح أهل دمشق بجمله كبيرة من الغلال.	شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٤٥.
المنصور سيف الدين قلاوون	أبطل زكاة الدولة .	المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٦٣.
	أمر نوابه سنة ٧١٤هـ /١٣٢٢م بمسامحة البلاد الشامية بجملة كثيرة من بواقي الخراج).	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص ١٣٥؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور، ص٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٩٦.
	أبطل ما كان يجبى من أهل إقليم مصر كله إذا حضر مبشر بفتح حصن، أو نحوه، فيؤخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم فيجتمع من ذلك مال كثير.	المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٩
	أبطل مقرَر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة، وكان يؤخذ من كل تاجر دينار.	المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٩
الأشرف خليل قلاوون	أبطل مكس القمح سنة٦٥٩هـ/١٢٦١م.	ابن إياس، بدائع، ج١،ق١،ص ٣٦٦؛ البيومي، النظم، ١٩٤.
المنصور حسام الدين لاجين	أمر وزيره بعدم المساس بالمواريث دون حق.	المقريزي، السلوك، ج ٢، ص٢٧٦.
	أبطل أن ينقل الثلج في البحر من الشام إلى مصر	ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٠٥-١٠٦.
الناصر محمد بن قلاوون	في عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م استخرجت من دمشق أجرة أربعة أشهر من أرباب الأملاك، وكان أهل الشام في حالة من الخوف والهلع، من أخبار قدوم التتار، فأبطل ديوان الخراج، وعفي عما بقي من الناس مراعاة لوضعهم النفسي	ابن كثير، البداية، ج١٧، ص٧٣٥.
	سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م أبطل عدة مكوس منها: مكس ساحل الغلة.وأبطل مكس نصف السمسرة .وأبطل رسوم الولاية ، ومما أبطل مقرَر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلي والبحري .وأبطل مقرَر السجون، ومقرَر طرح الفراريج و مقرَر الفرسان، ومقرَر الأقصاب والمعاصر. ومقرَر رسوم الأفراح. ومن ذلك مقرر لحماية المراكب، ومن ذلك حقوق القينات، وضريبة كشف المراكب، ،ومقرَر المشاعلية.	الصفدي، نزهة المالك والمملوك، ورقة ، ٨٠أ،٨٠ب ؛ المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٧-١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩،ص٤٥ -٤٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص١٧٧؛ الدوداري، الدر الفاخر، ج٩، ص٢٨٦

	في عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م أبطل فيه المكوس عن الغلال؛ لتخفيف الضائقة الاقتصادية على السكان.	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٢٣٩، ٢٤٥؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٧٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩،ص٤٥
السلطان الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد	سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، كثر الموتى، وزاد ضمان الموتى جدًّا، فتضرر الناس ولا سيما الفقراء، فرسم نائب السلطنة بإبطال ضمان النعوش والمغسلين والحمالين، وأوقف نعوشًا كثيرة في أرجاء البلد ففرج على الناس بذلك.	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٥٠٤.
	أصدر في سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، مرسومًا بإبطال الوقيد بالجامع الأموي	ابن كثير، البداية، ج١٨، ص٥٢٥.
برقوق بن آص	عندما اجتاحت موجة القحط والجفاف بلاد الشام سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م بسبب قلة الأمطار، فوصل القمح بدمشق الغرارة إلى مائتين وخمسين، فرسم الأمير برقوق بإبطال عدد من المكوس المكوس كضمان الملح بعينتاب، وضمان الدقيق بالبيرة، وأبطل المكوس بأعزاز جميعها.	ابن قاضي شهبة، تاريخه، ج٢، ص٢٩.
نائب بيروت	أبطل سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م، ما كان استحدث على الخبازين ببيروت لنائب الحسبة الشريفة، وأن لا يأخذ المحتسب إلا جامكيته .	مصطفي محمود سبيتي، المماليك وآثارهم الدينية في لبنان، ص١١٥-١١٦.
الظاهر سيف الدين خشقدم	أبطل مكس السمسرة في بلاد الشام عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م .	الدوادار، بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص٦٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات.

ثانيًا: الوثائق.

ثالثًا: المصادر .

رابعًا: المراجع العربية والمعربة.

خامسًا: المراجع الأجنبية.

سادسًا: الرسائل العلمية.

سابعًا: الأبحاث والمقالات العلمية.

المصادر المخطوطة:

١- الشجاعي، شمس الدين (ت٧٤٥هـ/١٣٤٤م)، تاريخ السلطان الملك الناصر محمد وبنيه، مخطوط برلين ٩٨٣٣ مجهول.

٢- الصفدي، الحسن بن عبدالله (ق٨ه/١٤م)، نزهة المالك والمملوك، ، المتحف البريطاني، محفوظة برقم or. 626.

٣- ابن النجيم، زين الدين بن إبراهيم (ت٩٧٠هـ/١٥٦٢م)، رسالة في ضبط أهل النقل في خبر الفضل في حق الطاعون والوباء، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، محفوظة برقم ٥٩٣٥.

٤- مجهول، (ق١٣هـ تقديرا)، تاريخ جواهر السلوك في سياسة الخلفاء والملوك، مخطوط بمكتبة الملك سعود ، محفوظة برقم ٩٥٣ج.

الوثائق المنشورة:

٥- آيدين أوزقان، سجل الأوقاف في مصر وخلال العهد العثماني حسب الدفتر (٨٦٢) تاريخه من ٩٣١-٩٤١هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٥م (المحفوظ في مكتبة أتاتورك بإستانبول)، إستانبول، وقف الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إيسار ISAR)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٦- جعفر الحسني، وقفية المدرسة الأسعردية، نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج ٣٣، ج٤، ١٩٥٨م.

٧- راشد بن سعد القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٨- كامل جميل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، ٢مج، مج١، نشر بدعم الجامعة الأردنية، مطبعة التوفيق، عمان، ط١، ١٩٨٣م، مج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط١، ١٩٨٥م.

٩- محمد ابشرلي ومحمد التميمي، سجل أوقاف واملاك المسلمين في فلسطين(في غزة ، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون) حسب الدفتر رقم (٥٢٢)، من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

١٠- محمد عيسى صالحية، "من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية"، حوليات كلية الآداب، الحولية السادسة، الرسالة السادسة والعشرون، جامعة الكويت، الكويت، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م.

١١- ----------، سجل أراضي لواء القدس، حسب الدفتر (٣٤٢) تاريخه ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م، المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، جامعة اليرموك، الأردن- عمان، ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م.

١٢- ----------، سجل أراضي ألوية (صفد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة) حسب الدفتر رقم (٣١٢) تاريخه (٩٦٤هـ/ ١٥٥٦م) المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول، عمان، جامعة عمّان الأهلية، ١٤١٩ه/١٩٩٩م

المصادر المطبوعة:

١٣- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد طناحي، دار إحياء كتب العربية، د.ط، د.ت.

١٤- ابن آجا، محمد محمود الحلبي (ت٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٥- ابن الأخوة، محمد بن محمد (٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تح: محمد محمود شعبان، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٦- الأربلي، الحسن بن أحمد (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، مدارس دمشق وحماماتها، تح: محمد أحمد دهمان، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، م٢٢، ، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

١٧- الأزهري، أبو منصور حمد بن أحمد(ت٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٨- الأسيوطي، شمس الدين محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٤م)، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود، تح: مسعد عبد الحميد محمد السعدني، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٩- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/ ١٢٢٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٢٠- الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت ٥٩٧هـ/١ ٢٠٢م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٢١- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٢- ابن إياس الحنفي، محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢-١٩٨٤م.

٢٣- البدري، أبو البقاء عبدالله بن محمد (ت٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، عناية: نعمان الأعظمي الكتبي، بغداد، المكتبة العربية، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م.

٢٤- البرزالي، القاسم بن محمد بن يوسف (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، المقتفي على كتاب الروضتين (المعروف بتاريخ البرزالي)، تح: عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٥- البصروي، علاء الدين علي بن يوسف الدمشقي (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)، تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك)، تحقيق: أكرم حسن العلبي، دار المأمون للتراث، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٢٦- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تح: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٢٧- البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى (ت٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن السائح المغربي، إشراف اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، د.ط، د.ت

٢٨- البهوتي، منصور بن يونس الحلبي (ت١٠٥١هـ/ ١٦٤١م)، كشاف القناع عن متن الإقناع، دار الكتب العلمية، د.ط، د.م، د.ت.

٢٩- بور خارد من جبل صهيون، وصف الأراضي المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، عمان، ١٩٩٥م.

٣٠- بيرو، طافور، رحلة بيرو طافور في عالم القرن ١٥م، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣١- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.

٣٢- ---------، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٣٨م.

٣٣- ---------، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

٣٤- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشؤن الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨ه.

٣٥- الجرجاني، علي بن محمد الشريف (ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، كتاب التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٣٦- ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م)، غاية النهاية في طبقة القراء، تح: ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م .

٣٧- ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر القرشي (ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ ابن الجزري)، تح: عمر عبد السلام تدمر، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٣٨- الجزيري، عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الحنبلي (ت٩٧٧هـ/ ١٥٥٩م) ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ط٢، ١٤٢٩هـ.

٣٩- ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مكتبة مشكاة الإسلامية، د.ط، د.ت.

٤٠- ابن الجيعان، بدر الدين (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، أو (رحلة قايتباي إلى بلاد الشام، ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)،

تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، بيروت، ط١، ١٩٨٤م .

٤١- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج الفاسي العبدري (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م)، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوايد، دار التراث، د.م، د.ط، د.ت.

٤٢- ابن حبيب، الحسن بن محمد (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

٤٣- ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) إنباء الغمر بأبناء العمر، تح: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٤٤- ....، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢، حيدر آباد - الهند، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٤٥- ابن حجي، شهاب الدين أحمد بن حجي (ت٨١٦هـ/ ١٣٧٨م)، تاريخه، تح: عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٦- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

٤٧- الحلبي، زين الدين عمر بن أحمد (ت٩٣٦هـ/ ١٥٥٩م)، القبس الحاوي، تح: حسن إبراهيم وخلدون حسن، دار صادر، بيروت.

٤٨- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر، دار السراج، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٤٩- ابن الحوراني، عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي (من علماء القرن العاشر)،

الإشارات إلى أماكن الزيارات المسمى زيارات الشام، دمشق، مكتبة الغزالي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٥٠- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٦م.

٥١- ---------، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م.

٥٢- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ط، د.ت.

٥٣- الخيربيتي، محمود بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٨٤٣هـ/١٤٤٩م)، الدرة الغراء في نصيحة السلاطين والقضاة والأمراء، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، د.ط، د.ت.

٥٤- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد أيدمر (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، النفحة المسكية في الدولة التركية، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٥٥- الدَّلْجي، أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين المصري (ت ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)، الفلاكة والمفلوكون، مطبعة الشعب، مصر،١٣٢٢هـ.

٥٦- الدوادار، ركن الدين بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٥٧- ---------، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تح: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

٥٨- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية ، تح: أولرخ هارمان، القاهرة، د.ط، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، والجزء التاسع الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تح: هانس روبرت روبمر، القاهرة، د.ط، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

٥٩- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، محمود الأرناؤوط، دار صادر بيروت، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٦٠- ---------، العبر في خبر من غبر، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط٢، ١٩٨٤م.

٦١- --------، معجم محدثي الذهبي، تح: روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣/ ١٩٩٣م.

٦٢- --------، معرفة القراء الكبار، تح: بشار عواد معروف، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٦٣- --------، من ذيول العبر، تح: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، د.ط، د.ت

٦٤- ------، المعين في طبقات المحدثين، تح: همام عبد الرحيم، عمان، الأردن، ط١، دار الفرقان، ١٤٠٤هـ.

٦٥- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر (ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، تفسير غريب القرآن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٤٢١هـ.

٦٦- --------، مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٦٧- ابن رافع، محمد بن رافع السلامي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، الوفيات، تح: صالح

مهدي عباس، بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٢م.

٦٨- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث القاهرة، د.ط، د.ت.

٦٩- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ج، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٧٠- الزمخشري، محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، الفائق، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار المعرفة، ط٢، د.ت.

٧١- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت في أواسط ق٦هـ/ ١٢م)، كتاب الجغرافية، تح محمد حاج صادق، د.ن، د.م، د.ت.

٧٢- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (٦٥٤هـ/ ١٢٥٥م)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج٢٢، تح: إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧٣- سبط ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل (ت٨٨٤هـ/ ١٤٤٠م)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط١، ١٤١٧هـ.

٧٤- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تح: لبيبة إبراهيم مصطفى ونجوى مصطفى كامل، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، د.ط، ج١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ج٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٥- --------، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٧٦- --------، الذيل التام على دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مروة، ومحمود الأرناؤوط، مكتبة دار العروبة، الكويت، دار ابن العماد، بيروت،ط١،

١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص٢٩٥.

٧٧- -------،الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت.

٧٨- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٧٩- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/ ١٤١٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٨٠- --------، معيد النعم ومبيد النعم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٨١- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٨٢- --------، طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.

٨٣- شافع بن علي بن عباس (ت٧٣٠/١٣٣٠م)، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تح: عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الرياض، ط٢، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٨٤- ------------، الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، تح: عمر بن عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٨٥- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (٦٦٥هـ/ ١٢٥٧م)، الذيل على الروضتين، تح: إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية ودار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٨٦- ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، تح: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٨٧- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه: بولس راويس، طبع في مدينة باريس المحروسة بالمطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م.

٨٨- ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي إبراهيم (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة حلب)، تح: يحى زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، و(تاريخ دمشق)، تح: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٨٩- --------، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء: أحمد حطيط، مطابع مركز الطباعة الحديث، بيروت، ١٩٨٣م.

٩٠- ابن الشِّحْنَة، أبو الفضل بن محمد (ت٨٩٠هـ/ ١٤٨٤م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تح: عبد الله الدويش، دار الكتاب العربي، سوريا، دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩١- الشيزري، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله الشافعي (ت٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، د.ط، د.م، د.ت.

٩٢- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوك وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٣- --------، أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد، نبيل أبو عشمة

وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٩٤- - ----------، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تح: إحسان بنت سعيد خلوصي وآخرون، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

٩٥- الصقاعي، فضل الله بن أبي الفحر (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تح: جاكلين سويلة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م.

٩٦- الصيرفي، علي بن داود الجوهري (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، إنباء الهصر بأبناء العصر، تح: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.

٩٧- ------، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، د.ط، ج١، ١٩٧٠م، ج٢، ١٩٧١م، ج٣، ١٩٧٣م.

٩٨- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تفسير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٩- الطرابلسي، إبراهيم بن موسى (ت٩٢٢هـ/ ١٥٦٦م)، الإسعاف في أحكام الأوقاف، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١٠٠- ابن طوق، شهاب الدين أحمد (ت٩١٥هـ/ ١٥٠٩م)، التعليق، مذكرات كتبت بدمشق في أواخر العهد المملوكي (٨٨٥هـ/ ٩٠٨م)، تح: الشيخ جعفر المهاجر، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ٢٠٠٧م.

١٠١- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الصالحي الدمشقي (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق ، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٠٢- ---------، تاريخ المزة وآثارها و فيه المعزة فيما قيل في المزة لمؤرخ الشام في القرن العاشر الهجري، تح: محمد عمر حمادة وآخرون، دار قتيبة، دمشق، د.ت.

١٠٣-----------، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام)، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٠٤- العاملي، زينب علي فواز (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، الدرر المنثور في طبقات ربّات الخدور، تح: منى الخراط، مؤسسة الريان، ط١، ١٤٢١-٢٠٠٠م.

١٠٥- ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبدالله (٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م)، الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية، ليبساك، ١٩٠٢م

١٠٦- -------، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

١٠٧- ---------، الروض الزاهر في سيرة الملك الناصر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط١، الرياض، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٠٨- عبد القادر بدران (ت١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، منادمة الأطلال، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

١٠٩- العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت نحو ٧٢٠هـ/١٣٢٠م) ، الرحلة المغربية ، تح: محمد الفاسي ، الرباط،١٩٦٨م .

١١٠- ابن عبدالحق البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١١١- ابن عبد الهادي، جمال الدين يوسف بن حسن الصالحي الدمشقي (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، نزهة الرفاق عن شرح الأسواق بدمشق، نشره: حبيب زيات، مجلة المشرق، م٣٧، كانون ثاني- آذار، ١٩٣٩م.

١١٢- ابن العراقي، ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)، الذيل على العبر في خبر من عبر، تح: صالح مهدي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.

١١٣- ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، عجائب المقدور في أخبار تيمور، طبعة كلكتا، ١٨١٧م.

١١٤- العصامي، عبد الملك بن حسين المكي (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ٤ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١١٥- العليمي، عبد الرحمن بن محمد مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١١٦- العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، مهدي النجم، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠١٠م.

١١٧- العيدروس، عبد القادر بن شيخ بن عبدالله (ت١٠٣٧هـ/ ١٠٩٤م)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

١١٨- العيني، محمود بن أحمد المعروف بالبدر (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١١٩- ---------، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تح: هانس آرنست، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، ١٩٦٢م.

١٢٠- -------- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد" شيخ المحمودي"، تح: فهيم شلتوت، دار الكتب المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨م.

١٢١- الغزي،كامل بن حسن بن مصطفى الحلبي (ت١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ.

١٢٢- الغزي، نجم الدين محمد (ت ١٠٦١هـ/١٦٥١م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٢٣- فابري، جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار، ٤٠ج ، ط١، دار الفكر، دمشق ، ١٩٩٨م .

١٢٤- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

١٢٥- الفارس دارفيو، وصف دمشق في القرن السابع عشر، ترجمة: أحمد الإيبش، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٢م.

١٢٦- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٧- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، د.ت.

١٢٨- ----------، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

١٢٩- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن علي (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٥)، تاريخ الدول والملوك، تح: قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.

١٣٠- ابن فهد، نجم الدين عمر بن فهد بن محمد المكي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تح: فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م .

١٣١- ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد الأسدي (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)، تاريخه،

تح: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي لدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م، ج١، ج٢، ١٩٩٤م، ج٣، ١٩٧٧م، ج٤، ١٩٩٧م.

١٣٢- ---------، طبقات الشافعية، تح: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٣٣- ابن القاضي، أحمد بن محمد (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد أبو النور، دار التراث، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م.

١٣٤- ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٠م)، المغني، دار عالم الكتب، الرياض، ط٥، ١٤٢٦هـ .

١٣٥- القدسي، محب الدين بن خليل (ت٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، دول الإسلام الشريفة البهية، تح: صبحي لبيب وأولريش هارمان، منشورات المعهد الألماني للأبحاث، ط١، ٢٠٠٩م.

١٣٦- القرماني، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقي (ت ٩٣٩هـ/١٥٣٢م)، أخبار الأوَل وآثار الدول في التاريخ، عالم الكتاب، بيروت، د.ت.

١٣٧- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م .

١٣٨- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣٩- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

١٤٠- القاياتي، محمد عبد الجواد (ت١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) ، نفحة البشام في رحلة الشام، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.

١٤١- لودفيكو فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة: عبد الرحمن

الشيخ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م

١٤٢- الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير (ت١٣٨٢هـ/١٩٦٢م)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٢-١٤٠٦هـ.

١٤٣- الكتبي، محمد بن شاكر (٧٦٤هـ/ ١٣٧٤م)، فوات الوفيات، تح: علي محمد بن عوض الله وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

١٤٤- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تح: عبد الله عبدالمحسن التركي، مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٤٥- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت.

١٤٦- ----------، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، وهو شرح مختصر المزني، تح: علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩ م

١٤٧- مجهول، آداب المؤدب، دار الكتب، د.م ١٩٥٦م.

١٤٨- أبو المحاسن الحسيني، محمد بن علي الدمشقي (ت٧٦٥هـ/ ١٣٦٥م)، ذيل تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٤٩- ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد (ت٨٤٠هـ/ ١٤٧٩م)، المقصد المرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٥٠- المقدسي، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد احمد الحنبلي (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، فضائل بيت المقدس، تح: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، سورية، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥١- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٥٢- ----------، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، ٤ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٥٣- ----------، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

١٥٤- ----------، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تح: جمال الدين الشيال ، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٥٥- ---------، النقود الإسلامية، المسمى" بشذور العقود في ذكر النقود"، تح: محمد السيد علي، محمد بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، ط٥، النجف، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٥٦- ----------، المقفى الكبير، دار الغرب، بيروت، لبنان، ط١، ص١٩٩١م.

١٥٧- ابن مماتي، أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

١٥٨- المناوي، محمد عبد الرؤوف (ت١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م)، التعاريف، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، ط١، بيروت- دمشق، ١٤١٠هـ.

١٥٩- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، (د.ت).

١٦٠- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٢٧هـ/ ١٥٢١م)، الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

١٦١- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الله الوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.

١٦٢- ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، المطبعة الوهبية، ١٢٨٥هـ.

١٦٣- ----------، الديوان، تح: أحمد الهيب، دار القلم، الكويت،ط١، ١٩٨٦م.

١٦٤- اليافعي، عبدالله بن أسعد اليمني المكي (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٦٥- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تح: احمد حطيط، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٦٦- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٦٢هـ/ ١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيد آباد الدكن، الهند، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م .

المراجع العربية والمعربة:

١٦٧- إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٦٨- إبراهيم فرغلي، الحركة التاريخية في مصر وسوريا خلال القرن السابع الهجري، دار العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

١٦٩- إبراهيم محمد الحمد المزيني، العمل عند المسلمين، الرياض، وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، ط١، ١٤٢٣هـ

١٧٠- أحمد خالد جيده، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٧١- أحمد عبد العزيز المزيني، الموارد المالية في الإسلام، ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

١٧٢- أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٧٣- إسماعيل بيومي، النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، ١٩٩٨م.

١٧٤- إلياس القدسي، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، المجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن، ليدن، ١٨٨٣م.

١٧٥- أنور محمود زناتي، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، دار زهران، عمان، ط١، ٢٠١١م.

١٧٦- إيرامارفين لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، نقله إلى العربية :الدكتور سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ١٩٨٥م.

١٧٧- بول كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، ترجمة: أحمد دراج، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٧٨- تيسير خليل محمد الزواهرة، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق (١٢٥٥-١٢٨٢هـ/ ١٨٤٠-١٨٦٤م)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ١٩٩٥م.

١٧٩- جبرائيل سليمان جبور، البدو والبادية صور من حياة البدو في بادية الشام، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٨م.

١٨٠- حسان حلاق، عباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية (ذات الأصول العربية والفارسية والتركية)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

١٨١- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي،

مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

١٨٢- حسن أمين البعيني، العادات والتقاليد في لبنان في الأفراح والأعياد والأحزان، بيسان للنشر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

١٨٣- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، ١٩٦٥-١٩٦٦م.

١٨٤- حسن شيمساني، مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة، ط١، بيروت، ١٩٨٣م.

١٨٥- حسين محمد حسنين، المرشد الفني للجمعيات الخيرية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان- الأردن، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٨٦- حياة الحجي، صور من الحضارة العربية الإسلامية، دار القلم، الكويت، ١٩٩٢م.

١٨٧- --------، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع والخامس عشر الميلاديين، مؤسسة الصباح، الكويت، ١٩٨٠م.

١٨٨- حيدر عبدالرحمن الحيدر، الأمن الفكري في مواجهة المؤثرات الفكرية، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .

١٨٩- راشد سعد الباز، الرعاية الاجتماعية في عهد الملك عبد العزيز، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٩٠- راغب السرجاني، روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية، نهضة مصر، ط١، ٢٠١٠م.

١٩١- رجب سيد صميدة، اتجاهات الضمان الاجتماعي في القانون المصري، رسالة دكتوراة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١٩٢- سحر السيد إبراهيم، تربية الأطفال وأثرها على المجتمع المصري عصر سلاطين

المماليك، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٩٣- سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

١٩٤- ---------، العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٩٥- ---------، المؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية (مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية)، المؤسسة العربية للدراسات، ط١، ١٩٨٧م

١٩٦- سليمان عبدالله الخرابشة، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، جامعة اليرموك، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٩٧- سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث، الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)،جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٩٨- سماح السلاوي، الأوضاع الحضارية في مصر والشام في العصر المملوكي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.

١٩٩- سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٦م.

٢٠٠- سهيل زكار، فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، ق٢، مج٢، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٠١- السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

٢٠٢- شيخة الدوسري، أوقاف النساء في بلاد الشام وأثرها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي، مركز باحثات لدراسة المرأة، الرياض، ١٤٣٧ه

٢٠٣- طه ثلجي الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٢٠٤-صالح موسى درادكة، طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية، المطابع العسكرية، عمان، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٠٥-صلاح مفتاح، مدينة الخانكة (كشف الأستار ولفت الأنظار حول تاريخها وما بها من آثار)، مراجعة، سعيد الملط، دار الكتب المصرية، القاهرة.

٢٠٦-صلاح الدين المنجد، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٧م.

٢٠٧-عائشة مانع عبيد العبدلي، إمارة الحج في العصر المملوكي وأثرها على الأوضاع الداخلية في مكة المكرمة، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ط١، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٠٨-عادل أبو شنب، دمشق أيام زمان، مطبعة الجمهورية، الشام للدراسات، دمشق، ط١، ١٩٩١م.

٢٠٩-عارف العارف، المفصّل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، مطبعة المعارف، القدس، ط٥، ١٩٩٩م.

٢١٠-عبد الغني عبد العاطي، التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢١١-عدنان العطار، تقاليد الزواج الدمشقي والريفي والحضري، دمشق، دار سعد الدين، ١٩٨٠م.

٢١٢-علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٢١٣-علي السيد محمود، الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، الهيئة المصرية العامة،

القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢١٤- عبد الجليل عبد المهدي، المؤسسات التعليمية والثقافية في بلاد الشام، مؤسسة آل البيت، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، د.ت.

٢١٥- علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية ق٥هـ وحتى نهاية ق ٩هـ، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٩م.

٢١٦- عبد الجليل عبدالناصر، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢١٧- عبد السلام الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

٢١٨- عبد العزيز الخياط، المجتمع المتكافل في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

٢١٩- عبد الغني الدقر، الإمام النووي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ط٤، دار القلم، دمشق.

٢٢٠- عبدالله عبدالرزاق السعيد، المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني، دار الضياء، عمان، ١٩٨٧م.

٢٢١- عبدالله قاسم الوشلي، المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٢٢- عبد الله ناصر السدحان، الأوقاف والمجتمع (مجموعة أبحاث عن العلاقة التبادلية بين الأوقاف والمجتمع)، د.ت. الرياض، ١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠.

٢٢٣- ---------، الآثار الاجتماعية للأوقاف، د.ن. الرياض، ١٤٢١هـ.

٢٢٤- عبد الهادي التازي، القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجاً، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو"، الرباط، ١٩٩٧م.

٢٢٥- ----------، أوقاف المغاربة في القدس الشريف، دار العلم، الرباط، ١٩٧٤م.

٢٢٦- علي أحمد محمد السيد، اليهود في شرق البحر المتوسط، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٢٢٧- علي سالم النباهين، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨١م.

٢٢٨- علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.

٢٢٩- ---------، المرأة المصرية والشامية عصر الحروب الصليبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، ٢٠٠٢م.

٢٣٠- ------------، دراسات حول مدينة بيت المقدس في وثائق الحرم القدسي الشريف، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

٢٣١- علي صالح المحيميد، المغول في آسيا الصغرى، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٣٢- عمر رضا كحالة، أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.

٢٣٣- عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، مطبعة صلاح الدين، ١٩٣١م.

٢٣٤- عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر دولة المماليك)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م.

٢٣٥- ----------، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، دار البلاد، طرابلس، ١٩٧٤م.

٢٣٦- عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٧م.

٢٣٧- فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.

٢٣٨- فتحية النبراوي، النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٧، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٢٣٩- ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم: عز الدين فودة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٢٤٠- فيليب دي طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، دار الكتب، لبنان، ١٩٤٧م، مج١.

٢٤١- قاسم عبده قاسم، بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، سوسة- تونس، د.ت.

٢٤٢- قتيبة الشهابي، معجم دمشق التاريخي (للأماكن والأحياء والمشيدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرخين)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م.

٢٤٣- كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

٢٤٤- -----------، بيت المقدس في كتب الرحلات عند العرب والمسلمين، د.ت، عمان، ١٩٩٢م.

٢٤٥- -----------، من آثارنا في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط١، ١٩٨٢م.

٢٤٦- -----------، مقدمة في تاريخ الطب في القدس، منشورات الجامعة الأردنية، عمان- الأردن، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م

٢٤٧- كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية ظهور الإمبراطورية العثمانية، ترجمة: بدر الدين القاسمي، دار الحقيقة، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

٢٤٨- ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٤٩- مبارك الطراونة، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، دار جليس الزمان ،عمان ، ط١، ٢٠١٠م.

٢٥٠- مجاهد توفيق الجندي ، دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية ، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٤م.

٢٥١- محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، دار الوفاء للطباعة، ١٩٧١م.

٢٥٢- محمد أحمد درنيقة، أعلام العابدات الزاهدات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٥٣- محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت- دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٥٤- محمد أحمد زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

٢٥٥- محمد أحمد الصالح، الرعاية الاجتماعية في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، مكتبة الإسكندرية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٢٥٦- محمد التونجي، معجم أعلام النساء، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٥٧- محمد رزق أمين، الأشرف قنصوة الغوري، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٥٨- محمد التنوجي، معجم أعلام النساء، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٥٩- محمد خير رمضان يوسف، المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن في التاريخ الإسلامي، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠.

٢٦٠- محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٦٢م.

٢٦١- محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، حققه: ظافر القاسمي، دار

طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.

٢٦٢- محمد عثمان الخطيب، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، دار الكتاب الثقافي، إربد، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢٦٣- محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

٢٦٤- محمد كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٢، د.ت.

٢٦٥- --------، غوطة دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٤م.

٢٦٦- محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

٢٦٧- محمد محمد شراب، معجم بلدان فلسطين، دمشق، دار المأمون التراث، ط١، ١٩٨٧م.

٢٦٨- محمد محمد عبد القادر الخطيب، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ـ مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١م.

٢٦٩- محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، دار الشروق، القاهرة، ط١٠، ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠م.

٢٧٠- محمد يوسف الشريف، الأمن النفسي، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط٢، ١٤١٤هـ.

٢٧١- محمود الحاج قاسم محمد، الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، الدار السعودية، ١٤٠٧هـ.

٢٧٢- محمود علي خليل عطاء الله، نيابة غزة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٢٧٣- مصطفى السباعي، اشتراكية الإسلام، دار مطابع الشعب، د.م، ١٩٦٢م.

٢٧٤- مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٧٥- مصطفى محمود سبيتي، المماليك وآثارهم الدينية في لبنان، دار المواسم، بيروت .

٢٧٦- ممدوح عزمي، كتاب دعوى النفقة، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

٢٧٧- نيقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦م.

٢٧٨- ---------، رواد الشرق في العصور الوسطى، هدية المقتطف، لبنان، ط١، ١٤٦١هـ/ ١٩٤٣م.

٢٧٩- هالة نواف يوسف الرفاعي، السجون في مصر في العصر المملوكي، جامعة اليرموك، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٨٠- وليم موير، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين، سليم حسن، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٨١- يحيى محمود ساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

٢٨٢- يوسف خنشت، طرائف الأمس غرائب اليوم، دار الرائد العربي اللبناني، لبنان، ١٩٨٢م.

٢٨٣- يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر العربي، عمان، ط٢، ١٩٨٢م.

٢٨٤- ---------، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٨٥- --------- تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، الأردن، عمان، ١٩٨٢م.

المراجع الأجنبية:

286- frescobaldi: gncci and sigoli, Vist to the holy placeces of egyepy Sinai pa'estine and syrai.

287- Poloner,(J.), Description of the Holy Land 1421 ,trans by Aburey Stewart , in P.P.T.S , Vol 6 ,London , 1894.

288- poggbomsi: franiccolo, Avoyage beyond the seas 1346 1350 A.D

289- ziadeh:nacola, Urban life in syria under the early mamlukscreen wood press.

الرسائل العلمية :

٢٩٠- ابتسام عبد القادر اليماني، الربط والزوايا والخانقاوات عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٢٩١- تسنيم محمد جمال استيتية، حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٧م.

٢٩٢- حسن أحمد خصاونه، طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير جامعة اليرموك، ١٩٩٢م.

٢٩٣- حسن علي كركولي، مصارف الزكاة في الإسلام، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٩٤- حمود بن محمد النجيدي، الموارد المالية لمصر في عهد الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٢٩٥- ريما بنت صالح القرناس، رعاية الفئات المحتاجة في مكة والمدينة خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)،رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الدمام، الدمام، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

٢٩٦- سميرة عبد اللطيف علي ذياب، صورة من المجتمع الشامي في الدولة المملوكية نثرًا، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، ٢٠٠٧م.

٢٩٧- ضمنا بنت عبد الواحد بن سعيد الزهراني، الرعاية الاجتماعية في بيت المقدس في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

٢٩٨- عبد الرؤوف جبر القططي، السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

٢٩٩- عبد الجبار أحمد محمد العملة ، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري (٧١٢-٧٤٠هـ/ ١٣١٢-١٣٣٩/ ١٣٤٠م)، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠.

٣٠٠- عدنان هاشم صلاح، التكافل الاجتماعي في الإسلام، رسالة دكتوراة، كلية الشريعة والقانون، ١٤٠٠هـ.

٣٠١- عز العرب فؤاد حافظ، تمايز الاقتصاد الإسلامي عن الفكر المعاصر في توزيع الثروة، رسالة ماجستير،جامعة الأزهر، كلية الشريعة والقانون، القاهرة، ١٩٨٩م.

٣٠٢- فريال بدوي يوسف الزربا، الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان،١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٣٠٣- فايز إبراهيم الزاملي، الأوقاف في فلسطين في عهد المماليك، رسالة ماجستير،

الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، غزة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣٠٤- ليلى أمين عبد المجيد، النظم المالية والإدارية في بلاد الشام عصر دولة المماليك، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جدة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٠٥- محمد حمزة صلاح، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣٠٦- منتصر محمود صنيتان شطناوي، التربية والتعليم في بلاد الشام، رسالة دكتوراة، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م

٣٠٧- منصور إحميد سالم الصوفي، الأوضاع الدينية للمسلمين في الشام (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥٥٨م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣٠٨- نافذ محمد عبد ربه الشوارمه، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام وأثرها في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليل، غزة، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٣٠٩- نسيم رزيق جمعة أبو شلوف، الأوضاع الاجتماعية في بلاد الشام في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٣١٠- نهى محمد حسين مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م.

٣١١- هيام صالح أبو الفرج، مجتمع دمشق ودوره السياسي في عصر الدولة المملوكية الثانية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٣١٢- وليد إبراهيم محمد الغرباوي، الرعاية الاجتماعية في السنة النبوية، رسالة دكتوراة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

الأبحاث والمقالات العلمية:

٣١٣- أحمد شورة، معوقات العمل داخل المؤسسات الاجتماعية وكيفية التغلب عليها، مهارات التعامل مع المقيمين داخل المؤسسات الاجتماعية الإيوائية، ورقة عمل مقدمة إلى وزارة الشؤون الاجتماعية بالمملكة العربية السعودية، مكة المكرمة، ١٤٣١هـ.

٣١٤- أسامة بن حسين مشاط، الخدمات التطوعية (مفاهيمها ومشروعيتها)، بحث منشور، مقدم للمؤتمر العلمي الأول للخدمات التطوعية بالمملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٣١٥- إسماعيل بيومي، المواريث الحشرية في عصر سلاطين المماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، مج٢، ع٤٥، ٢٠٠٩م.

٣١٦- جمال علي الدهشان، تكافؤ الفرص التعليمية، المفهوم ومظاهر التطبيق في عصور الازدهار الإسلامي، مجلة العلوم النفسية والتربوية، كلية التربية، جامعة المنوفية، س٩، ع٣، ١٩٩٣م.

٣١٧- تركي بن عبد الله بن حمود السكران، دور الوقف في رعاية المعوقين، بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث للأوقاف بالمملكة العربية السعودية، الجامعة الإسلامية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص١٤٤.

٣١٨- حياة ناصر حجي، بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثالثة والعشرون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣١٩- ---------، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع والخامس عشر الميلاديين، الكويت، ١٩٨٠م

٣٢٠- سحر عبد الله محمد، الجواري في العصر المملوكي، الجامعة المستنصرية، كلية التدريب، قسم التاريخ، مجلة الأستاذ، مج١، (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).

٣٢١- سعيد عبد الفتاح عاشور، مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، بحث ضمن (بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته)، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

٣٢٢- سعيد مسفر الوادعي، الأمن الفكري الإسلامي، مجلة الأمن والحياة، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، العدد (١٨٧)، ١٤١٨هـ.

٣٢٣- سميحة أبو الفضل، المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود، بحث في المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام منذ بدايات العصر السلجوقي حتى نهاية العصر المملوكي، القرن الخامس إلى القرن السابع، جامعة دمشق، الجامعة الأردنية، تشرين، نوفمبر، ٢٠٠١م.

٣٢٤- شوقي أحمد دنيا، أثر الوقف في إنجاز التنمية الشاملة، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة ، الرياض، س١٦، ١٤١٥هـ.

٣٢٥- صالح محمود وهبي، التطور الزراعي الصناعي في غوطة دمشق وأثره في الحياة الاقتصادية بين القرنين العاشر والثامن عشر، مجلة دراسات تاريخية، ع ١١٧- ١١٨، كانون الثاني- حزيران ٢٠١٢م.

٣٢٦- عاطف محمد أبو هربيد، مسؤولية الدولة نحو أموال الأيتام، الجامعة الإسلامية، كلية الشريعة والقانون، غزة، ورقة عمل مقدمة لمؤتمر حق الأرملة ، ٢٠٠٧م.

٣٢٧- عبد العزيز الدوري، مدخل تاريخي، بحث من ندوة "التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات"، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٩٨٩م.

٣٢٨- عبد القادر الريحاوي، خانات مدينة دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، مج٢٥، ١٩٧٥م.

٣٢٩- عبد الله بن ناصر السدحان، دور الوقف في بناء الحياة الاجتماعية وتماسكها،

بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية الاجتماعية الذي تنظمه جامعة أم القرى بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ .

٣٣٠- -----------، رعاية الأيتام في الحضارة الإسلامية، بحث نشر في الملتقى الأول لرعاية الأيتام الذي تنظمه الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان)، الرياض، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٣٣١- عبد الملك أحمد السيد، الدور الاجتماعي للوقف، بحث مقدم لندوة (إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف) تحرير: حسن الأمين، البنك الإسلامي للتنمية، جدة، ١٤١٥هـ.

٣٣٢- علي السيد علي محمود، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، مجلة الدرعية س٢ -ع ٦، ٧ ربيع الآخر -رجب١٤٢٠هـ أغسطس - نوفمبر ١٩٩٩م.

٣٣٣- علي السيد محمود، وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاجتماعي للقدس في العصر المملوكي، مجلة التربية، الدوحة، س٢٨، ع١٢٩ (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

٣٣٤- عمار مرضي علاوي، حمص في العصر المملوكي، الجامعة العراقية، كلية الآداب، قسم التاريخ، مجلة كلية الآداب، ع ٩٩.

٣٣٥- علي منصور نصر شهاب، الحياة العلمية في القدس في القرن الثامن الهجري في ضوء كتاب الدرر الكامنة لابن حجر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الرسالة(١٦٩)، الحولية (٢٢)، ٢٠٠٠-٢٠٠١م.

٣٣٦- فواز علي الدهاس، الوقف مكانته وأهميته الحضارية، ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية، مكة المكرمة، في ١٨-١٩ شوال ١٤٢٠هـ، برعاية وكالة شؤون الأوقاف في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

٣٣٧- فيصل عبدالله بني حمد، أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨هـ/١٢٥٠-٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، حولية ٢٨، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٣٨- ---------، العوامل المؤثرة في تذبذب أسعار المواد الغذائية في بلاد الشام خلال العصرين المملوكيين الأول (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨١م) والثاني (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨١-١٥١٧م)، المنارة، مج١٤، ع٢، ٢٠٠٨.

٣٣٩- كامل العسلي، حارة المغاربة في القدس وأهميتها التاريخية، مجلة أرض الإسراء، عمان، ع١٠٣، ١٩٨٧م.

٣٤٠- مبارك محمد الطراونة، الأوبئة الطواعين وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج٤، ع٣، ٢٠١٠م.

٣٤١- محمد سالم بن بكر باعمر، المرأة المقدسية في وثائق الحرم الشريف، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، مركز النشر العلمي.

٣٤٢- محمد معمر، المغاربة ومنصب قاضي القضاة المالكي في دمشق المملوكية، بحث منشور من قبل مجلة التراث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨م.

٣٤٣- محمد فوزي مصري رحيل، مُكَارية القاهرة في عصر سلاطين المماليك، آفاق الثقافة والتراث،السنة ٢٤، العدد ٩٤، رمضان ١٤٣٧هـ/ جون (حزيران- يونيو) ٢٠١٦م.

٣٤٤- محمود محمد الجبارات وآخرون، النشاط الصناعي والحرفي في الموانئ الشامية في خلال العصر المملوكي (٦٤٩هـ/١٢٥٠م-٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، حوليات عين شمس، م٣٨، (يوليو- سبتمر ٢٠١٠م).

٣٤٥- محمد محمد التهامي، الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية ، مجلة الدارة، س٦، ع١، ١٤٠٥هـ.

٣٤٦- محيي الدين طرابزوني، النظام المالي الإسلامي، بحث منشور ضمن النظم الإسلامية بأبو ظبي، نشر مكتب التربية العربي الأول لدول الخليج، ١٩٨٧م.

٣٤٧- مصطفى أحمد حسان، الرعاية الاجتماعية في الإسلام والخدمة الاجتماعية، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة، من ١٠-١٣ أغسطس ١٩٩١م.

٣٤٨- هند أبو الشعر، بحث واقع الأوقاف في نيابة دمشق في العهد المملوكي المتأخر(٨٠١-٩١٥هـ/ ١٣٩٨-١٥٠٩م)، كتب المذكرات واليوميات مصدراً، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ الشام : الأوقاف في بلاد الشام منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن العشرين،٧-٢١شعبان١٤٢٧هـ/١٠-١٤أيلول ٢٠٠٦م.

٣٤٩- يسري أحمد الزيدان، رعاية الأيتام في العصر المملوكي، مجلة اتحاد المؤرخين العرب، ع١٥، ٢٠٠٧م.